يخلصهم وقد رأوا سادتهم وقادتهم قد سبقوهم إليها ؟

وفى المقابل يعرض الحق سبحانه هذا الحوار بين المؤمنين فى الجنة : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) ﴾ [الصافات] أى : صاحب من أهل الكفر ﴿ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ[1] (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) ﴾ [الصافات]

يعنى : نظر من السور فإذا بقرينه فى سواء الجحيم ، يعنى : فى وسطها . فقال : ﴿ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) ﴾ [الصافات] تهلكنى معك ﴿ وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ[2] (٥٧) ﴾ [الصافات]

وقد يكون حواراً بلا خصام ، كما فى قوله تعالى :﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) ﴾ [الأحزاب]

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ (٣٢) وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (٣٣) ﴾

---

(١) أى : مجزيون بأعمالنا . يقال : دنته بما صنع أى جازيته . قاله ابن الجوزى فى زاد المسير فى تفسير سورة الصافات . وقال ابن كثير فى تفسيره : « قال مجاهد والسدى : لمحاسبون . وقال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظى : لمجزيون بأعمالنا . وكلاهما صحيح » .

(٢) أى : ولولا فضل الله علىّ لكنت مثلك فى سواء الجحيم مُحْضَر معك فى العذاب ، ولكنه تفضل علىَّ ورحمنى فهدانى للإيمان وأرشدنى إلى توحيده . [تفسير ابن كثير - سورة الصافات] .

الاستفهام في ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ (٣٢)﴾ [الزمر] يحمل معنى التعجب والإنكار يعني : لا أحدَ أظلمُ من هذا الذي يكذب على الله ، فلو كذب على غير الله لكان منكراً ، فما بالك وقد كذب على الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ويعلم حقائق الأشياء سِرَّها وعلانيتها .

إذن : فالكذب على الله خيبة ، وإنْ كنت ولا بُدَّ ستكذب فاكذب على إنسان مثلك هو أيضاً عُرْضة لأن يكذب .

لذلك جاء لفظ ﴿أَظْلَمُ﴾ على وزن أفعل التي تدل على المبالغة ، لأن أفظعَ الظلم وأعظمه أنْ تكذب على الله ، لكن مَنْ ظلم ؟ أظلم مَنْ يكذب عليه أم ظلم نفسه ؟ بل ظلم نفسه .

ولم يقف الأمر عند هذا بل ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ (٣٢)﴾ [الزمر] لأن التكذيب بالصدق ينقل القضايا إلى نقيضها ، والشيء الصدق هو الذي لا يُقال لقائله كذبت ، لأنه إخبارٌ بأحداث يُصدِّقها الواقع وسبق أنْ قلنا : إن النسبة الكلامية إذا وافقتْ نسبة الواقع كان الكلام صادقاً ، وإذا خالفت الواقع كان كاذباً .

ثم يستفهم الحق - سبحانه وتعالى - وهو أعلم : ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢)﴾ [الزمر] يعني : ما ظنّ هؤلاء الذين يكذبون على الله ويُكذبون بالصدق ، ألم يعلموا هذه الحقيقة وهي أن جهنم مثوى للكافرين المكذِّبين ، لو كانت هذه الحقيقة في بالهم ما اجترأوا على الله ، إنما هم كاذبون يقولون غير الواقع ولا يؤمنون به .

وبعد ذلك ينتقل إلى خصوصية الصادق ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ (٣٣)﴾ [الزمر] وهو محمد ﷺ الذي تلقّى عن ربه وبلّغ أمته ، وقد أكد الله تعالى صِدْق رسوله في مواضع كثيرة ، منها :﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ

عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[1] (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) ﴾ [الحاقة]

إذن : مسألة الكذب على الله مسألة لا يُحابى فيها أحد حتى الرسل ، لذلك جاء بلاغه ﷺ عن ربه دقيقاً ، فتراه لا يبلغ مضمون المقولات ، إنما يبلغ المقولات ذاتها ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص] فكان بإمكانه ﷺ أنْ يقول لقومه : الله أحد . وبذلك يكون قد بلَّغ المراد من الآية إنما قال كما جاءه من ربه ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص] فذكر الأمر بأنْ يقول (قل) .

والعجيب أنْ يطلُع علينا مَنْ يقول بحذف مثل هذه الكلمة بحجة أنها لا تضيف جديداً للمعنى ، ونقول : هذا ليس كلامَ بشر ، بل هو كلام الله وقرآنه ، وقد حفظه الله بنفسه وبلَّغه رسوله كما تلقَّاه عن ربه .

أرأيتَ لو أرسلتَ ابنك ليُبلِّغ عنك قضية مثلاً وقلتَ له : اذهب إلى فلان وقُلْ له كذا وكذا ، وبإمكان الولد أنْ يبلغ مضمون القضية ، لكنه حين يقول : أبى قال لى قُلْ لفلان كذا وكذا ، فهذا يعنى أنه يؤكد الكلام ويهتمّ بالرسالة كما تلقاها ، إذن : لو حُذفَتْ كلمة (قُلْ) فقد حُذفَتْ كلمة من القرآن ، لا كلمة زائدة عليه .

وقوله :﴿ وَصَدَّقَ بِهِ (٣٣) ﴾ [الزمر] أى : صدَّق بالصدق الذى جاء به ، صدَّق هو أولاً ولم ينتظر منا أنْ نُصدِّق نحن أو نشهد بذلك ، لقد أخذ الرسول عن ربه أنه إله واحد ولا شريكَ له فشهد بذلك أولاً

---

(١) الوتين : عرق فى القلب إذا انقطع مات صاحبه . قال ابن سيده : الوتين عرق لاصق بالصلب من باطنه أجمع يسقى العروق كلها الدم ويسقى اللحم وهو نهر الجسد . [لسان العرب - مادة : وتن] .

وصدَّق ، كذلك الحق سبحانه لم ينتظر شهادةَ العباد بوحدانيته إنما شهد بها لنفسه أولاً ، فقال سبحانه :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران]

وبعد أنْ شهد اللهُ لنفسه بالوحدانية وجب على الرسول أيضاً أنْ يشهد بأن محمداً رسولُ الله ، إذن : جاء بالصدق وصدَّق هو به وقال هو عن نفسه : أشهد أن محمداً رسول الله . كذلك شهد الملائكة بهذه الوحدانية ، وشهد بها أولو العلم شهادةَ الحجة والدليل والبرهان .

وقالوا[1] : ﴿ وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزمر] هو رسول الله ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزمر] أى : الذين صدَّقوا رسول الله فى أول بلاغ له عن ربه ، سواء أكان أبا بكر رضى الله عنه أم السيدة خديجة رضى الله عنها ، وقد اختلفوا فى هذه المسألة : أهو أبو بكر أم خديجة ؟ وليس فى المسألة خلاف . فإذا قيل : أول مَنْ آمن من الرجال نقول أبو بكر . ومن النساء : خديجة .

والواقع أن السيدة خديجة آمنتْ برسول الله وصدَّقته فى أول الأمر ، وربما قبل أنْ يبلغ أبا بكر الخبر ، وتعلمون موقفها من رسول الله حين جاءه الوحى ، وأنها ذهبتْ به إلى ابن عمها ورقة بن

---

(١) اختلف المفسرون فى الذى جاء بالصدق والذى صدَّق به على أقوال :
- الذى جاء بالصدق : النبى . وصدَّق به : أبو بكر . قاله على بن أبى طالب .
- النبى . وعلى . قاله مجاهد .
- الذى جاء بالصدق : جبريل . وصدق به : محمد . قاله السدى .
- الذى جاء بالصدق : النبى . وصدق به : المؤمنون . قاله ابن زيد ومقاتل وقتادة .
راجع الأقوال كلها فى تفسير القرطبى (٨/٥٩٠١) .

نوفل [1] ، فقال : إنه نبيُّ هذه الأمة ، ولكى يؤكد لها هذه القضية قال : وإنْ يدركنى يومك لأنصرنَّك نصراً مؤزّراً ، ليتنى أكون حياً يوم يُخرجك قومك ، قال : أو مخرجى هم ؟ قال : ما جاء أحد بمثل ما جئتَ به إلا أُوذِى ولتُخرَجُنَّ [2] .

أما الصِّديق أبو بكر فلما أخبروه أن صاحبك يزعم أنه رسول قال : إنْ كان قال فقد صدق ، [3] إذن : كيف صدَّق أبو بكر وهو لم يَرَ من رسول الله معجزةً تدل على رسالته ؟

قالوا : ليست المعجزة (عياقة) لا يؤمن الناس إلا بها ، إنما المعجزة جُعلَتْ لمن يكابر فى التصديق ؛ لذلك جاءت معجزةُ القرآن تحدياً للكافرِين والمعاندين المكذِّبين ، أما مَنْ آمن برسول الله أولاً فلا يحتاج إلى معجزة ، وأىُّ معجزة جعلتْ أبا بكر يؤمن ويُصدِّق برسول الله بهذه السرعة ؟

قالوا : لأنه لم يُجرِّب على رسول الله كذباً أبداً قبل ذلك ، فإذا كان صادقاً فى أموره مع الناس أيكذب على الله ؟ إذن : أخذ أبو بكر المعجزة من تاريخه مع رسول الله ، وكذلك السيدة خديجة بدليل أنها

---

(١) هو : ورقة بن نوفل بن أسد ، من قريش ، حكيم جاهلى ، اعتزل الأوثان قبل الإسلام وامتنع من أكل ذبائحها وتنصَّر ، وكان يكتب اللغة العربية بالحرف العبرانى . ابن عم خديجة أم المؤمنين . توفى عام ١٢ ق هـ .

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/١٣٩ ، ١٤٠) من حديث محمد بن النعمان بن البشير . وأورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٥٦) وفيه أن ورقة قال : « والذى نفسى بيده ، إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذبنه ولتؤذينه ولتُخرجنه ولتقاتلنه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه » .

(٣) ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١٢) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير .

هى التى شجَّعتــه وآزرته وقالت : والله لا يُخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتَقْرى الضــيف ، وتحمل الكَلَّ ، وتعــين على نوائبْ الدهر [١] فمعجزة محمد لمَنْ آمن به أولاً تاريخه وسيرته بينهم .

وأنتــم تعلمــون حديث رسول الله ﷺ عن خــزيمة [٢] الذى يقول فيه : « مَنْ شهد له خــزيمة فحَسْبه » [٣] ونصاب الشهادة معروف ، فكيف جعل رســول الله خــزيمة نِـصاباً وحــده فى الشــهادة ؟ وبم استحق هذه المنزلة ؟

قالوا : لأنه فــاز بجدارة فى قضيــة التصديق برسول الله حــينما اقــترض رســول الله مــبلغــاً من المال من يهــودى ، ثم أدَّاه إليــه فى موعده ، لــكن جاء اليهودى يدَّعى أنه لم يأخــذ دَيْنه من رسول الله ، وذهب إلى رسول الله أمــام الناس يقول : يا مــحمد أو يــا أبا القاسم أعْطنى دَيْنى ، فقال رسول الله : لقد أعطيتُك ، فقال : ومَنْ يشهد على ذلك ؟ فقام خزيمة وقال : يا رسول الله أشهد أنك أعطيته دَيْنه .

ولأن اليهودى كان كــاذباً فى ادعــائه صــدَّق بشــهادة خزيمة وقال

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) وستة مواضع أخرى من صحيحه ، وأخرجه أيضاً مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

ومعنى « تحمل الكلّ » أى : تعين المثقل ومنه الإنفــاق على الضعيف واليتيم والعيال . و« تكسب المعدوم » أى : تستفيد المــال المعدوم وقد كان النبى ﷺ محظوظاً فى تجارته . « تقرى الضيف » أى : تطعمه طعام الأضياف . و « نوائب الحق » : حادثات الأيام . انظر: شرح النووى على مسلم (٢/٥٦١) ، وفتح البارى للعسقلانى (١/٢٤) .

(٢) هو : خزيمــة بن ثابت بن الفاكــه بن ثعلبة الأنصارى ، أبو عــمارة ، صحــابى من أشراف الأوس فى الجاهليــة والإسلام ، عاش إلى خــلافة على بن أبى طالب ، وشهــد معه صــفين فقتل فيها عام ٣٧ هـ . [الأعلام للزركلى] .

(٣) أخرجــه الحاكم فى مستــدركه (٢/١٨) ، والطبرانى فى مــعجمه الكبــير (٤/١٠١) ، من حديث خزيمة بن ثابت . قال الهيثمى فى المجمع (٩/٣٢٠) : « رجاله كلهم ثقات » .

فى نفسه : لعله كان حاضراً ولم أرَه ، لأن اليهودى أخذ دَيْنه من رسول الله ولم يكُنْ أحدٌ موجوداً معهما ، عندها خنس اليهودى وانصرف ، فاستدعى رسول الله خزيمة ، وقال له : يا خزيمة لم يكُنْ معى أحد حين أعطيتُه حقه ، فكيف شهدتَ أنك رأيتنى أعطيه ؟

فضحك خزيمة وقال : يا رسول الله أأصدقك فى خبر السماء وأكذبك فى عدة دراهم ؟ فأعجب رسول الله باستنتاج خزيمة ، ورآه اجتهاداً جميلاً ، فقال فيه : « مَنْ شَهِدَ له خُزيمةُ فحسْبُه » .

والمسألة ليست على دراهم اليهودى ، إنما لها واقعٌ آخر ، حينما أرادوا أن يجمعوا القرآن تحرَّوْا فيه أقصى درجات الدقة ، فكان الجامع لا يكتب كلمة واحدة فى المصحف الجامع إلا إذا رآها مكتوبة ، وشهد عليها شاهدان ليتأكد من صدقها فى الصدور وفى السطور ، حتى وقف أمام آية كُتبت وشهد عليها شاهد واحد فتوقف ، فلما رأى أن هذا الشاهد هو خزيمة تذكَّر قول رسول الله فيه : « مَنْ شهِد له خزيمة فحَسْبه » فكتبها .

ومن مواقف التصديق ما كان من الصِّدِّيق أبى بكر لما أخبروه خبر الإسراء والمعراج . وقالوا له : إن صاحبك يدَّعِى أنه أتى بيت المقدس وعُرِج به إلى السماء فى ليلة واحدة ، لم يبحث المسألة ولم يناقشها إنما صَدَّق بدايةً وقال : إنْ كان قال فقد صدق . فميزان الصدق عنده مجرد أنْ يقول رسول الله .

وقوله :﴿ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) ﴾ [الزمر] أى : الذين أخذوها من قصيرها كما يقولون ، وجعلوا بينهم وبين صفات الجلال من الله وقاية .

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قوله : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الزمر] أى : متوفر لهم كلّ ما يشاءون ، لكن عند مَنْ ؟ ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الزمر] حين تكون لا عندية إلا لله وحده ، هذه العندية هى معنى قوله تعالى : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

فالعندية تكون للناس فى الدنيا ، فهذا موظف عند هذا ، وهذا خادم عند هذا ، أما فى الآخرة فالعندية لله وحده ، وفى هذه العندية ينال المؤمن ما اشتهاه فى الدنيا ولم يحصل عليه فى الآخرة يقول الله ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الزمر] ولم يقُلْ لهم ما يشاءون ، بل ما يشاءون عندى أنا . أى : بلا أسباب ، لأن الأسباب كانت فى الدنيا ، وما تريده بالأسباب قد لا يتحقق لك ، وإنْ كان فى يدك لأن الله يزاول سلطانه بواسطة خلفائه فى الأرض ، فيجعل هذا سبباً فى رزق هذا ، وهذا يعين هذا ، والأسباب قد تتخلف أما فى الآخرة فلا أسبابَ ، بل هو عطاء الله المباشر بلا سبب .

وفى سيرة أكابر الرسل أحداثٌ توضح لنا هذه العندية لله تعالى ، فسيدنا إبراهيم – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – أول ما دعا عمه آزر ، وجادله فى مسألة الأصنام ، فلما رآه مُصِراً على عناده

قال له : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ .. (٤٧) ﴾ [مريم]

كلمة السلام هنا ليست سلام الأمن والطمأنينة ، ولا سلامَ التحية ، إنما سلام الموادعة لأنهما مختلفان فى الرأى ، ولن يثمر الجدل مع العناد والمكابرة ، فطول الجدال لن يُزيد المسألة إلا تعقيداً وعداوة ، ومن الأفضل فى مثل هذا الموقف أن ينسحب منه صاحب الحقِّ حتى لا تشتعل نارُ الخلافات أكثر من ذلك ، كما تقول لصاحبك فى مثل هذا الموقف : يا عم سلام عليكم لتنهى الموقف ، فالسلام عليكم هنا تعنى أننى لو لم أترك هذا المكان لن يحدث سلام . وقد يكون سلامٌ من البشر لا يقدرون على أدائه .

لذلك ، فإن السلام الحق من الله ، كما فى قوله تعالى : ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ [يس]

الشاهد هنا أن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - شاء أن يستغفر لعمه ، فلم يُجَبْ إلى ذلك ، شاء فى الدنيا لكن الله لم يشأ ، كذلك سيدنا رسول الله ﷺ شاء أنْ يستغفر لعمه أبى طالب بعد أنْ دعاه فلم يستجب ، وأصرَّ على دين آبائه ، فلما استغفر له رسولُ الله أنزل الله عليه :﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ .. (١١٣) ﴾ [التوبة]

فقد شاء محمد ﷺ أن يستغفر لعمه ، لكن لم يُعْط ذلك ، لأن هذه المشيئة منه فى الدنيا ليستْ عند الله ، أما مشيئته عند الله فى الآخرة فمستجابة متحققة ، هذا معنى ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ .. (٣٤) ﴾ [الزمر]

فإنْ كانت للمؤمن مشيئات لا تتحقق فى الدنيا فهى مُدخَّرة له فى الآخرة عند ربه ، هذه المشيئات التى لا تتحقق يسترها شىء

واحد أن أكرم المشيئة أنْ تشاء من الله أنْ ينصر دينه ، وقد تحققت هذه المشيئة .

إذن : فالمشيئة التى لا تتحقق هى التى تعود على نفسك ، أما المشيئة التى تطابق الإيمان بمنهج الله فهى لا بُدَّ متحققة كما تحققت مثلاً فى بدر .

فالحق - سبحانه وتعالى - يريد منا حين نكون مؤمنين به ومُصدِّقين لرسوله ألاَّ تكون لنا مشيئة فى غير ديننا ؛ لأن المشيئة فى غير الدين يمكن أن تكون فى أيدى الناس فلا يحققوها لك ، وربما مات المؤمن قبل أنْ يرى مشيئته بنصر دين الله فيدخر له ذلك فى الآخرة .

إذن : المهم عنده أن تكونَ المشيئة خاصة بنصر دين الله على مَنْ يكذبه ويخالفه ، وهذه المشيئة متحققة بدليل : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) ﴾ [الزمر] صحيح هناك عمل ، وهناك فضل ، وتشريع الجزاء على العمل من الفضل ؛ لأن ربنا حينما يثيبنى على شىء يعود علىَّ بالنفع يُعد هذا الجزاء زيادة ، والأصل أن يقول لى : لقد أخذتَ جزاءك منفعةً بالعمل الذى عملته ؛ لأن خالقك أعطاك كل الأسباب ، أعطاك الجوارح التى تعمل بها ، وأعطاك الأرض والمال والهواء والماء والطعام ، فإنْ أثابك على العمل كان من فضله .

والمحسن درجةٌ أعلى من المؤمن ، فالمؤمن يأخذ ما فرضه الله عليه ويُنفِّذه دون زيادة ، أما المحسن فهو الذى يؤدى ما فرض الله

عليه ويزيد عليه من جنس ما فرض الله ، فمثلاً يصلى الصلوات الخمس ثم يزيد عليها ما شاء من النوافل من صلاة الليل ، كما قال سبحانه فى المحسنين :

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

ولم يقل هنا (حق معلوم) لأن الحق المعلوم هو الزكاة ، أما فى هذا المقام فالعبد يُزكِّى ماله ، ثم يزيد على ذلك ما شاء من التطوع والصدقات ، وهذه الزيادات ما طلبها منك ربك ، إنما تؤديها محبةً وتقرباً إليه سبحانه .

إذن : كلمة الإحسان عند الله فيها نفس معنى الإحسان للناس . تقول : أحسنت إلى فلان حين تعطيه أكثر من حقه . وحين يجازى اللهُ المحسنَ إنما يعطيه جزاءَ إحسانه ، فإذا كان العبد يحسن فالله أَوْلَى وأكرم .

والحق سبحانه أعطانا المثَل الحسِّى للإحسان فى الأرض ، وما تُخرجه من ثمراتها فأنت تضع فيها حبة القمح مثلاً ، فتعطيك فى المقابل سبعمائة حبة ، فإذا كان هذا هو عطاء الأرض المخلوقة لله تعالى ، فما بالك بعطاء الخالق سبحانه ؟ فالمعنى : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ (٣٤) ﴾ [الزمر] لماذا ؟ لأنهم كانوا محسنين ، وهذا جزاء الإحسان .

وقوله : ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا (٣٥) ﴾ [الزمر] هذا أيضاً

---

(١) الهجوع : النوم ليلاً . وقد يكون الهجوع بغير نوم . والتهجاع : النومة الخفيفة . [لسان العرب - مادة : هجع] . والسَّحَر : آخر الليل قبيل الصبح والجمع أسحار . وقيل : هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر . [اللسان - مادة : سحر] .

من العطاء الخاص بدرجة الإحسان ، فكلمة أسوأ تدلّ على المبالغة وأقل منها السيئة ، فعندنا سيئة وأسوأ منها ، ولا شكَّ أن السيئة تنصرف إلى الصغائر ، والأسوأ تنصرف إلى الكبائر ، فكأن الذى دخل فى مقام الإحسان ضمن أن مقام الإحسان يكون له مثل مقاصَّة تُسقط عنه ذنوبه ، ليست الصغائر فحسب إنما الكبائر أيضاً ؛ لأن الذى يُكفّر الأسوأ يُكفِّر السيئة من باب أَوْلَى ، هذا لأنك أدخلتَ نفسك فى مقام لم يُطلب منك لمجرد المحبة لمن كلفك .

بل هناك عطاء أعظم من ذلك ، هو أن المسألة لا تنتهى عند تكفير الذنوب والسيئات ، إنما تُبدَّل إلى حسنات ، كما قال سبحانه : ﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ .. (٧٠) ﴾ [الفرقان]

فتأمّل درجات العطاء من الله ، والربح فى التجارة معه سبحانه .

وبنفس الإكرام والتفضل يجازى اللهُ المحسنين على حسناتهم ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) ﴾ [الزمر] فكما غفر لهم الأسوأ يجازيهم أحسن الذى كانوا يعملون ، أىْ : بأحسن من عملهم .

هذا العطاء من الله ، وهذا التكرم والتفضل منه على عباده شجَّع الشارد من دعوة الإيمان وحَثَّه على العودة إلى حظيرة الإيمان ، فليس هناك ما يحول بينه وبين ربه ، وليس فى الطريق حجر عَثْرة مهما كَثُرت الذنوب ما دام بابُ التوبة مفتوحاً .

والحق سبحانه حينما شَرَع التوبة للعاصين المذنبين شرعها لينقذهم من شراسة المعصية ، فلو قلنا للعاصى : ليس لك توبة ماذا يفعل (يفقد) كما نقول : فلان ده فاقد . يعنى : يئس من الإصلاح فتمادى فى الفساد وبالغ فى الضلال ، والحق سبحانه لا يريد لعباده

ذلك ، ففتح لهم بابَ التوبة ليعطفهم إلى دين الله ، فلا يزداد الانحرافُ في المجتمع ، ولا تستشرى فيه المعصيةُ .

بعد أن أخبر رسول الله القومَ بهذا المهنج الإلهى فى الجزاء قال المعاندون لرسول الله : نخاف عليك يا محمد أنْ تمسَّك آلهتنا بسوء وقد أغضبتها ، سبحان الله يقولون هذا وهم يعلمون أنها حجارة لا تضر ولا تنفع ، ولما مسَّهم الضر ما وجدوا غير الله يلجئون إليه ؛ ولذلك نزل قوله تعالى :

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

يعنى : يا محمد ، لا تهتم بهذا الهراء فالله حَسْبك وكافيك ، والذى يدل على ذلك أن رسول الله كان يحرسه القوم من المؤمنين مخافة أن يناله المشركون بسوء ، ففوجئوا فى يوم أن رسول الله يسرحهم ويُنهى هذه الحراسة ويصرفها .

ولو لم يكُنْ رسول الله واثقاً أن الذى أمره بصرف الحراس كفيلٌ بحفظه وحمايته لما فعل ذلك فى نفسه ؛ لذلك رأينا المرأة الدنماركية وهى تقرأ فى سيرته ﷺ ، أنه أعظم العظماء الذين تركوا بصمة واضحة فى التاريخ ، وقلبوا ميزان الدنيا ، فلما جاءت عند هذه الحادثة وقرأت ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزمر] وقرأت : ﴿ وَٱللَّهُ

يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة] قالت : والله ما فعل محمد ذلك إلا وهو واثقٌ من حماية ربه له ، ولو خدع الناسَ جميعاً ما خدع نفسه ، وآمنتْ بسبب هذه المسألة .

قوله سبحانه : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزمر] يحلو للبعض أن يقول المعنى : أليس الله كافياً عبده ، ويعتبرون الباء زائدة ، وهذا غير صحيح ، فليس فى كلام الله تعالى حرف زائد ، فالهمزة هنا استفهام إنكارى ، والإنكار يفيد النفى ، بعدها ليس للنفى ونفى النفى إثبات .

يعنى : ننكر أن الله ليس بكاف عبده ، وما دُمْنا ننكر أن الله ليس بكافٍ عبده ، فالنتيجة أن الله تعالىً كافٍ عبده .

والحق سبحانه وتعالى : له اسم هو الله ، وله صفات هى التى عرفناها بالأسماء الحسنى ، ومن أسمائه الحسنى الكافى ، فالمعنى إذن : أليس الله موصوفاً بكاف عبده ، فكيف إذن نقول : إن الباء زائدة ؟

إن القول بزيادة الباء هنا يناقضُ بلاغةَ القرآن ، ولا يصح أن نقول : إن فى القرآن حرفاً زائداً ، البعض يتأدّبون مع كلام الله ويقولون : بل هو حرف صلة ، وآخرون يقولون : حرف لربط الوجود ، ولسنا فى حاجة إلى كل هذه التأويلات .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة ، فلو قلنا مثلاً : ما عندى مال ، (ما) هنا تنفى وجود المال الذى يُعتد به ، ولا تمنع أنْ يكون معى جنيه أو جنيهان مثلاً ، لكن لو قلتَ : ما عندى من مال أى : من بداية ما يُقال له مال ولا حتى مليم واحد إذن : حرف الجر هنا ليس زائداً فى الكلام ، إنما تأسيسى فى .لمعنى .

أما الذين قالوا بزيادة الباء فى ﴿ بِكَافٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزمر] فقد اعتبروا (ليس) من أخوات كان التى ترفع الاسم وتنصب الخبر ، فلفظ الجلالة اسمها مرفوع وكافٍ خبرها ، فالتقدير : أليس الله كافياً عبده ، وهذا ينافى جلال القرآن وبلاغته .

وقوله : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزمر] أى : بالأصنام ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : دعهم يقولون ما يقولون فقد أضلهم الله فمَنْ يهديهم ؟ ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزمر] هذا هو المقابل إذا هدانا الله الطريق ، فلن يُضلنا أحد ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : أليس اللهُ موصوفاً بالعزّة ، فالباء هنا كسابقتها .

والعزيز هو الذى يغلب ولا يُغلب ، وما دام هو سبحانه غالباً لا يغلب فاحذروا انتقامه لأنه ﴿ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزمر] فمهما صنعتم بالفكر الفاسد والتبييت والائتمار فلن تغلبوه .

وعجيبٌ من الكفار أنْ يُخوِّفوا رسول الله بالأصنام ، وهم يعلمون حقيقتها وقولهم فيها : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر] كلام باطل لغة ، لأن العبادة طاعة العابد للمعبود فى أمره ونهيه ، وأى أمر أو نَهْى للأصنام ؟ إذن : هذا الكلام منهم هراء وباطل . لذلك سيدنا خالد بن الوليد لما ألانَ اللهُ قلبه للإسلام أراد رسول الله ﷺ أنْ يبعثه ليهدم العُزَّى ، فلما ذهب إليها خالد وأمسك بفأسه ليكسرها قال لها[1] :

يا عُزّى كُفْرانَك لاَ سُبْحانَك ... إنِّى رأيْتُ اللهَ قَدْ أهَانَكْ

---

(١) أورده المرزوقى فى كتابه « الأزمنة والأمكنة » - الباب الستون . وكذلك ابن الكلبى فى كتاب « الأصنام » ، والجاحظ فى كتاب « الحيوان » فى فصل نار الاحتيال .

ولو كانتْ هذه آلهةٌ لخوَّفته ومنعتْ نفسها .

وقف بعضُ المستشرقين عند هذه الآية ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ (٣٦) ﴾ [الزمر] أى : بالأصنام ، وقالوا الأصنام : اللات والعُزَّى ومناة كلها أسماء مؤنثة ، فكيف يقول القرآن (بالذين) وهى للمذكر ولم يَقُلْ باللاتى ؟ ونقول : هناك فَرْقٌ بين اسم للصنم ومُسمَّاه ، يعنى : اسمه صنم . وهذا الصنم سُمِّيَ باللاَّت أو العُزَّى ، فمن حيث هو صنم يكون الجمع مذكراً ، ومن حيث المسمَّى مؤنثاً ، فالذين للاسم أى : للأصنام ، واللاتى للمسمَّى .

ونقف هنا عند هذه المقابلة فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتِقَامٍ (٣٧) ﴾ [الزمر] الضَّالُّ هو الذى لا يهتدى لغايته ، كالذى ضَلَّ الطريق لا يدرى أين يتجه ، هذا ضَالٌّ عن غير قصد للضلال لأنه لا يعرف .

وجاءت ضَالّ بمعنى متردد حائر ، فى قوله تعالى مُخاطباً نبيه محمداً ﷺ : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ (٧) ﴾ [الضحى] لأن النبى رأى أمته تفعل أشياء لا تعجبه ، وهو ما يزال لا يعرف الصواب الذى ينبغى فعْله ، أى : لا يعرف الحقيقة ، لا أنه يعرف ومنصرف عنها ، وفَرْقٌ بين الحالتين . إذن : الضلال هنا غير مقصود .

ويأتى الضلال بمعنى النسيان ، كما فى قوله تعالى :﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

ومن الضلال أنْ ننسى العهد الفطرى القديم الذى أخذه الله علينا فى قوله سبحانه :﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

ومقابل الضلال الهداية ، وهى أيضاً تأتى بمعَان متعددة ، لكن الذين يتوركون على كلام الله ، ويريدون أنْ يعترضوا عليه يأخذونها على معنى واحد ، يديرونه على كل موضوعاتها ، لكن هذا لا يصح .

فالهداية تُطلَق على الدلالة المطلقة ، يعنى : يدلك وأنت حُرٌّ تطيعه أو تعرض عنه . وضربنا مثلاً لذلك برجل المرور الذى يُرشدك ويدلّك على الطريق ، بعدها أنت حر تسلك أو لا تسلك ، فإنْ سلكتَ الطريق الذى دلّك عليه وشكرته على معروفه ، وقلت له : كثر الله خيرك لولاك لَضللتُ الطريق ، فإنه ينظر إليك نظرة أخرى ، ويراك أهلاً للمزيد من الخير . فيقول لك : والله أنت رجل طيب ، وسوف أسير معك حتى تمرّ من هذه المنطقة لأنْ فيها أخطاراً ، وهذه تُسمَّى المعونة ، فالذى يؤمن بمَنْ هدى ودلَّ أهلٌ لأنْ يُعان ، وأنْ يُوفق للمزيد من الهداية .

وهذا معنى قول الله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ** (١٧) ﴾ [محمد] يعنى : زادهم بمعونتهم وتخفيف مشاقّ الطاعة عليهم ، وصَرْف أسباب الشر عنهم . إذن : فالأُولَى : هداية دلالة مطلقة . والثانية : هداية إعانة وتوفيق .

وهاتان الهدايتان أوضحهما الحق سبحانه فى خطابه لنبيه ﷺ ، فقال فى الأولى : ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** (٥٢) ﴾ [الشورى] وقال فى الأخرى : ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** (٥٦) ﴾ [القصص] فكيف يثبت الهدايةَ لرسول الله فى آية وينفيها فى آية أخرى ، والحديث واحد ، والفاعل واحد ؟

قالوا : لأن الجهة مُنفكة فالهداية المنفية غير الهداية المثبتة ، فالحق يقول لنبيه محمد : أنت مُبلِّغ ومُرشد ودَالٌّ فحسب ، لستَ

واضعَ مناهجَ وليست لك قدرة على أنْ ترغم الناس أنْ يؤمنوا ، إنما عليك أن تبلغ لأن بلاغك هو هداية الله للناس ، لكن ليستْ مهمتك أن تُدخِل الإيمانَ فى القلوب .

ومثلها قوله تعالى فى آية واحدة : ﴿ .. وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ⑥ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ⑦ ﴾ [الروم]

هكذا أثبت لهم العلم ونفاه عنهم فى نفس الآية ، لماذا ؟ لأن الجهة مُنفكَّة ، فالعلم المنفىّ غير العلم المثبت .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ㊱ ﴾ [الزمر] يضلل الله يعنى : ينسبه للضلال يقول : هذا ضال . يعني : خارج عن الطريق الذى رسمته له ، هذا الذى حكم الله بأنه ضَالٌّ لا يمكن أنْ يصفه صاحب عقل بأنه مُهْتد . لأنه حين يعرض مطلوب الله منه وما يفعله يصل بالعقل الفطرى إلّى أنه ضال ، ليس بمهتد .

فالحق سبحانه مثلاً قال لنا : اصدقوا فى حديثكم . ونهانا عن الكذب ، فماذا يقول العاقل حين يقارن بين الصدق والكذب ؟ لابد أنْ يقول : الصدق هداية ، والكذب ضلال لا يستطيع أنْ يقول غير ذلك ، خاصة إذا جعل الأمر فى نفسه هو : أتحب أنْ يصدُقَ الناسُ معك ، أم أنْ يكذبوا عليك ؟

إذن : فمَنْ يُضلل الله ويحكم بأنه ضَالٌّ بعد أنْ بيَّن له الطريق لا يقدر أحد أنْ يصفه بالهدى ، لأن هداية الله أمرٌ تتفق فيه كل العقول الفطرية ، خصوصاً إذا مسَّك أنت عاقبة هذا الضلال واكتويتَ بناره .

لذلك تجد الكذاب يحب الصادق ، والشرير يحب الخيِّر الشريف وضربنا مثلاً لذلك بثلاثة من الشباب بالمراهقين الذين يسيرون فى الحياة على (حَلِّ شعرهم) ، ويسلكون الطريق البطال ، واحد منهم تاب الله عليه واعتزلهم ، فراحوا يسخرون منه ويصفونه بالجردل

والقفل .. الخ . ثم أراد واحد منهما أنْ يزوج أخته ، لمن يُزوجها لزميله الذي يوافقه على الشر والفساد ، أم للآخر الذي تاب واعتزل شرهم ؟ إذن : قد يُغريك الباطل ، لكن لا بُدَّ في النهاية أنْ يغلب الحق ، وأنْ يظهر ويعلو ، ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ (٣٧) ﴾ [الزمر] فاصبر على طريقه .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) ﴾

أراد الحق سبحانه أنْ يُسفِّه أحلامهم في أنْ يعبدوا أصناماً ، وأراد سبحانه أنْ يقيم عليهم الدليل والحجة على بطلان هذه العبادة ، وأنْ يكون هذا الدليلُ إقراراً منهم لا خبراً منه سبحانه ، وقلنا : إن إثبات الحكم إما أن يكون خبراً منك ، أو إقراراً من المقابل . والإقرار - كما قلنا - سيد الأدلة ، وأنت لا تترك للمخاطب أنْ يحكم هو إلا إذا كنت واثقاً أنه سيقول ما تريده أنت ، كما تقول لمن ينكر جميلك : ألم أُحْسن إليك يوم كذا وكذا ؟ لا تقولها إلا وأنت واثقٌ أنه لا يستطيع أنْ ينكر .

لذلك فالحق سبحانه يسألهم هنا عن عمدة الكون في الخَلْق أو الظرف الأعلى الذي يحوي المخلوقات كلها وهو السموات والأرض ، فالإنسان خُلق له الكون قبل أنْ يُخلق ، فطرأ على أرض فيها زرع ونبات وماء وهواء وتربة صالحة ، وطرأ على سماء فيها الكواكب والنجوم والشمس والقمر .

فقال سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ.. (٣٨) ﴾ [الزمر] لا بدّ أنْ يقولوا الله ، والله وحده لأنهم أداروا فكرهم فلم يجدوا أحداً ادعى هذا الخَلْق ، ولم يأت ببال أحد من الكافرين أو المعاندين أو المنكرين لوجود الله لم يأت على باله أنْ يدّعى هذا الادعاء .

ولو تتبعنا خَلْق الإنسان من لَدُنْ آدم عليه السلام ومَنْ جاء من ذريته نجده طرأ على هذا الكون بسمائه وأرضه ، فلو سألناه : أأنت خلقت السماء والأرض ؟ لا يستطيع أنْ يقول : أنا خلقتهما .

فاسألهم أنت يا محمد هذا السؤال : ﴿ مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ (٣٨) ﴾ [الزمر] ولابدّ أنْ يقولوا (الله) لأنه ما مرّت فترة على موجود ليس فى وجوده أرض وسماء ، حتى يُقال إنه أوجدها لما جاء ، بل الجميع طارىء على هذا الكون .

ومثلها تماماً : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٨٧) ﴾ [الزخرف] لأن أول مخلوق خُلِق وأُوجد لا يستطيع أحد أنْ يقول له : أنا خلقتك ، ولا يقدر هو أنْ يقول خلقتُ نفسى .

وقولهم فى الجواب هنا (الله) يلفتنا إلى مسألة أخرى ، فالله لفظ دائر على ألسنتهم ويفهمون مدلوله وإلا ما نطقوا به ، ذلك لأن المعانى تُوجَد أولاً ، ثم تُوضع لها الألفاظ التى تدلّ عليها ، ومثَّلْنا لذلك (بالتليفزيون) مثلاً ، فقبل أنْ يوجد ما كنّا نعرف هذا الاسم ، لكن لما وُجِد وضعنا له الاسم ، إذن : كلمة الله كيف دخلتْ لغة الناس ؟

إذن : فلفظ الجلالة الله له مدلوله ، وهو الحق سبحانه موجود قبل أنْ يُوجد هذا اللفظ . لذلك نقول لمن ينكر وجودَ الله تعالى : كلامك متناقض ، فقولْك الله غير موجود لا يستقيم ، لأن الله مبتدأ

محكومٌ عليه وغير موجود خبر محكوم به ، فكيف تقول إنه غير موجود ، والمعنى يُوجد قبل لفظه ؟

وكلمة الله ما وُجِدَتْ فى لغة إلا لأنه سبحانه موجود ، موجود قبل الاسم ونحن ما عرفنا الاسم إلا لما أخبرنا به صاحبه ؛ لأن عمل العقل فى الإيمان أنْ يدلَّك على أن وراء هذا الكون خالقاً أوجده ، لكن ما هذه القوة ؟ وماذا تريد من الخَلْق ؟ هذه ليستْ مهمة العقل ، فالعقل لا يصل إليها ، إنما نعرفها بالبلاغ عن هذا الخالق .

تذكرون أننا مثَّلنا هذه المسألة قلنا : نحن مثلاً جالسون فى منزل ثم دقَّ جرس الباب ، ساعة سمعنا الجرس اتفقنا جميعاً على أن أحداً بالباب ، لأن كل حدث لا بُدَّ أنّ له محدثاً ، لكن مَنْ هو ؟ ماذا يريد ؟ لا نعرف إلا إذا أخبرنا هو بماهيته وقال : أنا فلان ، وأريد كذا وكذا .

إذن : فالعقل بالنسبة للوجود الأعلى لا يدرك مُشخَّصات الوجود الأعلى ، إنما فقط يؤمن بوجوده ويستدل عليه ، وهو سبحانه يخبرنا باسمه وصفاته ومنهجه ومطلوباته ، فالبلاغ لا بُدَّ أنْ يكون من صاحب الشأن .

ومن خيبة الفلاسفة فى البحث أنهم أرادوا أنْ يُدخلوا العقل لا فى المعقول فقط ، إنما فى تصور المعقول ، والتصور ليس مهمتهم لأنك لا تستطيع أنْ تتصوَّر شكلَ هذا المعقول ، أنت تعقل الموجود فقط ثم تترك للوجود أنْ يتكلم عن نفسه .

لذلك (نقفشهم) حينما يقولون فى العلوم : علوم مادية وعلوم وراء المادة ، وهى التى يسمونها (الميتافيزيقا) ، ومَنْ أعلمك أن وراء المادة شيئاً يُبحث عنه ؟ والقضية أنه لا يوجد شىء إلا بشىء إلى أن

نعرف هذا الشيء ، فإن لم يستدرك عليه شيء آخر يثبت له .

فالحق سبحانه قال وأخبر أنه هو الذى خلق هذا الخَلْق ، فهذا الوجود لا يوجد إلا إذا أوجده واجد وأنا الذى أوجدته ، ولم يَقُم لهذه الدَّعْوى معارض إذن : تثبت الدعوى لصاحبها إلى أنْ يُوجدَ معارض .

لذلك سبق أنْ قلنا : إن كلمة الكفر هى نفسها دليلُ الإيمان ، لأن الكفر معناه الستر ، ولا يستر إلا موجود ، فكأن الكفر طارىء على الإيمان ، كأن الأصل فى الفطرة السليمة الإيمان ، ثم طرأ عليه الكفر ليستره .

وبعد أنْ قالوا (الله) وأقروا الحجة الأولى فى أنه سبحانه خالق السموات والأرض قال لهم ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ من دُون اللَّه.. (٣٨) ﴾ [الزمر] يعنى : أخبرونى فأمَّنهم أنْ يقولوا هم وأنْ يخبروا عن الذين يدعونهم من دون الله أى الأصنام ﴿ إنْ أَرَادَنِى اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ.. (٣٨) ﴾ [الزمر] أى : الأصنام ﴿ كَاشِفَاتُ ضُرِّه.. (٣٨) ﴾ [الزمر] الجواب لا يكون إلا بالنفى ، لأن الأصنام أولاً لا تسمع ضراعة مَنْ يتضرع لها ، ولا يدركون مطلوبه ، فكيف يجيبونه فى كشف الضر عنه ؟

وفى المقابل : ﴿ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ.. (٣٨) ﴾ [الزمر] أى : الأصنام ﴿ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِه (٣٨) ﴾ [الزمر] الجواب أيضاً بالنفى ، إذن : ثبت النفع لله بإقرارهم ، وثبت البطلان لآلهتهم ، لكن إنْ تلجلجوا بعد ذلك فلم يجيبوك لأن الجواب سيلزمهم الحجة فَقُلْ : ﴿ حَسْبِىَ اللَّهُ.. (٣٨) ﴾ [الزمر] أى : فى إيجاد النافع فى خَلْق السموات والأرض ، وحَسْبى الله فى دفع الضر عنى ، فهو يكفينى .

وهذا معنى قوله تعالى فى الآية السابقة : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ (٣٦) ﴾ [الزمر] كافيه يعنى : يعطيه النعمة نعمة الوجود أولاً ، ثم نعمة امتداد هذا الوجود واستبقاء الحياة ، ثم نعمة استبقاء النوع ، وبعد

ذلك يرفع عنه الضر إنْ أصابه ونزل به ، والإنسان إذا مسَّه الضر فى نفسه لا يتجه إلى إله باطل أبداً ، لأنه لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها ، لذلك قال سبحانه :﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ (٦٧)﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨)﴾ [الزمر] هنا أسلوب قَصْر ، يقصر التوكل على الله وحده ، وهذا هو التوكل الحقيقى ؛ لأن المتوكل على شىء يجعل لقوته رصيداً إذا ذهبتْ هذه القوة ، لذلك فالعاقل هو الذى يتوكل على مَنْ يغيثه ويُعينه وإذا احتاج إليه وجده ، وقلنا : خاب مَنْ توكل على مثله لأنك تتوكل عليه ، وتأمل عنده قضاء حاجاتك ، وبعد أيام تقرأ نَعْيه فى الجرائد ، لذلك يُعلمنا ربنا سبحانه كيف نتوكل ، فيقول : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ (٥٨)﴾ [الفرقان]

وفرْق بين التوكل والتواكل ؛ لأن يد الله مُدَّتْ قديماً بالأسباب للخَلْق ، أسباب استبقاء الحياة بالطعام والشراب ، وأسباب استبقاء النوع بالتزاوج .

الحق سبحانه حينما ضمن لنا هذه الأسباب جعل لنا دوراً فيها ، فالأرض مثلاً أمامك ، والشمس تشرق عليها ، والهواء يهبُّ عليها ، والمطر يسقيها ، وعليك أنت أنْ تستغلَّ هذه الأسباب بأنْ تحرثَ الأرضَ وتبذر البذور وترعاها لتعطيك الأرض من خيراتها ، ولا تنتظر أنْ تجلس فى بيتك والأسباب تأتيك بالطعام تضعه على مائدتك ؛ لأن ربك خلقك وخلق لك الجوارح ، وجعلها تنفعل لإرادتك فيدُكَ يمكن أن تضرب بها ، ويمكن أن تمسح بها على رأس يتيم ، لسانك يمكن أنْ تنطق به كلمة التوحيد ، ويمكن أنْ تنطق به ما ينافيها .

لكن تذكَّر أن جوارحك خاضعة لمرادك فى الدنيا فقط ، أما فى الآخرة فلا ولاية لك عليها ، لأنها ستكون فى ولاية خالقها ، يوم

يقول سبحانه : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ (١٦) ﴾ [غافر] وعندها تتحرر جوارحك من ولايتك وتشهد عليك : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور]

هذه الأسباب وهذه الجوارح التى خلقها الله لك ما خلقها لتعطلها أنت ، فإنْ كان العمل فى إمكانك وطلبته من غيرك ، فهذا هو التواكل ، أنْ تهمل أسباب الله وتغفل عن هذه المملكة التى جعلها الله تدين لك وتطاوعك ، وتأتمر بأمرك لمجرد الإرادة ، هذه عزة متَّعكَ الله بها فى ذاتك ، فكيف تذلّ نفسك بالتوكل على مثلك ؟ وكيف ترد يد الله الممدودة إليك ؟

فإنْ أخذتَ بالأسباب ، وأعملتَ عقلك وجوارحك فيما أعطاه اللهُ لك فأنت متوكل ، وحقيقة التوكل أنْ تعمل بالجوارح وتتوكل على الله بالقلب ، وتوقَّع أنْ يصيبك الابتلاء فتعمل وتأخذ بالأسباب ولا تعطيك، كالذى يزرع الأرض وتأتى جائحة فتقضى على المحصول مثلاً .

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠) ﴾

هنا تأمل هذا النداء : ﴿ يَٰقَوْمِ (٣٩) ﴾ [الزمر] فبعد عنادهم وإصرارهم على باطلهم وعدم قبولهم للحجج والبراهين ما يزال الحق سبحانه يتحنَّن إليهم ، فيأمر رسوله ﷺ أنْ يناديهم بهذا النداء الحبيب : (يا قوم) يعنى : أنا لستُ غريباً عنكم ، وأنتم أهلى وعشيرتى التى أعيشُ بينها .

لما دعاهم رسول الله فلم يستجيبوا ولم تفلح معهم الحجج والبراهين التى تثبت بطلان عبادتهم للأصنام ، أمره ربه أنْ يقول

لهم : ﴿ يَـٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [الزمر] معنى : اعملوا على مكانتكم كما تقول لمن لم يستجب لك : اعمل ما بدا لك . أو (أعلى ما فى خيلك اركبه) .

فالمعنى : اعملوا على مكانتكم . يعنى : خذوا كلَّ إمكانياتكم ضدى . لماذا ؟ لأنه متوكل على ربِّه وهو كافيه ، فهو لا يقولها مجازفةً ولا استكباراً ، إنما يقولها برصيد من قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزمر]

وكلمة ﴿ مَكَانَتِكُمْ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الزمر] عندنا مكان ومكانة ، المكان هو : الحيز الذى يشغله الشىء . والمكين هو : الذى يشغل المكان ، فالكوب مثلاً مكان والماء فيه مكين ، فأنت ذاتك لك مكان تشغله حتى لو اضطهدك أحدٌ فأخرجك منه لا بُدَّ أنْ يذهب بك إلى مكان آخر .

فإذا اتسع بك هذا المكان وصارتْ لك سلطة على مكان أوسع منه لك فيه سلطان وأمر ونهى فهذه مكانة ، فيقال لمن اتَّسع جاهه وسلطانه : له مكانة . فالتاء الزائدة هنا يسمونها تاء المبالغة . كما نقول فى المبالغة فى العلم عالم وعلاَّم وعلاَّمة . فكلمة علاَّمة هى قمة العلم وتُقال لمن بلغ فى مجاله مبلغاً بحيث لا يخفى عليه منه شىء .

فإنْ قلتَ : فلماذا وصف الحق نفسه سبحانه بعلاَّم ، ولم يُوصَف بعلامة ؟ نقول : لأن علم الله تعالى لا تفاوتَ فيه ، ليس فيه جزئى وكلى ، فلا يُوصف الحق سبحانه بهذه الصفة .

ومن المكانة قوله تعالى فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴿٥٦﴾ ﴾ [يوسف] أى : لم نجعل له مكاناً ، إنما جعلنا له مكانة وسلطاناً واسعاً ينقله هنا وهناك حيث يشاء ، والإنسان يكون له مكان فتأتى قوة تُمكِّنه فى

المكان ، كما في قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، وقد يكون له المكان فتأتى قوة فتُزيله عنه كما أخذنى ورمانى فى زنزانة.

سبق أنْ قلنا : إن في اللغة همزة تسمى همزة الإزالة ، إذا دخلتْ على فعل تزيله ، كما تقول : أعجم الكلام ، يعنى : أزال عُجْمته وأبان معناه ، ومن ذلك قول رسول الله فى مناجاته لربه : « لك العُتْبى حتى ترضى »(١) يعني : إن كان حصل منى شيء يغضبك فأنا أُزيل عتابك عليَّ حتى أبلغ رضاك عنى . ونقول : عتب فلانٌ على فلان فأعتبه يعنى : أزال عتابه بأنْ يعتذر له أو يصالحه ، لأن العتب لوْم على شيء ما كان يصح بين المحبين ؛ ومن ذلك قوله تعالى فى الكلمة التى معنا (المكانة) : ﴿ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) ﴾ [الأنفال]

فمعنى (أمكن منهم) يعنى : أزال مكانهم ، ونقول فلان تمكن من فلان . يعنى : قدر عليه وأزاله عن مكانه أو مكانته .

إذن : فكلمة المكانة هى ما لك عليه سلطانٌ وولاية تُعينك على مرادك ، فالمكان إذا بالغتَ فيه فهو مكانة والتاء للمبالغة ، وتأتى أيضاً للجاه ينبسط على ما لا يدخل فى ملْكك تصرفاً ، وإنما يدخل فى ملكك مهابة ؛ لذلك لما قُتل مالك(٢) قالوا : مالك كان يحمى مواقع السحاب . يعنى : أينما تمرّ السَّحابة وتمطر فمطرها يحميه مالك ، بحيث لا يعتدى عليه أحد ، وما كان هذا إلا لمكانته فى القوم فحمى مواقع السحاب فى غير بلاده .

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية فى كلامه عن رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف لدعوة أهلها ، فتسافهوا عليه وأدموا قدميه ، فلما أوى إلى أحد البساتين رفع يديه وقال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إلى آخر الدعاء .

(٢) ورد هذا الخبر فى العقد الفريد لابن عبد ربه ، وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادى ، ونهاية الأرب للنويرى . وعندهم جميعاً أنه كليب بن ربيعة .

وقوله : ﴿ إِنِّي عَامِلٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : أنتم اعملوا على مكانتكم واستطاعتكم فى العناد والاضطهاد والإيذاء ، فأنا عامل على مكانتى من الدعوة والنُّصْح لكم والحرص على هدايتكم ، فهذه رسالتى ولن أتخلّى عنها ، وسوف أبالغ فى نَشْرها وأتحمل اضطهادكم لى ولأصحابى ، ولن يُثنينى شىء عن مرادى .

وقوله : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الزمر] المعلوم هنا : ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الزمر] أى فى الدنيا ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الزمر] أى : فى الآخرة ، وتأمل هنا كلمة سوف التى تدل على الاستقبال ، فلم يَقُلْ حالاً الآن ، لأن الإسلام بدأ غريباً وانتشر أول ما انتشر بين الضعفاء والعبيد الذين اضطهدوا وماتوا وأُوذُوا وأُخْرجوا من ديارهم وأموالهم فى سبيل دعوة الحق .

فأراد الحق سبحانه أن يُمحِّصَ أهل الإيمان الذين يحملون هذه الدعوة ، وأنْ يُميز منهم ضعافَ العقيدة ، وينفى عنهم أهل الخور والنفاق الذين لا يصلحون لحمل هذه الرسالة ، لذلك كان الوحى كل فترة ينزل على رسول الله بأمر عزيز ، وكلما نزل أمر من هذه الأمور نفى بعضهم حتى لم يَبْقَ حول رسول الله إلا صِحَاح الإيمان أقوياء العقيدة .

وفى هذه الآية تهديدٌ من رسول الله للقوم المكذِّبين بأحداث سوف تأتى ، هذا التهديد دليلٌ على ثقته ﷺ بأن مَنْ أوحى إليه بهذا التهديد قادرٌ على أنْ يُبرزه كما أخبر به ، وإلا لما قاله رسول الله ، لأن الزمن سيكشف صدق هذا التهديد أو عدم صدقه .

كذلك الأمر فى الوعد يخبر به رسول الله قبل أوانه ، واقرأ هذا الوعد مثلاً : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] هذا وَعْد من

الله للمــؤمنين جـاء فى أشـــد وأحلك الظروف وهم مـضـطهـدون لا يستطيعون حمايةَ أنفــسهم ، لذلك لما نزلتْ هذه الآية قال عمر رضى الله عنه : أيّ جمع هذا ونحن غـير قادرين على حماية أنفـسنا ؟ فلما رآها فى بدر قال : صدق ربى وصــدق رسوله ، وهذا الوعد لا يطعن فى الدعوة إنما يريد أنْ يؤكدها . إذن : صِدْق فى الوعد ، وصدق فى الوعيد .

وقلنا : إن صدق الرســول فى أمور تتعلق بأمتـه شىء ، وصدقه فيمـا يتعلق بذاته شىء آخر ، صدقـه فيما يتعلـق بذاته آكد ، وذكرنا قصــة المرأة التى أسلمتْ حينمــا قرأتْ تفســير قوله تعــالى لرسوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة] فلما أعطاه ربه الأمان وأنه لن يُغـتال من جـانب الناس صرف ﷺ حُـراسه ولم يُبْق عليـهم مع هذا الوعد [١] ، فوقفتْ هذه المرأة وقفـةً عقلية وقالت : لو أنه خدع الناس جميعاً ما خدع نفسه ، إذن : هذه ثقة من رسول الله بوعد الله .

وقوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الزمر] ولم يقل ترون أو تنظرون ؛ لأن العلم أوسع وأعمّ من الـنظر ، فالأحـداث التى ستـأتى ربما تكون بعيدة من مَرْآهم تَحدث فى أماكن أخرى يراها البعض ولا يراها البعض ، أما العلم فينقل إليك مـا تقع عليه جوارحك ، وما تقع عليه جوارح الآخرين .

---

(١) أخرج الطبرى فى تفسيره للآية ٦٧ مـن سورة المائدة من حديث عائشة رضى الله عنها : كان النبى ﷺ يُـحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المـائدة] . قـالت : فأخـرج النبى ﷺ رأســه من القـبـة ، فقـال : « أيهـا الناس انصرفوا ، فإن الله قد عصمنى » . [حديث رقم ٩٦٦١] .

إذن : بالعلم تأخذ علم الغير ، أنت حينما ترى وتعقل تهتدى إلى الحكم بتصوّر العقل ، وبالعلم تستفيد بما عقله الآخرون . إذن : فالعلم أوسع دائرةً من معطيات العقل والجوارح .

وقوله : ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٤٠ ﴾ [الزمر] كلمة مقيم جاءت لترد على كلام سبق أنْ قالوه هم ، لأن الحروب عندهم كانت تستمر طويلاً حتى أربعين سنة ، وتكون بينهم سجالاً يوم لك ويوم عليك ، فربما ظنوا العذاب كذلك فترة وتنتهى ، فأراد أنْ يؤكد لهم أن العذاب إذا حَلَّ بهم فليس فيه سجال كسجال الحرب ، إنما هو مقيم دائم .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٤١ ﴾

نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى مرة يتحدث عن ذاته سبحانه بضمير الجمع (إنَّا) ومرة بالمفرد (إنى) أو (إننى) ، فإنْ كان الكلام فى قضية التوحيد جاء بالضمير المفرد كما فى قوله سبحانه لسيدنا موسى : ﴿ إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ ۝١٤ ﴾ [طه] لأنه يريد أنْ يقرر قضية التوحيد ، ويؤكد سبحانه أنه إله واحد لا شريك له . فإنْ كان الكلام عن أمر لله فيه عمل و لخلفائه فى الأرض عمل يأتى بالجمع كما هنا ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ ۝٤١ ﴾ [الزمر]

وتأملوا حرف الجر فى (عليك) وفى (للناس) فلحروف الجر فى اللغة معَان واسعة ، كلمة (عليك) تدلُّ على أننى أحملك المسئولية أمَّا اللاَّم فى (للناس) فتدلّ على النفع لهم ، كما نقول

فى الحسابات: له ، عليه ، فله تعطى نَفْعاً وعليه تعطى تبعات .

فكأن الحق سبحانه يقول : يا قوم يا مَنْ تسمعون لدعوة محمد اعلموا أنها لصالحكم وتعود عليكم بالنفع والغنيمة ، فقد أنزلنا عليه حملاً ثقيلاً سيتعبه فى ذاته وفى أهله ، وسيُعرِّضه للسخرية والإيذاء والتآمر .. الخ .

فالكتاب نزل عليك يا محمد بتبعاته ومسئولياته ، فتحمله وكُنْ من أولى العزم من الرسل الذين سبقوك ، مع أنهم أخذوا حيِّزاً محدوداً فى الزمان وفى المكان ، أما أنت فأخذتَ حيِّزاً غير محدود ، لا فى الزمان ولا فى المكان ، فحين تتحمّل المشاق فى سبيل دعوتك ، فاعلم أنك ستتحمل من الشدائد على قدر عموم رسالتك .

إذن : فدعوة الإسلام خيرها لكم ومتاعبها يتحملها رسول الله ، هذا معنى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ ﴿٤١﴾﴾ [الزمر] أى : فى صالحهم .

وحين نُوسع الحروف ونقف على معانيها نأخذ مثلاً قوله تعالى فى أول سورة البقرة : ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴿٥﴾﴾ [البقرة]

فالمؤمنون على الهدى ، و (على) تفيد الاستعلاء وكأنه مطيّة تحملهم وتريحهم لا تتعبهم وتُوصِّلهم إلى غايتهم ، هكذا جاء الهدى ليريح الناس ويحملهم إلى أشرف الغايات ، فالزموه لأنه ما جاء ليُحملكم ما لا تطيقون ، إنما جاء ليخدمكم .

وقوله سبحانه : ﴿بِالْحَقِّ ﴿٤١﴾﴾ [الزمر] الحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، والحق يعنى وضع الشىء فى موضعه ، فإذا زحزحتهُ عن موضعه فأنا الطارىء عليه ، والحق لا بُدَّ أنْ يعود إلى

موضعه مرة أخرى ، وإنما هى ابتلاءات واختبارات لنُمحِّص جنود الحق لتكون عندهم الأهلية لأنْ يحملوا الدعوة إلى أنْ تقوم الساعة .

والحق سبحانه يعلمنا : إنْ رأيتَ الباطل علا وارتفع فخُذْ لك واقعة ، وخُذْ لك عبرةً من الأشياء المحسَّة التى تقع تحت بصرك فى أصل الحياة وهو الماء ، فالماء ينزل من السماء على قممِ الجبال فيأخذ معه إلى الوديان القش والحصى والزبد ، فتتكون طبقة من الريم تعلو الماء وهى حقيرة لا قيمةَ لها حتى إذا ما هبَّتْ الرياح أزاحتْ هذا الزبد هنا وهناك وبقيتْ صفحة الماء نظيفة ناصعة ، هكذا يكون علو الباطل عُلواً مؤقتاً ، وسرعان ما يعود الحق إلى نصابه .

والحق سبحانه ما سمح للباطل بأنْ يعلوَ إلا يظهر للناس ميزة الحق ، فحين يُعضّ النَاسُ بالباطل ، وحين يؤلمهم يضجون منه ويشتاقون للحق ، فكأن الباطل جندٌ من جنود الحق .

وقوله سبحانه : ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الزمر] أى : لصالحها ، لأن المشرع سبحانه حين شرع لنا وبعث لنا الرسل وأنزل الكتب ما انتفع من ذلك بشىء ، وهو سبحانه لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية ، لأنه بصفات الكمال المطلق أوجدك ، بل وأوجد لك قبل أنْ يستدعيك للوجود ، فبصفة الكمال فيه خلق ، فهو سبحانه خالق قبل أنْ يخلق شيئاً ، كما تقول : فلان شاعر ، يعنى : شاعر قبل أنْ تسمع منه شعراً ، لأنه ما قال الشعر إلا لأنه شاعر .

إذن : الحق سبحانه لا ينتفع من عبادة الناس بشىء ، والفائدة كلها تعود عليهم هم ، لأنهم صنعته ، والصانع يريد لصنعته أنْ تكون على ما يرام وعلى خير حالٍ من بدايتها إلى نهايتها إليه سبحانه .

وما دام الشرع والمنهج جاء لصالح البشر ، فمَن اهتدى فالهداية تعود إليه ، ومَنْ ضَلَّ فضلاله عليه ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا (٤١)﴾ [الزمر] وتأمل هنا أيضاً معنى حرف الجر فى ﴿فَلِنَفْسِهِ (٤١)﴾ [الزمر] وحرف الجر (عليها) ، فنَفْع الهداية لك ، وضرر المعصية عليك .

وقوله : ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١)﴾ [الزمر] أى : ما أنت يا محمد عليهم بوكيل ، والوكيل هو مَنْ يكون حُرَّ التصرف فيمن وكل عنهم ، بحيث يستطيع أنْ يجبرهم ، وأن يحملهم على ما يريد هو .

والحق سبحانه وتعالى ما أراد لنبيه ﷺ ذلك كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ (٤٥)﴾ [ق] إنما أراد له أنْ يكون داعياً بالحسنى ، بحيث يأتى إليه الناس بالحب طواعيةً ، ولو شاء لجعلهم كالملائكة وطبعهم على الطاعة .

لذلك الكون الذى رضى أنْ يأتمر بأمر الله بدون اختيار له فى شىء كان حكيماً واعياً ؛ لأن المتحمل قد يضمن نفسه ساعة التحمل ، لكن لا يضمن نفسه ساعة الأداء ، والفارق بين مسلك الناس فى الأمور أنهم يختلفون فى إدراك المسئولية ساعة التحمل وساعة الأداء ، وكل فساد بين الناس فى التعامل إنما منشؤه هذه المسألة .

وسبق أنْ مثّلنا لذلك بالأمانة أودعها عندك لحين عودتى مثلاً من السفر فتقبلها عندك ، وحين أعود لا أجدها ، فقد يطرأ عليك من الظروف ما يجعلك تتصرَّف فيها ، وهنا تظهر حكمة الجمادات التى أبتْ أنْ تتحمل الأمانة ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١) ﴾ [الزمر] فيه تسليةٌ لسيدنا رسول الله ﷺ فكأنّ ربه يقول له : لا تُتعب نفسك ، ولا تُحملها فوق طاقتها ، فما عليك إلا البلاغ ، فإنْ نالك شيء من أذاهم فاعلم أنه لا يُنقص من مكانتك عندهم ، فأنت عندهم الصادق الأمين ، وهم يعلمون أنك على الحق ، ومنزلتك عندهم كبيرة ، ورأيهم فيك من أحسن الآراء ، فلا تحزن لقولهم فيك : شاعر وساحر ومجنون : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

فكأنَّ الحق سبحانه جعل المسألة عنده سبحانه وأعفى منها رسول الله ، فأنت يا محمد لا غبارَ عليك ، وما كذبك المكذِّبون الظالمون إلا لأنهم جحدوا بآياتي .

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) ﴾

سبق أنْ قلنا : إن أحداً لم يشهد عملية الخَلْق لأن الخالق سبحانه لم يستعنْ بأحد كما قال سبحانه : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

إذن : كيفية الخَلْق لا يعرفها أحدٌ ، ولولا أن الخالق أخبرنا بها لَظلَّتْ غيباً ، فإنْ أردتَ أنْ تعرف كيفية الخَلْق فخُذْها من خبر مَنْ خلق ، وإن ادَّعَى أحد معرفتها من غير هذا الطريق ، فاعلم أنه من

المضلين الذيـن أخبَر الله عنهم ، وسـمَّاهم مضلين قـبل أن يُوجدوا ، وأيُّ ضلال أعظم من القول بأن الإنسان فى أصله قرد وتطوَّر ؟

فكأن الحق سبحانه يعطى لخَلْقه المناعة التى تحميهم من هجمات أهل الضلال ، فيخبرهـم بأمرهم أولاً ويُحذِّرهم منهم ، يعنى : تنبَّهوا فـسوف يخـرج عليكم أناس فى ثوب عـلماء أو فـلاسـفة يقـول خُلِق الإنسان كذا وكذا فلا تُصدِّقوهم لأنهم ما شهدوا عملية الخَلْق .

والحق سبـحانه وتعالى حـين يطرح قضيـة عقدية للعـقول فيـها عمل ، لكن قد تقف العقول فى أشياء مـنها يكمل ما تقف فيه العقول بالسـمـاع ، السمـاع مـمَّنْ ؟ مـمن اعتـقـدتَ به بعـقلك ، إذن : ليس بالضرورة أن يقـتنع عقلك بكل شىء إنمـا يترك لك مسـائلَ لا تقتنع بها إلا لأنها خبر ممَّنْ اقتنعت به .

لذلك قلنا فى أول سورة (يس) : إن المسائل كلها عقائد وأمور لسانيـة وأمور أحكام ، كل منها تأخذ الـعمل العقلى والعمل الغـيبى ، لكن العمل الغيبى دليله من العمل العقلى .

الحق سبـحانه وتعالى حـينما أخـبرنا عن قصـة الخلق قال : إن الإنسان خُلقَ من تراب اختلط بالماء فصار طيناً ، ثم صار هذا الطين حمأ مـسنوناً ، ثم صار الحمـأ المسنون صلصالاً كالفـخار ، ثم نفخ فيه الحق سبحانه من روحه فدبَّتْ فيه الحياة وتحرك .

هذه أطوار الخَلْق التى أخبرنا بها الخالق سبحانه ونحن لم نرها ، لكن أوجـد فى مُـحـسَّـاتنا وفى مُـدركـاتنا مـا يؤدى الصـدق بهـذه المراحل ، وعلينا نحن أنْ نأخذ مما نشـاهده دليلاً على صدق ما غاب عنَّا . كيف ؟

الخالق سبحانه كما خلق الحياة خلق الموت ، ولما أخبرنا بهما جعل الموت أولاً فقال : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴿٢﴾ ﴾ [الملك]

وقدَّم الموت حتى لا نستقبل الحياةَ ببطر وغرور ، إنما نستقبلها ونحن نعلم أننا صائرون إلى الموت ، منتهون إليه . ويجب أنْ نعلم أن الدنيا بالنسبة للإنسان ليست هى بطولها من لدن آدم حتى قيام الساعة ، إنما الدنيا بالنسبة لك هى مقدار مُكْثك فيها ، وحتى هذا العمر مظنون وليس مضموناً ، فمن الناس مَنْ يولد ويموت بعد لحظة ، وآخر بعد شهور ، وآخر بعد سنين .

لذلك قال أحد الصالحين : وعلمت أن لى أجلاً يبادرنى فبادرته ، وعلمتُ أنى لا أخلو من نظر الله طرفةَ عَين فاستحييت أنْ أعصيه ، وعلمتُ أن لى رزقاً لا يتجاوزنى وقد ضمنه الله لى فقنعتُ به ، فهكذا ينبغى أن يكون أسلوبك فى الحياة ، فأنت فيها ضيف لستَ أصيلاً .

لذلك قال أهل المعرفة : اجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك - الذى يُواليك بالنعم كل يوم - واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه طرفةَ عين ، واجعل خضوعك لمَنْ لا تخرج عن ملكه وسلطانه .. هذه أصول يجب أنْ نسير عليها ، ومبدأ نلتزم به . والموت كما قلنا نقيض الحياة ، فإذا لم نكُنْ قد شاهدنا مراحل الخَلْق فقد شاهدنا بالتأكيد مراحل الموت ، فخُذْ من هذا دليلاً على هذا .

تعلمون أن نقضَ أىِّ بناء يكون على عكس بنائه ، فلو أردنا مثلاً هدم عمارة من عشرة أدوار ، فإننا نبدأ بهدم الدور العاشر وننتهى بالدور الأول ، على عكس البناء ، كذلك الموت يبدأ بخروج الروح ، وهى آخر شىء فى عملية الخَلْق ، ثم يتصلب الجسد ، فيكون أشبهَ

بالصلصال ، ثم يـرمّ وتتغير رائـحته مثل الـحمأ المسـنون ثم يتحلل ويعود إلى الطين والتراب .

إذن : إنْ كانت عـملية الخَلْق غيـباً عنا كمـا قال سبـحانه : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ (٥١) ﴾ [الكهف] فعملية الموت شـاهدناها .

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا (٤٢) ﴾ [الزمر] الأنفس جمع النفس ، والنفس هى مجموع التـقاء مادة الجسد بالروح ، بحيث تنشأ منهما الأغيار الموجـودة فى الجوارح ، فالمادة وحدها لا تُسمَّى نفساً ، والروح وحدها لا تُسمَّى نفساً .

ومعنى ﴿ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ (٤٢) ﴾ [الزمر] أى : يقبضـها إليه سبحانه . وتوفِّى الأنـفس له ظاهرتـان : النوم والمـوت ، فـفى النوم يـسلب الإنسان الوعى والتميـيز ، وتبقى فيه الروح لإدارة حركة الحـياة فيه واستبقـائها ، فإذا استيقظ من نومـه عاد إليه وَعْيه وعقلـه وتمييزه ، أما فى الموت فـالله يتوفَّى الكل : الوعى ، والتمـييز ، والأصل ، وهو الروح والجسـد ، فالجسم فى النـوم لا يزاول شيئـاً حتى المخ الذى يجب أنْ يظل عاملاً لا يعمل فى النائم إلا كلّ سبع ثوان .

ولذلك لمـا تتوقف حـركة الجـسم تنخـفض فيـه درجة الحـرارة ويحـتـاج إلى تدفـئة ، لـذلك ننصح النائم بأنْ يتـغطى لأن الحـركـة مفقـودة ، وينبغى أن نحفظ للجسم حـرارته ، البعض يظن أن الغطاء هو الذى يُدفىء النائم ، لكن العكس هو الصحيـح فحرارة الجسم هى التى تُدفىء الغطاء ، وعمل الغطاء أنْ يحفظ لك حرارة الجسم حتى لا تتبدد ، بدليل أنك تذهب إلى فراشك فتجده بارداً ، وحين تستيقظ من نومك تجده دافئاً

وقلنا : إن الإنسان يمرُّ بحالات : يقظة ، نوم ، موت ، بعث . ولكل مرحلة من هذه المراحل قانونٌ خاص ، فإياك أنْ تخلط قانوناً بقانون ، فمثلاً الإنسان منا وهو نائم يفقد الوعي والتمييز ، ومع ذلك يصبح فيذكر رُؤْيا رآها فيها أشكال وأشخاص وألوان يستطيع التمييز بينها وكأنها يقظة ، فبأيِّ شيء أدرك هذه المدركات وميَّز بين الألوان وعينه مغمضة ؟

قالوا : لأن للنائم أدوات ووعياً غير التي له في اليقظة ، فيرى لكن ليس بالعين . إذن : في حالة الموت يكون له وعي آخر ، البعض يتعجب وربما ينكر أنْ يضم القبرُ الواحد جسدين أحدهما يُنعَّم والآخر يُعذَّب ، فلماذا لا تنكر مثل هذا في النوم مثلاً ، فأنت تنام مع غيرك في فراش واحد يرى هو أنه في رحلة ممتعة فيها مَا لَذَّ وطابَ ، وترى أنت أنك فيه تُضرب أو تمر بحادث مؤلم ، لا هو يدرى بك ولا أنت تدرى به .

وقوله : ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر] أي : لا تعود إلى الجسم ﴿ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر] أي : في حالة النوم يعود إليك الوعي والتمييز ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر] إلى الأجل المعلوم الذي قدَّره الله لك في اللوح المحفوظ .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر] ساعة تجد الذي يخبرك بشيء ينبه فيك أدوات التمييز بين المقولات التي هي العقل والفكر والذكر والتدبر ، فثِقْ بأنه ناصح لك لا يغشك ولا يُدلِّس عليك ، لأن الذي يريد غشَّك يأخذك على عجلة و (يكلفتك) ، حتى لا تدرى وجه الصواب ولا يعطيك الفرصة للبحث وتأمل الشيء .

وسبق أنْ مثَّلنا لذلك ببائع القماش إنْ كان صادقاً يعلم جودة

بضاعته ، فإنه يختيرها لك فيأخذ (فتلة) من الصوف مثلاً ويحرقها أمامك ، لترى بنفسك أنه صوف مائة بالمائة ، أما الآخر فيحاول أنْ يلف ويدور ويخدعك بحيله حتى لا تكتشف فساد بضاعته ، فالأول واثق من جودة البضاعة ، وأنك مهما فعلت بها فسوف تصل إلى مراده .

فساعة يقول الحق سبحانه (أفلا تعقلون) ، (أفلا تتذكرون) ، (أفلا تتفكرون) فاعلم أنه يهيج عندك أدوات البحث والتأمل والاختيار بين البدائل ، ولا يصنع ذلك معك إلا وهو واثق أنك لو استعملتَ هذ الأدوات فلن تصل إلا إلى مراده منك .

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا من دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الزمر] استفهام إنكارى . يعنى : ما كان يصح أنْ يتخذوا من دون الله شفعاء ، فالحق ينكر عليهم بعد أن استمعوا إلى كل هذه الحجج والبراهين ، ثم يتخذون من دون الله شفعاء ، ولماذا الشفعاء من دون الله ؟ قالوا : لأن الذى يعبد غير الله يُرجِّى نفسه بأنه مُتدين ، والتديّن طبيعة فى النفس البشرية من أخْذ الله عليها العهد فى ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ . . ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف]

لذلك جاء الرسل مُذكِّرين أى : يُذكِّرونا بهذا العهد الأول الذى غفلنا عنه واقرأ : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾ [الأعراف]

فالحق سبحانه وتعالى ينكر عليهم أنْ يتخذوا الشفعاء من دون الله ، ويدعوهم أن يرتجعوا عن هذا الأمر المؤسف ، لأن اتخاذ الشفعاء من دون الله أمر فيه تناقض لأنهم شفعاء عند مَنْ ؟ عند الله ، كما قالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ (٣)﴾ [الزمر] إذن : اتخذوا الشفعاء ليشفعوا لهم عند الله ، فلماذا لا يتجهون إلى الله مباشرة دون واسطة ؟

ثم إن الشفاعة لا تُقبل إلا بشروطها ، وليس كل مَنْ أحبَّ أن يشفع تُقبل شفاعته ، فالشفاعة ليستْ بمرادك ، بل يُشترط فى الشفاعة أنْ يأذن الله للشافع أنْ يشفع ، وأنْ يرضى عن المشفوع له ، وأنْ يكون من أهل التوحيد ، إذن : هذه الشفاعة التى يرجونها شفاعة باطلة و لا تُقبل عند الله .

لكن لماذا لا يتوجَّهون إلى الله بالعبادة دون واسطة ؟ قالوا : لأن للحق سبحانه وتعالى فى عبادته تكاليف قد تشقّ على النفس ، وللمنهج قيود افعل كذا ولا تفعل كذا ، وهم يريدون تديناً بلا تكاليف ، وآلهة بلا منهج وبلا أوامر ، صحيح أنهم يعبدون الأصنام على هواهم . لكن إنْ حزبهم أمر وضاقتْ عليهم السبل فى أنفسهم لجئوا إلى الله الإله الحق ، إذن : أُوبُوا إلى الله قبل ألاَّ ينفع المآب .

وكلمة الشفاعة منها الشفع والوتر ، الشفع أنْ تضم وتراً إلى

وتر ، فيصيران شفعاً . يعنى : زوجاً . وقلنا : إن المستشرقين وقفوا عند آيتين من كتاب الله فى مسألة الشفاعة ، وحاولوا أنْ يثيروا حولهما شبهة عدم بلاغة القرآن ، وهما قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)﴾ [البقرة]

والأخرى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣)﴾ [البقرة]

وقالوا : أى الآيتين أبلغ من الأخرى ؟ فإنْ كانت إحداهما بليغة فالأخرى إذن غير بليغة ، ثم ما الحكمة من التقديم والتأخير فى الآيتين ، والمعنى واحد ؟

وهذا كله من هؤلاء نتيجة عدم فَهْم اللغة ، وعدم وجود الملكة التى تتذوَّق وتفهم عن الله .

ونقول : أنتم أهملتم صدر الآية ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ (٤٨)﴾ [البقرة] فعندنا نفسان : نفس جازية أو شافعة ، ونفس مجزىٌّ عنها أو مشفوع لها ، فأيّهما الشافعة وأيهما المشفوع لها ، إنْ أردتَ النفس المشفوع لها فالمشفوع لها تقدم العدل أولاً فلا يُقبل منها فتستشفع بمَنْ يشفع لها .

وهذا قوله تعالى : ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ (١٢٣)﴾ [البقرة] فإنْ أردتَ النفس الشافعة ، فالشافع يتقدم بشفاعته أولاً ، فإنْ لم تُقبل شفاعته قدَّم العدل ، يقول : فلان هذا كم تطلب منه وأنا أدفع عنه . إذن : الآيتان بليغتان كلٌّ حَسْب المعنى المراد منها .

استُهلَّتْ هذه الآية ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ..(٤٣)﴾ [الزمر]

بـ (أَمْ) ، وهى تفـيد عطف ما بعـدها على ما قـبلها ، كـأننا قلنا : أكان ذلك أم اتخـذوا ؟ والكلام السابق هو قـوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا .. (٤٢) ﴾[الزمر] فإذا كنتم قـد وُدعْتم بقوة حـياتكم وقدرتكم على الحـركة والأسبـاب والتحوّل فـاعلمواَ أن الله يعطى لكم نموذجاً للموت ينتظركم من خلال النوم الذى تباشرونه .

هذا المـوت وأنتم فى يقظة شىء ، وحـين تنامـون شىء آخـر ، فالذى يقدر على سَلْب الحياة من التـميّز والوعى والحركة مع الخارج (أى مع الغير) قادر على أنْ يسلبهـا جميعاً ؛ لأن النوم يسلب منك الحركـة والتميز مـع الغير ، وإنْ بقيتْ لك الـحركة فى ذاتك كحـركة القلب والرئتين والأمعاء .. الخ فإذا كـان الله قد قدر على هذه الجزئية فيك ، فهو سبحانه يقدر على الأخرى وهى الموت .

فالـمعنى : أأمنتُم ذلك ؟ وإنْ لم تأمنوه وسـوف تموتون وتلـقوا الله ، فلماذا تتخذون الشفعاء ؟ وما الذى طمأنكم لذلك ؟ وما رصيدكم فى اتخاذكم الشفعاء ؟ يعنى : أحصل ذلك أم اتخذتم شفعاء ؟

قلنا : الشـفـيع من الشَّـفْع ، وهى أنْ تضم شـيـئـاً إلى شىء ، فيـصير زوجاً بعـد أنْ كان وحده ، والله سبـحانه يريد أنْ يُنهى هذه المســألة ، وأنْ يُبيِّن لهم بطلانهـا ، فقال لهـم : إن الذين تدعُون من دون الله لا يملكون أنْ يشـفـعـوا وإنْ ملكوا الشـفـاعـة كمـا تَدْعُـون الملائكة ، وكالذين يدعون عيـسى أو العُزَير فهم لا يرضون بها ولا يشفعون لكم .

وإنْ كـانوا من الجـمـادات فهم أقـرب منكـم إلى الله وأعلم منكم بأصـول الشفـاعة ، فـهى لابُدَّ أنْ تتأبى علـيكم وتكرهكم ، وإنْ كنتم تملكونهـا وتنتـفعـون بهـا ؛ لأن هذه الجمـادات مُنسـجمـة مع الكون مُسبِّحة لخالقها فلا تقـبل إلا مُسَبحاً ، وما انقادتْ لكم هذه الجمادات

إلا لأن الله سخَّرها لكم ، وجعل لكم إرادة تسيطرون بها عليها بمراد الله وأمره كما سيطرتم على جوارحكم ، سيطرتم على اللسان فقلتم به كلمة الكفر ، وسيطرتم على الأيدى ، فبطشتُم بها وظلمتم .. الخ .

فهؤلاء جميعاً لا يرضونَ أنْ يشفعوا لكم لأنكم مخالفون لهم فى المنهج ؛ لذلك يكرهونكم فكيف يشفعون لكم ، لذلك قال تعالى :﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ .. (٢٩) ﴾ [الدخان]

فأثبت للسماء وللأرض بكاءً ، فإنْ كانت لا تبكى على هؤلاء المخالفين فهى ولا شكَّ تبكى على المناقضين لهؤلاء المتفقين معها فى العقيدة والمنهج ، إذن : فالسماء والأرض وغيرهما من الجمادات لها تمييز وإلا ما بكتْ على أهل الطاعة ولم تَبْكِ على أهل المعصية .

حتى نحن فى التعبير الأدبى نقول : فلان نَبَتْ به الأرض يعنى : كرهتْ إقامته عليها ، لماذا ؟ لأنه متمرد على الله مخالفٌ لمنهجه وهى مُسخَّرة مُسبِّحة ؛ لذلك إنْ مات لا تبكى عليه . بل لسان حالها يقول له : أراحنا الله منك ، أراح الله منك البلاد والعباد .

وقد فسَّر لنا الإمام على رضى الله عنه هذه المسألة حين قال : إذا مات المؤمنُ بكى عليه موضعان : موضع فى السماء وموضع فى الأرض ، أما موضعه فى السماء فمصعد عمله الطيب . أى : المكان الذى يُرفَع فيه عمله الصالح ، كما قال سبحانه ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ (١٠) ﴾ [فاطر] وأما موضعه فى الأرض فمُصلاّه .[1]

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/١٤٢) وعزاه لابن أبى حاتم أن عباد بن عبد الله قال : سأل رجل علياً رضى الله عنه : هل تبكى السماء والأرض على أحد ؟ فقال له : لقد سألتنى عن شىء ما سألنى عنه أحد قبلك ، إنه ليس من عبد إلا له مصلًى فى الأرض ومصعد عمله من السماء وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض ولا عمل يصعد فى السماء ، ثم قرأ على رضى الله عنه : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) ﴾ [الدخان]

إذن : الذى جعلهم يتكلون ولا يخافون من الموت أنهم اتخذوا الشفعاء ، وظنوا أنهم يدافعون عنهم ، لكن (نقبهم على شونة) لأن الشفاعة ليستْ بمراد الشافع إنما بمراد المشفوع عنده ، وهو سبحانه الذى يأذن للشافع ويرضى عن المشفوع له . لكن هل يحتاج مَنْ رضى الله عنه إلى شفاعة ؟

قالوا : الإنسان قد تكون نواحى الخير فيه قليلةً ، لكن يتوفر لهذا القليل شرطُ الإخلاص فينميه ويُثمِّره ويجبر الله عنده هذا النقص بأنْ يأذن لأحد المحبوبين عنده أن يشفع له .. وهذه الشفاعة ما شرعها الحق سبحانه إلا ليقبلها ويلطف بها .

لذلك قالوا : إياك أنْ تحتقرَ عملاً صالحاً مهما كان يسيراً ، فمَنْ يدريك لعله يكون سبباً فى نجاتك .

وورد فى الحديث : « إن الله أخفى ثلاثاً فى ثلاث : أخفى رضاه فى طاعته » فلا تحقرنَّ طاعة ما فقد غفر الله لرجل سَقَى كلباً يلهث من شدة العطش ، وسقاه بجهد واحتيال حين لم يجد شيئاً يخرج به الماء فخلع خُفَّه وسقى به الكلب[1] . ولو سقى هذا الرجل إنساناً لقُلْنا إنه سقاه لعلة ، أو له عنده جميل ، إنما سقى كلباً . وهذا يدل على أن العمل فيه إخلاص ، لأنه لا ينتفع من الكلب بشىء ، إنما تأصل السقاء فى نفسه ، فهو يحبه بصرف النظر عن المسْقى ، فالرجل طُبع على الخير ولا يعنيه لمن يُقدم هذا الخير .

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له ، قالوا : يارسول الله وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : فى كل ذات كبد رطبة أجر . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠/٤٣٨) (حديث رقم ٦٠٠٩)، وكذا مسلم فى صحيحه كتاب السلام باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها (٤١) حديث (٢٢٤٤/١٥٣) .

الثانية : « وأخفى غضبه فى معصيته » فقد دخلت امرأة النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها وسقتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض [(١)] . فكما أنك لا تحقر طاعة قد يكون فيها نجاتك ، كذلك لا تحقر معصية فقد يكون فيها هلاكك .

الثالثة : « وأخفى أسراره فى خلقه » ؛ فلا تحقرنّ خلقاً ما .

وقوله سبحانه : ﴿قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا ﴿٤٣﴾﴾ [الزمر] أى : هؤلاء الشفعاء ﴿لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الزمر] يعنى : كيف تطلبون شفاعتهم ، وهم على هذا الوصف ؟ ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر] لأن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه سبحانه ، يأذن للشافع ويرضى عن المشفوع له ، فالشفاعة كلها لله وحده ، لأن ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر] ؛ فالمتكبّر المتأبّى على منهجى سيرجع إليّ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

كلمة (اشْمأزَّتْ) يعنى : نفرتْ . والإنسان حينما يسمع شيئاً لا يحبه يشمئز يعنى : يظهر على سحنته الامتعاض ، ثم تحدث منه نفرة وقشعريرة كئيبة ، ثم ينصرف عن هذا الشيء ، كذلك حال

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٢٦١ ، ٢٦٩ ، ٤٥٧) ، ومسلم فى صحيحه (٢٦١٩) كتاب البر والصلة من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ولفظ مسلم « دخلت امرأة النار من جراء هرة لها ربطتها فلا هى أطعمتها ولا هى أرسلتها ترمرم من خشاش الأرض ، حتى ماتت هزلاً » .

هؤلاء لما سمعوا ذكر الله وحده نفرتْ نفوسهم ، وانقبضوا عن توحيد الله ، لكن لماذا ؟

قالوا : لأنك ذكَّرته بمَنْ يثق تمام الثقة أنه يملك ضُره ونفعه ، وإلا لو لم تكُنْ لديه هذه الثقة ما أثَّر ذكر الله فى نفسه ، إذن : اشمأزتْ قلوبهم لأنهم خافوا من شىء ، وساعةَ سمعوا ذكر الله تذكّروا جلاله وقدرته وعظمته ، وتذكّروا أنهم مُقبلون عليه واقفون بين يديه ، ولم يعملوا لهذا الموقف .

وكلمة ﴿ وَحْدَهُ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزمر] تدل على مَيْلهم إلى الشركاء ، فالمعنى : لو ذُكر الشركاء ما اشمأزتْ قلوبهم . واشمئزاز القلوب أمر غيبى ينضح على الوجه بالانفعال ، فيبدو على الوجه أنه منقبض انقباضاً مؤلماً ، والآية لم تذكر لماذا اشمأزت قلوبهم مما يدل على أن القلبَ هو المحرك الذى يعطى الجوارحَ الانفعال بواقع الأشياء عليها ، فمثلاً تقابل شخصاً فتجد نفسك مبتهجاً ، وآخر تقابله فتجد نفسك مُهتماً أو منقبضاً عنه ، فمن أين هذه الانفعالات ؟ من القلب .

وقوله : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ..﴿٤٥﴾ ﴾ [الزمر] أى : الشركاء ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزمر] أى : يفرحون ، لماذا ؟ لأنهم يظنون أنهم يشفعون لهم ، لكنهم خائبون فى هذه ، وخائبون فى هذه .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ[1] السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

---

(١) فطر الخلق : خلقهم وبدأهم . والفطرة : الابتداء والاختراع . قال ابن عباس : ما كنت أدرى ما فاطر السماوات والأرض حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها . أى : أنا ابتدأتُ حفرها . [لسان العرب - مادة : فطر]

هذا أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ بعد أن ذكر الوعد لأهل الخير ، والوعيد لأهل الشر ، واستوفى الأمرين مع الجماعتين ، قال لرسوله بعد أنْ بلغت الوعد والوعيد : ليس لك إلا أنْ تلتجىء إلى الله ، فهو سبحانه وحده الذى يحكم بينك وبين هؤلاء ، لأنك استنفدتَ معهم كل أوجه الدعوة الحسنة والبلاغ الجميل ، وما داموا مُصرِّين فدَعْهُم إلى أنْ يحكم الله بينك وبينهم يوم القيامة .

ولا تحزن يا محمد ، لأن الله لا يحكم إلا بالحق ، وثقْ أنه الذى اختارك للرسالة ، وأنه ناصرك ومُظْهر دينك ، وسوف ترى هذه النُّصْرة فى الدنيا قبل الآخرة ، وفعلاً رآها الرسول قبل موته .

واقرأ قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١)﴾ [الرعد]

أى : ننقص أرض الكفر ونقصان أرض الكفر زيادةٌ فى أرض الإيمان ، وهذه آية رأوْهَا بأعينهم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا (٤١)﴾ [الرعد] فكان عليهم أنْ يأخذوا من ذلك عبرة ، وأنْ ينتهوا عن عنادهم ، ويعلموا أن الله ناصرُ دينه ومُتم أمره ، فكلّ يوم يمرّ كانت أرض الإيمان تزداد ، وأرض الكفر تنقص ، ومحمد يأتيه الموالى والفقراء والمساكين ، ثم أتاه بعد ذلك الكبراء والصناديد والأعيان[1] .

الحق سبحانه وتعالى يُعلِّم رسوله ﷺ ، ويُعلِّمنا كيف ندعوه ، فقال : (قُلْ) أى : يا محمد (اللهُمَّ) يقول سيدنا سعيد بن المسيِّب[2] : لا أجد فى القرآن آية أرْجَى لداعى من قوله سبحانه :

---

(١) هذا القول هو الذى عليه جمهور المفسرين . قال ابن عباس : أولم يروا أنّا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض . وذكر ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥٢٠) عدة أقوال منها : نقصان أهلها وبركتها - نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض - الموت - موت العلماء والفقهاء وأهل الخير منها . ثم قال : القول الأول أوْلَى وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية .

(٢) الذى فى تفسير القرطبى (٨/ ٥٩١٠) أن هذا القول لسعيد بن جبير ، ونصه : إنى لأعرف آية ما قرأها أحد قط فسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه .

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(٤٦)﴾ [الزمر] وما علمه الله أن يدعو إلا لسبقه فى القدر أنْ يجيب . إذن : الحق سبحانه لم يترك رسوله يدعوه بلفظ من عنده إنما علَّمه بمَ يدعو ، فلا بُدَّ أنْ يُكتبَ له القبول ، كما لو أن شخصاً أعطاك المفتاح ، هذا يعنى أنه يقبلك أنْ تدخل المكان .

وهنا يجب أن نقف على روعة الأداء البيانى وعظمة الدعاء والنداء فى (اللَّهُمَّ) وهى عبارة عن لفظ الجلالة (الله) أُلحقتْ به ميم مُشدَّدة للدعاء والنداء ، ونحن نعرف أن النداء طلبُ إقبال المخاطب على المتكلم ، وللنداء حروف معروفة حسب قرب المنادِى أو بُعْده من المنادَى ، فنقول فى نداء القريب : أمحمد . وفى نداء البعيد : يا محمد والأبعد : أيا محمد .. الخ .

إذن : فحرف النداء نفسه يحدد موقع المدعو ، فهل يجوز استخدام هذه الحروف فى نداء الحق سبحانه فنقول مثلاً : يا الله ؟ إنه من الأدب فى نداء الحق سبحانه ألاَّ نناديه سبحانه كما ننادى غيره لأنه سبحانه أقربُ إلينا من حبل الوريد ، فلا يصح أنْ نقول : يا الله أو أيا الله ، فهذه مراتب للبُعْد والله قريب .

لذلك لا تجد القرآن يستخدم هذه الحروف أبداً فى ندائه سبحانه ، إنما استخدم اللهم للدعاء ، وعلَّمنا أنْ ندعوه بها ، وقد ألحق بها الميم المشدَّدة بدلاً من حروف النداء قبل الاسم المنادى ، فالميم عوَضٌ عن حرف النداء المحذوف فدلَّتْ الميم المشددة على النداء ، وعلى ذِلَّة الطلب منك .

وحين نستقرئ القرآن الكريم نجد أن كلمة الله وردت بالرفع ٩٨٥ مرة ليس فيها دعاء إلا باللهم فى خمسة مواضع هى : هذه الآية التى

معنا ، ثم قوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ..(٢٦)﴾ [آل عمران]

وقوله : ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤)﴾ [المائدة]

وقوله : ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال]

وقوله : ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس]

أما فى نداء الربوبية فنقول : يارب ، وفَرْقٌ بين نداء لفظ الجلالة (الله) وبين نداء لفظ الربوبية (رب) ، فالألوهية تكليف أما الربوبية فعطاءٌ ومنعم ، فما دام الربُّ معطى نعمة . فنقول فى ندائه : يارب لأن الربوبية إيجادٌ من عدم وإمداد من عُدْم وتربية ، إذن : أنت المستفيد فى عطاء الربوبية ، أما الألوهية فتكليف بافعل ولا تفعل .

وكلمة ﴿فَاطِرَ..(٤٦)﴾ [الزمر] أى : خالق ومُبدع ومُوجد الوجود من العدم على غير مثال سابق يعنى : أمر ابتكارى جديد فإنْ كان الإيجاد على مثال سابق يعنى محاكاة فلا يسمى (فاطر) .

وقوله ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٤٦)﴾ [الزمر] اختار السماوات والأرض ، لأنها الكائن الذى لا يغيب عن الإنسان ، فالأرض تُقلُّه والسماء تظله فهو لا ينفكّ عنهما لحظة من حياته ، وهناك نِعَم أخرى قد تغيب عن الإنسان فى وقت كالماء مثلاً .

﴿عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ.. (٤٦)﴾ [الزمر] يمتنُّ الحق سبحانه بعلم

الغيب ، فكيف يمتنُّ بعلم الشهادة ، وهى معلومة للناس مُشَاهدة ؟

قالوا : لأن الله غيْبٌ ، وقد نفهم أن هذا الغيبَ كالغيب بالنسبة لك، فأنت تشاهد مَنْ معك فى البيت ، لكن لا تشاهد مَنْ هو خارج البيت ، فهو بالنسبة لك غَيْبٌ ، لكن الحق سبحانه يعلم الغيب ويعلم المشاَهد ما غاب عنكم والمشهود لكم ولغيركم .

وقوله :﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) ﴾ [الزمر] هذا هو المرجع النهائى فى الخلاف بين الحق والباطل ، يوم الفتح الذى كان ينتظره هؤلاء ويستعجلونه ، بل ويستهزئون به كما قال سبحانه حكايةً عنهم :

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [الأعراف]

وقولوا : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) ﴾[السجدة] فيردّ عليهم الحق سبحانه : ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) ﴾ [السجدة] يعنى : لو جاءكم هذا اليوم فلن ترجعوا بعده مرة أخرى لتجدوا إيماناً ولا توبة .

ونلحظ هنا أن القرآن استعمل كلمة (عباد) للدلالة على الفريقين : المؤمنين ، والكافرين ، والغالب أن تستخدم كلمة العباد فى الطائعين الملتزمين بالمنهج كما فى قوله سبحانه : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان]

فهل يُقال للكافرين والعاصين أيضاً عباد ؟

قالوا : نعم : لأن الإنسان له وضعان بالنسبة لربه تعالى : وَضْع له فيه اختيار ، وهى قوة الاختيار التى خلقها الله فى الإنسان بحيث يفعل ما يشاء ، حتى إنه يفعل ما لا يريده منه ربه سبحانه . هناك

وَضْع آخر ليس له فيه اختيار ، وهى الأمور القهرية التى لا اختيارَ للعبد فيها .

فالإنسان مثلاً قد يتمرد على منهج ربه ، وقد يخالفه ويشذ عنه ، فنقول له : ما دُمت قد ألفتَ التمرد فتمرد على كل شىء ، تمرد على المرض تمرد على الموت .. إنه لا يستطيع ، لأنها أمور قهرية لا اختيار له فيها . إذن : فهو فى هذا الوضع محكوم بالعبودية قهراً ، فهو لا يخرج عن عبوديته لله حتى لو كان كافراً ، وحين نقول للكافرين (عباد) فلأنهم فى شق من تصرفاتهم لا يتأبَّوْنَ فيه على الله ، بل هم فيه مقهورون .

لذلك قال تعالى عنهم فى الآخرة : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الفرقان]

هذا خطاب للمضلِّين فسمَّى الضالين عباداً ، لماذا ؟ لأن الكلام هنا فى الآخرة حيث يستوى الجميع ، فالكل هناك طائع صالح مؤمن ، كلهم فى الآخرة عباد وعبيد . أما فى الدنيا فكلهم عبيد وبعضهم عباد .

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

تذكرون أننا قلنا فى الحديث عن الشفاعة أن المذْنب يُعرض على ربه عز وجل أن يدفع الفدية ليغفر له فلا يُقبل منه عدل ، فيأتى بمَنْ يشفع له فتُردّ شفاعته ، فلنفرض أن عنده الدنيا بحذافيرها يملكها ويقدمها عدلاً لسيئاته ، بل أكثر من ذلك ، عنده ما فى الأرض جميعاً

﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الزمر] مع أن هذه الحالة لم تحدث لأحد ، لكن على فرض أنها حدثت وقدَّم العاصى ذلك كله ليفتدى نفسه من عذاب يوم القيامة فلن يُتقبل منه .

وقوله سبحانه : ﴿ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الزمر] يدل على أن الإنسان قبل أن يُؤمِّنَ لنفسه النعيم يريد أنْ ينجوَ من العذاب فهذا هو الأهم ؛ لذلك الرجل المغرور صاحب الجنتين فى سورة الكهف لما اغترَّ بعمله وظنَّه صالحاً قال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف] يعنى : سيعطينى أفضلَ مما كان عندى ، وهذا غرور والعياذ بالله .

لذلك تجد الغنى حين يُصيبه مرض شديد والعياذ بالله يقول : خذوا كلَّ ما أملك وأعيدوا إلىَّ عافيتى ، يريد أن يتخلص مما هو فيه من المرض أولاً ، كذلك حال أهل المعاصى فى الآخرة .

ومعنى ﴿ مِن سُوءِ الْعَذَابِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الزمر] أى : من العذاب السيء ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الزمر] ثم يُفاجئهم ما لم يكُنْ فى حُسْبانهم ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الزمر] بدا يعنى : ظهر لهم ؛ لأن الإنسان مهما تخيل فى الدنيا فلن يتسع تخيُّله لما يأتى الله به فى الآخرة .

لذلك سيدنا محمد بن المنكدر [(١)] قال : لقد خوَّفتْنى هذه الآية لأننى أخشى حين أموت أن يبدو لى ما لم أكن أحتسب [(٢)] ذلك لأن

(١) هو أبو عبد الله القرشى التيمى المدنى محمد بن المنكدر بن عبد الله ، كان من معادن الصدق يجتمع إليه الصالحون ، حافظ سيد القراء ، مُجمع على ثقته وتقدمه فى العلم والعمل ، توفى سنة ١٣٠ هـ (تذكرة الحفاظ ١/١٢٧، ١٢٨)

(٢) ذكر هذا الخبر القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩١١) أن محمد بن المنكدر جزع عند موته جزعاً شديداً ، فقيل له : ما هذا الجزع ؟ قال : أخاف آية من كتاب الله ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الزمر] فأنا أخشى أن يبدو لى ما لم أكن أحتسب . وذكره أيضاً الذهبى فى تذكرة الحفاظ (١/١٢٧) .

الإنسان كثيراً ما يفعل سيئات دون أن يشعر بها ، أو دون أنْ يعلمَ أنها سيئات ، أو قد يفعلها وينساها ، وهذه التى قال الله فيها ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴿٦﴾ ﴾ [المجادلة]

وقد يُزيِّن لك الشيطانُ السوءَ فتراه حسناً وما هو بحسن ، كل هذا ستُفاجأ به فى الآخرة .

وأول ما يفاجئ الكافرين يوم القيامة أنهم لن يجدوا الآلهة التى عبدوها من دون الله ولن تشفع لهم ، حتى سادتُهم وقادتهم الذين أضلوهم سيتبرأون منهم : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [البقرة]

بل إن السادة المضلين سيسبقون الأتباع إلى النار كما حكاه القرآن : ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ ﴾ [ص]

ولو دخل التابع قبل سيده لتعلَّق فكره به وظنَّ أنه سيأتيه ويُخلِّصه ، لكنه سيدخل فيجده قد سبقه ، وعندها تنقطع منهم الآمال ، وتكتمل الحسرة والندامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

قوله ﴿ وَبَدَا لَهُمْ ﴾ أى : ظهر لهم وبَانَ لهم (سَيِّئَاتُ) هل الذى يظهر لهم فى الآخرة السيئات ، أم عقوبة السيئات ؟ قالوا :

الذى يرونْه فى الآخرة هو عقوبة السيئات ، لكن قال ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا (٤٨) ﴾ [الزمر] لأن الجزاء من جنس العمل ، فالعقوبة هى أيضاً سيئات ، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾ [الشورى] لأن معنى السيئة هو الأمر الذى يسوء ، فكما أساء هو فى العمل فى الدنيا نُسيئه فى الآخرة .

وكلمة ﴿ مَا كَسَبُوا (٤٨) ﴾ [الزمر] سبق أنْ أوضحنا هذه المسألة وقُلْنا : إن القرآن يستخدم كسب فى الخير واكتسب فى الشر ؛ لأن الخير يأتى من الإنسان طبيعياً لا تكلُّفَ فيه ولا احتيال ، فيأتى على وزن (فعل) . أما الشر فيحتاج من فاعله إلى تكلّف وستْر واحتيال ، فعبَّر عنه بما يدل على الافتعال وهو (افتعل) أو اكتسب .

ومثَّلْنا لذلك بالإنسان حين ينظر إلى أهل بيته أو محارمه وفيهن الجميلات مثلاً ، فهو ينظر نظرةً طبيعية لا يسترها ، ولا يخاف فيها شيئاً ، أما إنْ أراد أنْ ينظر إلى امرأة أجنبية عنه فإنه يُخفى هذه النظرة ، ويحتال لذلك بكل وسيلة .

إذن : لماذا استخدم القرآن هنا لفظ كسب فى مجال السيئات ، وهى كما أوضحنا اكتساب ؟ ومثله قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ .. (٨١) ﴾ [البقرة]

قالوا : استخدم القرآنُ كسب فى السيئات لأن صاحبَ السيئة قد يتعوَّد عليها حتى تصبح طبْعاً فيه وعادة ودُرْبة ، بل وتصبح بالنسبة له مهارة تصل إلى حَدِّ التباهى بها والعياذ بالله ، وهؤلاء يفعلون السيئة دون تكلّف ودون ستْر ، فهى فى حقه كسبٌ لا اكتساب ، ومثال ذلك المجرمون الذين اعتادوا الجريمة وتمرَّسوا بها ، فهى

بالنسبة لهم عملية طبيعية ، وساعة يعمل السيئة يعدّها مكسباً له .

وقوله : ﴿وَحَاقَ بِهِم ﴿٤٨﴾﴾ [الزمر] أى : نزل بهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزمر] هذا المعنى أوضحه الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين]

نعم .. كثيراً ما نرى ونسمع استهزاء أهل الباطل من أهل الحق وسخريتهم منهم وتندّرهم عليهم ، ويصل الأمر إلى أنْ يتهموهم بأنهم على ضلال ، سبحان الله ؟ لكن عزاء أهل الحق أن هذا الاستهزاء فى الدنيا الفانية ، وإنْ صبروا عليه كان لهم الأجر ، وسوف يُرد هذا الاستهزاء وهذه السخرية فى الآخرة الباقية ، حيث يسخر أهل الحق من أهل الباطل ويضحكون منهم ، بل ويخاطبهم الحق سبحانه ليطيب خاطرهم : ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾[المطففين] يعنى : هل قدرنا أنْ نُجازيهم بما يستحقون ؟

قالوا : استهزاء الشرير بالخيِّر ، وسخريته منه ثأر من طيبته لشريرته ، لأنه لا يستطيع ولا يقدر أنْ يكون مثله فيسخر منه ويستهزئ به لعله ينصرف عمَّا هو فيه من الخير ويذهب إلى الشر ، لكن العاقل يفهم هذه المسألة ويعلم أن هذا الاستهزاء غيظ وحقد وحسد فيصبر عليه وهو يعلم أنَّ له بكل سخرية وبكل استهزاء منزلةً عند الله ، وله على ذلك عوَض .

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ(١) نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾

رأينا المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة أخرى وقالوا : إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زُلْفى .. إذا ما طرأ لهم طارئ أو جَدَّ فى حياتهم شىء فوق طاقة أسبابهم لا يلجئون إلى الأصنام ، ولا إلى الآلهة التى عبدوها من دون الله ، إنما يلجئون إلى الله ويضرعون إليه سبحانه ليكشف عنهم ما هم فيه ، وليرفع عنهم البلاء ، لماذا ؟

لأن هذه هى الفطرة السليمة التى فطر اللهُ الناسَ عليها ، والعهد الذى أخذه الله علينا جميعاً ونحن فى عالم الذرِّ حين قال سبحانه : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف] والإنسان لا يخدع نفسه ولا يسلمها ، فإذا أحاط به شر لا تنهض الأسباب لدفعه قال : يا رب وعندها ينسى كبرياءه ، وينسى عناده ، وينسى تكذيبه للرسل ولا يجد إلا ربه وخالقه وإلهه الحق .

وصدق الله :﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا

---

(١) خوَّله كذا : ملَّكه إياه متفضلاً عليه بغير عوَض . [القاموس القويم ١/ ٢١٤] . وخوَّلك الله مالاً . أى : ملَّكك . وخوَّله المال : أعطاه إياه . وقيل : أعطاه إياه تفضّلاً . [لسان العرب – مادة : خول] .

﴿ نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧) ﴾ [الإسراء]

ونلحظ أيضاً أن الإنسان حينما يقع فى كرب لا يقدر على دفعه بنفسه ينادى مَنْ حوله ، فإذا لم يُجِبْه أحدٌ يقول يا هوه ، ومعناها : يا هو يا مَنْ ليس هناك غيره ، والمراد الله سبحانه وتعالى .

وقوله ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ (٤٩) ﴾ [الزمر] أى : أعطيناه ﴿ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ (٤٩) ﴾ [الزمر] يعنى : إنْ أعطيناه نعمة بعد هذا الضر الذى مسَّه سرعان ما ينسى ويعود إلى صلَفه وغروره الحياتى ، لأنه يخاف أن مسألة رفع الضر عنه تُقربه من ربه الذى دعاه ، وأن هذا الجميل الذى ساقه إليه ربُّه يعيده إلى الجادة وإلى الاستقامة .

فالاستقامة تكاليف ومسئولية هو يكرهها ، ولا يريد أنْ يُقيِّد نفسه بها ، لأن التكليف معناه مَنْع النفس عن شهواتها ، وحملها على الطاعات فهو يخاف أن تأسره هذه المسألة ، أو تقيد حريته فى الشهوات ، لذلك قال الحق سبحانه عن الصلاة : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ (٤٩) ﴾ [الزمر] لها وجهان : إما على علم من الله أنِّى أستحق هذا الخير وإلا ما أعطانى - هذا إنْ كان يعتقد أن الله هو الذى يعطى - أو على علم منى ، لأن عندى دقَّةً فى التعامل ويقظة ، وعندى تجربة ودراية بالأمور ودراسة للنتائج .

وهنا يصحح له ربه ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ .. (٤٩) ﴾ [الزمر] يعنى : هذه النعمة فتنة من الله ، فلا هى لعلم الله أنك تستحق ، ولا هى نتيجة لعلمك ومهارتك ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ .. (٤٩) ﴾ [الزمر] يعنى : ابتلاء واختبار . كما قال سبحانه : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً (٣٥) ﴾ [الأنبياء] نبلو

بالشر لنرى مَنْ يصبر ، ونبلو بالخير لنرى مَنْ يشكر ومَنْ يطغى .

وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) ﴾ [الفرقان]

يعنى : كلٌّ بعض منا فتنة للبعض الآخر ، فالغنى فتنةٌ للفقير ، والقويُّ فتنة للضعيف ، والعكس صحيح ليختبر الحق سبحانه خَلْقه : مَنْ يصبر ومَنْ يجزع ، مَنْ يشكر ومَنْ يكفر ، مَنْ يرضى ومَنْ ينقم.

إذن : ينبغى على الإنسان أنْ يقوم فى حركة حياته ما أقامه الله ، فكل ما يُجْريه عليه خير ، فإذا رأيتَ نعمة عند غيرك وليست عندك فاعلم أن الله ما فضّل هذا عليك ، وأنت بصبرك على ما قُدِّر لك وعدم حقدك على أخيك تستطيع أنْ تكون أفضل منه .

وتختم الآية بقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٩) ﴾ [الزمر] أى : هذه الحقائق التىَ ذُكرتْ لا يعلمها الكثيرون ، وهذا يعنى أن القلة تعلم .

ثم يوضح الحق سبحانه أن هذه المسألة ليستْ كلمة نظرية ، إنما هى حقيقة لها واقعٌ فى تاريخ السابقين ، فيقول : ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) ﴾ [الزمر] نعم قالها قارون ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي (٧٨) ﴾ [القصص]

ونقول : ما دمتَ قد أوتيته على علم ، سواء علم من الله أنك أهلٌ لهذا الخير أو علم عندك ومهارة فى العمل والتناول ، فها هى النعمة بين يديك ، وما عليك إلا أنْ تحفظها ، وحفْظ الشىء الموجود بين يديك أيسَرُ من إيجاده من العدم ، فهل تستطيع ؟

والمعنى أننى لا أقول لكم كلاماً نظرياً ، بل هو واقع يؤيده التاريخ ، فقد قالها قارون واغترَّ بها ، ثم خسفنا به وبداره الأرض.

وهنا نشأتْ قضية : إذا كنتَ قد أوتيته على علم فاحفظه أيضاً على علم ، لكنْ ما دام الأمر قد تخلَّى عنك فى الحفظ وهو يسير ، فأنت فى الإيجاد أشدّ تخلياً .

نعم ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) ﴾ [الزمر] لأن الله خسف بقارون وبداره أيضاً ، فلم تذهب النعمة والثروة فحسب ، بل طال الانتقام حتى الأرض والمكان الذى يعيش عليه ويبيت فيه ويستريح عليه .

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) ﴾

قوله تعالى ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا (٥١) ﴾ [الزمر] أى : السابقون الذين قالوا هذه الكلمة من قبل ، أصابهم ونزل بهم ما كسبوا من السيئات ، يعنى : هم فعلوه بأنفسهم ، وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ (٥١) ﴾ [الزمر] أى : المعاصرين ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) ﴾ [الزمر]

والمعجز هو الذى يعمل عملاً يتحداك به ، وتعجز أنت عن الإتيان بمثله ؛ لذلك نسمى آية صدق الرسل فى البلاغ عن الله معجزةً ، لأنها أعجزتْ المكابر المكذِّب ، أما الذى آمن بمجرد البلاغ وصدَّق به فلا يحتاج إلى معجزة ، والمعجزة يُشترط لها أن تكون مقرونة بالتحدى ، لماذا ؟

قالوا : لأنك حين تتحدَّاه وتخبره أنك ستعمل عملاً لا يقدر هو عليه فإنك بذلك تشحن مواهبه ليستعدَّ للمواجهة ، وعندها تستطيع أن

تقيم عليه الحجة ، أما إنْ فاجأته بالتحدى فله أنْ يقول لك : والله لو فكرت فى المسألة ، أو لو كانت فى بالى لفعلتُ . إذن : معجز يعنى يصيب الغير بالعجز عن مجاراته .

وقلنا فى المعجزة : إنها ينبغى أن تكون من جنس ما نبغ فيه القومُ ، ومناسبة للعصر الذى نتحدى فيه ، لأنك لو تحديتَ قوماً بشىء لا علمَ لهم به ولا دُرْبة لكان لهم أنْ يقولوا : لو كنا نعلم هذا لفعلناه ، وإلا لما كان للتحدى موضع .

وقد أعطانا القرآن الكريم نموذجاً للتحدى حينما تحدّى العرب وهم أهْلُ اللغة وأرباب الفصاحة والبيان ، تحدَّاهم أنْ يأتوا بمثل هذا القرآن ، وحين نتأمل هذا التحدى نجده يتدرج تنازلياً ، وكلما تنازل فى تحدّيه يعلو فى إعجازه ، لأنه أول ما تحدَّاهم تحدَّاهم بمثل هذا القرآن ، ثم بعشر سور ، ثم بسورة واحدة من مثله .

ليس هذا وفقط ، إنما يُخرج التحدى من الإنس إلى الجن ؛ لأن العرب وإنْ كانوا أمة كلام وفصاحة إلا أنهم نسبوا للجن قدرةً أعلى على الفصاحة والبلاغة ، بدليل أنهم إذا نبغ منهم شاعر وأجاد قالوا : إن الجن يُوحى إليه بهذه المعانى ، واعتقدوا أن هذا الجن يسكن وادى عبقر [1] كما يقولون .

لذلك أخرج القرآن التحدِّى من دائرة الإنس إلى دائرة الجن ، فقال سبحانه :﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ [الإسراء] أى : معينا ومساعداً .

(١) قال ابن الأثير : عبقر قرية تسكنها الجن فيما زعموا ، فكلما رأوا شيئاً فائقاً غريباً مما يصعب عمله ويدق أو شيئاً عظيماً فى نفسه نسبوه إليها فقالوا : عبقرى . ثم اتسع فيه حتى سمى به السيد والكبير . [نقله ابن منظور فى لسان العرب - مادة عبقر] .

لذلك كانت معجزة سيدنا موسى عليه السلام نوعاً من السحر ، لأن قومه نبغوا فيه ، وكانت معجزة سيدنا عيسى أنْ يبرئ الأكمه[1] والأبرص بإذن الله ، لأن قومه نبغوا فى الطب .

وكلمة ﴿ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) ﴾ [الزمر] أى : فى الهرب والإفلات من العقوبة ، لأنهم فعلوا أشياء تستحق العقوبة ، فإذا أخذناهم للعقاب فلن يُعجزونا . يعنى : لن يفلتوا منا ؛ لأن المسألة بالنسبة لنا قد يكون غريمك فى يدك وفى نفس مكانك ، وقد يهرب منك إلى مكان آخر ، لكن بالنسبة للحق سبحانه فهو فى كل مكان ، وإلا فدلَّنى على مكان ليس فيه الله سبحانه وتعالى ، إذن : كيف الهرب ؟ وإلى أين ؟! فإنْ تواجدتم معه فلن يعجز عنكم ، وإنْ هربتم فلن يعجز عن الإتيان بكم .

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) ﴾

لأن قارون اغترَّ بماله وجاهه ، وما كان فيه من غنى وزَهْوة فى قومه ، حتى قال ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عندى (٧٨) ﴾ [القصص] فأراد الحق سبحانه أنْ يُصحح له المسألة ولمَنْ كان على شاكلته ، فقال سبحانه : ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (٥٢) ﴾ [الزمر] يبسط يعنى : يُوسِّع على مَنْ يشاء ، ويقدر يعنى : يُضيق على مَنْ يشاء ويقبض ، وكما نقول : يعطى مَنْ لا حيلةَ له ليتعجب مَنْ له حيلة.

---

(١) الأكمه : مَنْ وُلد أعمى ، أو فقد بصره فهو أكمه . [القاموس القويم ٢/١٧٥] . أما البرص فهو مرض جلدى يُحدث بقعاً بيضاء فى الجلد تشوهه وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة .[القاموس القويم ١/٦٤] .

إذن : المسألة فى الرزق والعطاء ليست شطارة ومهارة فى تناول الأشياء ، إنما هى قدر قدَّره الرازق سبحانه .

وقد ورد فى الحديث القدسى قوله تعالى : « يا ابن آدم .. خلقتُك للعبادة فلا تلعب ، وقسمتُ لك رزقك فلا تتعب ، فإنْ أنت رضيتَ بما قسمتُه لك أرحتُ قلبك وبدنك وكنتَ عندى محموداً ، وإنْ لم ترْضَ بما قسمتُه لك فوعزّتى وجلالى لأُسلطنَّ عليك الدنيا تركض فيها ركْضَ الوحوش فى البرية ، ثم لا يكونَ لك منها إلا ما قسمتُه لك وكنتَ عندى مذموماً »[1]

فالرزق قسمه الرازق سبحانه ، ولا يُشترط له مهارة ولا رجاحة عقل وحُسْن تفكير ، لذلك قال أبو العتاهية[2] :

يُرزَقُ الأحْمَقُ رزْقاً واسعاً وَتَرى ذَا اللُّبِّ محرُوماً نَكِد[3]

والحق سبحانه وتعالى يرزق الإنسان من حيث لا يحتسب ، لذلك يُحكى أن رجلاً راعياً وهو يسير فى الطريق إذ عثرتَ رجْله بحجر ، فوجد عنده بئراً فجعل يتحسَّس ما فى البئر ، فوجد شيئاً له صوت (شخشخة) كصوت الذهب والفضة ، فبحث عنه فوجدها غرارة[4]

(١) ما وجدته فى نحو هذا ما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٢٤) من حديث عرفجة بن أسعد أن الله تبارك وتعالى يبتلى عبده بما أعطاه ، فمن رضى بما قسم الله عز وجل له بارك الله له فيه ووسعه ومن لم يرْضَ لم يبارك له .

(٢) هو : إسماعيل بن القاسم أبو إسحاق الشهير بأبى العتاهية ، شاعر مكثر سريع الخاطر ، فى شعره إبداع ، كان ينظم المئة والخمسين بيتاً فى يوم ، ولد عام ١٣٠ هـ فى عين التمر قرب الكوفة ونشأ فى الكوفة وسكن بغداد ، يُعد من مقدمى المولدين من طبقة بشار وأبى نواس. توفى ببغداد عام ٢١١هـ عن ٨١ عاماً [الأعلام للزركلى ١/ ٣٢١] .

(٣) البيت لأبى العتاهية من قصيدة عدد أبياتها ١٢ بيتاً من بحر الرمل ، أولها :

ما رأيت العيش يصفو لأحد دون كد وعناء ونكد
كن لما قدمته مغنِّماً لا تؤخر عمل اليوم لغد

[الموسوعة الشعرية]

(٤) الغرارة : بكسر الغين الظرف (كجوال) مثلاً يُحمل فيه التبن وما أشبهه . قاله أبو حيان التوحيد- فى (البصائر والذخائر) .

مملوءة بالذهب والفضة فأخذ منها ما يملأ جيوبه وما يستطيع حمله ، وترك الباقى فى مكان يعلمه ليعود إليه حين الحاجة .

وبعد فترة نفد ما معه من المال ، فجاء إلى نفس المكان ليأخذ من هذا المال فوجد شخصاً آخر قد سبقه إليه وأخذ ما تبقّى منه ، فلما رآه يحمله على ظهره نظر إليه . فقال الرجل : رزقنى الله ما ظننته أنه لك ، لكن هو لى .

لكن نلحظ فى مسألة الرزق أن الناس يُخطئون حين يظنون ويُحجِّمون الرزق فى المال وحده ، فالرزق عندهم هو الغنَى وكثرة المال ، لكن الصواب أن نقول : الرزق هو كل شىء يُنتفع به وتستفيد منه ، وعليه فالعلم رزق ، والحلم رزق ، والأمانة رزق ، والصحة رزق .. الخ .

لذلك ينبغى على الغنى الذى رُزق المال الوفير أنْ يسأل نفسه حين يرى فقيراً : يا ترَى ما رزق هذا الفقير ؟ وبم تميَّز عنى ؟ ربما كان رزقه فى عقله أو فى أدبه أو فى حلمه أو فى سمعته الطيبة بين الناس أو فى عافيته .

وسبق أنْ قلنا : إن مجموع المواهب عند أىِّ إنسان تساوى مجموع المواهب عند الآخر ، فهذا عنده المال بنسبة عشرة على عشرة ، لكنه حُرِم نعمة الولد بنسبة صفر على عشرة وهكذا ؛ لأن الخَلْق جميعاً عيالَ الله ، ولا يوجد منهم مَنْ هو ابن الله أو بينه وبين الله نسب .

إذن : علام يوجد التمييز بين واحد وآخر ؟ نقول : الرزق يحتاج إلى جهات متعددة ؛ لذلك يوزع الرازق سبحانه الأسباب فلا تستقيم الحياة إنْ كان الناس جميعاً أغنياء ، أو كان الناسُ جميعاً عقلاء أو

علمـاء ؛ لأن العـقل الواحد مـثـلاً يحتـاج إلى أكـثـر من جارحـة من الجوارح تخدم تفكيره ، فـالمهندس مثلاً حين يرسم تصميـماً لعمارة سكنيـة ، هو مـهندس واحـد لكن يحـتاج إلى كم عـامل لتنفـيـذ هذا العمل ، ولخـدمة هذه الفكرة الهندسية ، فـالعامل البسيط الذى يـحفر الأرض لوضْع الأسـاس عنده من المـواهب مـا ليس عند المـهندس ، وهكذا تُوزَّع المواهب وتُوزَّع الأرزاق .

والرزق قـد يكـون بزيادة الدخل ، وقـد يكون سلبـاً بـنقص المنصرف ، فنجد مثلاً رجلاً راتبه الشهرى مائة جنيه ويتعجب الناس كـيف يعيش بهـذا المبلـغ ، ونسوا أن المـهم فى الرزق أن يكون من الحلال ، فـالله يبارك فى القليل منه ، حتى يحلّ مـحل الكثير ، فتـجد هذا الرجل مـثلاً إذا مرض ولده يكفـيه قـرص أسبريـن والأم تعد له كوب شاى ويُشفى الولد بإذن الله .

بينما نجد آخر يحصل على أضـعاف هذا المبلغ ، لكنه لا يتحرَّى الحلال فى كـسبه ، فـإذا مرض ولده ذهب به إلى الطبـيب ، وأجرى التحـاليل وأوهم نفسـه أن المرض خطيـر ، حتى يصـرف على الولد مبالغ كبيرة .

لذلك ورد فى الحديث الشريف : « مَنْ أصـاب مالاً من مهاوش[1] أذهبه الله فى نهابر[2] »[3] .

---

(١) المهاوش : مكاسب السوء ، فهو كل مال يصاب من غير حله ولا يُدرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك .[لسان العرب - مادة : هوش] .

(٢) النهابر : المهالك . أى : أذهبه الله فى مهالك وأمور متبددة . [اللسان - مادة : نهبر] .

(٣) أورده العـجلونى فى كشف الخـفاء (٢/٣١٣) وعـزاه للقـضاعى عن أبى سلمـة الحمـصى مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقى السبكى : لا يصح .

إذن : رزق الإيجاب أنْ يزيد المورد ، ورزق السلب أنْ يقلَّ المنصرف ، لذلك نلحظ مثلاً موظفاً من أصحاب الرواتب العالية وزميله له راتب متواضع يذهبان إلى السوق ، الأول يشترى الرومى أو السمك الكيلو بعشرة جنيهات ، أما الآخر فيشترى السمك العادى الكيلو مثلاً بأربعة جنيهات ، ذهب كل منهما إلى بيته وأكل كل منهما سمكاً ، لكن الأول صرف أضعاف أضعاف الآخر ، وربما النتيجة واحدة ، وكل منهما راضٍ بما أخذ وبما أكل ، هذا نسميه رزق السلب .

والمؤمن ينبغى له دائماً أنْ يضع مسألة الاقتصاد فى النفقات فى باله ، وأنْ يعلم أن رزق السلب أوسع من رزق الإيجاب ، لأن رزق السلب منع ألماً ، أمَّا رزق الإيجاب فقد يأتى بالألم .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) ﴾ [الزمر] أى : يؤمنون بالرازق الذى سمَّى نفسه الباسط ، وسمى نفسه القابض ، وما دام الحق سبحانه سمَّى نفسه الباسط وسمى نفسه القابض فلا بدَّ أنْ يكون لكل صفة متعلق ، ولا بدَّ أنْ يوجد فى الخَلْق مَنْ يبسط الله له الرزقَ ، ومَنْ يقبض عنه ويُضيِّق عليه ، وهذا وذاك بحكمته تعالى وقدره سبحانه .

فمَنْ وسَّع الله له رزقه ، وبسط له عليه أنْ يشكر ، ومن قُدِر عليه رزقه وضُيِّق عليه يجب أنْ يصبر وأنْ يرضى ، وأنْ يسير فى حركة حياته على قدر رزقه ، ولا يفتح على نفسه أبواب المسألة ، فمَنْ رضى بقدره أعطاه الله على قدره سبحانه ؛ لذلك تجد عظماء العالم وأصحاب الكلمة والصِّيت لو نظرت إليهم فى أوليات حياتهم لوجدتهم رَضُوا بقدر الله فيهم وعاشوا فى مستوى دخولهم ، فتحقق فيهم قوله : « مَنْ رضى بقَدَرى أعطيته على قَدْرى » .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾

الإسراف هو تجاوز الحدّ ، نقول : فلان مسرف يعنى : يتجاوز الحدَّ فى الإنفاق بما لا يتناسب مع دخله ، وهؤلاء أسرفوا على أنفسهم ولم يقل : أسرفوا لأنفسهم . إنما أسرفوا عليها . مما يدلّ على أن هذا الإسراف يجر عليهم الوبال ، فهو إسراف فى المعاصى والذنوب والعياذ بالله .

قلنا : الإسراف تجاوز الحدّ ، الحد إنْ كان بعد أمر فلا تتجاوزه ، وإنْ كان بعد نهيٍ فلا تقربه مجرد القرب منه ؛ لذلك يقول تعالى فى الأوامر : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ﴿٢٢٩﴾ ﴾ [البقرة] يعنى : قفْ عندها . أما فى النواهى فيقول سبحانه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة] لأن قربك من الشىء يغريك به . وكما ورد فى الحديث الشريف : « مَنْ حام حول الحمَى يوشك أنْ يُواقعه »[2] .

---

(١) سبب نزول الآية : ورد فى سبب نزول هذه الآية عدة روايات .. منها :
- قال ابن عباس : نزلت فى أهل مكة قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التى حرم الله لم يغفر له ، فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا مع الله إلهاً آخر وقتلنا النفس التى حرم الله ؟ فأنزل الله هذه الآية .
- وقال ابن عمر : نزلت فى عياش بن ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا أسلموا ثم فتنوا وعذبوا ففتنوا ، وكنا نقول : لا يقبل الله من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً أبداً ، قوم أسلموا ثم تركوا دينهم بعذاب عذّبوا به ، فنزلت هذه الآيات .
- وعن ابن عباس وعطاء : نزلت فى وحشى قاتل حمزة ، لأنه ظن أن الله لا يقبل إسلامه ، فأتى وحشى إلى النبى فقال : يا محمد أتيتك مستجيراً فأجرنى حتى أسمع كلام الله . فقال رسول الله : « قد كنت أحب أن أراك على غير جوار » .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) من حديث النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال : « الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهة ، فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان ، والمعاصى حمى الله من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه » ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) .

لذلك حينما نهى الحق سبحانه سيدنا آدم عن الأكل من الشجرة لم يقل له : لا تأكل منها ، إنما قال سبحانه : ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف]

لذلك تجد أن لفظ الاجتناب أقوى من لفظ التحريم وأشدّ ، وعجيبٌ أنْ نسمع من الذين يسرفون على أنفسهم يقولون : لم يردْ لفظ يحرم الخمر فى كتاب الله ، نقول : كيف وقد ورد ما هو أشدّ من التحريم وهو الاجتناب فى قوله سبحانه : ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ [(1)] وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة]

لأن معنى (فَاجْتَنِبُوهُ) يعنى : ابتعدوا عنها بالكلية فجانبوا مجلسها ، وجانبوا شاربها ، وجانبوا بائعها ، وجانبوا ناقلها .. الخ فهذا أبلغ فى التحريم من قولنا لا تشرب الخمر ، بدليل أن القرآن استخدم لفظ الاجتناب فى قمة الإيمان العقدى ، فقال سبحانه : ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [الحج]

فإذا تناولنا الإسراف فى الإنفاق نجد أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن تسير حركة الحياة فى المجتمع الإيمانى حركةً متوازنة متساوية تتوسط فى الأمور ، بمعنى أنك تعرف دخلك ورزقك الذى يسوقه الله إليك ، والله لا يريد منك أنْ تقبض هذا الرزق وتمسكه فلا تنفق منه ، ولا يريد منك أن تنفقه كله أو تسرف فيه بل يريد

---

(١) الأنصاب جمع نُصب وهو ما ينصب ليعبد من دون الله أو ليذبح عنده الذبائح تقرباً إليه أو إلى الأصنام [القاموس القويم ٢/٢٦٧] والأزلام جمع زلم وهو قطعة من الخشب تشبه السهم يقترعون بها ، فيقسمون بها الذبائح يكتب على كل زلم عدد الأنصباء يأخذه من المقامرين مَنْ يخرج له وهو نوع من الميسر المحرم شرعاً . [القاموس القويم١/٢٨٩] .

الوسطية ، كما بيَّن سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان] فالإسراف والتقتير كلاهما مذموم منهيٌّ عنه ، فمَن اتخذ سبيلاً غير سبيل الوسط أضرَّ بنفسه وبالمجتمع ، لأنه إنْ أمسك المال قلَّتْ قوة الشراء وقوة البيع فى الأسواق ، ويترتب على ذلك ركود فى الحركة التجارية والصناعية وبوار للسلع وكساد فى السوق .

وإنْ أسرف وبذَّر فأنفق كل دَخْله لم يجد شيئاً يدخره لينمى به حياته ويُحسِّن من مستواه ويرتقى بحياته ، وعندها يلوم نفسه لأنه يرى غيره يرتقى ويُرفِّه حياته وهو لا يستطيع .

وهذا المعنى أوضحه الحق سبحانه فى قوله تعالى :

﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا [1] ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء]

والمعنى : ملوماً حين تمسك وتضنّ ، محسوراً حين تسرف وتبذر ، لأنه سيجد أهل الوسطية يعيشون عيشة السعداء ، لا لومَ ولا حسرة . والعاقل هو الذى يُخضع مصرفه لدخله ، لا أنْ يُخضع دخله لمصرفه ، لأنك حين تخضع دَخلك لمصرفك فلابدَّ أنْ تمتدَّ يدك للاقتراض من الناس ، وهذا سيتعبك ويشقّ عليك ، وسوف تُعييك الحيل ، ويقبض الناس عنك نفوسهم ، وتهون فى أعينهم حتى تعيشَ بسبب ذلك فى كرب .

إذن : نقول : الإسراف تجاوز الحدّ فيما يعود عليك بالشر والضرر ، لذلك قال تعالى : ﴿ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر] أما

---

(١) المحسور : هو الحسير والحسران إذا اشتدت ندامته على أمر فاته . والحسرة : أشد الندم حتى يبقى النادم كالحسير من الدواب الذى لا منفعة فيه . [لسان العرب - مادة : حسر].

الإسرافُ الذى يعود عليك بالخير فهو إسراف لك لا عليك كالذى يدفع زكاة مـاله عشرة بالمائة بدلاً مـن ٢,٥ بالمائة ، لأنه أيقن أن هذا هو الباقى له والمدَّخر عند الله ، فواحد يعـمل لأمر دنياه فحسب ، وواحد يعمل للدنيا وللآخرة .

لذلك لما سُئل الإمـام على رضى الله عنه : يا إمام أريد أنْ أعرف أنا من أهل الدنياَ ، أم من أهل الآخـرة ؟ قال : ليس عندى جواب هذا السؤال ، إنمـا جوابه عندك أنت ، قال : كـيف ؟ قال : إذا دخل عليك اثنان : واحد بهدية ، والآخر يريد صدقة أو معونة ، فانظر إلى أيِّهما تبشّ ، وبأيهـما ترحب ، فـإنْ رحبتَ بصـاحب الهدية فـأنت من أهل الدنيا ، لأنك تحب مَنْ يعـمر لك دنياك ، وإنْ كانت الأخـرى فأنت من أهل الآخرة ، لأنك تحب مَنْ يعمر لك آخرتك .

وتعرفون قصة الشاة التى أهديتْ لسيدنا رسول الله ﷺ فتصدقت بها السيدة عائشة ولم تبْق منها إلا كـتفها ، فلما سألها رسـول الله : « ماذا صنعت بالشـاة » ؟ قالت : كلها ذهب إلا كـتفهـا - وكان ﷺ يحب من الشاة الكتف - فقال ﷺ : « بل بقيت كلها إلا كتفها »[(١)]

إذن : الباقى هو مـا تصدَّقنا به ، والذاهب مـا أكلناه ، ويؤيد هذا الحديث قـوله ﷺ فى الحديث : « يا ابن آدم ، ليـس لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدقتَ فأبقيتَ »[(٢)]

ثم يفتح الحق سبحانه طاقةَ الأمل لمنْ أسرف على نفسه ، فيقول

---

(١) حديث صـحيح . أخرجه أحـمد فى مسنده (٦/٥٠) والترمـذى فى سننه (٢٤٧٠) ، وقال : هذا حديث صحيح ، وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (٥/٢٣) ولفظ الحديث عن عائشة أنهم ذبحوا شاة فقال النبى ﷺ : ما بقى منها ؟ قالت : ما بقى منها إلا كتفها . قال : بقى كلها غير كتفها .

(٢) أخرجه أحمـد فى مسنده (٤/ ٢٤، ٢٦) ومسلم فى صحيحـه (٢٩٥٨) والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه .

لهم : ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ (٥٣) ﴾ [الزمر] القنوط هو اليأس من رحمة الله ، لكن لماذا نيأس من رحمة الله ؟ قالوا : لأنهم أسرفوا على أنفسهم وبالغوا فى المعصية وتمادَوْا فيها ، وحين يعود المسرف ويرجع يلوم نفسه ويؤنبها وتعظم ذنوبه فى نظره ، ولا يرى نفسه أهلاً للمغفرة ولا للرحمة فيداخله اليأس والعياذ بالله .

والمتأمل يجد هذا اللوم للنفس وهذا اليأس من الرحمة هو من جهة أخرى ظاهرة صحية فى الإيمان ، لأن استعظامَ الذنوب وكوْن المسرف لا يرى نفسه أهْلاً للرحمة ، هذا يدل على سلامة إيمانه وعلى خوفه من ربه .

قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر]

قال عنها ابن عباس أنها أرْجَى آية فى كتاب الله لأنها تعطى الأمل لكل مذنب مهما كانت ذنوبه . ولولا أن الله تعالى أعقبها بقوله : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ (٥٤) ﴾ [الزمر] لأورثتْ الناسَ التهاون وأطمعتهم فى رحمة الله طمعاً يُنسيهم عذابه ونقمته ، فالمؤمن يتقلَّب فى حركة حياته بين الخوف والرجاء ، ولا بدَّ له منهما معاً .

نعم ربك غفور رحيم ، لكن لا بدَّ لكى تكون موضعاً لهذه الرحمة ومُتعلّقاً لهذه المغفرة ، لا بدَّ أنْ تنيب إلى الله ، وأنْ ترجع إليه رجوعاً صادقاً مخلصاً ، لأن الذى يذنب ويتوب ، ثم يذنب ويتوب كالمستهزئ بربه ، نعوذ بالله من هذا .

لما قال ابن عباس عن هذه الآية أنها أرجى آية فى كتاب الله قال أحد جلسائه : وأنا أرى أن أرجى آية فى كتاب الله هى قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ (٦) ﴾ [الرعد] وأنا أنتقد العلماء

الذين يفسرون ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ⟨٦⟩﴾ [الرعد] بمعنى : مع ظلمهم ، وهذا لا يستقيم ، ومعنى الآية بحيث نقول عنها أنها أرجى آية فى كتاب الله ، ونلاحظ هنا أن (مع) حرفان أما (على) فثلاثة حروف ، فلا بدّ أن المعنى الذىَ تؤديه على لا تؤديه مع ، لأنه ما دامت هنا مغفرة للذنب ، والذنب يتطلب صفة القهار والجبار والمنتقم ، لكن مغفرة الله تعلو على الذنب فتمحوه ، وهذا المعنى لا تؤديه مع[1] .

وهنا وقفة للمستشرقين الذين يحاولون النَّيْل من أسلوب القرآن ، وقد رأوْا تعارضاً بين قوله تعالى هنا : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ⟨٥٣⟩﴾ [الزمر] وبين قوله سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ⟨٤٨⟩﴾ [النساء]

ونقول لهؤلاء : جهلكم بلغة القرآن ومعطيات الأسلوب أوقعتكم فى هذا الخطأ ، لأن الذنب يعنى ارتكاب جُرم جرَّمه الله وجعل له عقوبة ، والشرك بالله ليس ذنباً بهذا المعنى ، لأن الشرك يُخرج صاحبه من الملة أصلاً ، وعليه فليس بين الآيتين تعارض كما تظنون .

قالوا[2] : نزلت هذه الآية : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ..⟨٥٣⟩﴾ [الزمر] نزلتْ فى شأن وحشى قاتل سيدنا حمزة فى أُحُد لما أخذت هندٌ كبد سيدنا حمزة ولاكتْها .

---

(١) ممن قال أن على هنا بمعنى مع ابنُ كثير فى تفسيره (٢/٥٠١) ، قال : « أى : أنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار » وقد قاله ابن هشام فى « مغنى اللبيب » (١/١٢٦) أن معنى على هنا المصاحبة وذكر هذا الشاهد من الآية .

(٢) قاله عبد الله بن عباس وعطاء . قاله القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩١٤) وقال الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص٢٩٢) ، « ويروى أن الآيات نزلت فى وحشى قاتل حمزة» وذكر الرواية بسنده إلى ابن عباس (ص١٩٣) .

ونقول : لقد قُتل حمزة فى أُحُد ولم يُسلم وحشى بعدها ، إنما أسلم بعد فترة طويلة ، لذلك قال الذين يريدون أنْ يُوفِّقوا بين الأقوال : لعل وحشياً لما قتل حمزة وتذكر مكانته فى الإسلام ، وأنه أسد الله قنطَ من رحمة الله ، وهذا القنوط قد يدعوه إلى المزيد من الشر والفجور ، وقابله أحد الصالحين وقال له : لا تقنط من رحمة الله ، فقد قال الله تعالى :﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر]

لما سمع وحشىٌّ هذا الكلام أسلم ، فما منعه من الإسلام إلا الخوفُ مما فعل ، فإذا كان أمر المغفرة على هذا النحو فلماذا لم يسلم ، وقد ضمن له ربه المغفرة ؟ إذن : الآية سابقة على هذه القصة ، ولم تنزل فى شأنه خاصة إنما نزلتْ قبله ، لكنها قيلتْ له وقُرئت عليه ، فكانت سبباً فى إسلامه .

وكلمة ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر] قصرت المغفرة والرحمة عليه سبحانه وتعالى ، لأن كل ذنب من الذنوب حَقٌّ لله تعالى ، وما دام الذنب حقاً من حقوق الله فهو وحده الذى يملك أن يغفره وأن يرحم صاحبه ، وله سبحانه أنْ يُؤاخذ ويعاقب ، لأن له سبحانه طلاقة القدرة ، وليس معه سبحانه إله آخر يعترض عليه .

وهذا المعنى واضح فى قصة سيدنا عيسى عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ

وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي[1] كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

نلحظ هنا فى تذييل هذه الآية أنه لم يقل : فإنك أنت الغفور الرحيم فهو المناسب للمغفرة إنما قال : ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة] فقوله (العزيز الحكيم) دلَّ على أن عيسى عليه السلام يرى أنهم يجب أن يجازوا فى هذه الفرية ، ولكن الحق سبحانه له طلاقة القدرة فى أنْ يغفر أو يُعذب ، ولو كان له سبحانه شريك فى هذه المسألة ما قال ذلك ، إنما هو سبحانه عزيز حكيم لا يُعقِّب أحدٌ على ما تصرَّف فيه ، فهو سبحانه الذى يغفر لهم لا لأنه غفور رحيم ، إنما هم يستحقون العقوبة ، وإذا غفر الله لهم فلأنه عزيز حكيم .

﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) ﴾

الإنابة : هى التوبة والرجوع إلى ساحة الإيمان بالله إلهاً واحداً لا شريكَ له . والإسلام : أنْ تنفذ مطلوبَ الله منك فى الأمر والنهى بافعل ولا تفعل .

لكن هل تعنى الإنابة أنهم كانوا مع الله ثم انصرفوا عنه إلى

(١) يأتى التوفى بمعنى الإماتة وقبض الروح مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ (٩٧) ﴾ [النساء] ، ويأتى بمعنى يجعلكم تنامون بالليل نوماً يشبه الموت فى العجز عن الحركة وعن الوعى مثل قوله ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ (٦٠) ﴾ [الأنعام] .

الكفر ، فيطلب منهم العودة والرجوع إلى ساحة الإيمان مرة أخرى ؟ نقول : لا بل معنى الإنابة هنا الرجوع إلى العهد الأول الذى أخذه الله على عباده وهم فى عالم الذر ، وهم فى ظهر آدم عليه السلام ، هذا العهد الذى قال الله فيه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ من بَنِي آدَمَ من ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

فالمعنى ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ (٥٤) ﴾ [الزمر] ارجعوا إلى إيمانكم به الإيمانَ الفطرى الذى أخذ عليكم العهد به . هذا الإيمان الفطرى هو الذى يصحب الإنسان فيستيقظ ضميره بعد المعصية فيتوب أو بعد الكفر فيؤمن ، هذا الإيمان الفطرى المستقر فى قرار النفس البشرية هو الذى ينبهها إنْ غفلت ، هذا الإيمان هو الذى نبَّه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما ، فآمنوا حينما رجعوا إلى العهد الأول والإيمان الفطرى .

﴿ من قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (٥٤) ﴾ [الزمر] ما معنى النُّصْرة هنا والكلام عن الآخرة ؟ أى : لا يتناصر أهل الباطل ولا يدافع أحدٌ منهم عن الآخر لا التابع ولا المتبوع ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) ﴾ [الصافات]

نعم ، لا يتناصرون لأن الموقف هنا موقف خصومة ولوم ، حيث يُلْقى كل منهم التبعة على الآخر ، ويتبرأ كل منهم من الآخر ؛ لذلك

قال سبحانه : ﴿ الْأَخِلَّاءُ[1] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) ﴾

كلمة (أحسن) أفعل تفضيل يدلّ على المبالغة ، ونفهم منه أن الأقل فى الخير حسن ، نقول : هذا حسن وهذا أحسن منه . والأمر هنا باتباع الأحسن ، فمثلاً الحق سبحانه يُنزِّل من الأحكام ما يرضى النفس البشرية كى لا تمتلىء غيظاً وكرهاً للناس ، فيقول سبحانه : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ (١٢٦) ﴾ [النحل]

يعنى : إياك أنْ تتجاوز المثلية إنْ أردتَ أن تعاقب ، فإنْ قدرتَ على هذه المثلية دون أن تتجاوزها فهذا حسن ، لكن الأحسن منه أنْ تعفو كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. (١٧٨) ﴾ [البقرة]

وقال : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

هذا هو الأحسن ومن ذلك قوله تعالى فى مسألة التبنى : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ (٥) ﴾ [الأحزاب] تعرفون قصة تبنِّى رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة ، وأن زيداً خُيِّر بين أهله وبين رسول الله فاختار البقاء مع رسول الله ، وقال : ما كنتُ لأختار على رسول

---

(١) الأخلاء جمع خليل ، وهو الصديق المخلص .[القاموس القويم١/٢٠٨] .

الله أحداً ؛ لذلك كافأه رسول الله ونسبه إلى نفسه ، فقال : زيد بن محمد.(١)

فلما أراد الحق سبحانه أن يحرم التبنى وأنزل ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ ۝ ﴾ [الأحزاب] أنصف سيدنا رسول الله وجعل فعله حسناً ، لكن مراد الله أحسن وفعل رسول الله قِسْط ، واختيار الله أقسط ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۝ ﴾ [الأحزاب] والحكمَة من ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ ۝ ﴾ [الأحزاب] حتى لا تهدروا سبب الوجود وهو الأب ، لأن إهدار سبب الوجود المباشر وهو الأب يُجرِّئك أنْ تنكر سببَ الوجود الأعلى سبحانه .

أو نقول : معنى ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ۝ ﴾ [الزمر] أن القرآن نزل وفى القوم ديانتان اليهودية وكتابها التوراة ، والنصرانية وكتابها الإنجيل ، ولما نزلتْ هذه الكتب وغيرها كان لها أناس آمنوا بها ، وآخرون كفروا وأشركوا ، بل ومنهم ملاحدة .

فالأمر فى (وَاتَّبِعُوا) أمر للجميع يعنى : يا مَنْ آمن بموسى ، ويا مَنْ آمن بعيسى ، لقد كان هذا الدين فى وقته حسناً ، أما الآن فقد جاء الإسلام الدين الخاتم المهيمن على كل الأديان ، وأصبح هو الأحسن الواجب عليكم اتباعه .

ومرة يكون أفعل التفضيل يعطى للواقع ، لكنه لا ينظر إلى المقابل وهو الأقبح ، إنما ينظر إلى المساوى فى الصفة بالقلة ، إلا فى شىء واحد لاحظناه فيما يتعلق بالحق سبحانه وتعالى . فمن أسمائه الكبير وليس من أسمائه الأكبر ، مع أنه كان المفروض حسب

(١) أخرج الترمذى فى سننه (٣٨١٥) من حديث جبلة بن حارثة أخو زيد قال : قدمت على رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ابعث معى أخى زيداً ، قال : هو ذا . قال : فإن انطلق معك لم أمنعه ، قال زيد : يا رسول الله والله لا أختار عليك أحداً . قال : فرأيت رأى أخى أفضل من رأيى . قال الترمذى : هذا الحديث حسن غريب .

القاعدة أن نقول الأكبر لأنها مبالغة من الكبير ، فلماذا إذن ؟

نقول : كلمة أكبر وردتْ على أنها صفة للحق سبحانه نسمعها كل يوم فى كل أذان وفى كل إقامة للصلاة ، والصلاة عبادة لها خصوصيتها ومنزلتها فى الدين ، فهى العبادة التى تتكرر خمس مرات كل يوم ، وهى العبادة التى لا تسقط بحال عن المؤمن ما دام فيه نفَسٌ يتردّد ، وهى العبادة التى لم تُشرع بالوحى كباقى العبادات ، إنما شُرعت بالمباشرة فى رحلة المعراج ، هذه العبادة حين ننادى لها نقول : الله أكبر ولم يقل : الله كبير .

وهنا موضع العظمة مع أن أكبر أبلغ فى المعنى من كبير ، لأن التكاليف من الحق سبحانه لا تريد منك مجرد الصلاة والصيام والحج .. الخ إنما تريد منك أنْ تؤدى كل حركة نافعة فى الحياة مُعينة للتدين ؛ لذلك قالوا فى القواعد الشرعية : ما لا يتم الواجبُ إلا به فهو واجب .

ولك أنْ تتأمل مثلاً فريضة الصلاة ، كم من الأعمال لا بدّ منها لتؤدى هذه الفريضة ؟ خُذْ مثلاً ستر العورة وهى واجب لا تتم الصلاة إلا به ، لكى تستر عورتك لتصلى تحتاج إلى ثوب تلبسه ، كيف يتوفر لك هذا الثوب ؟ إنه يحتاج إلى خياط يخيطه ، ويحتاج لتاجر التجزئة الذى تشترى منه القماش ، ثم تاجر الجملة ، ثم مصنع النسيج والغزل والصباغة والمحلج ، ثم الفلاح الذى يزرع القطن ويجمعه .

كل هذه العملية تحتاج إلى عُدَد وماكينات وآلات وأيد عاملة ، كذلك الحال فى الطعام الذى لا بدَّ لك منه لتقوى على أداء الفرائض ، كل هذه الحركة من أجلك ، تخدمك وتعينك ، فهذه الأعمال الدنيوية

التى لا تقوم الديانة إلا بها هى واجبة لا يُستهان بها ، بل ينبغى المحافظة عليها وتقديسها ، لأنها فى منزلة الواجب .

وحين يأخذك ربك من هذه الأعمال إلى الصلاة مثلاً لا يأخذك من عمل تافه هيِّن لا قيمة له ، إنما يأخذك من عمل هو فى حَدِّ ذاته عبادة ، لذلك جعله كبيراً أما الذى يناديك للصلاة فأكبر من هذا كله ، لذلك لم يُناد الحق سبحانه المؤمن فى صلاة إلا فى صلاة الجمعة ، حيث قال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ۝٩ ﴾ [الجمعة]

وخَصَّ البيع دون سائر الأعمال ، لأنه ثمرة باقى الأعمال من تجارة وزراعة وصناعة ، والإنسان أحرص على البيع منه على الشراء ، لأن البيع هو الصفقة عاجلة الربح ؛ لذلك نجد الإنسان حريصاً أن يبيع على خلاف المشترى ، فالمشترى مثلاً حين لا يجد السلعة التى يريدها يقول (بركة يا جامع) لأنه سيدفع من جيبه ، أما البائع فيأخذ ويربح .

فإذا ما انتهتْ الصلاة ردَّك ربك إلى العمل الذى استدعاك منه وأعادك إلى دنياك : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. ۝١٠ ﴾ [الجمعة]

إذن : لا تستهنْ بعمل الدنيا ولا تظنه بعيداً عن الدين ، بل هو جزء منه ، وما لا يتم الواجب الدينى إلا به فهو واجب ، والذى يعصى فى هذا مثل الذى يعصى فى هذا ، فحين نقول فى النداء للصلاة : الله أكبر تذكَّر أن غيره كبيرٌ لا يُستهان به ، لكن الذى يعطيك الطاقة أكبر من هذا الكبير ، فلا تنشغل بالكبير عن الأكبر .

والآن تتضح الحكمة من أن الله تعالى سمَّى نفسه الكبير لا

الأكبر ، فحين نقول : الله كبير هذا يعنى أن ما عداه صغير ، لكن لو قلنا أكبر فما عداه كبير .

إذن : فحين تقف فى أحكامه تعالى أمام (حسن) و(أحسن) فاتبع الأحسن مما أنزل : ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ..(٥٥)﴾ [الزمر]

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥)﴾ [الزمر]

كلمة (بغتة) يعنى فجأة ، والعذاب لا يفاجئ إلا الغافلَ اللاهى الذى يعيش ، وليس فى باله هذه المسألة ، وإلا لو كان فى باله لاتقاه وتجنَّب أسبابه ، وحين يأتى لا يكون بغتة .

لكن كيف يفاجئه العذاب ؟ نقول : ما الفارق بين أن يعيش الإنسانُ فى حياته الدنيا وبين أنْ يلاقى العذاب ؟ الفارق بينهما أن يموت ، مجرد أن يموت وتخرج روحه ينتقل من سعة الدنيا إلى عذاب الآخرة إنْ كان من أهل العذاب والعياذ بالله .

ومعلوم أن خروج الروح ليس له ميعاد ولا يعلمه أحد ، لأن النفَس ربما فى أىِّ لحظة يدخل ولا يخرج ، هذه المسألة ينبغى أن تكون على بال المؤمن لا يغفل عنها أبداً .

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ (٥٦)﴾

هذا نموذجٌ للنفس حين تتحسَّر وتلوم نفسها ، لماذا أوصلتَ نفسك إلى هذا الموقف ، طلبنا منك أنْ تنيبَ إلى الله ، وأنْ تسلمَ له فى أحكامه ، وأن تتبع أحسن ما أُنزل إليك لترفع عن نفسك الحرج

وتُجنِّبها اللوم ، ولا تقف هذا الموقف لكنك لم تستجب .

كلمة ﴿ يَـٰحَسْرَتَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزمر] هذا أسلوب نداء ، فأيُّ شيء ينادى العبد ؟ ينادى الحسرة والحزن والأسى يقول : يا حسرتى احضرى تعالَىْ ، فهذا أوانك ، يتحسَّر على نفسه بعد أنْ فاتته الفرصة ، ومعلوم فى النداء أنه لا ينادى إلا النافع لكن الموقف هنا موقف تحسُّر وندم ، والحسرة هنا مضافة لياء المتكلم والألف للإطلاق .

ومعنى ﴿ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزمر] على ما قصَّرت فى حق الله وفى طاعته[1] ، والتفريط هو إهمال ما يجب أنْ يتقدم ، لأن الفرصة إنْ فاتت لا تُعوَّض ، كالتلميذ الذى يهمل دروسه ونراه يهتم مثلاً ليلة الامتحان . نقول له : يا بنى (قبل الرِّماء تُملأ الكنائن)[2] هذا مَثَلٌ يُضرب لمن لا يستعد للأمر قبل أوانه ، فالصياد يخرج للصيد وقد أعدَّ له أدواته ، حتى إذا ما وجد صيده بادره قبل أنْ يهرب ، لأن الغزالة مثلاً لا تنتظر الصياد حتى يملأ كنانته أو يُعدّ سهمه .

إذن : أنت تتحسَّر على نفسك وتلومها ، لأنك لم تستغل الفرصة وأهملتَ حتى فاتتك وهى لا تُعوَّض ، فليس أمامك إذن إلا التحسُّر وعضّ أصابع الندم ، فكأن الأمرين اللذين سبقا هذه الآية وهما : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الزمر] ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٥٩١٦/٨) لمعنى (جنب الله) أقوالاً كثيرة ، منها :
- طاعة الله . قاله الحسن
- ذكر الله . قاله الضحاك .
- ثواب الله . قاله أبو عبيدة
- طلب جواره وقربه وهو الجنة . قاله الفراء .
- طريق الله الذى دعانى إليه . قاله الزجاج .

(٢) ذكره أبو هلال العسكرى فى جمهرة الأمثال ، وقال : يضرب مثلاً فى الاستعداد للنوائب والأمور قبل حلولها . والكنائن جمع كنانة ، وهى الجعبة ، وكذا ذكره الزمخشرى فى المستقصى فى أمثال العرب .

إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم .. ﴿٥٥﴾ [الزمر] كان ينبغى العمل بهما ليحموا أنفسهم من أنْ يقولوا ساعةَ يرون العذاب ﴿يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ .. ﴿٥٦﴾ [الزمر] فرحمته تعالى ورفقه بعباده لا يحب منهم أنْ يقولوا هذه الكلمة ، فالله لا يريد لعبده أنْ يقف موقف التحسُّر ، ولا يرضى له ذلك ، فحين يقول لنا : لا تقنطوا من رحمة الله ، وأنيبوا ، وأسلموا ، وابتغوا أحسن ما أنزل إليكم يريد أن ينبه الغافل ويحذر مَنْ يفكر فى الكفر ويُذكِّره بالعواقب ، وبما سيكون منه حين يرى العذاب من حسرة .

والحسرة أسف وندم على خير فات لا يمكن تداركه ، والكافر لا يتحسَّر حسرةً واحدة إنما حسرات كثيرة ملازمة له ، فكلما رأى العذاب الذى ينزل به تحسَّر ، وكلما رأى المؤمنين فى نعيم تحسَّر ، وكلما تذكَّر دُنياه تحسَّر .

وقوله تعالى : ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ [الزمر] يعنى : الأمر لم ينته عند حَدِّ التفريط والتقصير فى جنب الله ، إنما تعدَّاه إلى السخرية ممَّنْ يقفون فى جنب الله ، فالذنب مُضَاعف ، وسبق أنْ ذكرنا نموذجاً من سخرية أهل الباطل بأهل الحق ، واستهزائهم بهم فى قوله تعالى من سورة المطففين :

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ[1] ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ [المطففين]

(١) الفكه : كثير المزاح والاستهزاء بالآخرين ، ومنه قوله تعالى ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ [المطففين] يسخرون من المؤمنين ويتندرون بهم . [القاموس القويم ٢/٨٨] .

وكثيراً ما نسمع أهل الباطل يسخرون من أهل الحق : يقولون فلان هذا صُللى ، يا عم خذنا على جناحك .. الخ لكن يكفى أهل الإيمان أن الله هو الذى سيأخذ لهم حقهم فى دار البقاء ، فإنْ سخروا منكم فى الدنيا الفانية فسوف تسخرون منهم فى الباقية الدائمة ، وإنْ ضحكوا منكم ضحكاً موقوتاً منقطعاً فسوف تضحكون منهم ضحكاً أزلياً باقياً .

وفى هذه الآية ملحظ ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦)﴾ [الزمر] حين نتتبع كلمة النفس فى القرآن الكريم نجد أنها تأتى دائماً مؤنثة ، كما فى قوله تعالى :

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ (٥٣)﴾ [يوسف] وقوله : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)﴾ [الشمس]

أما هنا فغلَّب التذكير ، فقال حكاية عن النفس : ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦)﴾ [الزمر] ولم يقل الساخرات ، لماذا ؟ قالوا : النفس مؤنثة ، فإن أُريد بها الإنسان تُذكَّر .

وبعد أن حذرنا الحق سبحانه من موقف التحسُّر والندامة فى الآخرة يحذرنا من شىء آخر تتعرض له النفس حين ترى العذاب ، فيقول سبحانه :

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى : ﴿أَوْ تَقُولَ (٥٧)﴾ [الزمر] أى : النفس ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ

هَدَانِي ﴿٥٧﴾ ﴾ [الزمر] أى : فى الدنيا ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الزمر] وهذا عجيب ، عجيبٌ أنْ تكذب حتى فى الآخرة ، لأن معنى ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي ﴿٥٧﴾ ﴾ [الزمر] أنه سبحانه لم يهدك وهذا كذب .

يقول الإنسان مدافعاً عن نفسه : إن عدم وجودى فى صَفِّ المتقين أن الله لم يهدنى ، هذه كذبة لأن الله هداك ودلَّكَ وأرشدك إلى طريق الخير وبيَّن لك الحلال والحرام ، لكنك لم تتبع هَدْيه ولم تَسِر على منهجه ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : عودة ورجعة إلى الدنيا مرة أخرى .

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ ﴾ [المؤمنون] هذه كلها أمانى كاذبة فلا تُصدِّقوهم ، فلو رجعوا لعادوا لما كانوا عليه وكما كذبوا فى الأولى ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي ﴿٥٧﴾ ﴾ [الزمر] كذبوا فى ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزمر]

والكذب قد يُتصوَّر من الإنسان فى الدنيا ، لكن عجيبٌ أنْ يكذب فى الآخرة ، وهو بين يدَىْ ربه عز وجل ، لذلك سيقول الحق بعدها : ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الزمر]

والظاهر أن الكذب (علق) معهم وتعوَّدوا عليه حتى أخذوه معهم فى الآخرة .

ثم يردُّ الحق على هذا الكذب فيقول سبحانه :

﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾

كلمة (بلَى) حرف جواب لا يأتى إلا بعد نفى ، فيفيد إثباتَ

المعنى المنفى قبله ، كما فى قوله تعالى :﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ (١٧٢) ﴾ [الأعراف] فيأتى الجواب ﴿ قَالُوا بَلَىٰ (١٧٢) ﴾ [الأعراف] يعنى : لا ، أنت ربنا ، والقاعدة أن نفى النفى إثبات ، ومثله : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨) ﴾ [التين] على مَنْ يسمعها أن يقول : بلى يا رب ، يعنى : لا .. أنت أحكم الحاكمين .

إذن : فأين النفى السابق على قوله هنا ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي (٥٩) ﴾ [الزمر] قالوا : كَوْنه نفى الهداية فى قوله : ﴿ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي (٥٧) ﴾[الزمر] لذلك جاء الجواب (بلى) يعنى : لا بل هديناك ﴿ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا (٥٩) ﴾ [الزمر] والآيات جمع آية ، وهى الشىء العجيب الملفت للنظر الداعى إلى التأمل والتفكر للعقل وللبصيرة .

والآيات كما ذكرنا على ثلاثة أنواع : آيات كونية تدل على قدرة المكوِّن سبحانه كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٣٧) ﴾ [فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ (٢٣) ﴾ [الروم]

وهذه الآيات الكونية التى تلفتنا إلى المكوِّن الأعلى هى الوسيلة الأولى للإيمان بالله ، لذلك كلما استنبط العلماء فى الكون شيئاً جديداً أو اكتشفوا جديداً وجدنا له أصلاً فى كتاب الله ، قالها الحق سبحانه منذ أربعة عشر قرناً من الزمان .

هذه الآيات الكونية يُظهرها الحق سبحانه حتى على أيدى الكافرين به ، لذلك حذَّرنا أنْ يتدخل علماء الشرع والفقهاء فى علوم الدنيا والكونيات؛ لأن الكونيات لها علماء اختصُّوا بها ، وسوف يخدم هؤلاء الدين وقضية الإيمان بالله ، وسيُظهرون لكم الأسانيد والأدلة على وجوب الإيمان بالله صاحب هذا الكون ومُكوِّنه .

إذن : فهؤلاء العلماء يتعبون ويفكرون ويبحثون فى الكونيات لخدمة المؤمن بالله وخدمة الدين ، فهم - وإن كانوا كافرين بالله - جند من جنود الحق ، وصدق الله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ[1] وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت]

والعجيب أنهم سيُحرمون الأجر على هذا الجهد المبذول ، لأنهم فعلوا ذلك وتوصَّلوا إلى ما توصَّلوا إليه ، وليس فى بالهم الحق سبحانه ، إنما فى بالهم خدمة الإنسانية ، فليأخذوا أجورهم من الإنسانية ، وفعلاً كرَّمتهم الإنسانية وصنعت لهم التماثيل ، واحتفلت بهم ؛ لذلك ليس لهم نصيب فى الآخرة .

وينطبق عليهم قوله تعالى : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان]

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ[2] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور]

يعنى : فوجىء بأن للكون إلهاً خالقاً ، فوجىء بالحساب والجزاء، وهذه أمور لم تكُنْ على باله فى الدنيا .

النوع الثانى من الآيات هى المعجزات التى تصاحب الرسالات ، لتدلَّ على صدق الرسول فى البلاغ عن ربه ، ومنها قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ .. ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء]

---

(١) الآفاق : جمع أفق . وهو الناحية ، وخط التقاء السماء بالأرض فى رأى العين ، ويستعار لمدى الاطلاع والذكاء فيقال هو واسع الأفق . ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ [التكوير] أى : ما بين السماء والأرض .

(٢) القيعة : الأرض الواسعة السهلة المطمئنة المستوية الحرة التى لا حزونة فيها ولا ارتفاع ولا انهباط ، لا حصى فيها ولا حجارة ولا تنبت الشجر . [لسان العرب - مادة : قوع] .

أما النوع الأخير فهى الآيات القرآنية التى تحمل أحكام الدين ، والتى قال الله فيها هنا : ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) ﴾ [الزمر]

وقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَكْبَرْتَ (٥٩) ﴾ [الزمر] استكبر يعنى : طلب أنْ يكون كبيراً ، يعنى : لم يتكبر فحسب ، إنما طلب ذلك وسعى إليه لكنه لم يُجبْ لذلك ؛ لأن الذى يستكبر لابدَّ أن يكون فى غنىً عمَّنْ استكبر عليه ، وإذا كنتَ فى مُلْك الله وتحت سلطانه وتأكل من رزقه وتعيش فى خيره ، فكيف تتكبر عليه ؟

ثم إن المتكبر ينبغى أن يتكبر بشىء ذاتى فيه لا يسلب منه ؛ لذلك الذين يتكبرون فى الدنيا إنما ينازعون الله صفته ؛ لأنهم يتكبّرون بلا رصيد ، ومَنْ من الخلق عنده ذاتية لا تُسلب منه ، لذلك نرى مَنْ يتكبر بعزٍّ يُذله الله ، ومَنْ يتكبر بغنىً يُفقره الله ، ومَنْ يتكبر بصحته وعافيته يُمرضه الله .

إذن : التكبّر الحق أنْ تتكبر بشىء تملكه لا يُسلب منك ، وشرُّ المتكبرين مَنْ يتكبر على ربه وخالقه والقادر على أن يسلب منه كل شىء ، أما الذى يتكبر على الخلق فغافلٌ عن عظمة ربه وكبريائه ؛ لأنه لو عرف عظمة ربه وكبرياءه لاستحى أنْ يتكبر وأنْ ينازع الله صفة من صفاته .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) ﴾

قوله سبحانه :﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ (٦٠) ﴾ [الزمر] أى : فى

قولهم : ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي (٥٧)﴾ [الزمر] وفي غيرها ؛ لأن الله هداك ودلَّكَ وأرشدك حين بعث لك الرسل مُؤيَّدةً بالمعجزات ، وأنزل لك الكتب وبيَّن لك الحلال والحرام ، وكذبوا في غير ذلك كالذين قالوا : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ (١٨١)﴾ [آل عمران] وكالذين قالوا : ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ (٦٤)﴾ [المائدة] ومثلهم الذين ادعوا أن مع الله آلهة أخرى .

كل هؤلاء كذبوا على الله ؛ لذلك يأتون يوم القيامة ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ (٦٠)﴾ [الزمر] نعم مسودة لأنهم الآن يواجهون الحق الذى كذبوا عليه ، فلابُدَّ أنْ تكون وجوههم مُسْودة عليها غبرة [1] ترهقها قترة[2] مما فعلوه .

وهذا ليس ذماً للسواد في ذاته ، لأن السواد خَلْق من خَلْق الله لا يُذَمُّ في ذاته ، فقد ترى الرجل أبيض اللون ، لكن تعلوه قتامة وقتر ، فتجد وجهه مظلماً والعياذ بالله ، وهذا أثر المعاصي والذنوب على الوجه في الدنيا قبل الآخرة .

وترى العبد الزنجي كأن وجهه زبيبة ، لكن يعلوه ضياء وإشراق، وتجد على وجهه علامات الصلاح ، وكأن وجهه يتلألأ نوراً ولا تزهد أبداً في النظر إليه ؛ لذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)﴾ [عبس]

إذن : الوصف لا يُمدح ولا يُذم لذاته ، والسواد والبياض هنا

---

(١) الغبرة : ما دقَّ من التراب . قال تعالى : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠)﴾ [عبس] أى : عليها غبار وتراب كناية عن الذل والشقاء . [القاموس القويم ٢/٤٧] .

(٢) القترة : غبرة يعلوها سواد كالدخان . [لسان العرب - مادة : قتر] قال ابن عباس : ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١)﴾ [عبس] أى : يغشاها سواد الوجوه . نقله ابن كثير في تفسيره (٤/٤٧٤).

ليس هو السواد كما نعرفه فى الدنيا فهى عملية نسبية ، وكنت أرى بعض الصالحين وكأن فى وجهه كشافاً يُضىء ، وتبدو الفرحة على وجهه وكأن نورَ اليقين وبشاشة الإيمان تعدَّتْ داخله ونضحَتْ على وجهه نوراً ونضارة ، وهو صاحب بَشْرة سوداء مثل الأبنوس .

ومثل هذا نجده فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)﴾ [لقمان] فهل يُذمّ صوت الحمير إنْ صدر منها ؟ لا لأن الخالق خلقه على هذه الصورة ، وعُلو صوت الحمار لحكمة لأنه قد يختفى مثلاً وراء جبل أو تَلٍّ عالٍ ، فلا يهتدى إليه صاحبه إلا من خلال صوته ، لكن يُذمُّ عُلو الصوت فى الإنسان ، فهو أنكر الأصوات إنْ صدر منه ما يشبه صوت الحمار .

كذلك فى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا[1] (٥)﴾ [الجمعة] فليس هذا ذماً للحمار ، لأن الحمار فى الحمل يؤدى مهمة وهى الحمل فحسْب ، فهو يحمل حمله دون تبرُّم ودون اعتراض ، لكن يُذمُّ الإنسان إنْ تشبَّه بالحمار فارتضى لنفسه أنْ يحمل فقط دون أنْ يعى ما يحمله ، ودون أنْ يفهم ، وأنْ يُطبق ما علم .

وقوله :﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى[2] لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠)﴾ [الزمر] هذا استفهام منفى نجيب عليه فنقول : بلى يا رب ، يعنى : لا بل لهم مثوى فى جهنم ، والمعنى : ماذا يظنون ؟ أيظنون أنه لا محلَّ لهم

---

(١) الأسفار : جمع سفر ، وهو الكتاب الكبير . وسفرت الكتاب : كتبته والسافر : الكاتب ، وجمعه سفرة أى كتبة . والسِّفر عند أهل الكتاب : جزء من التوراة أو من الكتب المقدسة . [القاموس القويم ١/٣١٥]

(٢) ثوى بالمكان : حله وأقام فيه واستقر به . والثاوى : المقيم مثل قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ (٤٥)﴾ [القصص] أى : مقيماً .

فيها ولا مكان ، إن مكانهم جاهز ومُعَدٌّ بأسمائهم ينتظرهم ويشتاق إليهم ، فليس فى جهنم أزمة مساكن كما قلنا .

فالحق سبحانه خلق أزلاً الخلق ، وجعل لكل واحد منهم مكاناً فى الجنة على اعتبار أن الخلق جميعاً سيؤمنون بالله ، وجعل لكل واحد منهم مكاناً فى النار على اعتبار أن الخلْق سيكفرون ، فإذا ما دخل أهل الجنة الجنةَ ، ودخل أهلُ النارِ النارَ وُزِّعَتْ أماكن أهل النار المعدة لهم لو آمنوا على أهل الجنة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) ﴾ [الزخرف]

ومعنى (مَثْوَى) أى : مكان إيواء وإقامة دائمة ﴿ لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) ﴾ [الزمر]

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) ﴾

هذا هو المقابل ، فالكافرون مثواهم وإقامتهم فى جهنم ، أما المؤمنون فينجيهم ربهم ﴿ بِمَفَازَتِهِمْ (٦١) ﴾ [الزمر] أى : بفوزهم ونَيْلهم لمرادهم . ونعيم الآخرة يُنال بشكلين : إما أنْ يدخل المؤمنُ الجنةَ بدايةً ، وإما أنْ يكون من أهل النار لكن تتداركه رحمة الله فيُزحزح عنها إلى الجنة .

كما قال سبحانه : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ (١٨٥) ﴾ [آل عمران] نعم فاز الفوز الأكبر ؛ لذلك يسمون الصحارى مفازةً مع أنها مُهلكة ينقطع فيها السائر ، لكن سمَّوْها مفازة تيمناً أن ينجو سالكها ، وكما يسمون اللديغ من الثعبان أو الحية يسمونه السليم ، أملاً فى أنْ يَسْلَم من لدغتها .

وإذا ما نجاهم الله وكتب لهم الفوز فقد سلموا من مجرد مَسِّ العذاب ﴿لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١)﴾ [الزمر] لأن كل المشاهد التي يرونها تفرحهم ، ولا شيء يُحزنهم أبداً ، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)﴾ [الأنبياء]

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢)﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه وعده ووعيده وبيَّن عاقبة الكافرين وعاقبة المؤمنين عاد إلى قضية عقدية أخرى ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢)﴾ [الزمر] وكأنه يقول : ما الذي صرفهم عن أنْ يؤمنوا بالله الإله الحق ، وهو سبحانه خالق كل شيء ؟

بعضهم أخذ هذه الآية ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢)﴾ [الزمر] ونسب كل الأفعال إلى الله ، فالله في نظرهم خالق كل شيء ، خالق الإيمان وخالق الكفر ، وخالق الطاعة وخالق المعصية ، وبالتالي قالوا : فلم يعذب صاحبها ؟

نقول : هناك مَنْ يتعصب لقدرة الحق فيقول : كل شيء بقدرته تعالى ، وهناك مَنْ يتعصب للعدالة فيقول : إن الإنسان هو الذي يفعل وهو الذي يسعى لنفسه ، لذلك يُثاب على الطاعة ويُعاقب على المعصية . وهذا خلاف ما كان ينبغي أنْ يُوجد بين علماء ؛ لأن الطاعة أو المعصية فعلٌ ، والفعل ما هو ؟

الفعل أداء جارحة من الجسم لمهمتها . فالعين ترى ، لكن الخالق سبحانه وضع للرؤية قانوناً ، وجعل لها حدوداً ، فالعين ترى ما أُحلَّ

لها وتغضّ عما حُرِّم عليها ، كذلك الأذن واليد والرِّجْل واللسان ... الخ فإن وافقتَ فى الفعل أمر الشرع فـهو طاعة ، وإنْ خالفتَ أمر الشرع فهى معصية .

فمـثلاً الرجل الذى يرفع يـده ويضرب غيـره ، بالله هل هو الذى جعل جـارحته تفعل أم أنه وجّـه الجارحة لما تصلح له ؟ إنـه مجرد مُوجِّه للجـارحة ، وإلا فهو لم يخلق فيهـا الفعل ، بدليل أنه لا يعرف العـضـلات التى تحـركتْ فـيـه ، والأعـصـاب التى شـاركتْ فى هذه الضربة .

إذن : نقول إن الفـعل شىء ، وتوجيـه الجارحة إلـى الفعل شىء آخر ، فـالفعل كـله مخلوق لله ، فـهو سبـحانه الذى أقـدر الأيدى أنْ تضرب ، وهو الذى أقدرها أنْ تمتد بالخير للآخرين ، الخالق سبحانه هو الذى أقـدر لسان المـؤمن أن يقول : لا إله إلا الله مـحـمـد رسول الله ، وأقدر لسان الكافر أن ينطق بكلمة الكفر والعياذ بالله ، العين فى استطاعتك أنْ تنظر بها إلى الحلال ، وفى استطاعتك أن تنظر بها إلى الحرام .

إذن : أقدر الله كلَّ جارحـة على المهمة التى تؤديهـا ، فإنْ كانت هذه المهمة موافقة للشرع فهى طاعة ، وإنْ كانت غير موافقة له فهى معصيـة . وعليه نقول : إن الله تعالى هو خالق الفعل على الحـقيقة . إذن : ما فعل العـبد فى المعصيـة حتى يُعاقب عليهـا ؟ وما فِعْله فى الطاعة حتى يُثابَ عليها ؟

إن فعل العبـد ودوره هنا هو توجيه الطاقة التى خلقهـا الله فيه ، هذه الطاقة التى جعلها الله صالحـة لأنْ تفعل الشىء وضده ، فالقدرة

على الفعل ليستْ من عندك ، إنما من عند الله ، وعليك أنت توجيه الطاقة الفاعلة .

فمَنْ نظر إلى الفعل فالفعل كله لله ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢)﴾ [الزمر] ومَنْ نظر إلى التوجيه والاختيار فهو للعبد ؛ لذلك نقول : إن العاصى لم يعْصِ غصْباً عن الله ، والكافر لم يكفر بعيداً عن علم الله وإرادته ، لأن الحق سبحانه لو شاء لجعل الناس جميعاً أمة واحدة على الطاعة والإيمان ، لكن ترك لهم الاختيار وتوجيه الأفعال ليرى سبحانه - وهو أعلم بعباده - مَنْ يأتيه طواعية وباختياره .

لذلك تأمل قوله سبحانه : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

فمن الخطأ أن نقول : إن الإنسان وحده هو المخيَّر ، إنما الكون كله مُخيَّر أمام الحق سبحانه ، لكن الفرق بين اختيار السماوات والأرض واختيار الإنسان أن السماوات والأرض لما خُيِّرت اختارت أنْ تتنازل عن مرادها لمراد خالقها سبحانه ، فهى اختارتْ بالفعل ، اختارت ألاَّ تكون مختارة ، وأن تكون مقهورة لمراد ربها ، أما الإنسان فقَبِلَ الأمانة واختار أن يكون مختاراً أمام خيارات متعددة .

وسبق أن أوضحنا الفرق بين تحمُّل الأمانة وأداء الأمانة ، وأن العبد قد يضمن نفسه عند التحمل ، لكن لا يضمن نفسه عند الأداء ، فهى إذن أمر ثقيل ، لذلك وصف الحق سبحانه الإنسان فى تحمله وتعرُّضه للأمانة بأنه ظلوم وجهول .

إذن : إياك أن تدخل فى متاهة فتفهم قوله تعالى : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢)﴾ [الزمر] على غير وجهه ، فتقول : خالق كفر الكافر

وعصيان العاصى ، فلماذا يعذبهم ؟ لأن الكافر هو الذى اختار الكفر ووجَّه طاقة الله لغير ما أراد الله ، والعاصى كذلك وجَّه طاقة الله إلى خلاف ما أمر به الله .

وهناك مَنْ يقول فى ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢) ﴾ [الزمر] أن الكلية هنا إضافية ، كما فى قوله تعالى فى قصة بلقيس : ﴿ وَأُوتِيَتْ[1] مِن كُلِّ شَيْءٍ (٢٣) ﴾ [النمل] يعنى : لم تُؤْتَ بكل شىء فمن هنا للتبعيض ، والمعنى : أنهم يريدون أنْ يُخرِجوا فعل العباد من هذه المسألة ، وهذا لا يجوز .

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢) ﴾ [الزمر] خبر أخبر به الحق سبحانه يحتمل ويحتمل ، لكن أدلة صدْق هذا الخبر نشأتْ حتى من الكافرين بالله ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٨٧) ﴾ [الزخرف]

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٢٥) ﴾ [لقمان]

إذن : فالظرف والمكان والمكين من خَلْق الله ، والله قد أخبر هذا الخبر وبلَّغه رسول الله ، وفى القوم مَنْ جحدوا الله وأنكروه وادَّعوْا له شركاء ، ومع ذلك لم ينقض أحدٌ هذه الدعوى ولم يقُلْ أحد : إنى خالق هذا الكون . والدعوى تَسْلم لصاحبها ما لم يَقُمْ لها معارض ، ومعلوم أن الإنسان يدَّعى ما ليس له ، فلو كان له شىء من الخَلْق ما سكت عنه .

ثم إن الإنسان طرأ على هذا الكون ، فوجده كما هو الآن بسمائه

---

(١) أى : أنها أوتيت من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن . أما عرشها فكان عظيماً مزخرفاً بالذهب وأنواع الجواهر واللآلىء . [ابن كثير فى تفسيره ٣/٣٦٠] .

وأرضه ، فكيف يدَّعى أنه خالقه وهو أقدم منه ، بل وخَلْقه أعظم من خلقه ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر]

فإذا ما جاءنا رسول نعلم صدقه يخبرنا بأن لهذا الكون خالقاً صفته كذا وكذا كان يجب علينا أنْ نرهف له الآذان لنسمع حَلَّ هذا اللغز ، ومثَّلْنَا لذلك برجل انقطع فى صحراء مُهلكة حتى شارف على الموت وفجأة وجد مائدة عليها أطايب الطعام والشراب ، بالله ماذا يفعل قبل أن تمتدَّ يده إلى الطعام ؟ إنه لابدَّ أنْ يسأل نفسه : من أين جاءت هذه المائدة ؟

إذن : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الزمر] خبر عليه دليل من الوجود ، ودليل من المعاندين للخالق سبحانه ، والحقيقة أنهم لا يعاندون الحقَّ من أجل مسألة الخلق ، إنما يعاندونه اعتراضاً على شرعه وأحكامه ، لأن هذه الأحكام ستقيد نفوسهم فلا تنطلق فى شهواتها ، والإيمان له تبعات ووراءه حساب وعقاب وجزاء ، وإلا لماذا عبدوا الأصنام ؟

عبدوها لأنها آلهة لا منهجَ لها ولا تكاليف ، فهى تُرضى فطرة التديُّن عندهم بأن يكون له معبود يعبده ، وما أجملَ أن يكون هذا المعبود لا أمرَ له ولا نهىَ ولا تكاليف . إذن : قولهم :﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ[1] ﴿٣﴾ ﴾[الزمر] لفظ العبادة هنا لفظ خاطىء ، لأن معنى العبادة : طاعة العابد لأمر معبوده ونَهْيه ، وهذه الأصنام ليس لها أمر ولا نهى .

وقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾[الزمر] الوكيل : هو الذى تُوكله أنت فى العمل الذى لا تقدر عليه كما فى قصة سيدنا موسى

---

(١) الزلفى : القربة والدرجة والمنزلة ، وأزلف الشيء : قرَّبه [لسان العرب - مادة زلف] .

– عليه السلام – لما قال له قومه : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء] وهم ساعتها على حقٍّ ، لأن البحر من أمامهم ، وفرعون وجنوده من خلفهم ، فكل الدلائل تؤيد قولهم ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء]

لكن لموسى عليه السلام نظرة أخرى وشأن آخر ، إنه موصولٌ بربه معتمد عليه ومتوكل عليه ، يعلم علم اليقين أن الله وكيله فيما يعجز هو عنه ؛ لذلك ردَّ عليهم وقال (كلا) لم يقلها من عندياته ، إنما قالها برصيد من إيمانه بربه وثقته بنصره ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء]

ويقول تعالى في التوكل عليه : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ .. (٦٢) ﴾ [النمل]

وقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ[1] مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء] فالله وكيل لعباده جميعاً حتى الكافر منهم ؛ لذلك ترى مَنْ كفر بالله حين لا تسعفه أسبابه ، أو تضيق عليه أموره ، يقول : يا رب لأنه لا يخدع نفسه ولا يغش نفسه .

فكما صدق الحق سبحانه في الإخبار بأنه ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢) ﴾ [الزمر] صدق في الإخبار بأنه ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) ﴾ [الزمر] ألا ترى الزرع مثلاً يزرعه الفلاح ويرعاه ، فتراه نَضِراً جميلاً لكن قبل الحصاد تجتاحه جائحة[2] أو تحل به آفة فتهلكه ، بالله من عند مَنْ هذه الآفة ؟ من عند خصومك وأعدائك ؟ ! لا .. بل هي من عند الله .

---

(١) ضل الشيء : خفي وغاب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) ﴾ [القصص] أي : غاب عنهم ما عبدوه . [القاموس القويم ١/٣٩٥] .

(٢) الجوح : الاستئصال من الاجتياح . والجائحة : الشدة والنازلة العظيمة التي تجتاح المال من سنة أو فتنة . والجائحة المصيبة تحل بالرجل في ماله فتجتاحه كله . [لسان العرب – مادة : جوح]

ومـا دام أن الله تعـالى هو خـالق كل شىء وهو وكـيل على كل شىء ، فلا بدَّ أن يكون له مُلْك السماوات والأرض ؛ لذلك قال بعدها :

﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ[1] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

القرآن عربى نزل بلغات العرب الـمتداولة ساعة نزوله ، ومع ذلك ففى القرآن كلماتٌ وألفاظ فارسية أو حبشية أو رومية[2] وهذه الألفاظ لا تخرجه عن كونه عربياً ، لأنهـا دخلتْ لغة العرب قبل نزول القرآن واستعملها العربى وعرفها ، وصـارت جزءاً من لغته .

ومن هذه الكلمـات (مقاليـد) فلله ﴿ مَقَالِيدُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الزمر] وهى جمع مـقلاد على وزن مفـتاح ، أو جمع مـقليد ، وفى لغة أخرى يقولون أقاليد جـمع إقليد . ومعناها التملُّك والتصرف والحفظ والـصيانة ، فلله تعـالى مُلْك السمـاوات والأرض ، وله مُطلق التصرف فى أمورهما ، وله سبحانه حفظهما وتدبير شئونهما .

وهذه هى القـيوميـة التى لله تعالى ليظل كل شىء من خَـلْقه فى مـهمـته ، فـالحق سبـحـانه خلق من عدم ، وأمـدَّ من عُدم ، وشـرع الشـرائع ، وسَنَّ القـوانين ، ثم لـم يتـرك الخَلْق هكذا يسـيـر بهـذه القوانين كـما يدَّعى البعض ، إنمـا هو سبحـانه قائم على خلقه قـيُّوم

(١) مقاليد : جمع مفرده مقليد مقلاد ، إقليد . قـال ابن عباس وغيره : المقاليد المفاتيح ، وقال السدى : خزائن السماوات والأرض . وقال غـيره : خزائن السماوات المطر وخزائن الأرض النبات .[نقله القرطبى فى تفسيره ٨/ ٥٩٢٠] .

(٢) عقد السيوطى فى كتاب «الإتقان فى علوم القرآن» فـصلاً عما وقع فى القرآن بغير لغة العرب (ص ١٠٥-١٢٠) . ومن أمـثلة الألفـاظ الفـارسـيـة : أباريق - جـهنم - دينار . ومن أمـثلة الحبشى : سينين ، شطر ، الطاغوت ، وما جاء من الرومية : القسط ، القسطاس ، طفقا .

عليهم ، لا يغفل عنهم لحظة واحدة ، واقرأ :

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا [1] إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ .. (٤١)﴾ [فاطر]

ولو أن الكون يسير بالقوانين التى خلقها الله فيه - كما يقول الفلاسفة - لكانت الأمور تستقر على شىء واحد لا يتغير ، بمعنى أنْ يظلَّ الصحيحُ صحيحاً ، ويظلَّ العزيز عزيزاً ، والغنىُّ غنياً .. الخ لكن الأمر غير ذلك ، لأن لله فى خَلْقه قيومية وتصرُّفاً .

وقد سأل سيدنا عثمان - رضى الله عنه - سيدنا رسول الله ﷺ عن مقاليد السماوات والأرض ، فقال : « يا ابن عفان ، ما سألنى أحدٌ قبلك عنها ، مقاليد السماوات والأرض هى : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله وبحمده ، وأستغفر الله العظيم ، ولا حَوْلَ ولا قوةَ إلا بالله العلى العظيم ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، بيده الخير يُحيى ويميت ، وهو على كل شىء قدير . تلك مقاليد السماوات والأرض » [2]

هكذا فسَّر رسول الله كلمة مقاليد السماوات والأرض بأنها كلمات ذِكْر ، كأن الكون كله قائم بهذه الكلمات العقائدية .

فكلمة لا إله إلا الله تعنى أن الله واحدٌ لا شريكَ له ، فإذا قضى أمراً لا يعارضه معارضٌ ، ولا يعترض عليه معترض ، إنْ أعطى لا أحدَ يمنع

---

(١) إن : هنا بمعنى ما نافية . أى : ما أمسكهما .

(٢) أخرجه العقيلى فى الضعفاء الكبير (٤/٢٣١) ترجمة مخلد أبو الهذيل (١٨٢٥) وقال : فى إسناده نظر لا يتابع عليه إلا من طريق يقاربه ، وذكره الكنانى فى « تنزيه الشريعة المرفوعة » (١/١٩٢) وذكر الاختلاف فى وضعه وإن اتفق على نكارته . قال ابن حجر : عندى أنه منكر من جميع طرقه ، وأما الجزم بكونه موضوعاً فأتوقف عنه إذ لم أر فى رواته من وُصِف بالكذب انتهى .

عطاءه ، وإنْ منع فلا مُعطى لما منع ؛ لذلك يـقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ (٧٣) ﴾ [الحج] بل ما هو أيسر من عملية الخَلْق ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ (٧٣) ﴾ [الحج] وهل تستطيع أنْ تسـترد من الذبابة ما أخذته من العسل مثلاً إنْ وقعتْ عليه ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

لذلك هذه الكلمة (لا إله إلا الله) قـالهـا الحق سـبحـانه أولاً وشهد بها لنفسه سبحانه شهـادةَ الذات للذات ، وهذه الشهادة تعنى أنه لا يتـأبَى على الله شىء من الخَلْق أبداً ؛ لذلك يقـول للشىء : كن فيكون . ثم شـهدتْ بذلك المـلائكة شهادةَ المشاهدة ، ثم شهـد بها أولو العلم شهادة استدلال ، قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ (١٨) ﴾ [آل عمران] فكلمة لا إله إلا الله مقلاد من المقاليد التى لله تعالى .

كذلك كلمة (الله أكبر) من مقاليد السموات والأرض ، وسبق أنْ بينَّا أن كلمـة الله أكبـر هى شعارنا فى النـداء للصلاة ، مع أن أكبر ليس من أسـمائه تعـالى إنما من أسـمـائه تعالى الكبـير ، فلمـاذا لم يستخدم الاسم واستخدم فى النداء للصلاة الصفة (أكبر) .

قلنا : إنهـا أفعل تفـضيل من كـبيـر ؛ لأن ربك حين يسـتدعـيك للصلاة يُخرجك مـن عمل الدنيا ، هذا العمل ليس أمـراً هيِّناً ولا تافهاً إنما هو عظيم وكـبير ، لأن به تقوم أمـور الدنيا ، وبه تسـتعين على أمـور الدين ، فهـو وإن كـان كبـيـراً فالله أكـبر ، فـاترك العـمل إلى الصلاة ، أما الاسم الكبير لأن ما سواه صغير .

وكلمة (سبحان والله وبحمـده) من مقاليد السماوات والأرض ، لأنك ستتعرض لأمور هى فـوق إدراكك ولا يقدر عليها إلا الله ، فإياك

أنْ تقف أمامـها لتقول : كـيف ؟ إنما حين يُنسب الفـعل إلى الله فقُلْ سبحان الله ، وهذه المسألة أوضحناها فى قصة الإسراء ؛ لذلك بدأت بهذه الكلمة ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ۝١ ﴾ [الإسراء]

ولا غرابة فى ذلك ، لأن الفعل نُسب إلى الله ولم يقُلْ محمد ﷺ : « سريتُ إنمـا قال : أُسْرِى بى »[1] ومعلوم أن الفـعل يتناسب وفاعله قوةً وزمناً ، فإذا كان الفاعل هو الله فلا زمنَ يُذكر .

ومثَّلنا لذلك قلنا : لو أنك تريد السفـر إلى الإسكندرية مثلاً تركب حماراً أو جواداً أو سيـارة أو طائرة أو صاروخاً ، هل سيكون الزمنُ نفس الزمن ؟ لا لأن الزمن يتـناسب مع قوة الوسـيلة ، فكلمـا زادتْ القـوة قَلَّ الزمن ، فإذا كـان الفاعل فى الإسـراء هو قوة القـوى وهو الله ، فلا شكَّ أن الفعل لا يحتاج إلى زمن .

حيـن تتأمل الدم يجـرى فى الشرايين لابدَّ أنْ يكون علـى درجة معينة من السـيولة ليجرى ، فإنْ قلَّتْ هذه السيـولة تجلَّط وتجمد فى مجـاريه ، وقد تسـد الشرايـيـن فيمـوت الإنسان ، لكن إذا سـال الدمُ خارجَ الجسم يتجلَّط ، أما فى العروق فيظل على سيولته .

تأمل حرارة الجسم تجد الحـرارة الطبيعية ٣٧° سواء أكنتَ تعيش فى بلاد الإسكيـمو أو بجوار خط الاسـتواء حرارتك ثـابتة عند ٣٧° ،

---

(١) عن جـابر بن عبـد الله رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال : « لما كـذبتنى قريش حـين أسرى بى إلى بيت المقدس قمت فى الحجر . فجلا الله لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه » أخرجـه أحمد فى مسنده [٣٧٧/٣] والبخارى فى صـحيحه (٤٧١٠) ومـسلم (١٧٠) ، فوصـف لهم رسول الله بيت الـمقـدس باباً باباً ونافـذة نافـذة وأعمـدته والطريق إليه ، وهذا لا يُعقل أن يكون حُلماً أو رؤيا مهـما كانت رؤيا صادقة أن تكون دالة على كل هذه التفاصيل .

ومع ذلك ففى جسم الإنسان أعضاء تختلف فى حرارتها وهى فى الجسم الواحد ، فالعين مثلاً حرارتها الطبيعية تسع درجات ، والكبد أربعون درجة ، ولو طغتْ حرارة الجسم على حرارة العين لفقد الإنسان بصره .

ومن المعروف أن من خصائص الحرارة أو البرودة خاصية الاستطراق ، فكيف لا تُستطرق الحرارة والبرودة داخلَ الجسم الإنسانى ؟ هذه كلها أمور يجب أن نقول فيها : سبحان الله صاحب هذه القدرة ومُبدعها .

إذن : قُلْ دائماً سبحان الله فى كل أمر مُستغرب ؛ لذلك علَّمنا القرآن هذه الكلمة فى كل فعل لا يقدر عليه إلا الله . قال سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ (١) ﴾ [الإسراء] وقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس]

وكلمة (سبحان الله) ينبغى أنْ تُقرن بحمده سبحانه ، فكأنك تحمد الله أنه مُنزَّه عن مماثلة الخَلْق أو مشابهة الخَلْق ، الحمد لله أنه لا مثيل له ولا نظيرَ له ولا ندَّ له ، لأن هذا التنزيه تعود ثماره عليك أنت أيها المؤمن .

وكلمة (أستغفر الله العظيم) من مقاليد السماوات والأرض ، فإنْ غفلتَ عنى فمن مقاليدى أنْ أغفر لك إن استغفرت حتى لا أحرمك من التوبة والإنابة إلىَّ ومغفرة الدنيا مَحْوٌ للذنب ، فهى مظهر من مظاهر رحمته تعالى بنا ؛ لأن العبد إن أغلقنا فى وجهه باب التوبة استشرى فى العصيان ، وتمادى فى الاعتداء على الآخرين .

إذن : فمشروعية التوبة رحمتْ البشر من شرور البشر .

وكلمةُ « لا حول ولا قوة إلا بالله » هى أيضاً من مقاليد السماوات والأرض ، فإذا أقبلت على شىء : فإياك أن تظن أنك تقبل عليه بحولك وقوتك ، إنما لا حولَ ولا قوةَ لك إلا بالله ، لأنه سبحانه هو الذى يستطيع أن يسلب منك الحول ، وأنْ يسلب منك القوة .

أما تفكرتَ فى يدك .. كيف تحركها كيفما تشاء فى يُسْر وسلاسة ، وهى تنقاد لك وتطاوعك ، وأنت لا تعرف حتى العضلات والأعصاب التى تشارك فى هذه الحركة ولا تدرى بها ؟

إنها قدرة الله فيك ، فإذا أراد سبحانه أن يسلب منك هذه القوة منع السيال الكهربى القادم من المخ إلى هذا العضو فتحاول رفعه فلا تستطيع . إذن : اجعل هذه المسألة دائماً فى بالك كلما أقبلتَ على عمل ، واعلم أنه لا يتم لك بقوتك إنما بقوة الله .

وكلمة « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » من مقاليد السماوات والأرض ، فهو سبحانه الأول بلا بداية ، والآخر بلا نهاية ، كما قلنا فى دعاء رمضان : يا أول لا قبل آخر ، ويا آخر لا بعد أول ، لكن ذاك فى ذاك فقفْ أيها العقل عند منتهاك .

ومعنى : الظاهر أى الظاهر فى مُلْك الله مما يقع تحت إدراك البصر ، والباطن : أى الخفىّ فى ملكوت الله الذى لا تراه ، فلله تعالى مُلْك ظاهر وملكوت غير ظاهر لا يُطْلع عليه إلا مَنْ شاء من عباده فى الوقت الذى يريده سبحانه .

وكلمة « بيده الخير » هى أيضاً من المقاليد ، وبعض العلماء[1] قالوا : بيده الخير والشر ونظروا إلى قوله تعالى :﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ

---

(١) قال ابن عباس فيما ذكره ابن الجوزى فى (زاد المسير) فى تفسير آية ٢٦ آل عمران . قال : بيدك الخير والشر فاكتفى بأحدهما ، لأنه المرغوب فيه .

﴿ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ [آل عمران]

فلما جمعتْ الآية بينْ الشيء ونقيضه جرَّأتهم أنْ يقولوا بيده الخير والشر وهذا لا يجوز ، نعم رسول الله ﷺ قال « بيده الخير » تأدباً مع الله ولم ينسب الشر لله ، ونحن كذلك لا ننسب الشر إلى الله تعالى ، لذلك أنا منذ عام ١٩٢٨ وأنا معترض على قولنا في الدعاء : « واكفنا شر ما قضيت »[1] وقلت : لابد أنْ يُعدَّل هذا الدعاء ، ثم هدانا الحق سبحانه لحلها فقلنا : إن شر ما قضيتَ ألاَّ ترضى بالقضاء .

ولو تأملنا لفظ « بيده الخير » وفي الآية ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ (٢٦) ﴾ [آل عمران] نجد أن الخير هنا مطلق بمعنى أن كل أفعال الحق سبحانه خير ، ولا يأتي الشر إلا من الخلْق ، واقرأ :﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ (٧٩) ﴾ [النساء]

فإنْ قلتَ : كيف نجمع بين مثل هذه الآية وبَيْن قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ (٧٨) ﴾ [النساء] نقول : سبق أنْ أوضحنا حلَّ هذه الفزورة وقلنا : نعم كُلٌّ من عند الله بمعنى أن الله تعالى هو خالق الفعل بمعنى خالق القوة والطاقة التي تفعل ، لكن أنت توجه هذه الطاقة إما إلى الخير وإما إلى الشر ، وعليه نقول : الخير من الله والشر منّا نحن .

وقوله : « يحيي ويميت » أيضاً من المقاليد والموت والحياة هما أول ظاهرة في وجود الإنسان ، والخالق سبحانه خلق الحياة وخلق الموت ، ولما حدثنا عن ذلك قال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في سننه (٢/٦٣) حديث (١٤٢٥) باب القنوت في الوتر ، وأحمد في مسنده (١/١٩٩ ، ٢٠٠) من حديث الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما .

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ [الملك]

فذكر الموت أولاً حتى لا نستقبل الحياة بغرور البقاء ، بل نستقبلها وفى الأذهان أننا سننتهى إلى الموت فنعمل لهذه النهاية ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الروم] يعنى : يفعل ما تعجز أنت عن فعله ، وله سبحانه القدرة المطلقة فلا يعجزه شىء ، ولا يستعصى عليه شىء ، لذلك حين تطلب من ربك الرزق اطلب أنْ يرزقك من حيث لا تحتسب ، لأن لله تعالى أسباباً للرزق لا تعرفها أنت ، لذلك قال أهل المعرفة : الأسباب ستر ليد الله فى العطاء .

إذن : فقوله تعالى ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الزمر] أى : بقدرته الخالقة وبقيوميته الدائمة ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الزمر] سواء أكانت آيات كونية أو معجزات رسل ، أو آيات الكتاب حاملة الأحكام ، ومعنى كفروا بها أى : استعلوا على تنفيذها ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : صفقتهم خاسرة ، وتجارتهم بائرة ، لأنهم آثروا الشهوة العاجلة على النعيم الدائم الذى لا يفوتك ولا تفوته.

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

تذكرون ما كان من أمر كفار مكة لما عاندوا رسول الله وصادموه وتأبَّوْا على دين الله ، ومع ذلك انتشر الإسلام وزاد

---

(١) سبب نزول الآية : ذكر ابن كثير فى تفسيره (٦١/٤) فى سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن أبى حاتم وغيره عن ابن عباس أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ويعبدوا معه إلهه .

أتـباعه ، فـحاول الكفار مهادنة رسـول الله فقالوا له : يا محمـد تعبد آلهتنا سنة ونعـبد إلهك سنة[1] ، فردَّ الله عليـهم (قُلْ) يا محـمد رداً عليهم ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر] والاستفهام هنا للتعجب والإنكار ، أتريدون منى وأنا رسول الله وأمينه على وَحْيه ورسالته أنْ أعبد غيره ، وكلمة (تأمرونِّى) ورد فيها عدة قراءات[2] : تأمرونِّى بتـشديد النون وتأمرونني ، والنون هنا لـلوقاية يعنى : تقى الفعل من الكسر ، وتأمرونى بياء واحدة .

وكلمة (أعبدُ) أصلها أن أعبد فلما حُذفَتْ (أنْ) جاء الفعل على طبيـعته بالرفع ، وهذه الكلمـة دلَّتْ على أن عبادة الأصنام أو عـبادة غير الله بـاطلة أصلاً فى العقل ، لأن العبـادة كما ذكرنا طاعـة العابد للمعبود ، والأصنام لا منهجَ لها نطيعها أو نعصيها .

لذلك وصف عابديهـا بالجهل ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر] ولابد أن نفرق بين الجـاهل والأمى : الأمىّ أفضل من الجـاهل ، لأنه خالى الذِّهْن ليست عنده قضية يتمـسك بها ، لذلك يسهل عليك إقناعه ، أما الجاهل فليس خالى الذهن بل لـديه قضية خاطئة مـخالفة للواقع وهو متمسك بهـا ؛ لذلك يحتاج إلى جهد مضـاعف ، أولاً لتُخرج من عنده

---

(١) ذكر الواحدى فى أسباب النزول (ص٢٦١) فى سبب نزول سورة (الكافرون) أن رهطاً من قريش قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مـما بأيدينا قد شـركناك فيه وأخذنـا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك . فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره ، فأنزل الله تعالى : ﴿قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾﴾ [الكافرون] .

(٢) وردت عدت قراءات ، منها :

- تأمرونىَ : بنون واحدة مخففة وفتح الياء ، قراءة نافع
- تأمرونَنى : بنونين مخففتين على الأصل . قراءة ابن عامر
- تأمرونِّى : بنون واحدة مشددة على الإدغام . الباقـون واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لأنها وقعت فى مصحف عثمان بنون واحدة . [تفسير القرطبى ٥٩٢٢/٨]

القضية الخاطئة ، ثم تُدخل عليه القضية الصحيحة .

لذلك قال الحق سبحانه وتعالى :﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب]

وسبق أنْ تكلمنا فى مسألة الحيز وأن الحيز الواحد لا يتسع إلا لشىء واحد ، لذلك نلاحظ مثلاً حين نملأ القُلَّة بالماء تخرج فقاعات الهواء أولاً قبل أن يدخل الماء ، كذلك القضية الفاسدة فى قلب الجاهل لا بدَّ أنْ تخرج أولاً حتى يقبل الصواب ، وكلما وافقتْ القضية هواه كان خروجها أصعب ، ومن هنا كان الجاهل أشقَّ على المعلم من الأمى .

ومسألة الحيز هذه قضية فطرية ينتهى إليها الفيلسوف والطفل وراعى الشاة ، ألا ترى الطفل الصغير يجلس مثلاً بجوار والده فإنْ أراد أخوه أنْ يجلس مكانه قام له وأجلسه ، لماذا ؟ لأنه يعرف هذه القضية ، وأن المكان الواحد لا يتسع إلا لشىء واحد .

إذن : وصف الكفار بالجهل لأنهم مؤمنون بقضية خاطئة متمسكون بها ، ومن الصعب زحزحتهم عنها وهى قضية الشرك بالله ، وأىُّ جهل بعد عبادة الأصنام ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾

هذه الآية تبين علة الاستفهام والتعجب فى : ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر] يعنى : كيف تأمروننى بذلك ، وأنا

الرسول المؤتَمن على الدين والوحى ، وقد أوحى الله إلىَّ وإلى الذين من قبلى ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) ﴾ [الزمر] هذه علَّة تجهيلهم فى قولهم لرسول الله : نعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة .

ومعنى ﴿ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ (٦٥) ﴾ [الزمر] أى : الرسل السابقين ، لأن كل واحد منهم قُوبل بهذه القضية ، لكن هل يُعقل من الرسل أنْ يشركوا بالله ؟ قالوا : هذا فَرْض ، يعنى : لو فرضنا ذلك فسيكون هذا جزاءهم ، فهى أشبه بقولهم : (إياك أعنى واسمعى يا جارة) فإذا كان هذا الوعيد مُوجَّهاً إلى الرسل فهو مُوجَّه من باب أَوْلَى إلى العامة .

قال بعض العلماء فى هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ (٦٥) ﴾ [الزمر] أنت تتكلم هنا عن عصمة الرسل ، لكن هذه العصمة بقدر الله ، وقدر الله لا يملكه أحد ، ألم يَقُلْ رسولٌ من الرسل : ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا .. (٨٩) ﴾ [الأعراف]

فالمعنى أنه أعطى للقدرة طلاقة أنْ تفعل ما تريده ، وإنْ كان هذا لا يحدث .

ومضمون الوحى إليك وإلى الذين من قبلك : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ (٦٥) ﴾ [الزمر] لكن الآية جعلت الموحَى إليهم فى جانب ، ورسول الله ﷺ فى جانب ، فخصَّ اللهُ رسوله بالخطاب فى ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ (٦٥) ﴾ [الزمر] والخطاب لرسول الله دلَّ على أنه مُوجَّه أيضاً إلى الرسل السابقين .

ومعنى ﴿ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ (٦٥) ﴾ [الزمر] يفسد ويضيع بلا جدوى ﴿ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) ﴾ [الزمر] نعرف فى التجارة أن الخسارة

هى أنْ يقلَّ رأس المال ذاته ، فالتــاجر حين لا يربح زيادة على رأس المال لا يُسمَّى خاسراً ما دام سلم له رأس ماله .

كـذلك المـؤمن ، رأس مــاله فى تجــارتــه مع الله إيمــانه وعـمله الصــالح ، فربُّك خلقك مـن عَدَم وأمـدَّك من عُدم ، وأرسل لك رســلاً وأنزل لك كتباً ، فـجعل لك بذلك صفقة رابحة معــه سبحانه ، وعليك أنت أيها المـؤمن أنْ تستغلَّ هـذه الفرصة لتـربح مع الله ، لأن العمل الذى تعمله فى الدنيا عملٌ موقوت بحياتك وعمرك فى الدنيا .

أما الجزاء على العـمل ففى الآخرة وهى غير مـوقوتة ، بل دائمة باقية ، وهنا تكمن مَـيْزة التجارة مع الله ؛ لذلك قال سـبحانه : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ (٦٦) ﴾

كلمة (بل) حـرف يفيد الإضراب عن الكلام الســابق وإثبات ما بعـدها ، يعنى : اعرض عن دعـوتهم لك أنْ تعبـد آلهتــهم ، وإياك أنْ تميلَ إليهم ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ (٦٦) ﴾ [الزمر] وليؤكد عبادة الله وحده جاء بهذا الأسلوب (بل الله فاعـبد) وقدَّم المفعـول به على الفعل ، وهذا يُســمَّى أسلوبَ قـصر . يعنى : قــصـر العـبادة على الله وحـده دون سواه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ (٥) ﴾ [الفاتحة]

فتقديم الضمير المنفصل العـائد على الحق سبحانه على الفعل نعبد يعنى : نعبدك أنت فقط لا نعبد غيرك ، أما لو قُلْنا : نعبدك تحتمل ونعبد غيـرك . وقوله : ﴿ وَكُن مِّنَ الشَّـاكِرِينَ (٦٦) ﴾ [الزمر] الشـاكرين الله على الهداية والتوفيق ، لأنْ تعبده وحده وتشكره على ما تقدم لك من النعم ، وما هذه النعم إلا (عربون) للنعيم الدائم الذى ينتظرك .

ومن عجائب لطفه تعالى بنا أنْ شرع لنا من الأحكام افعل ولا تفعل ما فيه الخير لنا فى دنيانا ، ثم يُثيبنا عليه فى الآخرة إنْ أطعنا ويُخوِّفنا بالعذاب إنْ عصينا ، فهو سبحانه لطيف بنا حريص على نجاتنا ، مع أنه سبحانه لا ينتفع من ذلك بشىء ، فلا تنفعه طاعة ولا تضره معصية .

واقرأ الحديث القدسى عند رب العزة سبحانه : « يا عبادى .. لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى مُلكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخلَ البحر »[1]

فاعلم أيها العبد أن ربك يحبك ويريد لك الفوز والنجاة فأنت عبده وأنت صنعته ، والصانع يريد لصنعته أنْ تكون على أحسن حال .

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ[2] يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤/١٩٩٤) كتاب البر والصلة (حديث ٢٥٧٧) باب تحريم الظلم من حديث أبى ذر رضى الله عنه . والمخيط : هو الإبرة والمقصود التقريب إلى الأفهام بما شاهدوه ، فإن البحر من أعظم المرئيات عياناً وأكبرها والإبرة من أصغر الموجودات .

(٢) القبضة ملء اليد مضمومة الأصابع ، ولكنها فى حق الله سبحانه وتعالى معناها أن الأرض فى حوزته وتحت سيطرته كالشىء المقبوض عليه باليد الواحدة وفى ذلك ما يدل على صغر العالم وضآلته بجانب قدرة الله وعظمته (القاموس القويم ٢/٩٧) وهذا يتوافق مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩٢٤) « عبارة عن قدرته وإحاطته بجميع مخلوقاته » ، وهو ما ذهب إليه هنا فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله .

معنى ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : ما قدروه وما عظَّموه التعظيم المناسب له سبحانه ، يعنى : ما عرفوا الله قيمته ، ولذلك أشركوا به ، والشرك فى حَدِّ ذاته يعنى عدم تقدير الله حَقَّ قدره . وقد فعلوا ذلك والحال أن ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر] إذن : كيف يحدث منكم ذلك ؟ أغفلتم عن هذه الحقيقة ؟ إنكم سوف ترونَ عاقبة فعلكم فى الآخرة .

ومعنى ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر] نقول : هذا الأمر فى يدى يعنى : أنا مُتمكن منه تمكُّناً بحيث لا يفلت منِّى ، وليس من الضرورى بالنسبة لله تعالى أن يكون فى المسألة قبضة أو يد ، فهنا كناية عن القوة والتمكُّن ، كما نقول مثلاً قبضنا على المجرم يعنى : أصبح فى حوزتنا ولم يَعُدْ مطلق السراح فى الحياة يفعل ما يشاء .

وسبق أنْ قلنا : إذا ذُكر للحق سبحانه وصفٌ له مثيل فى عباده فخُذْه فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى] ومن ذلك صفة السمع والبصر واليد والعلم .. الخ .

وكلمة ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر] أى : أرضنا التى نعيش عليها وأمثالها من الأراضين لأن الحق سبحانه قال : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق] هذا كله فى مجموعتنا الشمسية ، فما بالك بباقى المجموعات والمجرَّات التى تحوى الملايين مثل أرضنا : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشورى]

وقوله : ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر] يطويها

بقدرته تعالى ، واليمين عندنا هى الفاعلة فى الأشياء وهى مصدر القوة ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾ [الصافات] أى من جهة القوة ، وفى موضع آخر قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء]

لكن أىّ أرض نعنى فى قوله تعالى : ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر] ؟ قالوا : هى أرض غير الأرض التى نعرفها ، لأن الأرض ستُبدل فى الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَـٰوَاتُ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم] لأن أرض الدنيا أرضُ أسباب ، نعيش عليها ونأكل من ثمرها ونزاول فيها حياتنا ، أما فى الآخرة فالحياة فيها بالمسبِّب سبحانه .

أرض الآخرة لا زرعَ فيها ولا حرثَ ولا حصادَ ، إنما تأكل وتشرب بمجرد إرادة الأكل أو الشرب ، فما يخطر على بالك تجده بين يديْكَ لا بأسباب ، إنما بقدرة المسبِّب سبحانه ، كذلك السماء فى الدنيا سماء أسباب ينزل منها المطر وتشرق فيها الشمس ، ويُنوِّرها القمر ، أما فى الآخرة فلا شىء من ذلك لا مطرَ ولا شمسَ ولا قمر ، إنما تُنوِّر الأرض بنور ربها .

وقوله تعالى فى ختام هذه الآية ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر] أمر بأن نقول سبحان الله ، وأنْ نُنزِّهه تعالى عن مشابهة خَلْقه فى مسألة القبضة وفى طَىِّ السماء ، لأنه ليس كالطَّىِّ الذى نعرفه نحن ، إنما ينبغى أن نأخذ هذه الصفات فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴿١١﴾﴾ [الشورى] فنزه الله عما يقوله المشركون .

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ (١) ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى بعد أنْ تكلَّم عن العقائد وذكر الوعد للطائعين والوعيد للعاصين ، أراد سبحانه أنْ يُحدِّثنا عن الآخرة وهى دار الجزاء على الأعمال فى الدنيا ، والدنيا فيها أموات وفيها أحياء ، ولن تقوم الساعة إلا إذا مات الجميع ليتحقق البعث ، وإلاَّ فكيف يكون البعث فى حَقِّ مَنْ لم يَمُتْ ؟ لذلك يُحدِّثنا الحق سبحانه هنا عن النفْخ فى الصور ، هذه النفخة التى تُميت كل مَنْ هو حَيٌّ .

الفعل (نُفِخ) جاء بصيغة الفعل المبنى للمجهول ، الذى لم يُسَمَّ فاعله ، لكن السُّنة هى التى بيَّنت الفاعل وأنه إسرافيل ، و (الصُّور) بوق مثل القربة ينفخ فيه إسرافيلُ النفخةَ الأولى التى تُميت كلَّ الأحياء ، لأن القيامة ستقوم وعلى الأرض أحياء لابد أنْ يموتوا ،

---

(١) اختُلف فى المستثنى ، مَنْ هم ؟ على أقوال أوردها القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩٢٥) :
- هم الشهداء متقلدين أسيافهم حول العرش . روى مرفوعاً من حديث أبى هريرة فيما ذكر القشيرى ، ومن حديث عبد الله بن عمر فيما ذكر الثعلبى .
- هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت . حديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ . ذكره الثعلبى والنحاس من حديث ابن إسحاق عن يزيد الرقاشى عن أنس . وقال القرطبى : حديث أبى هريرة فى الشهداء أصح .
- هم : رضوان والحور ومالك خازن النار والزبانية ، قاله الضحاك .
- عقارب أهل النار وحيَّاتها .
- هو الله الواحد القهار وما يدع أحداً من أهل السماء والأرض إلا أذاقه الموت . قاله الحسن .
- يموت من فى السماوات والأرض إلا مَنْ سبق موته ، لأنهم كانوا قد ماتوا .

ليكون لهم بعث كالذين ماتوا من لدن آدم عليه السلام وحتى قيام الساعة .

والحق سبحانه يقول : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴿٥٧﴾ ﴾ [العنكبوت]

لكن : هل النفخة الأولى هى التى تُميت ؟ أو النفخة الثانية هى التى تحيى الموتى ؟

نقول : النفخة ذاتها لا تحيى ولا تميت ، إنما هى إيذانٌ لمن بيده الأمر أنْ يبدأ عمله ﴿ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر] كلمة صعق تأتى بمعنيين .

صعق بمعنى هلك كما فى قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الطور] يعنى : يهلكون .

وتأتى صعق بمعنى أُغمى عليه وفقد الوعى ، كما حدث لسيدنا موسى عليه السلام حين تجلَّى ربُّه للجبل ، فلما دعا موسى ربه قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف] وليس المعنى هنا أننى لا أرى ، إنما أنا أرى لكنك فى تكوينك الحالى لا تستطيع أنْ ترانى ، إذن : قد يتغيَّر الحال على صورة يمكنك فيها أنْ ترانى .

وإذا كان البشر قد توصَّلوا لطرق وأساليب وأسباب تُمكِّن من رؤية ما لم تقدر على رؤيته ، فرأينا النظارة والنظارة المعظمة والتليسكوبات .. الخ . إذن : فالحق سبحانه من باب أَوْلَى قادر على أنْ يجعلك ترى ما لم تكُنْ تراه من قبل .

ثم يقول سبحانه فى تمام هذه القصة : ﴿ وَلَـٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف] الحق سبحانه يريد أنْ

يؤكد لموسى عليه السلام هذه القضية لا بالقول إنما بالفعل ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف]

وكأن الحق سبحانه يقول لنبيه موسى : إذا كنت صُعِقْتَ - يعنى : فقدتَ الوعى - من رؤية المتجلَّى عليه وهو الجبل ، فكيف بك إذا رأيتَ المتجلِّى سبحانه ؟

وقوله : ﴿ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر] أى : شاء ألاَّ يُصعق ، وهذه المشيئة مؤقتة لأن من لم يَمُتْ فى هذه النفخة الأولى لابدَّ وأنْ يموت فيما بعد ، وآخر مَنْ يموت هو ملك الموت حيث يقول له الحق سبحانه : مُتْ يا ملَكَ الموت فيموت . بعدها يصير الخلود بلا انتهاء .

قالوا : الذين استثناهم الله من هذه النفخة هم الملائكة الموكَّلون جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ، وقد أخبرنا النبى ﷺ أن موسى عليه السلام فيمَنْ استثنى من هذه الصعقة ، فقد ورد فى الحديث [1] أن الصَّعْقة حدثتْ وحصل للناس غَشْية ، وكان رسول الله أول مَنْ أفاق منها فوجد أخاه موسى عليهما السلام ممسكاً بالعرش ، ورسول الله ﷺ لم يدْر أَصُعِق موسى فيمن صُعِق وأفاق قبلى ، أم لم يُصعق .

وما دام أنه أفاق فوجد موسى بجوار العرش إذن هو لم يُصعق ، ويدخل فى هؤلاء الذين استثناهم الله فى قوله ﴿ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر] أو أنه صُعِق لكنه أفاق من الصَّعْق قبل غيره ، وهنا قال العلماء : لماذا لم يُصعق سيدنا موسى ؟ أو لماذا قَصُرَتْ مدة

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تخيرونى على موسى . فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدرى أكان موسى فيمن صعق فأفاق قبلى ، أو كان ممن استثنى الله عزوجل » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥١٧) كتاب الرقاق .

صَعْقته عن مدة الآخرين ؟ قالوا : لأنه عليه السلام سبق أنْ صُعِقَ فى الدنيا لما تجلَّى ربُّه للجبل ، فشاء الله أنْ تُحتسبَ له هذه الصعقة ، وأنْ تُخفَّفَ عنه صَعْقةُ القيامة .

وقوله ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ۞﴾ [الزمر] أى : نفخة البعث ، فالنفخة الأولى أماتت مَنْ لم يكُنْ قد مات ، والنفخة الثانية هى البعث والخروج من القبور ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ[1] إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۞﴾ [يس] هذا تصوير لهيئة الصعقة ، وكيفية الخروج من القبور ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۞﴾ [الزمر]

وكلمة (ينسلون) دلَّتْ على تفرُّق بعد اجتماع ، كما نقول للقماش (نسِّل) يعنى : بعد أنْ كانت خيوطه مُتضَامَّةً متماسكة تفككتْ ، وهذا تصوير دقيق وتعبير بليغ يُصوِّر الحالة التى كانت تُوجد فى القبور حين يلتقى الأموات فى باطن الأرض ، لأن الناس فى الدنيا وهم فى سَعة الحياة دائماً ما يتخاصمون ويتشاجرون وتكثر بينهم العداوات والمنافسات .

وقد عبَّر الشاعر[2] عن هذا المعنى فقال :

رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْداً مِرَاراً ... ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاحُمِ الأَضْدَّادِ[3]

فإذا ما ماتوا وضمتهم الأرض امتصَّتْ ما كان بينهم

---

(١) الأجداث : جمع جَدَث ، وهو القبر . [لسان العرب - مادة : جدث] .

(٢) هو : أبو العلاء المعرى ، أحمد بن عبد الله بن سليمان ، شاعر وفيلسوف ولد (٣٦٣هـ) ومات (٤٤٩هـ) فى معرة النعمان عن ٨٦ عاماً . قال الشعر وهو ابن ١١ سنة ، لما مات وقف على قبره ٨٤ شاعراً يرثونه ، كان يحرم إيلام الحيوان وأكل اللحم ، له : (لزوم ما لا يلزم) ، (سقط الزند) [الموسوعة الشعرية] .

(٣) البيت من قصيدة لأبى العلاء المعرى من ١٦ بيتاً من بحر الخفيف ، أولها :

غير مُجد فى ملتى واعتقادى ... نوْحُ باكٍ ولا ترنم شادِ .

من أحقاد وعداوات ، فخلصت عناصرهم خُلُوصاً مكَّنهم من اللقاء والاجتماع ، فيقولون : ما ألذَّ العناق قبل دقَّات الفراق .

وكأنهم يفرحون بهذا الاجتماع وبهذا العناق لأنه يُعوِّضهم ما كان بينهم من شقاق في الدنيا ، فإذا ما جاءتْ النفخة الثانية تفكَّك هذا الاجتماع وتفرَّق ، هذا معنى ﴿يَنسِلُونَ (٥١)﴾ [يس] أي : كُلٌّ على حدة بمفرده وشخصه كما (ينسَل) الخيط من مكانته في النسيج ؛ ذلك لأن الجزاء أمر شخصي وكُلٌّ مُرْتَهن بعمله .

ومعنى ﴿يَنظُرُونَ (٦٨)﴾ [الزمر] أي : ينتظرون ما يقع بهم ، أو ينظرون ما حولهم من أهوال تشخَصُ لها الأبصار ، كما قال تعالى في آية أخرى حكايةً عنهم : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا (١٢)﴾ [السجدة] قالوا : هذه هي الآية الوحيدة التي تقدم فيها البصر على السمع ، لماذا ؟ لأن الموقف هنا في الآخرة حين يُبعث الناس من القبور ، وحين تحيط بهم الأهوال والكروب من كل ناحية ، وهذه الحالة تسبق فيها الأبصار الأسماع فيبصرون قبل أنْ يسمعوا .

وبنفخة البعث تبدأ أهوال القيامة ويشتد الكرب على الكافرين فيرتعدون ، فإذا ما صَدَق اللهُ وعده ووعيده في قيام الساعة بأول مراحلها عندها يعلمون صدق ما كذبوه وكفروا به ، هؤلاء الذين طالما كذَّبوا بالبعث وقالوا : ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (١٧)﴾ [الصافات]

إذن : صدق الله في البعث وفي إحياء الموتى ، وسيصدق سبحانه فيما يتلو ذلك من حساب وجزاء ، والويل لكم أيها الكافرون المكذِّبون .

﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا[1] وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) ﴾

هذه الآية تنقلنا إلى عالم آخر ، إلى الآخرة حيث تُبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات غير السماوات ، كنا فى الدنيا نعيش على الأرض بنور الشمس نقول : أشرقت الشمس أما وقد انتقلنا إلى الآخرة فالأرض هى نفسها تشرق ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا .. (٦٩) ﴾ [الزمر] وكأن النور شىء ذاتى فيها ، فليس هناك شمس تشرق عليها إنما هى التى تشرق بذاتها .

ولم لا ؟ وأنت الآن فى عالم فيه ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، وقال تعالى : ﴿ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا (١٣) ﴾ [الإنسان] لأن الدنيا كانت بالأسباب ، فالشمس تشرق لتنير الأرض بالنهار والقمر بالليل ، أما فى الآخرة فلا نعيش بالأسباب ، إنما بالمسبِّب سبحانه حيث كل شىء فيها يكون بلا علاج ، فلسنا ـ إذن ـ فى حاجة إلى زراعة الأرض ،

---

(١) وردت عدة أقوال فى معنى قوله تعالى : ﴿ بِنُورِ رَبِّهَا .. (٦٩) ﴾ [الزمر] ذكرها القرطبى فى تفسيره (٥٩٢٨/٨) :

- بعدل ربها . قاله الحسن وغيره .
- بحكم ربها . قاله الضحاك .
- قال القرطبى : « المعنى واحد . أى أنارت وأضاءت بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده . والظلم ظلمات والعدل نور .. وقد ضلَّ قوم ها هنا فتوهموا أن الله عز وجل من جنس النور والضياء المحسوس وهو متعال عن مشابهة المحسوسات ، بل هو منوِّر السماوات والأرض ، فمنه كل نور خلقاً وإنشاءً .

ولا إلى الشمس تنير النهار ، ولا إلى القمر ينير الليل .

وكما تُبدَّل الأرض غير الأرض ، والسموات غير السموات ، كذلك أنتم تُبدَّلون على هيئة أخرى تناسب الآخرة ، فستأكلون ولا تتغوطون ، وتعيشون ولا تهرمون .

وحين تشرق الأرضُ بنور ربها تراها مشرقةً دون أنْ ترى مصدر هذا الإشراق ، وهذا ما رأينا شيئاً منه فى الدنيا ، ففى طرق الإضاءة الحديثة توضع الأنوار فى أماكن تخفى مصدر الضوء فيأتى النور غير مباشر فلا يؤذى العين ، كما يأتيك ضوء الشمس فيتير لك الغرفة فى حين لا ترى شعاع الشمس المباشر .

وقد ضرب لنا الحق سبحانه مثلاً لتنويره للسماء والأرض ، وذلك فى سورة النور ، حيث قال سبحانه : ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** .. (٣٥) ﴾ [النور] أى : مُنوِّرهما ، ولما أراد سبحانه أن يعطينا مثلاً لذلك أتى بمثل من المشاهد لنا المرئى الذى ندركه فقال : ﴿ **مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ** .. (٣٥) ﴾ [النور] أى: كيفية تنويره وأثر نوره سبحانه حتى لا نظن أن هذا المثل يوضح لنا نور الله ، لا بل يوضح كيفية تنويره لخلقه وإلا فنوره تعالى لا نعرفه ولا ندرك كُنْهه .

والمشكاة هى الطاقة غير النافذة فى الجدار يسمونها كُوَّة ، وتوجد حتى الآن فى المبانى القديمة الفطرية ، وهذه المشكاة هى التى يوضع فيها المصباح ، وليست هى المصباح كما يظن السطحيون ويستعملونها بهذا المعنى . وميزة المشكاة أنها غير نافذة ومحدودة المساحة ، بحيث تجمع ضوء المصباح فلا يتبدد إنما يتركز لتنوير الحجرة التى توجد فيها هذه المشكاة .

ثم يصف المصباح بأنه ليس مصباحاً عادياً إنما ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ .. (٣٥)﴾ [النور] والزجاجة تنقى ضوء المصباح وتمنع عنه الهواء الزائد فلا يحدث دخان يُكدِّر صَفْو ونقاء الضوء .

ثم إن هذه الزجاجة هى أيضاً غير عادية إنما ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ .. (٣٥)﴾ [النور] والكوكب الدرى هو الذى يضىء بنفسه ، وهذا يعنى أن ضوء هذا المصباح مضاعف .

ثم إن الزيت الذى يُوقد به المصباح ليس زيتاً عادياً ، إنما زيت مأخوذ من شجرة معتدلة المزاج ﴿يُوقَدُ من شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥)﴾ [النور]

البعض يعترض على هذا المثل ويقول : كيف يضرب الله مثلاً لنوره بمشكاة فيها مصباح ؟ قلنا : إن المثَل هنا ليس مثلاً لنور الله إنما هو مثَل لتنويره للكون ، وقد عبَّر الشاعر أبو تمام[1] عن هذا المعنى فى قوله مادحاً :

إقْدَام عَمْرو فِى سَمَاحَةِ حَاتِم فِى حِلْم أحْنَفَ فِى ذَكاء إيَاسِ[2]

فاعترض عليه أحد جلساء الممدوح . وقال له : كيف تُسوِّى

(١) أبو تمام : هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائى ، أحد أمراء البيان ، ولد بجاسم من قرى حوران بسورية عام ١٨٨ هـ ، رحل إلى مصر ، كان أسمر طويلاً فصيحاً حلو الكلام يحفظ ٤١ ألف أرجوزة غير القصائد . فى شعره قوة وجزالة . له كتب : فحول الشعراء ، ديوان الحماسة . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) ذكر الصولى هذه الأبيات فى كتابه « أخبار أبى تمام » فصل أخباره مع أحمد بن المعتصم ، وكان ينشده هذه القصيدة حتى إذا وصل إلى هذا البيت قال له الكندى وكان حاضراً وأراد الطعن عليه : الأمير فوق من وصفت . فأطرق قليلاً ثم زاد فى القصيدة بيتين لم يكونا فيها وهما الآتيان بعد .

الأمير بأجلاف العرب ، الأمير فوق مَنْ وَصفت ، فردَّ أبو تمام بعد أنْ أطرق هنيهة :

لاَ تُنكروا ضَرْبِى لَهُ مَنْ دُونَهُ مثلاً ... شَـرُوداً فِى النَّـدَى وَالبَاسِ

فَاللهُ قَـدْ ضَـربَ الأقـلَّ لِنـورِهِ ... مَثلاً مِنَ المشْكَاة وَالنِّبرَاسِ(١)

هكذا يُنوِّر الله للخَلْق النور الحسيَّ الذى يصون مادتهم ، ويحفظ سلامة حركتهم فى الحياة ، لأن الإنسان إنْ سار على غير هدى اصطدم بالأشياء من حوله ، والصدام يعنى أن يحطم القوىُّ الضعيفَ ، لذلك نحرص على وجود ضوء خافت (وناسة) مثلاً بالليل لتحمى حركتنا من الصدام .

فإذا كان الخالق سبحانه جعل لنا النور الحسيَّ لحماية مادتنا من أن تحطم أو تتحطم ، فلا بدَّ أنْ يجعل لنا نوراً معنوياً يحمى فينا القيم ، فلا نحطم بظلم ، ولا نحطم باضطهاد ، وهذا هو نور الوحى والشرع الذى تحيا به القلوب ، وينظم حركتنا المعنوية فى رحلة الحياة .

وكما بيَّن لنا الحق سبحانه النور الحسيَّ بيَّن لنا النور المعنوى فقال خذوه من بيوت الله ، فقال تعالى : ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ

---

(١) الأبيات من قصيدة لأبى تمام من بحر الكامل عدد أبياتها ٣٤ بيتاً فى مدح الخليفة المعتصم . الندى : الكرم . الباس : القوة والشدة فى الحرب . المشكاة : الكوة . النبراس : المصباح والسراج . وهو تأكيد لما قبله يقصد قوله تعالى : ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ .. (٣٥)﴾ [النور] .

﴿الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧)﴾ [النور]

إذن : خُذ النور المعنوى من بيوت الله ففيها تلتقى بالله تعالى ، فهذا اللقاء يضفى عليك نوراً من نور الله يملأ قلبك ويهدى جوارحك ويصلحك ، وبيَّن سبحانه أن نور القيم أعلى من نور المادة ، بدليل أن الإنسان حين يكون مكفوف البصر يمكنه أن يمشى وأنْ يزاول أعماله فى الدنيا ، أما فاقد النور المعنوى ، أو أعمى البصيرة كما يقولون فلا يمكن أبداً أنْ يُوفَّق فى حركته للصواب ؛ لذلك قال تعالى فى ختام آية : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ..(٣٥)﴾ [النور] قال : ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ .. (٣٥)﴾ [النور]

وبعد أنْ أشرقت الأرضُ بنور ربها ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ .. (٦٩)﴾ [الزمر] وفى موضع آخر جاء تفصيل وشرح ذلك ، فقال سبحانه : ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَـٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)﴾ [الكهف]

هكذا فصَّل الحق سبحانه ما أجمل فى ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ .. (٦٩)﴾ [الزمر] ومعلوم أن آيات القرآن الكريم تفسر بعضها بعضاً ، والكتاب هنا كتاب خاص بكل إنسان على حدة ، كما قال سبحانه : ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ[1] فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)﴾ [الإسراء]

---

(١) طائره : الطائر : الحظ من الخير أو من الشر ، قال تعالى : ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ .. (١٣)﴾ [الإسراء] . أى : نصيبه من الخير والشر فى كتاب حسناته وسيئاته . [القاموس القويم ١/ ٤١٣] .

وهذا الكتاب الذى يُحصى عليك أعمالك كتاب صدق ، لأن كاتبه ملَك موكَّل بك ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) ﴾ [الانفطار] وقال : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) ﴾ [ق]

فهذا الكتاب ليس فى علم الله فحسب ؛ لأن علم الله كلامٌ من عنده ، إنما هذا كتاب بمعنى أنه مكتوب مقروء يقرؤه صاحبه ويطلع عليه ، فيرى فيه عمله الصالح والطالح ؛ لذلك ساعةَ يراه المجرمون يرتعدون خوفاً لأنه أحصى عليهم إجرامهم ، ولم يترك منه كبيرة ولا صغيرة ، عندها لا يملكون إلا أنْ يدعوا على أنفسهم بالويل والثبور .

وبعد أنْ يأخذ كلٌّ كتابه يأتى الله بالرسل ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ .. (٦٩) ﴾ [الزمر] ليشهد كل نبى أنه بلَّغ أمته ، يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ .. (١٠٩) ﴾ [المائدة]

وبعد أن يشهد الرسل يشهد الشهداء وهم مَنْ حملوا العلم بعد الرسل ، كما ورد : « يحمل هذا العلمَ من كل خلف عُدُوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين»[(١)] .

فهؤلاء العلماء أيضاً يشهدون أنهم بلَّغوا غيرهم ؛ لذلك امتازت أمة محمد ﷺ بعلمائها ، لأنهم امتدادٌ لرسالته ﷺ ، لذلك فخيريتنا على الأمم بهذه المسألة .

ويشهد أيضاً الشهداء الذين قُتلوا فى سبيل الله ، وهؤلاء

---

(١) أخرجه البزار فى مسنده ، انظر كشف الأستار عن زوائد البزار للهيثمى (٨٦/١) حديث (١٤٣) قال البزار : خالد بن عمرو منكر الحديث قد حدَّث بأحاديث لم يتابع عليها وهذا منها . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (١ / ١٤٠) وقال : فيه خالد بن عمرو القرشى كذَّبه يحى بن معين وأحمد بن حنبل ونسبه إلى الكذب . وهو من حديث أبى هريرة وابن عمر . وقد أخرجه العقيلى فى الضعفاء الكبير (٩/١) فى التقدمة من حديث أبى أمامة .

يشـــهـدون أيضـــاً[1] لمكانــتــهم عنـد الله ، هذه المكانة التـى نالوها بالشهادة، ويكفى أن الـشهيد يدخل المعـركة وهو يعرف أنه إنْ هُزم سيقتل ، فهـو يتقدم إما للنصر وإما للشهادة ، فـهو يعلم أنه سيدفع حياته ثمناً ، ولولا أنه واثق كل الثقة بما وعده الله من الجزاء ما خرج .

لذلك قال تعالـى عن الشهداء : ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)﴾ [آل عمران]

وعجيبٌ أنْ نسمع مَنْ يقول على سبيل الإنكار : يعنى لو أخرجنا الشهيد من قبره سنجده حـياً ؟ نقول : اقرأ الآية وتدبَّر معناها ، فالله يقول : ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ .. (١٦٩)﴾ [آل عمـران] لا عندك أنت ، بدليل أنه جـاء بعـدها بمـادة الطلب للحـيـاة فقـال : (يُرْزَقُـونَ) ذلك لأن الشهـيد لما ضـحَّى بحياته ضـمن له ربه حياة أخـرى أفضل وأعظم وأبقى مما كـان فيها فى الدنيا ؛ لذلك قـال الشاعر[2] فى حق سيدنا حمزة سيد الشهداء :

أَحْمـزَةَ عَـمّ المصْطفَى أنتَ سَـيِّدٌ عَلَى شُهَداء الأَرْضِ أجمعهم طُرًّا

---

(١) قـول الشيخ رحـمـه الله هنا (أيضاً) يدل علـى ثاقب نظره وعظيم علمـه الذى لا يحتـاج لشهادة ، فإن من المفسرين عند تأويل كلمة (الشهداء) اقتصروا على قولهم إنهم الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد ، كابن كثير فى تفسيره (٤/ ٦٤) ، ومن المفسرين من ذكر عـدة أقوال مثل الـقرطبى فى تفسيره (٥٩٢٨/٨) الذى ذكر فـيهـا ثلاثة أقوال وكأنها متضادة متعارضة :

– هم الذين شـهدوا على الأمم من أمـة محـمد ، قال تـعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .. (١٤٣)﴾ [البقرة] .

– هم الذين استشهدوا فى سبيل الله فيشهدون يوم القيامة لمن ذبَّ عن دين الله . قاله السدى .

– هم الحفظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم .

أمـا الشيخ الشـعراوى فـذهب إلى أن كل هؤلاء يشـــهـدون فـالأقوال مـتعـاضدة وليـست متعارضة . [عادل أبو المعاطى]

(٢) من شعر الشيخ رضوان الله عليه .

وحَسْبُكَ مِنْ تِلْكَ الشَّهادةِ عِصْمةٌ   مِنَ المـوْتِ ، موصول الحياة إلى الأخرى

المعنى : أنك قدمتَ حياتك وضحيت بها فعُصِمْتَ من الموت ، لأنك بعد أنْ متَّ صِرْتَ حياً فوصلتَ حياتك فى الدنيا بحياتك فى الآخرة ، وهبتَ الحياة فوُصِلتْ الحياة .

والشهادة على العبد يوم القيامة لا تنتهى عند هذا الحد ، فبعد أنْ شهدت عليه الملائكة بالكتاب الذى سطّروه ، وشهد عليه الأنبياء والشهداء ننقل الشهادة إلى ذاتك أنت ، فهذا تدرّج فى الشهادة من الملائكة وهم من جنس غير جنسك ، إلى الأنبياء والشهداء وهم من جنسك ، إلى جوارحك وهى قطعة منك : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) ﴾ [يس]

وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور]

وقال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾

[فصلت]

لكن كيف تشهد الأعضاء والجوارح على صاحبها وكانت فى الدنيا هى أداة الفعل ، فاللسان هو الذى قال ، واليد هى التى بطشتْ ، والرِّجْل هى التى سعتْ .. إلخ ؟ قالوا : لأن الله تعالى خلق لعبده الجوارح وسخرها لمراده ، وأمرها أنْ تطيعه فيما يريد ، فاللسان مُسخَّر لخدمة صاحبه إنْ أراد أن يقول لا إله إلا الله قالها . وإنْ أراد أنْ ينطق بكلمة الكفر نطق بها ، وهكذا بقية الجوارح .

إذن : طالما الإنسان فى الدنيا فالولاية على الجوارح لمراد الإنسان المخيَّر ، والجوارح تابعة لمراده ، فإذا ما بُعثنا وعُرضنا على الخالق سبحانه انحلَّتْ هذه الإرادة وسُلبت فلا إرادةَ لأحد إلا لله ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر] وعندها تتحرر الأعضاء وتقف موقف الشاهد الصدق .

وقوله تعالى : ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩)﴾ [الزمر] أى : قضى اللهُ بين الناس وأهل المشهد وحكم بين الخلائق ، والذى يقضى هو الله . إذن : فهو قضاء بالحق لا يُظلم فيه أحدٌ ، فليس لأحد فى هذا اليوم إرادة ، وليس لأحد حكم ولا هوى ، إنما الأمر كله لله إنْ شاء اقتصَّ للمظلوم من الظالم ، وإنْ شاء أرضى المظلوم وعفا عن الظالم .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠)﴾ [الزمر] أى : يجازيها بما عملت إنْ خيراً فخير ، وإنْ شراً فشر .

وهذه الآية وقف عندها المستشرقون يتهمون سياقها بعدم التناسق ، فالتناسق فى نظرهم أن نقول : ووُفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يعملون . وهم يقولون ذلك لأنهم لا يدركون الفرق بين الفعل والعمل ، فالفعل مقابل القول ، فاللسان وحده له مهمة القول وباقى الجوارح تفعل ، العين ترى ، والأذن تسمع ، واليد تبطش ، والرِّجْل تسعى .. إلخ.

كل جارحة لها مهمة وهذه كلها أفعال ، أما العمل فيشمل القول والفعل ، كل منهما يُسمَّى عملاً ، لذلك يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢)﴾ [الصف]

لكن لماذا خصَّ اللسان بالشطر وباقى الجوارح بالشطر الآخر ؟ قالوا : لأن القول يتم به البلاغ والتبليغ ، فاستحق أنْ يكون عمدة الجوارح .

فما نتيجة هذه التوفية للأعمال ؟ نتيجة توفية الأعمال أن تنال كل نفس ما تستحقه على عملها فى الدنيا ، لذلك بعد أنْ تتم التوفية ويتم الحساب يُساق أهل الإيمان إلى الجنة ، ويُساق أهل الكفر إلى النار :

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ(١) أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٧١) ﴾

نلحظ هنا أن الفعل (وَسِيقَ) جاء مبنياً لما لم يُسمَّ فاعله ، وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) ﴾ [ق] فمَن هو السائق ؟ قالوا : هم الملائكة يسوقون أهل النار إلى جهنم والعياذ بالله ، والسائق هو الذى يحثّ المسوق على الإسراع ، كراكب الدابة الذى ينهرها ويحثُّها لتسرع به ، كذلك تفعل الملائكة بالمجرمين وتحثهم إلى جهنم ليسرعوا إليها .

وهذا يدل على أن الملائكة مغتاظون منهم ، كارهون لهم ،

---

(١) خزنة جهنم : حراس النار من الملائكة الغلاظ الشداد . [القاموس القويم ١/ ١٩٢]

متضايقون من أعمالهم فى الدنيا ، لذلك يزجُّون بهم إلى جزائهم العادل فى جهنم ، بلا هوادة وبلا رحمة ، أرأيتم رجال الشرطة حينما يمسكون بالمجرم ماذا يفعلون به ؟ إنهم يضربونه ويُعذبونه ويهينونه لأنه عضو فاسد فى المجتمع يريد الجميع التخلص منه ، ومعلوم أن الملائكة عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

والقرآن يصور هذا الموقف في آية أخرى ، فيقول سبحانه : ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ [الطور] يعنى : يزجرونهم إليها ويدفعونهم فيها رغماً عنهم .

ومعنى (زُمَراً) يعنى : جماعات ، فكل أصحاب مخالفة لمنهج الله معاً فى جماعة ، فالتاركون للصلاة جماعة ، والتاركون للزكاة جماعة ، والآكلون للربا جماعة وهكذا الظلمة والمرتشون والسارقون والزناة والمختلسون يجمع الله كل واحد منهم مع صاحبه ، فيُحشرون معاً يتقدمهم كبيرهم .

والفتوة فيهم كما قال سبحانه : ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ .. ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء] وقال سبحانه : ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا[1] ﴿٦٩﴾﴾ [مريم]

وقال في حق فرعون : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود]

وكَوْن كبراء الضلال وقادة الكفر يتقدمون أتباعهم يدل ذلك على قطع أمل الآخرين فى النجاة ، فلو دخل التابع فلم يجد متبوعه لتعلق قلبه به ، وظن أنه سيأتى ويُخلصه ، لكن الحال أنه سيدخل فيجد

---

(١) عتياً : أى تمرداً واستكباراً . عتا : استكبر وجاوز الحد فى القسوة والشدة والطغيان . [القاموس القويم ٢/٦] .

أستاذه وقدوته فى الضلال قد سبقه إلى جهنم .

حتى إذا ما وصلوا إلى أبواب جهنم فتح لهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا..(٧١)﴾ [الزمر] لأن باب الغضب (مش مفندق) بل مغلق يُفتح للضرورة ، على خلاف باب الرحمة فهو مفتوح دائماً ، وهذا من رحمة الله ، لأن رحمة الله سبقتْ غضبه(١) .

وهذه النهاية التى انتهى إليها أهل النار كُتبتْ عليهم ، وعلمها الحق سبحانه من بداية الحياة ، واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ(٢) وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ(٣) (١٠٨)﴾ [هود]

أولاً : لا بدَّ لفهم هذه الآية أن تعرف أولاً معنى الخلود : الخلود هو المكث الطويل ، وهذا المكث سُمِّى خلوداً لأن له بداية وليس له نهاية ، والكلام هنا عن الذين سُعدوا وهم أهل الجنة ، والذين شقوا وهم أهل النار ، لكن الحق سبحانه استثنى من هؤلاء ومن هؤلاء ، والذين استثناهم الله ستنقص مدة خلودهم ، كيف ؟

الكافر بعد أنْ حُوسب وسيق إلى جهنم تُفتح له ويظل خالداً فيها

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى غلبت غضبى » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣١٩٤ ، ٧٤٠٤ ، ٧٤٢٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٥١) كتاب التوبة .

(٢) الزفير : إدخال النفس والشهيق إخراجه . قال الزجاج : الزفر من شدة الأنين وقبيحه . والشهيق : الأنين الشديد المرتفع جداً . [لسان العرب – مادة : زفر] .

(٣) الجذ : القطع . والانجذاذ : الانقطاع . قال أبو عبيد : غير مجذوذ . أى : غير مقطوع . [لسان العرب – مادة : جذذ] .

خلوداً كاملاً من البداية إلى ما لا نهاية ، كذلك المؤمن الذى تداركته رحمة ربه بعد أنْ يُحاسِب يُساق إلى الجنة فيظل فيها خلوداً كاملاً من البداية إلى ما لا نهاية .

أما الاستثناء فللمؤمن العاصى الذى لم يَتُبْ عن معاصيه أو تاب ولم تُقبل توبته ، هذا لابدَّ أن يأخذ جزاء هذه المعاصى ، وأنْ تناله لفحة من لفحات النار والعياذ بالله ، هذا فى البداية ، فيدخل النار ما يشاء الله له ثم يُخرجه إلى الجنة وبذلك تكون فترة خلوده فى الجنة نقصتْ عن إخوانه المؤمنين ، والنقص هنا من البداية ، كذلك نقص خلود فى النار عن أهل النار الخالدين فيها .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا .. (٧١)﴾ [الزمر] أى : خزنة النار قالوا لهم على سبيل التقريع والتوبيخ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا .. (٧١)﴾ [الزمر] هذا الاستفهام ألزمهم الحجة وأفحمهم ، فربهم عز وجل لم يأخذهم على غِرَّة ، إنما أرسل لهم رسلاً ، وهؤلاء الرسل (مِنكُمْ) من جنسكم ومن أوسطكم والأقرب إليكم لتسهل القدوة به .

ومع هؤلاء الرسل حجج وبراهين ووَعْد ووعيد ، لذلك لم يستطيعوا الإنكار ﴿قَالُوا بَلَىٰ .. (٧١)﴾ [الزمر] يعنى : حدث هذا ، فأقرّوا على أنفسهم بإسقاط الحجة ، وأن الله بعث لهم الرسل الذين أنذروهم هذا اليوم .

إذن : الإنذارات التى تحدث للناس فى حياتهم من تمام رحمة الله بالخلق ، والإنذارات التى سبقت فى الحياة بما سيكون بعدها من تمام رحمة الله بالخلق ، أرأيتَ حين تُبصِّر ولدك بعاقبة الإهمال وتُخوِّفه من الرسوب آخر العام ، فإنك تعينه على المذاكرة والاجتهاد حتى

لا يلاقى هذه العاقبة ، وحتى لا يفاجأ بشىء غفل عنه .

لذلك وقف المستشرقون عند سورة الرحمن وقالوا : قوله تعالى ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ[1] مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ[2] (٢٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) ﴾ [الرحمن] قالوا : نعم هذه نعَم يناسبها ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) ﴾ [الرحمن] لكن أىّ نعمة فى قوله : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[3] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

نعم الإنذار بالشر قبل أن يقع والتحذير منه قبل أوانه نعمة ، بل من أعظم نعم الله على الإنسان ليحتاط للأمر ، فالتهديد والوعيد والتبصير والتخويف إنما لنحذر المخوف منه فلا نقع فيه .

وقوله : ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) ﴾ [الزمر] يعنى : وجبتْ لهم رغم الإنذار والتبصير ، والكلمة التى حقَّتْ هى قوله تعالى : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) ﴾ [السجدة] فماذا تنتظرون بعد ذلك ؟ والعجيب أننا باختياراتنا الخائبة نساعد القدر ويمهد القدر لقدر .

---

(١) المارج : الشعلة الساطعة ذات اللهب ، أو اللهب المختلط بسواد النار . [القاموس القويم ٢/٢٢١] .

(٢) الأعلام : الجبال . مفرده علم . فمن نعم الله تلك السفن الضخمة المنشأة تجرى فى البحر كأنها الجبال .

(٣) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان .

والكلمة قولٌ مفرد لا يؤدى إلا معنىً فى ذاته ، إنما لا يؤدى معنى إسنادياً ، فكلمة السماء مثلاً لا تؤدى معنىً وحدها يحسنُ السكوت عليه ، لكن حين تقول : السماء صافية تعطى معنى مفهوماً يحْسن السكوت عليه ، قالوا : لكن قد تفيد الكلمة الواحدة ، فلو قلت : مَنْ عندك ؟ تقول : زيد . فأفادت : زيد عندى . ولولا تقدير كلمة عندى ما أفادتْ ، فالكلمة - إذن - لا تؤدى معنىً يحسن السكوت عليه إلا بضميمة غيرها .

وقد بيَّن علماء النحو ذلك حين قسَّموا الكلمة إلى اسم وفعل وحرف وكل منها تُسمَّى كلمة ، والفرق بينها أن الاسم يعطى فى ذاته معنىً مستقلاً بالفهم ، والفعل يعطى معنىً فى ذاته ، لكنه مرتبط بزمن أو الزمن جزء منه ، تقول : أكل أى فى الماضى . يأكل فى المضارع . وكُلْ فى المستقبل ، أما الحرف فهو لا يعطى معنى مستقلاً بالفهم ، إنما لا بدَّ له من ضميمة تبين معناه .

وتطلق الكلمة ويُراد بها الكلام تقول : ألقيت كلمة فى الحفل والمراد خطبة ، وقد استخدم القرآنُ الكلمة بهذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. (١٠٠)﴾ [المؤمنون] والمراد بالكلمة قوله : ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .. (١٠٠)﴾ [المؤمنون]

وكذلك هنا : ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١)﴾ [الزمر] الكلمة هى ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣)﴾ [السجدة]

﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢)﴾

كلمة (بئْسَ) للذم والمذموم ﴿مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢)﴾ [الزمر] أى : إقامتهم ونهايتهم ، ووصفهم بالمتكبرين خاصة لأنهم ما وصلوا إلى هذه النهاية إلا بتكبرهم ، تكبرهم على مَنْ ؟ على ربهم وخالقهم ، وعجيب من العبد أن يتكبر أول ما يتكبر على خالقه سبحانه الذى خلقه من عدم وأمده من عُدم .

ونلحظ فى هذه الآية مظهراً من مظاهر رحمته تعالى حتى بالكافرين ، وكأن الحق سبحانه يفتح لهم باب الأمل فى النجاة ، ويلمح لهم بإمكانية التوبة ، ومهما كان منهم فالباب مفتوح ، نفهم ذلك من قوله تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا .. (٧٢)﴾ [الزمر] ولم يقُلْ هنا أبداً كما قال مثلاً فى قوله تعالى : ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣)﴾ [الجن]

ولما أحصى العلماء لفظ الأبدية بالنسبة للكافرين وجدوه فى آيتين (هما الأحزاب ٦٥ - الجن ٢٣) ، إذن : ذكر كلمة أبداً فى بعض الآيات وتركها فى البعض الآخر ، وفى هذا إطماع لمن لم يصل إلى الحقيقة التى تنجيه ربما تدارك الأمر وأنقذ نفسه وعاد إلى الجادة ، أما حين يتكلم الحق سبحانه عن الجنة فتجد كلمة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا .. (٢٣)﴾ [الجن] غالباً مقرونة بالأبدية .

ونلحظ أيضاً قوله تعالى : ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ .. (٧٢)﴾ [الزمر] ولم يقل : ادخلوا جهنم . فما الفرق بين التعبيرين ؟ قال تعالى : ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ .. (٧٢)﴾ [الزمر] لأن العذاب يبادرهم ويسرع إليهم بمجرد أنْ يدخلوها فهو يستقبلهم على بابها .

بعد ذلك ينتقل السياق إلى المقابل ، إلى أهل الجنة ، لكن لماذا بدأ بأهل النار فقال : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ..(٧١)﴾

[الزمر] قالوا : بدأ بهم لأنهم هم المنكرون المكذِّبون بالبعث والحساب ، فبدأ بهم تعجيلات بعقابهم ومساءتهم ، أما المتقون فهم مُصدِّقون بهذا اليوم مؤمنون به ، وبما سيكون فيه من حساب وجزاء ، ثم إن الختام بالوعد والبشارة فيه استبشارٌ وحُسْن ختام .

يقول تعالى :

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

هنا أيضاً ساقتهم الملائكة مع الفارق بين سَوْق الكافرين وسَوْق المتقين ، فالكافرون ساقتهم الملائكة ليعجلوا لهم العذاب سَوْقاً فيه زجر وقسوة ، أما المتقون فيُساقون سَوْق المحب لحبيبه ليعجلوا لهم النعيم .

وقوله (زمراً) يعني : جماعات كل جماعة على حدَة ، فهؤلاء الزهاد وهؤلاء العلماء وهؤلاء المجاهدون وهؤلاء الأمناء ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر] هناك قال (فُتِحَتْ) وهنا (وَفُتِحَتْ) قالوا فى أهل النار (فُتِحَتْ) هى جواب الشرط ، أما هنا (وَفُتِحَتْ) ليست جواباً للشرط ، بل جواب الشرط فى النعيم المذكور بعدها ، لأن فتح الأبواب ليس هو الغاية ، إنما الغاية ما يتبع ذلك من النعيم .

فالواو هنا عاطفة وجملة ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر] معطوفة

على ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا .. (٧٣)﴾ [الزمر] ذلك لأن المؤمنين ما كانوا يشكّون فى هذا اليوم ، أما الكفّار فيشكونَ فيهِ لذلك جعل ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧١)﴾ [الزمر] جواباً للشرط قبلها .

أما فى المتقين فجواب الشرط أسمى من مجرد فتح الأبواب لهم ، ففتحت هذه مداخل الرحمة التى سيذكرها بعد ، ويذكر مكوناتها ، وكيف أنها تتدرج بدايةً من تحية الملائكة لهم : ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ .. (٧٣)﴾ [الزمر] لأنكم طهرتم أنفسكم من دنس المعاصى والشركِ ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣)﴾ [الزمر] إلى آخر السورة ، حيث يرونَ الملائكة حافّين من حول العرش ، وهذا هو جواب الشرط الذى يليق بهم .

جماعة أخرى من العلماء[1] قالوا : إن جواب الشرط هو (وفتحت) والواو هذه واو الثمانية ، فما المراد بواو الثمانية ؟ قالوا : كان منتهى العدد عند العرب سبعة ، فإذا جاء شىء بعد السبعة يعدُّونه كلاماً جديداً فيعطفونه بالواو ، ومن ذلك قوله تعالى فى أهل الكهف : ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ .. (٢٢)﴾ [الكهف] فقبل الثامن يذكر الواو .

---

(١) قاله أبو بكر بن عياش فيما نقله القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩٣١) ثم قال : وقد استدل بهذا من قال إن أبواب الجنة ثمانية ، وذكروا حديث عمر بن الخطاب قال قال رسول الله « ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » خرجه مسلم وغيره ، وقد خرَّج الترمذى حديث عمر هذا وقال فيه : « فتح له من أبواب الجنة ثمانية أبواب يوم القيامة » بزيادة من وهو يدل على أن أبواب الجنة أكثر من ثمانية . وقد ذكرنا ذلك فى كتاب « التذكرة » وانتهى عددها إلى ثلاثة عشر باباً .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ[1] الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾ [التوبة] فكلمة الناهون هى الثامنة لذلك سُبقت بالواو .

وقال بعضهم : إن من ذلك قوله تعالى فى سورة التحريم : ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥)﴾ [التحريم]

نعم كلمة (أبكاراً) هنا هى الثامنة ، لكن الواو جاءت هنا للفصل بين الاثنين ، فالثيبات لا يكُنَّ أبداً أبكاراً . إذن : فهذه الآية لا يُحتجّ بها فى هذا الموضوع ، إنما يُحتج بآية الكهف وآية التحريم ، على أن العدد سبعة هو منتهى العدد عند العرب ، وكذلك العدد ألف .

لذلك لما وقعتْ ابنة كسرى فى الأَسْر وذهبتْ لتفدى نفسها ، فقالوا لمن أخذها فى حصته : كم تطلب فيها ؟ قال : ألف دينار ، فقالوا له : إنها بنت كسرى . يعنى : كان بإمكانك أن تزيد على ذلك فقال : والله لو كنتُ أعلم أن وراء الألف عدداً لقُلْته .

ونحن لا نرى هذا الرأى ، فكلمة (وَفُتِحَتْ) ليستْ هى جواب الشرط هنا ، لأن جواب الشرط بالنسبة للمتقين أسمى من فتح الأبواب لهم وأسمى من قَوْل الملائكة لهم ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ .. (٧٣)﴾ [الزمر] وأسمى من ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣)﴾ [الزمر] لأن الحق

---

(١) السائحون : المنقطعون للعبادة لأنهم متجهون إلى الله . والعابدات السائحات فسرت بالصائمات والمهاجرات أو هى من السياحة لله والفرار إليه والمجاهدة ليلاً ونهاراً فى سبيل الوصول إلى كامل محبته وعظيم رضاه بالعبادة الخالصة وبالطاعة الدائمة . [القاموس القويم ١/ ٣٣٩] .

سبحانه سيقول بعد ذلك : ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الزمر] فذكر العرش هنا والملائكة تطوف به مُسبِّحة بحمد ربهم فيه إشارة إلى منتهى النعيم الذى سيلاقيه المتقون ، حيث يروْنَ الحق سبحانه الذى استوى على هذا العرش ، هذه هى الغاية التى يناسب أن تكون جواباً للشرط السابق .

لكن لماذا أخفى اللهُ جوابَ الشرط هكذا ؟ قالوا : لأنه لو قالها أى : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[1] لو قالها الآن لكانت قد سمعت ، إنما أراد سبحانه أن تكون مفاجأة على أنها مما لا يخطر على قلب بشر ، يعنى : لا تأتى على البال .

فمثلاً فى فاكهة الجنة يأتى لى بالفاكهة التى أعرفها كالتفاح والمانجو مثلاً نحن نعرفها فى الدنيا ، لأنه لو أتى بفاكهة جديدة لم نعرفها فى الدنيا لَقُلْنا : لو كانت فى الدنيا لكانت مثل هذا شكلاً وطعماً ، لذلك تأتى الفاكهة مما نعرفه فى الدنيا ، لكن بمواصفات أخرى يتحقق فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر .

إذن : التفاضل يأتى من كَوْنها فى الجنة ، ثم لو جاءت لى الفاكهة فى الجنة فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فكيف لو جاءت للمرة الثانية ؟ لا بد أننى سأكون قد رأيتها من قبل وخطرتْ على بالى ، فحين أرى المانجو مثلاً أقول : أنا

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) وأبو نعيم فى الحلية (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

أكلتُها قبل ذلك . قالوا : لا بل ستكون على هيئة أخرى ، ولون آخر ، وطعم آخر غير الذى أكلتُه فى المرة الأولى ، وهكذا يتحقق فى نعيم الجنة ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ولا خطر على قلب بشر .

لذلك يقول تعالى : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥) ﴾ [البقرة]

﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ (٧٤) ﴾

قولهم : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٧٤) ﴾ [الزمر] أهو حَمْد على صدق الله فى الوعد ، أم لأنكم بتوفيق الله صدقتم الله فيما وعدكم به ؟ المعنى : الحمد لله الذى جعلنا أهلاً لأنْ يصدق وعده فينا لأننا صدَّقنا به ، وإلا فوعْد الله صادق صادق .

﴿ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ .. (٧٤) ﴾ [الزمر] الإرث هنا له معنىً غير معناه الذى نعرفه بأنْ يرث شخصٌ غيره بعد موته .. فالميراث هنا فى الجنة كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾ [الأعراف]

وبيانُ ذلك كما قلنا أن الحق سبحانه قضى أزلاً أنْ يخلق خلقاً ، وأن يترك لهم الاختيار فى أشياء ، ويجبرهم فى أشياء أخرى ليظلوا عبيداً له سبحانه رغم أنوفهم من ناحية وعبيداً فيما يختارون من ناحية .

فإنْ آثروا جانب الله تعالى وآثروا مراده على ما وكل فيهم من الاختيار فازوا بمنزلة العبودية لله ، وكانوا وقتها أفضل من الملائكة لأن الملائكة جُبلوا على الطاعة أمّا الإنسان فأعطى الاختيار يُطيع أو يعصى ، فإنْ أطاع فله أنْ يزهوَ حتى على الملائكة .

لذلك كان إبليسُ قبل أنْ يعصى يزهو على الملائكة ، وكان يُسمَّى طاووس الملائكة لأنه مخلوق مختار ، ومع ذلك أطاع كما أطاعتْ الملائكة فأصبح له مَيْزة عليهم إلى أنْ زلَّ الزلة الأخيرة فأُبعِد وطُرِد من رحمة الله .

نقول : لما خلق الله الخَلْق مختارين ، لهم أنْ يطيعوا ، ولهم أنْ يعصوا أعدَّ لهم دار الجزاء في الجنة على اعتبار أنهم جميعاً سيطيعون ، فلكل واحد منهم منزلة في الجنة ، كذلك أعدَّ لهم في النار أماكن تسعهم جميعاً لو عصوا ، فحين يذهب أهل النار إلى النار تخلو أماكنهم في الجنة فأين تذهب ؟ يأخذها أهل الجنة أو يرثونها كما قال القرآن .

وقوله تعالى : ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ .. (٧٤)﴾ [الزمر] نقول : تبوأ المكان يعني : نزل به ، ومن ذلك قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ (٥٦)﴾ [يوسف] فالمعنى : ننزل ونسكن ، لكن المسألة ليست بالقوة ، كل يذهب حيث يشاء ، وليس فيها تعدياً على حقوق الآخرين ، فالمعنى : نسكن ما نشاء ، كل في جنته وما خصص له لا في جنة غيره ، وهذا دليل على أن الجنة الخاصة به .

واسعة ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤)﴾ [الزمر] نعم للمدح يعنى : أجر كبير نالوه بأعمالهم الصالحة .

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)﴾

قوله تعالى : ﴿حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ .. (٧٥)﴾ [الزمر] يعنى : يطوفون حوله ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ..(٧٥)﴾ [الزمر] فليس لهم عمل إلا التسبيح بحمد ربهم ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ..(٧٥)﴾ [الزمر] أى : قضى الله بينهم ، بين مَنْ ؟ بين الملائكة لأنهم أقسام : منهم العالون ، وهم المهيمون فى الحق سبحانه ، وهم لا يدرون شيئاً عن دنيانا ولا عن آدم وذريته .

ومنهم المسخرون لخدمة الإنسان وهم الملائكة الحافظون ، الذين قال الله عنهم : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الرعد] وهؤلاء الذين أمرهم الله بالسجود لآدم لا كل الملائكة ، فكأن هذا السجود دليلُ خضوع وطاعة لهذا المخلوق الذى ستكونون فى خدمته .ومنْ الملائكة الكرام الكاتبون : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾ [الانفطار]

فمعنى : ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ .. (٧٥)﴾ [الزمر] يعنى : أخذ كلٌّ منهم منزلته والجزاء الذى يستحقه .

﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)﴾ [الزمر] مَن القائل ؟ قالوا[1] : قالها المؤمنون من البشر ، وقالوا[2] : قالها جميع الخلائق ، وقالوا : قالها الحق سبحانه ، فهى ثناء من الله تعالى على ذاته سبحانه ، كما شهد سبحانه لنفسه بأنه ﴿لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨)﴾ [آل عمران]

فالحق سبحانه حمد نفسه على أنه رب العالمين ، لذلك قال النبى ﷺ فى الحديث : « ..... لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »[3] فهذا ثناء من الله على الله ، اللهم اجعلنا دائماً من القائلين الحمد لله رب العالمين .

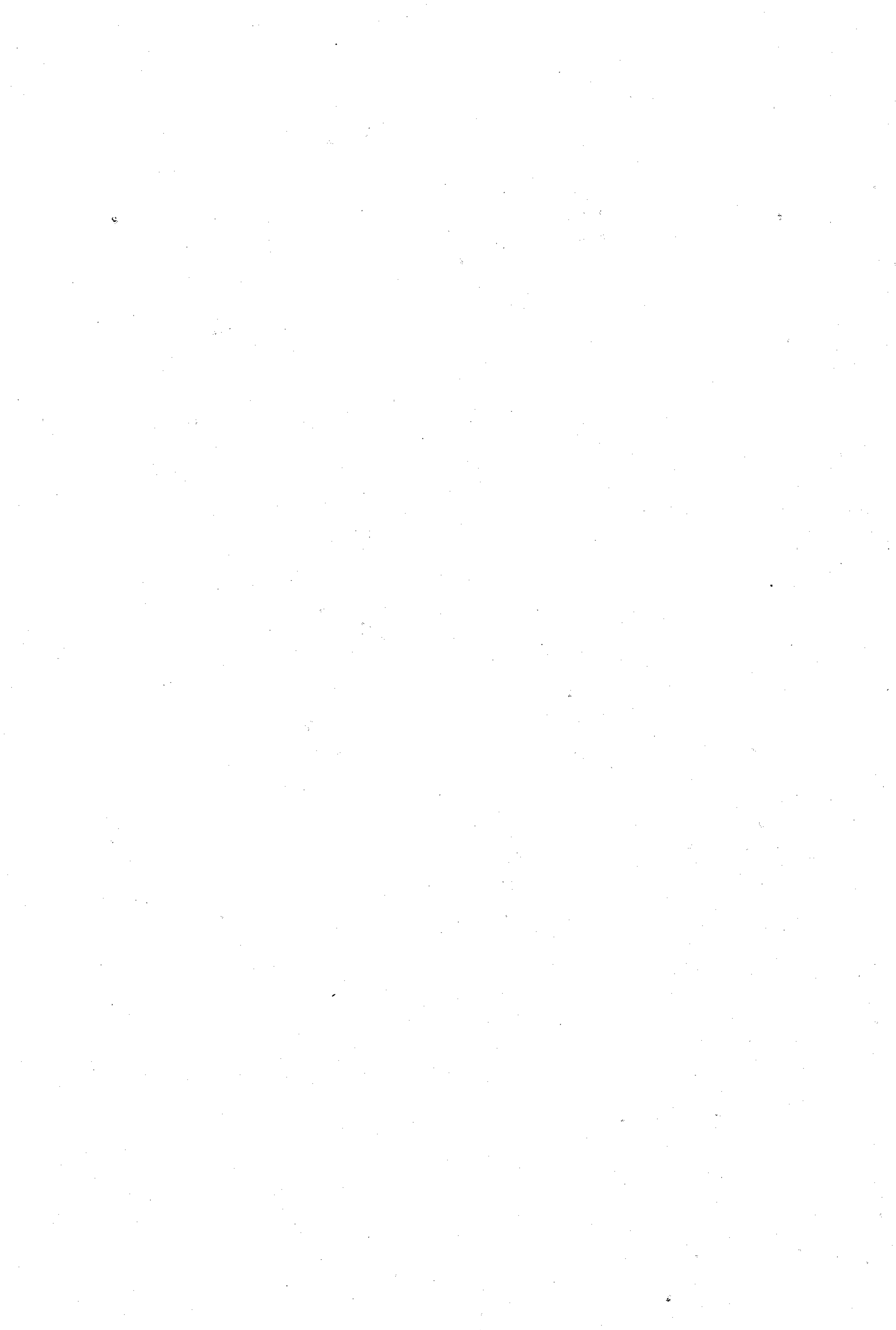
---

(١) قاله القرطبى فى تفسيره (٥٩٢٣/٨) : « أى يقول المؤمنون الحمد لله على ما أثابنا من نعمه وإحسانه ونصرنا على من ظلمنا . وقيل : من قول الملائكة ، فعلى هذا يكون حمدهم لله تعالى على عدله وقضائه » .

(٢) قاله ابن كثير فى تفسيره (٦٩/٤) : « أى : نطق الكون أجمعه ناطقه وبهيمه لله رب العالمين بالحمد فى حكمه وعدله ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد » .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٥٨/٦ ، ١٢٠) وكذلك مسلم فى صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .


سُورَةُ غَافِرٍ



سورة غافر[1]



هذه السورة بداية (الحواميم) أى : السور المفتتحة بقوله تعالى (حم) نقول فى الجمع (الحواميم) وهذا الجمع على غير القاعدة ، فالأصح أن نقول (آل حم) و (حم) من الحروف المقطعة التى ترد فى أوائل السور ، وسبق أنْ تكلمنا عليها فى أكثر من موضع ، والحقيقة أننا نحوم حول معانيها مما يتيسر لنا فهمه واستنباطه منها ، والجميع فى النهاية يقول : الله أعلم بمراده لأن معانيها فوق الإحاطة .

قلنا : إن الحرف له اسم وله مُسمّى ، نقول : ألف للحرف (أ)

---

(١) سورة غافر وتسمى سورة المؤمن نسبة إلى مؤمن آل فرعون فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [غافر] . وتسمى أيضاً سورة الطوْل لقوله تعالى : ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [غافر] أى : ذى الغنى والسعة والإنعام . وهى سورة مكية فى قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر . وعن الحسن إلا قوله ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [غافر] لأن الصلوات نزلت بالمدينة . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة وهما ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر] والتى بعدها . عدد آياتها ٨٥ آية وترتيبها فى المصحف الشريف (٤٠) وهى السورة (٥٩) فى ترتيب النزول نزلت بعد سورة الزمر كما هى فى المصحف وبعد سورة السجدة . [راجع تفسير القرطبى ٥٩٣٥/٨] . و[الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢٧/١] .

وباء للحرف (ب) هذا اسم الحرف ، أما المسمَّى لو قلت مثلاً (كتب) أنا لا أنطقها كاف تاء باء ، فهذه أسماء الحروف إنما أنطقها كتب وهذا هو المسمى : مُسمّى الكاف كَ ، ومسمّى التاء تَ ، ومسمّى الباء بَ ، إذن : نحن فى كلامنا ننطق بمسمّى الحروف .

لكن فى (حم) ننطق باسم الحرف فنقول : ح م ولو نطقنا المسمّى لَقُلْنا حمَّ . ومن هنا تأتى أهمية السماع فى قراءة القرآن . فبالسماع تُقرأ فى أول البقرة (الم) هكذا ألف لام ميم ، فى حين تُقرأ نفس الحروف فى سورة الشرح ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح] ولولا السماع ما كُنا نعرف هذا النطق .

بعض العلماء أخذوا يحومون حول معانى هذه الحروف فى أوائل السور فقالوا : القرآن معجز لأمة العرب ولما نبغ العرب فى البيان والفصاحة جاءتْ المعجزة من جنس ما نبغوا فيه ليكون الإعجاز فى محله ، وإلا فليس هناك أمة من الأمم جعلتْ للكلمة أسواقاً ومعارض كما فعل العرب فى عكاظ والمربد وذى المجاز[1] وغيرها . وكان تحدِّى القرآن لهم عين الشهادة بتفوقهم فى هذا الميدان ، وأنهم حجة فيه .

لكن من أين أتى إعجاز القرآن ؟ وبِمَ تميز عن كلام العرب والحروف هى الحروف والكلمات هى الكلمات ؟

قالوا : حروف اللغة منها حروف مَبْنى أى : تُبنى الكلمة وهذه الحروف ليس لها معنى فى ذاتها ، وحروف معنى وهى حروف لها

(١) عكاظ : سوق للعرب كانوا يتعاكظون فيها بالمفاخرة بالأنساب والآباء والجاه . وهى بقرب مكة كان العرب يجتمعون بها كل سنة فيقيمون شهراً . ذو المجاز : موضع بمنى كانت به سوق فى الجاهلية . [راجع لسان العرب - مادة : عكظ ، جوز] .

معنى وحدها ، فمثلاً الكاف حرف مبنى لأنه يدخل فى بناء كلمة كتب ، ولو أخذ الكاف من كتب ما كان لها معنى وحدها ، أما الكاف فى الجندى كالأسد فهى حرف معنى أفاد وحده معنى التشبيه ، ولم يدخل فى بناء كلمة الأسد ، كذلك الباء حرف مبنى فى كتب وحرف معنى فى (بالله) لأنه أفاد معنى القسم .

ومن هذه الحروف تتكوَّن الكلمات ، ومن الكلمات تتكوَّن الجمل والعبارات ، والعبارات تكوِّن الأسلوب والأداء المتميز الجذاب الذى يستميل الأذن ويؤثر فى النفس ، ومن هنا تأتى بلاغة الكلام وفصاحته حين يكون موافقاً لقواعد اللغة ، فإذا كانت الحروف العربية والكلمات هى هى فى القرآن ، فبمَ تميَّز عن كلام العرب ؟ قالوا : تميَّز بنسيجه الخاص ، وأن الذى تكلم به هو الله سبحانه .

وسبق أن قلنا : إننا إذا أردنا أن نختبر جماعة من النساجين فى جودة النسج ورقته لا يصح أنْ نعطى أحدهم خيوط الصوف والآخر القطن والآخر الحرير ، لأن المادة الخام مختلفة فلا نستطيع تمييز الأجود ، بل لابد أن تكون المادة واحدة ليتم التمييز .

فمعنى ﴿ **حمٓ** ﴿١﴾ **تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴿٢﴾ ﴾ [غافر] أو ﴿ **حمٓ** ﴿١﴾ **وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ** ﴿٢﴾ ﴾ [الدخان] أو ﴿ **الٓمٓ** ﴿١﴾ **ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ..** ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة] أى : من هذه الحروف تكوَّن القرآن وأعطى سر الإعجاز والتحدى ، لأن الله تعالى هو الذى نطق به وبلَّغه رسوله ﷺ ، وهو رسول أمى لا يعرف القراءة أو الكتابة .

لذلك نطق بالقرآن كما أوحى إليه لم يُغيِّر فيه حرفاً واحداً ؛ لذلك كانت الأمية عيباً وقُبْحاً إلا فى رسول الله كانت شرفاً وميزة ، وكأنه يقول بأميته : أنا لم أتعلم من أحد شيئاً ، وكل ثقافتى من ربى .

كذلك كانت الأمة كلها أمة أمية مُتبدِّية لا تعرف الحضارة ولا يحكمها قانون عام ، ولو كانت أمةُ العرب حينها أمةً متحضرة لقالوا عن الإسلام أنه وَثْبة حضارية ، لكن جاء الإسلام فى جزيرة العرب وهم أمة بدوية ليس لها قانون ولا دستور حكمها إلا قانون القبيلة وعصبيتها ، الحاكم فيها شيخ القبيلة ، بيوتهم على ظهر جمالهم أنَّى وجدوا الكلأ نزلوا وضربوا خيامهم ، وأنَّى وجدوا الماء حلوا بجواره ، فهم غير مرتبطين بوطن ولا مكان .

ناهيك عَمَّا كان بينهم من صراع قبلى وحروب تنشب على أيسر الأسباب ، وتعرفون مثلاً حرب داحس والغبراء التى استمرت بينهم أربعين سنة ؛ لذلك لما أراد رسول الله أن يكون للدولة الوليدة جيش ما فتح مدرسة لتعليم فنون القتال والحرب لأنه فى أمة تجيد هذه الفنون إجادةً تامة ، والعربى بطبعه مستعدّ للحرب كلما سمع هَيْعة[1] طار إليها .

إذن : فكيف لمثل هذه الأمة أن تقود العالم كله أن تفتح بلاد الدنيا ، وهى بهذا الوصف ؟

فكأن الله تعالى أراد أنْ يعدهم للسياحة فى الأرض بهدى الله لخلق الله فلم يرتبطوا بشىء ، ثم بعث فيهم رسولَ الله فجعل من العبيد سادة ، ومن رعاة الشاة قادة ومنارات للأمم كلها . إذن : كانت الأمة العربية مُعدَّة لساناً وأمية وبدوية لأنْ تقودَ العالم المتحضر ليعرف الجميع أن ما جاء به محمد ليس من عند البشر ، إنما من عند الله .

---

(١) الهيعة : الصوت الذى تفزع منه وتخافه من عدو . والهيعة : الصوت الشديد . [لسان العرب - مادة : هيع] ومنه حديث رسول الله ﷺ : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٨٩) كتاب الإمارة ، وأحمد فى مسنده (٤٤٣/٢) عن أبى هريرة بغير هذا اللفظ .

نعود إلى مسألة الحروف المقطعة ، فنقول : قد تأتى هذه الحروف على حرف واحد مثل (ق ، ص) وعلى حرفين مثل (طس ، حم) وعلى ثلاثة أحرف مثل (طسم ، الم) وعلى أربعة أحرف مثل : (المص ، المر) وعلى خمسة أحرف مثل : (كهيعص) إذن : ليس لها نسق واحد .

وحين نتأمل مجموع هذه الحروف نجده أربعة عشر حرفاً يعنى نصف حروف الهجاء الثمانية والعشرين ، وكونه يأتى بالنصف بالذات يعنى أنها مسألة مقصودة لم تأتِ هكذا كما اتفق ، ودليل أن هذه الحروف الأربعة عشر تصرفتْ تصَرفاً يوحى بأن لها ملحظاً وحكمة ولم تأتِ اعتباطاً ، فهذه الحروف الثمانية والعشرون منها تسعة حروف من أول ألف باء إلى حرف الذال لم يأخذ منها فى الحروف المقطعة إلا حرفين هما الألف والحاء وترك الباقين . وهى سبعة أحرف .

ثم تأمل التسعة الأحرف الأخيرة تجد أن الحق سبحانه أخذ منها سبعة أحرف وترك حرفين على عكس الأولى فأخذ منها : القاف والكاف واللام والميم والنون والهاء والياء وترك الفاء والواو . هذه ثمانية عشر حرفاً ، يبقى العشرة الأحرف فى الوسط ، وتبدأ من الراء إلى الغين .

ونلحظ فى هذه الأحرف أنه أخذ الحروف غير المنقوطة وترك الحروف المنقوطة ، أخذ الراء وترك الزاى ، وأخذ السين وترك الشين ، وأخذ الصاد وترك الضاد ، وأخذ الطاء وترك الظاء ، وأخذ العين وترك الغين .

إذن : هذا النظام فى الحروف المقطعة دلَّ على أنها ليست على

نسق واحد ، وأن لها حكمة مقصودة ولم تأت هكذا اعتباطاً ، وعلينا نحن أن نستنبط هذه الحكَم ونفهم هذه الدلالات كلٌ حسب ما تيسّر له ، وما زلنا (نفتش) في هذه الحروف لعلنا نصل .

لكن كونك تبحث عن الحكمة فهذا اجتهاد محمود ، ولك أنْ تريح عقلك وتأخذها من الله كما هى كما تأخذ المفتاح مثلاً ممن صنع الطبلة ، فلا يعنيك أن يكون بسنَّة واحدة أو اثنتين أو ثلاثة أو أربعة، المهم أن يفتح لك ، ويكونَ سرّ المفتاح مع مَنْ صنعه .

لكن للعقل أنْ يأنس بأشياء ، كيف ؟

قالوا : الحق سبحانه وتعالى يريد فى دينه ثلاثة أمور : عقائد ، وأحكام ، ومادة تؤدى هذه العقائد والأحكام وهى كلامه فى القرآن ، وكلٌّ من هذه الثلاثة فيه غيب وفيه مشهد .

فالعقائد وأولها الإيمان بالله وهو غَيْب لكن يمكنك الوصول إليه والاستدلال عليه بالمشاهد من مخلوقاته وعظيم صنعته وهندسته فى الكون المرئى ، لأن هذا الكون البديع لم يدَّع أحدٌ خَلْقه ولم ينسبه لنفسه . إذن : هو لله وحده ، إذن نصدق هذا الغيب بالمشاهد ، أما الغيب الذى ليس له مشهد كالصفات التى للحق سبحانه فنأخذها مما نسمع من كلامه سبحانه .

كذلك الفرائض والأحكام فيها مشهد وفيها غيب ، فالصلاة والزكاة والحج والصيام كلها مشهد ، وفيها غيب لا نعرف حكمته حتى الآن ، فالصلاة فيها استطراق عبودية ، والصيام فيه استدامة التكليف ، والزكاة لاستطراق المال فى المجتمع ، والحج لإعلان الولاء للبيت الذى هو بيت الله ، هذه أمور تستطيع أنْ تعرفها بالعقل ، لكن

ما الحكمة مثلاً من جَعْل الصبح ركعتين والظهر أربعاً والعصر أربعاً والمغرب ثلاثاً ، والعشاء أربعاً ، هذه لا نعرفها .

إذن : مع كل غيب مشهد ، ومع كل مشهد غيب ، كذلك كلام الله تعالى فيه غيب وفيه مشهد ، أما المشهد فهو الكلام الذى نعرفه ونقرؤه ونسمعه ونكتبه ونعرف معناه وتفسيره ، وفيه غيب كما فى (الم ، ن ، ق ، ص) .

فكل غَيْب محروسٌ بمشهد يساعدنا على الإيمان بالغيب ؛ لأن المسائل كلها لو كانت مشهداً ما كان للإيمان مجال ، فنحن الآن أنا وأنتم نجلس مجلسَ علم فى مسجد الشيخ سليمان ، فهل هذا المشهد لنا محل إيمان ، لا بل مشهد . أما الإيمان فمحلّه الغيب ، لذلك قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. (٣) ﴾ [البقرة]

لكن هذا الغيب لابدَّ أنْ تكون له شواهد من المشاهدة ومقدمة تؤدى إليه ، أرأيتَ مثلاً لرحلة الإسراء والمعراج ؟ هذا غيب لم يَرَهُ أحد غير سيدنا رسول الله ، رحلة الإسراء كانت رحلة أرضيمة ، ورحلة المعراج كانت رحلة سماوية ، الناس شاهدتْ ما على الأرض من معالم لكن لم تشاهد ما فى السماء .

لذلك لما أراد سيدنا رسول الله أن يقدم لهم دليلاً على صدقه وصف لهم معالم رآها على الأرض فوصف لهم بيت المقدس[1] ،

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٦٣) من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : إنى أسرى بى الليلة . قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس . قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ فقال : نعم . قال : فمن بين مصفق وواحد واضع يده على رأسه مستعجب للكذب .. قال : وفى القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد فقال : هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ قال : فذهبت أنعت فما زلت حتى التبس علىَّ بعض النعت . قال : فجىء بالمسجد حتى وُضع دون دار عقيل قال : فنعتُّه وأنا أنظر إليه . فقالوا : أما النعت فقد والله أصاب . وأخرجه أحمد فى مسنده (١/٣٠٩) .

والقبيلة التى رآها مسافرة ومتى ستصل ، وأن بها جملاً صفته كذا وكذا ، فهذه رحلة أرضية من الممكن أنْ يُقام عليها دليل .

وبصدقه ﷺ فيما أخبر من مشاهدات أرضية صارتْ هذه الرحلة مشهداً ووسيلة لتصديق المشهديات المخالفة للقوانين ، فإنْ أخبر أنه صعد إلى السماء فصدَّقوه وخذوا من صدقه فى المشَاهَد دليلاً على صدقه فيما غاب ؛ لأن كلَّ غيب كما قلنا محروس بمشهد .

ثم يقول سبحانه :

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ ﴾

مادة نزل وردتْ فى القرآن بصيغ عدة : أنزلنا ، نزَّلنا ، تنزيل نزل . وكلها تعطى معنى العلو للذى نُزِّل ، وصفة العلو تدل على أن المنزَّل ليس من صُنْع البشر ، وتدل على عظمة المنزِّل ومنزلته ، حتى إنْ كان من جهة الأرض لا من جهة السماء ، كما قال تعالى فى الحديد : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد]

ومعلوم أن الحديد يُستخرج من الأرض لا ينزل من السماء ، فالمعنى : أنزلناه على أنه هبة العالى للأدنى ، ولا بدَّ أن يكون الأعلى أعظم من الأدنى . ونقول ذلك حتى فى الأحكام والقوانين حين نريد أنْ نشرع ونُقنِّن القوانين .

لا تتركوا قوانين الأعلى وتأخذوا بقوانين الأدنى ، لأن المقنِّن الأعلى سبحانه غير المقنِّن من البشر ، فمهما بلغ من العلم والحكمة فلن يخلو من هوى ولن يتنزَّه عن غرض ، فإنْ كان من الأغنياء يُقنِّن للرأسمالية ، وإنْ كان فقيراً قنَّن للشيوعية .

لذلك يُشترط فيمن يُقنِّن ألاَّ يكون له هوىً ، وألاَّ يكون منتفعاً بما يقنن ، وأنْ يكون محيطاً بالأمور كلها بحيث لا يستدرك عليه ولا ينسى جزئية من جزئيات الموضوع ، وهذه الشروط كلها لا تتوفر إلا فى الحق سبحانه ، لذلك لا يجوز لنا أن نترك قانون الله وشرعه ونتحاكم إلى قانون البشر .

لذلك تعرَّض الإسلامُ لحملات ضارية وانتقادات من غير المسلمين كان آخرها الضجة التى أثاروها فى الفاتيكان على الطلاق فى الإسلام ، لأنهم قننوا لأنفسهم بعدم الطلاق ، لكن الطلاق فى الإسلام مَنْ شرعه ؟ الله لا البشر .

إذن : فهو الصواب وغيره خطأ ، لأنك لا تستطيع أبداً أنْ تديمَ علاقة بين زوجين يكره كل منهما الآخر وهو مأمون عليها وهى مأمونة عليه ؟ كيف تحكم علىَّ أن أعيش مع امرأة لا تثير غرائزى .

إذن : شُرع الطلاق فى الإسلام لحكمة ، لأن المشرِّع سبحانه أعلم بطبائع الخَلْق ، ومرتْ الأيام وألجأتهم أقضية الحياة ومشاكل المجتمع لأنْ يُشرعوا هم أيضاً الطلاق ، ما أباحوه لأن الإسلام أباحه ولا محبةً فى دين الله ولا إيماناً بشرع الله ، إنما أباحوه لأن الحياة فرضتْ عليهم قضايا لا تُحلُّ إلا بالطلاق .

وهذه المسألة هى التى أجبنا بها حين سُئلنا فى سان فرانسيسكو عن قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف] وقال : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة]

يقولون : مرَّ على الإسلام أربعة عشر قرناً من الزمان وما يزال أغلب الناس غير مسلمين ، والإسلام ليس هو الدين الغالب بل مُهدَّد

ومُحارَب . قلنا : لو تأملتم معنى الآية لعرفتم أن إظهار الدين لا يعنى أن يؤمن كل الناس ، إنما يظهر على غيره من الشرائع والقوانين ويضطر غير المسلمين لأنْ يأخذوا بالإسلام فى حَلِّ قضاياهم ، وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ [التوبة] ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢)﴾ [التوبة] دليلٌ على وجود الكفار والمشركين مع وجود الإسلام .

وكلمة (الكتَاب) أى : القرآن ، سماه الله كتاباً لأنه مكتوب ، وقرآناً لأنه مقروء ، أو هو كتاب إيذاناً بأنْ يكتب ، وهو قرآن إيذاناً بأن يُقرأ ، والقراءة إما من السطور وإما من الصدور الحافظة ، وسمَّاه وحياً لأنه أُوحِي به إلى نبيه ﷺ : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ [النجم] إذن : لكل تسمية ملحظ .

ولما أرادوا جمع القرآن اشترطوا أن تتوافق فيه الصدور والسطور ، فما كتبوا آية واحدة إلا إذا وجدوها مكتوبة فى الرقاع وشهد شاهدان بصحتها ، ورحم الله سيدنا الشيخ محمد عبد الله دراز[1] الذى قرن بين هذه المسألة وقوله تعالى : ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ .. (٢٨٢)﴾ [البقرة]

ثم يقول سبحانه : ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢)﴾ [غافر] فهذا الكتاب مُنزَّل من عند الله المتصف بصفات الكمال المطلق ، وله سبحانه طلاقة قدرة وطلاقة حكمة وطلاقة رحمة وطلاقة رحمانية ، وما دام الكتاب جاء ممَّنْ هذه صفاته فلا يمكن أنْ يستدرك عليه ، وما دام لا

---

(١) محمد عبد الله دراز : فقيه متأدب مصرى أزهرى ، كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر . له كتب منها : الدين – دراسة تمهيدية لتاريخ الإسلام توفى عام ١٩٥٨م . [الأعلام للزركلى ٦/٢٤٦] .

يستدرك عليه فصدِّقوا الآية : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. (٣) ﴾ [المائدة]

لذلك نعجب من الذين ينادون الآن بعصرنة الإسلام ، ونقول لهم : بدل أنْ تُعصرنوا الإسلام دَيِّنوا العصر .

وصفة (العَزِيز) أى : الغالب الذى لا يُغلب ، وما دام أن هذا الكتاب نزَّله عزيز لا يُغلب ، فلا بدَّ لهذا الكتاب أنْ يعلو وأن يُنشر وأنْ يسمعه الناس لا يغلبه أحد ، لأن مُنزله عزيز ، ولأن الله تعالى ما كان ليبعث به رسولاً ويتركه أو يخذله ، فمهما عاندوا ومهما تكبروا وجحدوا سيغلب هذا القرآن ، ولن يُغلبَ أبداً فى أىٍّ مجال من المجالات .

وكأن الحق سبحانه يقول للكفار وعبدة الأصنام : خذوا لكم عبرة من واقع الأشياء حولكم ، فمحمد وأتباعه بعد أنْ كانوا مُحاصرين مضطهدين أصبحوا فى ازدياد يوماً بعد يوم ، وأرض الإسلام أصبحتْ فى ازدياد وزيادة أرض الإسلام نقصٌ من أرض الكفر : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) ﴾ [الرعد]

وقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) ﴾ [الحج]

يعنى : مَنْ كان يشك فى نصر الله وتأييده فليبحث له عن مسلك آخر وليأت بحبل يُعلِّقه فى السماء ويجعل رقبته فيه ثم ليقطع ،

فلينظر هل يُذهب هذا غيظه ؟ وقد قال الله تعالى فى بيان سنته فى نصرة رسله وعباده الصالحين : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

إذن : فالحق سبحانه ما كان ليكبت دينه ، ولا يخذل رسله ، أو يتخلىَّ عن نُصْرة أوليائه .

وقوله تعالى : ﴿ الْعَلِيمِ (٢) ﴾ [غافر] تعنى : أن عزته سبحانه ليست (فتونة) بلا رصيد ، إنما هى عزة بعلم ، وعزة بحكمة ، وعزة برحمانية ورحيمية ، فله سبحانه كل صفات الكمال المطلق .

ثم يقول سبحانه :

﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ (١) لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) ﴾

يريد الحق سبحانه ألاَّ ينفصل خَلْقه عنه مهما كثُرتْ ذنوبهم وغلبتهم شهواتهم ، يريد سبحانه أنْ يعطفهم إليه ويجمعهم فى ساحته ، لذلك فتح لهم باب التوبة والمغفرة وبسط لهم يَدَ العفو والتسامح ، ثم لوَّح لهم بعصا العقاب حتى لا يغتروا ، وهذا المنهج يعود نفعه على الكون كله وعلى الفرد خاصة ؛ لأن صاحب الذنب لو

(١) الطول : الفضل والغنى والقدرة . [القاموس القويم ٤١١/١] والطَّوْل مأخوذ من الطول كأنه طال بإنعامه على غيره . وقيل : لأنه طالت مدة إنعامه . [تفسير القرطبى ٥٩٣٩/٨] .

علم أن ذنبه لن يُغفر لتمادى فيه وأكثر وعربد فى الكون وأفسد ، وساعتها سيشقى به المجتمع وخاصة أهل الإيمان .

لذلك كانت هذه الآية من أرْجَى الآيات فى القرآن الكريم كما قال سبحانه فى أواخر سورة الزمر : ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾ [الزمر]

وقلنا : إن هذه الآيات وأمثالها لا تتعارض وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (٤٨)﴾ [النساء] لأن الكفر ليس ذنباً ، لأن الذنب أنْ تخالف أمراً مأموراً به أو منهياً عنه من المشرِّع الأعلى سبحانه ، أما الشرك بالله فهو خروج عن الإيمان أصلاً فلا يُقال له مذنب .

والحق سبحانه كثيراً ما يذكر عباده بمغفرته وقبوله للتوبة حتى لا ييأس أحدٌ من رحمته تعالى ، فقوله تعالى : ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ .. (٥٣)﴾ [الزمر] لم يقلها الحق سبحانه إلا وهناك مَنْ أسرف على نفسه ويَئِس من رحمة ربه ، لأنه بالغ فى الذنوب حتى ظن أنها لن تُغفر .

من هؤلاء وحشىّ قاتل سيدنا حمزة ، لأنه بعد أن قتله أحسَّ بذنبه وعِظَم جُرْمه ، وأيقن أنه هالك لن يغفر الله له ، لذلك البعض يقول إنه ذهب لرسول الله يسأله فى هذه المسألة وكذا وكذا ، لكن الواقع أنه كان فى مكة والآية نزلت فى المدينة لكن نُقلت إليه فلما سمعها آمن وأسلم .

ويُروى[1] أن وحشياً قابل النبى ﷺ فقال له ﷺ : ما كنتُ أود أنْ أراك لولا أنك جئت مستجيراً وربى يقول : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ .. ⟨٦⟩﴾ [التوبة]

فقال : وأنا مستجير بك حتى أسمع كلام الله ، فقرأ عليه رسول الله : ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ⟨٥٣⟩﴾ [الزمر]

فقال : لكن الله يقول : ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا .. ⟨٧٠⟩﴾ [الفرقان] وأنا لا أضمن أنى أعمل عملاً صالحاً ، فقرأ عليه رسول الله هذه الآية : ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ .. ⟨٣⟩﴾ [غافر]

ومن هؤلاء الذين أصابهم اليأس من رحمة الله عياش بن أبى ربيعة ، فيُروى أن سيدنا عمر رضى الله عنه لما أراد أن يهاجر اتفق

---

(١) روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : أتى وحشى إلى النبى ﷺ قال فقال : يا محمد أتيتك مستجيراً فاجرنى حتى أسمع كلام الله . فقال رسول الله ﷺ : « قد كنت أحب أن أراك على غير جوار فأما إذ أتيتنى مستجيراً فأنت فى جوارى حتى تسمع كلام الله . قال : فإنى أشركت بالله وقتلت النفس التى حرم الله وزنيت ، هل يقبل الله منى توبة ؟ فصمت رسول الله ﷺ حتى نزلت ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ .. ⟨٦٨⟩﴾ [الفرقان] إلى آخر الآية فتلاها عليه ، فقال : أرى شرطاً فلعلى لا أعمل صالحاً ، أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله . فنزلت ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. ⟨٤٨⟩﴾ [النساء] فدعا به فتلاها عليه . قال : فلعلى ممن لا يشاء أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله . فنزلت ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ .. ⟨٥٣⟩﴾ [الزمر] فقال : نعم الآن لا أرى شرطاً ، فأسلم . أورده القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩١٤) .

مع عياش[١] وهشام بن العاص بن وائل السهمى [٢] على أن يهاجروا معاً وأن يجتمعوا عند بئر غفار ، فإذا حُبس واحد منهم انتظروه ، فلما جاء الموعد لم يأتِ عياش حيث حبسه أهله عن الهجرة ثم فتنوه ففُتن ولم يهاجر مع صاحبيه ، فحصل له يأس من رحمة الله [٣] .

فلما نزلت هذه الآية : ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر] تذكر عمر صاحبه عياشاً الذى فُتن وتذكر أنه التقى معه على الإيمان فى يوم ما ، وأنه كان ينوى الهجرة إلا أن أهله فتنوه فرقَّ له قلبه وبعث إليه بهذه الآية ليطمئن ويعود إلى الإيمان .

قوله تعالى : ﴿غَافِرِ الذَّنبِ ﴿٣﴾﴾ [غافر] أى : الذى سلف ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴿٣﴾﴾ [غافر] أى : عن المعصية التى استقبلها ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴿٣﴾﴾ [غافر] لحكمة يقرن الحق سبحانه بين المغفرة والعقاب حتى لا يتواكل الناس وحتى لا يغتروا برحمة الله ، فالدين يقوم على الخوف والرجاء ، وهما كالجناحين للطائر لابدَّ منهما معاً ﴿ذِى الطَّوْلِ ﴿٣﴾﴾ [غافر] كما تقول يعنى (إيده طايلة) يفعل ما يشاء ، فالله ذو الطوْل

---

(١) اسمه عمرو ويلقب ذا الرمحين وهو ابن عم خالد بن الوليد . كان من السابقين الأولين وهاجر الهجرتين ثم خدعه أبو جهل إلى أن رجعوه من المدينة إلى مكة وحبسوه وكان النبى ﷺ يدعو له فى القنوت . مات سنة ١٥ هـ بالشام فى خلافة عمر وقيل استشهد باليمامة وقيل باليرموك . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٥/٤٧] .

(٢) كان هشام بن العاص يكنى أبا العاص فكنّاه النبى ﷺ أبا مطيع . كان قديم الإسلام هاجر إلى الحبشة . ذكره أصحاب السير فيمن استشهد بأجنادين . وذكر الواقدى أن هشاماً كان رجلاً صالحاً فرأى من بعض المسلمين بأجنادين بعض النكوص فألقى المغفر عن وجهه وجعل يتقدم فى نحر العدو ويصيح : يا معشر المسلمين إلىَّ إلىَّ أنا هشام بن العاص أمن الجنة تفرون ؟ حتى قتل . [راجع الإصابة ٦/٢٨٦] .

(٣) ذكر ابن حجر العسقلانى هذا الخبر فى الإصابة (٦/٢٨٦) وقال : أخرج ابن السكن بسند صحيح عن عمر . وذكره .

أى صاحب الفضل والإنعام يعطى ويتفضَّل بما يشاء على مَنْ يشاء لا يردّ عطاءه أحدٌ ، لذلك ورد فى الدعاء : « لا معطى لما منعْت ، ولا مانع لما أعطيت » .

فإذا قال الحق سبحانه : ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) ﴾ [غافر] فهمنا من كلمة تنزيل عُلو المنزل والواسطة المنزل إليه والمنزل إليهم ليكون منهجاً لحركة حياتهم ، وهذا العلو إنما نشأ لأن المنزل كتابٌ من الله واجب الوجود الذى له الكمال المطلق فى قولنا لا إله إلا الله والله أكبر من كل شىء التى فسرناها فى قوله تعالى ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ (٦٣) ﴾ [الزمر]

فلا إله إلا الله مقلاد ، والله أكبر مقلاد ، وسبحان الله مقلاد ، وبحمده مقلاد ، ونستغفر الله مقلاد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله مقلاد ، وهو الأول مقلاد ، وهو الآخر مقلاد ، وهو الظاهر مقلاد ، وهو الباطن مقلاد ، بيده الخير مقلاد ، وهو على كل شىء قدير مقلاد . ولن تجد شيئاً فى كَوْن الله يخرج عن هذه المقاليد أبداً ، وكل شىء فيها إنما هو بيد الله ، كما قال سبحانه : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ (٥٩) ﴾ [الأنعام]

وبعد ذلك تكلم الحق سبحانه ، فقال ﴿ الْعَزِيزِ (٢) ﴾ [غافر] أى : عن خَلْقه . والعزيز هو الذى يغلب ولا يُغلب ، وهذه إشارة إلى أنه إذا أنزل اللهُ كتاباً على رسول فلن يوجد مَنْ يقف أمام هذا الكتاب لأنه غالبٌ لا يُغلب ، وقوله ﴿ الْعَلِيمِ (٢) ﴾ [غافر] أى : يضع الأشياء فى أماكنها بما يعلم أنها تؤدى مهمتها بصلاحها .

وبعد ذلك طمأن خَلْقه الذين أسرفوا على أنفسهم فى بعض الأشياء ، فذكر التخلية فى ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ (٣) ﴾ [غافر]

ولكنه سبحانه مع غفرانه للذنب وقبوله للتوب ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر] فجمع فى هذه الآية صفات جلاله كلها وصفات جماله كلها .

ونفهم من (لا إله إلا هو) أنه لا استدراك لأحد على شيء من قوله ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر] فلا مرجع ولا مردَّ إلا إليه.

ثم يقول سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤﴾

الرسول ﷺ جاء رسولاً من عند الله بما يُخرج الجاهلية إلى مقام العلم عن الله ، وبذلك تتطهر حركة حياتهم من كل ما يعطى فى الكون ذبذبة أو كلّ ما يعطى فى الكون تعانداً حتى يصير الكون كله متسانداً متعاضداً ، بحيث لا يبني واحد ويهدم الآخر ، فيقول سبحانه : ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۝٤﴾ [غافر]

الجدل : إبرام الشيء إبراماً حقيقياً بحيث يستحيل أنْ ينقض ، وهذه المسألة مثل عملية فَتْل الحبال عندنا فى الفلاحين ، حيث يأخذ الرجل شعيرات التيل المعروف ويظل يبرم فيها ، إلى أنْ تتداخل الشعيرات وتتماسك وتتداخل ، لذلك نرى الحبل قوياً متيناً .

وسُمِّي المراءُ بين الناس جدلاً ، لأن كل واحد من الطرفين يريد أن يُحكِّم منطقه وحجته ليغلب الآخر ، فكلٌّ منهم يجادل لحساب نفسه ، صاحب الحق يجادل لإظهار حقه ، وصاحب الباطل يجادل ليُحِقَّ باطله . أى : يُظهره فى صورة الحق .

لكن هل الجدل مذموم فى ذاته ؟ لا ، لأن الجدل بحسب الغاية منه ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت] فدلَّ ذلك على أن فى الجدل ما هو حسن وأحسن ، والجدل الحسن هو الذى يسعى لإيجاد الحجة على أن الحق حق والباطل باطل[1] ، فإنْ كان العكس فهو جدل باطل مذموم .

لذلك نفهم من قوله تعالى : ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٤﴾﴾ [غافر] أن هذا هو الجدل الباطل لأن الجدل يكون عنها لا فيها ، يجادل عنها أى : يدافع عنها ليثبت صدقها ويُظهر الحق الذى جاءتْ به ، أما يجادل فى الآيات . أى : يحاول التشكيك فيها وتكذيبها .

وقلنا : إن آيات الله على ثلاثة أنواع ، وهذه هى التى يحدث فيها الجدل : الآيات الكونية التى تشهد بوجود الخالق الأعلى سبحانه ، والآيات البينات المعجزة التى تثبت صدق الرسول فى البلاغ عن ربه ، والآيات القرآنية التى تحمل الأحكام .

فالآيات الكونية التى تثبت قدرة الله الخالق الأعلى سبحانه هى التى نشاهدها فى الأرض وفى السماء ، فى الشمس والقمر والنجوم والماء والهواء .. الخ وهذه الآيات أوجدها الخالق سبحانه على هيئة الصلاح ، وعلى قانون ثابت لا يتخلف ، ولا دَخْلَ للإنسان فى حركتها .

وسبق أنْ قلنا : إن الفساد فى الكون يطرأ من تدخل الإنسان وامتداد يده إلى مخلوقات الله بغير قانون الله الذى خلق ، ولو تدخَّل الإنسان فى الأشياء بقانون الخالق ما رأينا هذا الفساد الذى يعمّ الكون الآن ؛ لذلك يوضح لنا الحق سبحانه هذه القضية ، فيقول :

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩٣٩) : « أما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحل مشاكلها ومقادحة أهل العلم فى استنباط معانيها ، ورد أهل الزيغ بها وعنها ، فأعظم جهاد فى سبيل الله » .

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا (٥٦) ﴾ [الأعراف]

والمعنى : أن الحق سبحانه خلق الأرض على هيئة الصلاح ، فإياكم أنْ تفسدوها ؛ لذلك يرجع الحق سبحانه الفساد الحادث فى الأرض إلى الناس ، فيقول : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ (٤١) ﴾ [الروم]

نعم ، لوَّثنا المياه وألقينا فيها النفايات والمخلَّفات فماتت الأسماك وظهرت الأمراض ، أفسدنا الهواء وأفسدنا التربة الزراعية .. الخ ذلك لأننا تدخَّلنا فى مخلوقات الله بغير قانون الله ، وبغير منهج الله الذى وضعه لصلاح الكون .

لكن أىّ هذه الآيات الثلاث يجادل فيها الكافرون ؟ بالطبع هم لا يجادلون فى الآيات الكونية ولا يتعرضون لها ، لأنهم أولاً ينتفعون بها ويرونَ فيها نظاماً دقيقاً محكماً لا يشذّ ولا يتخلف ، فلا مجالَ إذن للجدل فيها . إنما يجادلون فى الآيات الأخرى فى آية المعجزة ، وفى آيات الكتاب حاملةً الأحكام فيُشككون فيها .

أما المعجزة فقالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[1] عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : اعتراضهم هنا ليس على القرآن فى ذاته إنما فى مَنْ أنزل عليه ، فالقرآن فى نظرهم لا غبارَ عليه لولا أنه نزل على محمد ، لكن كفرهم يُوقعهم فى التناقض فيقولون : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ

---

(١) اختلف فى تحديد هذا الرجل الذى كان يريدون نزول الوحى عليه . فقيل : الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفى . وقيل عمير بن عمرو بن مسعود الثقفى ، وقيل : عتبة ابن ربيعة . وقيل : حبيب بن عمرو الثقفى . أما القريتان فهما مكة والطائف . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

عندكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال]

وكان المفترض بالعقل أنْ يقولوا : فاهدنا إليه ، فهذا دليل على شكِّهم فى القرآن وعدم تصديقهم لما جاء به ؛ لذلك حكى القرآن عنهم قولهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت]

وتأمل هنا النهى عن مجردِ السماعِ للقرآن ، لماذا ؟ لأنهم عرب ولهم فطرة لغوية وخبرة بالأداء والبيان ، فلو استمعوا للقرآن لابدَّ أنْ يتأثروا به ، وكل من استمع القرآن بقلب خَالٍ من ضده لابد أنْ يقتنع به ، وإلا فلماذا كان نهيهم عن مجرد السماع ؟

لذلك لا يكتفون بالنهى عن السماع بل يُشوِّشون عليه حتى لا يتمكن السامع من السماع ﴿ وَالْغَوْا فِيهِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت] هذا دليلٌ على أن القرآن لو تُرِك ليصل إلى الآذان لابدَّ أنْ ينفذ إلى القلوب فيعمرها ويلفتها إلى الحق إنْ كان الذهن خالياً من الباطل ، فإنْ كان القلب مشغولاً بعقيدة مخالفة لا يتأثر ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴿١٦﴾ ﴾ [محمد]

وقال فيمَنْ يؤثر فيه سماع القرآن : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [التوبة]

فإنْ قلتَ : كيف يكون للشىء الواحد أثران متضادان ؟ نقول : لأن القابل للفعل مختلف ، وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بالنفخ فى الأيدى للتدفئة فى البرد ، والنفخ فى كوب الشاى الساخن ليبرد ، فالنفَس واحد لكن القابل للنفَس مختلف ، ولا شكَّ أن حرارة النفَس

أقلُّ من حرارة كوب الشاى ، لكنها أشدُّ من الحرارة فى الأيدى وقت الشتاء ، كذلك يختلف أثر القرآن بالنسبة للسامع .

لذلك ينبغى عند سماع القرآن ألاَّ توجد حُجب تحجبه عن القلب ، والحق سبحانه وتعالى يمنع لغط الجماهير فى الجدل البيانى ، ففى الضوضاء تختلط الأصوات وتتداخل ، وتُستر عيوب الشخص فى الآخرين ، وهذا يحدث مثلاً فى المظاهرات فلا نستطيع أن نسند الصوت إلى صاحبه ، وهذه المسألة توضح لنا الحكمة من قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنبياء]

وقد وقف المستشرقون عند هذه الآية يقولون : ما الميزة فى علم الجهر والجميع يعلمه ، فلماذا يمتنّ الله بعلمه ؟ نقول : قوله تعالى : ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنبياء] دلَّ على أن الجهر أيضاً من الجماعة بمعنى : ويعلم ما تجهرون ، فالحق سبحانه هو الذى يعلم كلَّ صوت ويعلم صاحبه ، ويميز الأصوات ويردها إلى أصحابها ، وهذه العملية فى ذاتها أصعب من علم الكتمان .

ومن جدالهم فى آيات الله قولهم عن رسول الله ﷺ أنه ساحر وكاهن ، وقولهم عنه شاعر .. الخ وهذه أقوال باطلة مردودة على أصحابها والرد عليها يسير ، فلو كان محمد ساحراً سحر مَنْ آمن به ، فلماذا لم يسحركم أيضاً كما سحرهم ؟

إذن : بقاؤكم على حالتكم هذه دليلٌ على كذبكم فى هذا الاتهام ، أما كاهن فما جربتم عليه قبل ذلك شيئاً من الكهانة ، ولا سمعتم منه كلاماً كالذى يقوله الكهان .

والأعجب من ذلك أنْ يتهموا رسولَ الله بأنه شاعر ، وأن ما يقوله شعر ، وهم أمة الشعر وفرسان هذا الميدان ، وهم أدرى الناس

به ، ومَنْ كان عنده أدنى دراية باللغة يستطيع أنْ يُفرِّق بين الشعر والنثر وأن يتذوَّق كلاً منهما ويشعر به إذا انتقل مثلاً من الشعر إلى النثر ، أو من النثر إلى الشعر .

فحين تقرأ مثلاً : هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه الجفوة غمرة ثم تنجلي ، ولن يريبني من سيدى أنْ أبطأ سيبه أو أخطأ غير ضنين غناؤه ، فأبطأ الدِّلاء فَيْضاً أملؤها ، وأثقل السحائب مَشياً أحفلها ، ومع اليوم غد ولكل أجل كتاب .

فإنْ يكُنْ الفعْلُ الذى سَاءَ وَاحِداً فَأفْعَالُه اللاَّئى سُرِرْنَ أُلُوفُ[1]

لابدّ إذن أن تفرق ههنا بين الشعر والنثر ، فكيف بهم وهم أمة البلاغة والفصاحة ، الأمة التى جعلت للحكمة أسواقاً ومعارض ، ومع ذلك لا يفرِّقون بين الشعر والقرآن .

القرآن ليس شعراً ، بل هو نسيج فريدٌ وحده ، واقرأ مثلاً : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ[2] وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [يوسف]

هكذا كلام نَثْر كله لا تشعر فيه بشيء من الشعر ، ومع ذلك لو

---

(١) البيت لابن نباتة المصرى ، وهو محمد بن محمد أبو بكر جمال الدين ، أصله من ميافارقين ومولده ووفاته فى القاهرة ، ولد ٦٨٦ هـ وتوفى ٧٦٨ هـ كان صاحب سر السلطان الناصر حسن . له ديوان شعر . والبيت من قصيدة من بيتين من بحر الطويل [الموسوعة الشعرية] .

(٢) أكبرت الشىء أى : استعظمته . أكبرنه : أعظمنه . [لسان العرب - مادة : كبر] قال فى القاموس القويم للقرآن الكريم (٢/ ١٥٠) : « أكبر الشىء : عدَّه كبيراً أو عظم تأثره به فرآه كبيراً » .

أخذت مثلاً : ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ (٣٢)﴾ [يوسف] لوجدتها على وزن من أوزان الشعر ، كذلك في قوله تعالى : ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩)﴾ [الحجر] لو حوَّلتها إلى تفعيلات تعطيك بحراً من بحور الشعر ، لكن لا تشعر أبداً أنك انتقلتَ من شعر إلى نثر ، أو من نثر إلى شعر ، ذلك لأن القرآن كما قلنا نسيج وحده .

لذلك قلنا : إن كماله لا يتعدى إلى غيره ، فالفقيه الحافظ للقرآن تجده يجيد القراءات السبع ، ومع ذلك لا يجيد كتابة خطاب ، ونحن ننصح الطلاب بقراءة كتب الأدب مثل كتب المنفلوطي أو العقاد مثلاً ليستقيم أسلوبهم ويتمكنوا من الكتابة والتعبير السليم ؛ ذلك لأن القرآن لا يتعدَّى إلى غيره ، أما كتب الأدب فتتعدَّى إلى الأسلوب وتحسنه ، القرآن يظل كماله في ذاته .

وكان من جدالهم في آيات الله أنْ قالوا عن رسول الله : ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣)﴾ [النحل] وحددوا شخصاً بعينه[1] ، لكن ردَّ عليهم القرآن بما يعني : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذكوراً ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾ [النحل]

ثم قالوا : مجنون ، وعجيب منهم أن يتهموا رسول الله بالجنون وهم يعلمون أدبه وخلقه قبل بعثته ، وصاحب الخلق الكريم لا يكون أبداً مجنوناً ، لكن هذه كلها شبهات المفلسين الذين لا يجدون حجة تقدح في رسالة محمد ، فماذا يقولون غير هذا التخبّط الأعمى ؟ هذا جدل في شخص رسول الله ، وكانوا يقولون : ابن أبي كبشة ، لكن

---

(١) كان رسول الله يُعلم قيناً (حداداً) بمكة وكان اسمه بلعام وكان أعجمي اللسان وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا : إنما يعلمه بلعام فأنزل الله هذه الآية ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾ [النحل] قاله ابن عباس فيما نقله عنه ابن كثير في تفسيره (٢/٥٨٦) .

هيهات أنْ تنال هذه الافتراءات من شخص رسول الله .

ثم يجادلون فى أحكام الله ، فيقول مثلاً : لم يحرم الله الميتة ؟ وكيف أن التى ماتت وحدها يعنى أماتها الله مُحرَّمة ، والتى تميتها أنت - أى : بالذبح - مُحلَّلة ؟ يعنى فى نظرهم أن الموت واحد ، فلماذا تحرم هذه وتحلّ هذه ؟

وهم يعترضون على آيات الأحكام لأنها تأتى عامة لا تفرق بين السادة والعبيد ، فالحكم واحد للجميع وهم قد ألفوا السيادة .

وقوله : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ④﴾ [غافر] أى : ستروا واجب الوجود الأعلى الذى خلقهم وخلق الكون كله من حولهم ، بدليل إقرارهم هم بذلك فى الآيات الكونية : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ㉕﴾ [لقمان] فهم وإنْ كانوا يؤمنون بهذه الآيات الكونية إلا أنهم كفروا بخالقها سبحانه ، وستروا الواجب الأعلى الذى ينظم حركة الحياة لخَلْقه جميعاً بحيث تتساند حركة الحياة ولا تتعاند لتظل عمارة الكون التى أرادها الخالق سبحانه .

وسبق أنْ أوضحنا أن كلمة كفروا فى ذاتها دليل الإيمان ، لأن الكفر يعنى الستر والستر يقتضى مستوراً ، فالمستور إذن وُجِد أولاً قبل الساتر ، وما دام ستروا بالكفر وجودَ الله ، فالأصل أنه موجود .

وقوله : ﴿فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ ④﴾ [غافر] أى : لا يخدعنَّك أن لهم فى البلاد سيادة وتمكيناً وعلواً ومهابة ، بحيث لا يستطيع أحد أنْ يتعرَّض لهم فى تقلّبهم من مكان لمكان ، وفى أسفارهم فى رحلة الشتاء والصيف .

ولو أنهم عرفوا حقيقة هذه المكانة ، ومَنْ الذى بوّأهم هذه المنزلة

ما وقفوا منك يا محمد هذا الموقف ، لقد أخذوا هذه المهابة ونالوا هذه المنزلة لجوارهم لبيت الله ، والله هو الذى أرسلك إليهم ، فكان عليهم أنْ يؤمنوا بك وأنْ يُصدقوك .

وكلمة (تَقَلّبهم) تدل على حركتهم وانتقالهم من مكان لآخر ، وتدل على قوة الأبدان ؛ لذلك كانت كل قبائل العرب تهابهم ، جاءت هذه المنزلة لقريش من موسم الحج ، حيث تأتى إليهم كل القبائل من جزيرة العرب فتكون فى حماية قريش فى الموسم ، ومن هنا أمنوا فى تنقلاتهم وكان عليهم أنْ يراعوا هذه النعمة ، لكنهم جحدوا بها فصدق عليهم قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)﴾ [إبراهيم]

كيف ذلك ؟ اقرأ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ[1] مَّأْكُولٍ (٥)﴾ [الفيل]

تعرفون قصة أبرهة لما جاء ليهدم الكعبة ليصرف الناسَ عن بيت الله ويبنى كعبة أخرى فى صنعاء يحجّ الناس إليها ، وتعرفون ما كان من أمر هذا الجيش ، وكيف ردَّه الله بقدرته حتى قيل إن الفيل الضخم الذى كان يتقدم الجيش توقف عن السير نحو الكعبة ، فى حين يسير فى أىِّ اتجاه آخر وأن أحدهم اقترب من الفيل وقال له : ابرك محمود وارجع راشداً فإنك ببلد الله الحرام[2] . فانصرفوا بعد أنْ أمطرهم الله

---

(١) العصف المأكول : التبن أو ورق الشجر الذى أصابه مرض الأكال فتآكلت منه أجزاء . [القاموس القويم ٢/٢٣] .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٥٠) أن نفيل بن حبيب اقترب من الفيل حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال : ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام ثم أرسل أذنه فبرك الفيل مكانه .

بحجارة من سجيل ، وهزمهم بقدرته تعالى . المهم ماذا قال سبحانه بعد هذه السورة مباشرة ؟

قال : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ① إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ② ﴾ [قريش] فكأن فى بقاء الكعبة بقاءً لسيادة قريش ، وبقاءً لأمنها وسلامتها بين القبائل العربية ، فأبقى الله لهم بذلك أنْ يألفوا رحلة الشتاء والصيف .

إذن : العلة من ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ⑤ ﴾ [الفيل] جاءت فى ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ① ﴾ [قريش]

وإلا لكانَ لك أن تتعجب من أول السورة : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ① ﴾ [قريش] وتسأل عن العلة ، فإنْ فصلتَ العلة هنا عن المعلول ، فجاء كل فى سورة إلا أنهما فى نسَق واحدَ ، وسبق أن أوضحنا أن سور القرآن كله قائمة على الوصل فتقرأ : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ⑤ ﴾ [الفيل] بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ① ﴾ [قريش]

فإنْ قلتَ : لماذا لم تأت فى سورة واحدة ؟ لماذا جاءت العلة فى سورة والمعلول فى سورة أخرى ؟ قالوا : الفصل بين الشيء وسببه ليكون الشيء له حكم ، والسبب له حكم .

إذن : جعلهم كعصف مأكول لئلا تزولَ الكعبة ولو زالت الكعبة لزالتْ سيادة قريش ومهابتها ، فأبقى الله لهم السيادة والمهابة ليتنقلوا بين الشمال والجنوب لا يجرؤ أحد على التعرض لهم ، وسوف يترتب على ذلك قوام حياتهم فيطعمهم من جوع ، ويُؤمّنهم من خوف ، يُطعمهم بالتجارة وحركة البيع والشراء ، ويؤمنهم بألاَّ يتعرض لهم أحدٌ بسوء .

ثم يوضح علة ذلك فيقول : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش] فهم يتقلبون فى نعمة الله ، وكان عليهم ألاَّ يكفروها .

فقوله تعالى : ﴿ فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (٤) ﴾ [غافر] لأن الله تعالى لم يهملهم إنما فقط يمهلهم . فإنْ قلتَ : فما حكمة الإمهال ؟ يعنى : ما دام أن الله تعالى لم يهملهم ، فلماذا لم يأخذهم من البداية ؟

قالوا : لأن الله تعالى أرسل رسوله ﷺ خاتم الرسل وجعل دينه خاتم الأديان ومهيمناً على الزمان والمكان ، فلا نبيَّ بعده وللرسول مدة ينتهى فيها دوره فى الحياة ، وينتقل إلى الرفيق الأعلى ، ثم يحمل رسالته من بعده جنود الحق الذين محَّصتهم الشدائد .

لذلك قلنا : إن صناديد الكفر الذين عذّبوا المسلمين الأوائل واضطهدوهم كانوا فيما بعد من جنود الإسلام ، لماذا ؟ لأن هذا الاضطهاد وهذا التعذيب هو الذى محَّص المسلمين وأبعد ضعاف الهمة وضعاف الإيمان الذين فتنهم التعذيب ، وأرهبهم الاضطهاد حتى لم يَبْقَ فى ساحة الإيمان إلاَّ الأقوياء الجديرون بحمل هذه الرسالة وتحمُّل تبعاتها ، لأنها رسالة خالدة باقية فى الزمان والمكان كله .

فالحق سبحانه ما أهمل الكفار إنما أمهلهم لمهمة ، هى أنهم سيساهمون فى تربية هذا الجيل الذى سيحمل دعوة الله : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ .. (٣٩) ﴾ [الأحزاب]

هؤلاء هم الجيل المحمدى الذى حمل راية الإسلام ، وساح بها

فى كل الأنحاء لا ينتظر على ذلك أجراً مُقدماً إنما ينتظر الأجر من الله فى الآخرة .

وهذا هو الفرق بين دعوة الحق ودعوة الباطل ، فأهل الحق لا ينتظرون أجراً مقدماً ، أما أهل الباطل فيأخذون أجرهم قبل البدء فى العمل ، لذلك كل رسل الله قالوا هذه الكلمة : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الشعراء]

نعم أجرهم على الله لأنه غالٍ لا يقدر عليه إلا الله ، فلا أحد يستطيع أنْ يجازى الرسولَ على رسالته فى هداية قومه ولو أعطاه مال الدنيا كلها .

والتقلُّب فى البلاد أى : التنقُّل من مكان لمكان فيها لا يتم إلا بعدة أشياء أهمها : سلامة الأبدان لتحمُّل مشقة السفر ، ثم الأمن من خوف الطريق ، ثم وجود كفايات له فى المنازل التى ينزل فيها فى طريقه ، لذلك يقول تعالى فى موضع آخر : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [النحل]

يعنى : فى أوْج قوتهم وتمكّنهم من الحركة والتنقل يأخذهم الله بالعذاب ، هذا لون من الأخذ ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [النحل] أى : يخيفهم أولاً ويفزعهم قبل أنْ يأخذهم وهذا لون آخر ، كالذين نزلت بهم الصاعقة فأفزعتهم قبل أنْ يحلّ بهم عذاب الله ، هذان لونان من أخْذ الله للكافرين .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ (١) وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾

المعنى : أنهم ليسوا بدعاً فى الوجود ، كما أنك لستَ بدعاً فى الرسل ، فقد سبقك إخوانك من الرسل فكُذّبوا كما كَذَّبك قومك ، لكن ماذا كانت نتيجة التكذيب ؟ أبعث الله رسولاً وتركه وأسلمه ؟ كلا والله بل سُنّة الله فى رسله أنْ ينصرهم وأنْ يخذل أعداء دعوته ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات]

وهذا ليس كلاماً نظرياً نُسليك به يا محمد ، إنما له واقع وله نظائر تؤيده فى موكب الرسالات ، كما قال سبحانه عن المكذِّبين : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : ريحاً ترميهم بالحجارة المحمية ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] وهم قوم ثمود ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] كما خُسف بقارون ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] كما فعل بقوم نوح وبقوم فرعون .

---

(١) ليأخذوه : أى ليحبسوه ويعذبوه . وقال قتادة والسدى : ليقتلوه . والأخذ يرد بمعنى الإهلاك ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحج] [تفسير القرطبى ٨/٥٩٤٠] .

فسُنة الله فى الرسالات أنْ ينصر رسله وأنْ يهزم عدوه ، لذلك قلنا : إذا رأيتَ الأمة الإسلامية تنهزم فى معركة ، فاعلم أنه اختل فيها شرط الجندية لله ، ولو بقيتْ على شرط الله فى الجندية ما انهزمتْ أبداً .

فقوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ .. ⑤﴾ [غافر] أى : قبل قومك الذين كذبوك (قوم نوح) وهذه تسلية لرسول الله وتخفيف عنه ، فليس التكذيب للرسالات شيئاً جديداً ، واختار قوم نوح بالذات لأن رسالة نوح عليه السلام كانت أطولَ رسالة ، حيث لبث فى دعوة قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، كل هذا العمر الطويل وهم يجادلون رسول الله نوحاً ويكذبونه ويعاندونه ، لذلك يئس من صلاحهم ودعا عليهم : ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا[1] ㉖ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ㉗﴾ [نوح]

أما القلة التى آمنتْ معه فقد دعا لهم حيث بدأ بنفسه : ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ .. ㉘﴾ [نوح] ثم ﴿وَلِوَالِدَيَّ .. ㉘﴾ [نوح] لأنهما سببُ وجودى ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا .. ㉘﴾ [نوح] وهم ما لهم صلة به ، ثم لعامة المؤمنين والمؤمنات ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. ㉘﴾ [نوح]

إذن : ذكر تكذيب قوم نوح بالذات لأنه العمدة فى هذه المسألة وهو الأوضح والأعنف ، ولا تخفى عليكم المواقف التى تعرَّض لها نوح عليه السلام من تكذيب قومه وإيذائهم له واستهزائهم به ، وهو

---

(١) الديَّار : من يسكن الدار أو من يتحرك فيها ويدور فيها بحرية ، ويقال : ما بالدار ديَّار . أى : ما فيها أحد . قال نوح فى دعائه : ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ㉖﴾ [نوح] أى : لا تذر أحداً منهم حياً [القاموس القويم ١/ ٢٣٧] .

يصنع السفينة[١] .

وقوله : ﴿ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ .. ۝٥ ﴾ [غافر] المراد عاد قوم هود عليه السلام وثمود قوم صالح عليه السلام ، وهذا ليس كلاماً نظرياً بل هو واقع يرونه ويمرون بهذه الديار الخربة : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ۝١٣٨ ﴾ [الصافات]

إنهم يمرون في أسفارهم بالأحقاف وبمدائن صالح ، وعندنا في مصر آثار الفراعنة كلها تشهد بصدق الله في هذا البلاغ ، وها هي أكثر دول العالم تقدماً الآن وحضارة تقف عاجزة أمام حضارة الفراعنة ، وكيف أنهم وصلوا إلى هذه الدرجة من التقدم منذ أكثر من سبعة آلاف عام ، ومع ذلك فاتتهم هذه الحضارة لأنهم لم يصلوا إلى الحد الذي يصونونها لهم .

واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾ [الفجر]

يعني : القضية لم تنته عند عاد وثمود وقوم فرعون ، بل هي عامة في كل مكذِّب ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾ [الفجر]

والأحزاب : هم الذين يتحزَّبون ويجتمعون على مبدأ واحد ، والمراد هنا الذين يتحزّبون ضد الدعوة وضد الهداية ويُسمونهم لذلك حزب

---

(١) يقول تعالى في هذا : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ .. ۝٣٨ ﴾ [هود] فكانوا يقولون له : أأصبحت نجاراً ؟ ولأي شيء تصنع سفينة في أرض ليس بها ماء أتمشي على اليابسة ؟ ونحو هذا من عبارات الاستهزاء به والسخرية منه .

الشيطان ويقابله حزب الله ، وهم الذين يؤيدون الرسل وينصرون دعوة الحق .

﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ .. ⑤ ﴾ [غافر] أى : ليقتلوه ، وهذه المسألة جاءت مُفصَّلة فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ .. ③⓪ ﴾ [الأنفال] أى : يحبسوك أو يقيدوك فلا تتحرك هنا وهناك ﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ③⓪ ﴾ [الأنفال]

والكلام هنا أنهم هَمُّوا بذلك لكن لم يفعلوه ولم يقدروا عليه ، فكلمة (هموا) تعنى تَوجُّهٌ وهَمٌّ مراد لم يحدث على الحقيقة ، ومن ذلك قوله تعالى فى الطائفتين فى غزوة أحد : ﴿ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا .. ①②② ﴾ [آل عمران] لكن لم يحدث الفشل ، فالهَمُّ شغْلُ القلب بفعل الشىء ، لكن لا يحدث الفعل . لذلك قال سبحانه : ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا .. ⑦④ ﴾ [التوبة]

إلا الهم الذى كان من سيدنا يوسف عليه السلام ، لأن المسألة هنا تتعلق بعصمة نبى كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا .. ②④ ﴾ [يوسف] البعض يُحمِّل هذه الآية معانى لا تليق بعصمة نبى الله يوسف ، يقول : كيف يَهِمّ بها وهو نبى ؟

قلنا : الهم تعلُّق الخاطر بالفعل أو تعلّق استجابة الجارحة للفعل ، لكن ينفعل أو لا ينفعل هذا هو المهم ، والآية فيها هَمَّان ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ .. ②④ ﴾ [يوسف] ثم سكوت ، ثم ﴿ وَهَمَّ بِهَا .. ②④ ﴾ [يوسف] لاحظ أن هَمَّها هى لم تَنَلْ منه شيئاً لذلك قالت : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ③② ﴾[يوسف]

هذا دليل على أن همّها هى لم يأتِ بنتيجة ، فكيف لا يأتى الهَمّ

معها بشىء مع عصيانها ، ثم يأتى الهَمّ بشىء مع يوسف ؟ إذن : همتْ به ولم يحدث شىء وهى المريدة ، كذلك وهَمَّ بها ولم يحدث شىء لأنه لا يريد .

وتأمل هنا دقة الأداء القرآنى فى استخدام نون التوكيد الثقيلة فى ﴿لَيُسْجَنَنَّ..(٣٢)﴾ [يوسف] ونون التوكيد الخفيفة فى ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢)﴾ [يوسف] لأن السجن أمر فى يدها وبأمرها يُسجن يوسف ، فاستخدم نون التوكيد الثقيلة الدالة على التمكُّن من الفعل ، أما أنْ يكون من الصاغرين فهذا أمر ليس بيدها فلربما سجنته وعطف عليه الحراس وأكرموه ، فاستخدم هنا نون التوكيد الخفيفة لعدم تمكُّنها من هذا الفعل .

والجواب الذى نحسم به مسألة الهم فى هذه القصة ونوضح به براءة سيدنا يوسف مما يقوله عنه المفترون نقول : ولقد همت به ، نعم أأدتْ هذا الهم أم لم تُؤده ؟ لم تُؤدِّه بدليل قولها ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ .. (٣٢)﴾ [يوسف] ﴿وَهَمَّ بِهَا .. (٢٤)﴾ [يوسف] نعم هَمَّ ولم يفعل بنفس الدليل السابق ، فلماذا تحرصون على إلصاق التهمة بنبى الله وهمّه كهمّها لم يأتِ بشىء .

ثم إن الهَمَّ منه هنا أمر طبيعى لأنه استعداد الطبيعة للوقوع فى هذا الفعل ، يعنى : هو أمر ممكن بالنسبة له عليه السلام ، فطبيعته صالحة لأنْ يفعل وإلا لقُلْنا إنه حَصُور ليس له فى هذا الأمر ، لا بل هو صالح له قادر عليه ، فما الذى منعه إذن ؟ نقول : منعه ﴿لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ .. (٢٤)﴾ [يوسف]

أى : فى أن هذا حرام . كما تقول : أزورك لولا أن فلاناً عندك ، فالمعنى أننى لم أزُرْكَ ، إذن : ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ..

﴿ ٢٤ ﴾ [يوسف] يعنى : هَمَّ ولم يفعل فالحكم هنا براءة ليوسف عليه السلام حتى من الهَمِّ .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ .. ﴿ ٥ ﴾ ﴾ [غافر] حدث ذلك لكنهم لم يفعلوا ولم يأخذوه ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ .. ﴿ ٥ ﴾ ﴾ [غافر] أى : يزيلوا ويهزموا الحقَّ بالباطل ، فماذا كانت النتيجة ؟ ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ .. ﴿ ٥ ﴾ ﴾ [غافر] أى : أهلكتُهم بالفعل لا بالهَمِّ كما فعلوا هم ، وهذا ما يليق بالقدرة العليا ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿ ٥ ﴾ ﴾ [غافر] يعنى : هل عرفنا ؟ هل قدرنا على عقابهم ؟

وهذه مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿ ٢٩ ﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿ ٣٠ ﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿ ٣١ ﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿ ٣٢ ﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿ ٣٣ ﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿ ٣٤ ﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿ ٣٥ ﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿ ٣٦ ﴾ ﴾ [المطففين]

يعنى : هل قدرنا أنْ نجازيهم على أفعالهم وإجرامهم ؟ وكأن الحق سبحانه يريد أن ينبه أهل الإيمان ، وأن يطمئنهم إلى عدله سبحانه ، فلن يفلت هؤلاء من العقاب ، ولا شكّ أن عقاب أهل الإجرام وأهل الكفر يريح أهل الإيمان .

وتأمل هنا أيضاً دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى : ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ.. ﴿ ٥ ﴾ ﴾ [غافر] ولم يقُلْ برسولها قياساً على أن الأمة مفرد مؤنث ، إنما قال ﴿ بِرَسُولِهِمْ .. ﴿ ٥ ﴾ ﴾ [غافر] فأضاف الرسول إلى جمع المذكر ، ذلك لأن المواجهة بين الإسلام والكفر كانت بالرجال ولم تكُنْ المرأة طرفاً فى هذه المواجهات بدليل أنهم لما بيَّتوا لرسول الله ليلة الهجرة كانوا جميعاً من الرجال ولم يكُنْ بينهم امرأة

واحدة ، كذلك الحال فى ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ .. ⑤ ﴾ [غافر] فهذه أمور لا دخْلَ للمرأة فيها .

﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ⑥ ﴾

(حَقَّتْ) أى : وجبتْ وثبتت ولم يأت واقع لينقضها ، لماذا ؟ لأن الذى قالها يعلم ما يكون بعدها ، وخاصة إذا كان الذين يعملون لهم اختيار فى أنْ يعملوا أو لا يعملوا .

فالله تعالى قالها وحكم بها عليهم وهم فى بحبوحة الدنيا وفى زمن الاختيار ، ومع ذلك لم يخالفوها ، وهنا موضع العظمة فى كلام الله ، العظمة أنْ أتحداك فى أمر لك فيه اختيار ، ومع ذلك لا تخرج عما حكمت عليك به .

ومثل هذا قلناه فى قوله تعالى فى شأن أبى لهب وزوجته : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا[1] حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑤ ﴾ [المسد]

فالحق سبحانه وتعالى حكم عليهما بالكفر ، وأن مصيرهما النار مع أن الإيمان والكفر أمر وكَلَ اللهُ اختياره للعبد بدليل أن أمثال أبى لهب من كفار مكة أسلموا مثل : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة وغيرهم ، وكان فى إمكان أبى لهب بعد أن نزلت هذه السورة أنْ يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يقولها ولو نفاقاً ، لكن لم يحدث

(١) جيدها : عنقها . والمسد : حبل من ليف أو خوص أو شعر أو وبر أو صوف أو من أى شىء كان . [لسان العرب – مادة مسد] .

وصدق فيه قول الله تعالى .

وهذه المسألة شرحها الحق سبحانه فى قوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال] فقلبه يُحدِّثه بالشيء إنما العظمة الإلهية تحوله عنه .

لذلك قال تعالى لأم موسى : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي .. (٧) ﴾ [القصص] فالقياس العقلى لا يقبل هذا الحل وأى عاقل يقول : إن المرأة إذا خافت على وليدها تلقيه فى البحر ؟ لكن هنا أم موسى لم تسمع لصوت العقل ولا تأثرتْ بعاطفتها نحو وليدها ، إنما سمعت لقول ربها ، سمعت لهذا الوارد الأعلى الذى لا يعارضه أىُّ وارد شيطانى أسفل فلم تتردد أبداً فى أنْ تلقى بوليدها فى البحر ، لأن الله تعالى حَالَ بينها وبين عاطفة قلبها .

كذلك الحال فى قصة سيدنا موسى مع فرعون ، فقد أخبر الكهنة فرعون أن زوال مُلْكه سيكون على يد غلام من بنى إسرائيل ، فماذا فعل فرعون - لتعلموا كيف كانت عقلية الذين ادَّعَوْا الألوهية ، وكيف أن الله تعالى يحول بين المرء وقلبه ، ماذا فعل فرعون ؟ راح يبحث عن الأطفال ويقتلهم ، وهو لا يعلم أن الله يدَّخر له هذا الغلام فيأتيه ويطرق بابه وهو فى مهده على الهيئة التى تعرفونها ، ومع ذلك يطمئن إليه ويتخذه ولداً له ، وتقول زوجته ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ .. (٩) ﴾ [القصص] فيأخذه ويُربِّيه فى بيته ، هذا معنى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦) ﴾ [غافر] ما حقتْ عليهم بقهر وجبروت ، إنما حقَّتْ عليهم باختيار منهم ، والحق سبحانه وتعالى بعلمه الأزلى علم

اختيارهم ، فحكم عليهم بسابق علمه فيهم ، ولا يمكن أنْ يأتى واقعٌ يخالف هذا الحكم لأن المتكلم بهذا الكلام هو الله .

وسبق أنْ أوضحنا أن الكلمة تُطلق على اللفظ المفرد ، وتُطلق على الكلام ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون] وقوله سبحانه فى الذين قالوا ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [يونس] قال : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف] ونحن نسمى الخطبة الطويلة كلمة .

فالكلمة التى حقَّتْ ووجبتْ وثبتتْ ليسَت مطلق كلمة ، إنما هى ﴿ كَلِمَةُ رَبِّكَ .. ﴿٦﴾ ﴾ [غافر] وكلمة الله لابدَّ أنْ تحقّ ولابدَّ أنْ تثبت ، وما كان الله تعالى ليقول كلمة ، ثم يأتى واقع الأحداث ويكذبها ، والكلمة التى حقّتْ على الذين كفروا هى ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ ﴾ [غافر]

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾

هؤلاء هم الملائكة الذين خلقهم الله لتسبيحه سبحانه ، فلا عملَ لهم غير تسبيح الله وهم حملة العرش ومَنْ حوله . والتسبيح كما قلنا من المقاليد ، ومعنى ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [غافر] أى : يُنزهونه سبحانه عن مشابهة خَلْقه فى الأسماء والأفعال والصفات .

لذلك قلنا : إذا اشترك الحق سبحانه مع خَلْقه فى شىء فلا بدَّ أنْ نأخذه فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

فلله فعل ولك فعل ، لكن لا تَقِسْ فعلك بفعل ربك سبحانه ، و هذه المسألة أوضحناها فى شرح أول سورة الإسراء ، فلما كان الحدث مُستغرباً بدأ الله تعالى السورة بالتسبيح ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء] قالها بداية حتى لا نقيس فعل الله على فعل البشر ولا قدرة الله بقدرة البشر ، فلله تعالى فعل ولك فعل ، لكن فعل الله ليس كفعلك ، فإياك أنْ تقول المسافة والزمن .

وكلمة (سبحان الله) تعنى تنزيه الله تعالى عن كل ما يشبه البشر ، لذلك قالوا : كلُّ ما يخطر ببالك فالله خلاف ذلك ، وهذا التنزيه ليس طارئاً بوجود مَنْ ينزه الله إنما هو أزلىّ قبل أنْ يخلق الله مَنْ ينزهه ، فهو سبحانه مُنزَّه فى ذاته قبل أنْ يوجد مَنْ ينزهه .

لذلك لما وُجدَتْ السماء والأرض قال : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الحديد] أى : سبَّحوا الله ساعة خُلقوا فقالوا : سبحان الله الخالق العظيم ، ولا يزالون يُسبِّحون ، كما قال : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الجمعة] فالتسبيح موصول دائم ، فإذا كان الكون كله سبَّح لله ولا يزال يُسبِّح ، والكون مخلوق لك أيها الإنسان فأنت أوْلَى بالتسبيح منه ، لذلك قال : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾ [الأعلى]

وتسبيح الله تنزيه له سبحانه فى أفعاله وفى صفاته ، فحين تتأمل مثلاً مسألة الخلق تجد خَلْق الإنسان من طين ، فهل يمكنك أنْ تأخذ قطعة من الطين فتُسويها على هيئة إنسان ثم تنفخ فيها أنت الروح ؟ هذه العملية لا يقدر عليها إلا الخالق سبحانه .

لذلك سيدنا عيسى عليه السلام لما أراد الله أنْ يجعل له آية ومعجزة فى مسألة الخَلْق قال : ﴿ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران] فقال فى نفخ الروح ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران] لأنه بذاته لا يستطيع هذه العملية ، إنما كونى أُصوِّر تمثالاً على هيئة إنسان أو طائر فهذه مسألة سهلة .

إذن : كان عليك أيها الإنسان الذى كرَّمه الله ، كان عليك أن تسبح ، لأن الكون والجماد الذى خلقه الله لك سبَّح وما يزال .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ.. (٧) ﴾ [غافر] هم الملائكة حملة العرش . إذن : العرش محمول ، وهؤلاء الملائكة حتى عددهم فيه إعجاز ، فالحق سبحانه أخبر أنهم ثمانية ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) ﴾ [الحاقة]

فلماذا لم يجعلهم أربعة فيكون كما تعوّدنا فى أىِّ بناء له أربعة أركان ، ولماذا لم يكونوا خمسة مثلاً . إذن : لابدَّ أن فى هذا العدد بالذات حكمة وإعجازاً .

وهذا الإعجاز العددى واضح أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا[1] تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) ﴾ [المدثر] فلماذا تسعة عشر بالذات ؟ لماذا لم يجعلهم عشرين مثلاً ، هذا دليل على أن وراء هذا العدد حكمة ، وقد أخبر الله تعالى أن هذا العدد فتنة ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا .. (٣١) ﴾ [المدثر]

---

(١) عليها : أى على النار ، فهم خزنة جهنم . وهم تسعة عشر ملكاً بيد كل ملك منهم مرزبة لها شعبتان فيضرب الضربة فيهوى بها سبعين ألف خريف . ذكره القرطبى فى التذكرة (ص ٤٥٥) وقد أخرج الترمذى عن جابر بن عبد الله أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ : كم عدد خزنة جهنم ؟ فأهوى رسول الله بكلتا كفيه إلى الأرض مرة عشرة ومرة تسعة قبض فيها الإبهام . قالوا : نعم .

والإيمان يقتضى التصديق بما أخبر به الحق سبحانه وألاَّ تناقش مثل هذه المسائل ، المهم قال أو لم يَقُل ، حدث الشىء أو لم يحدث ، لذلك سيدنا أبو بكر لما أخبروه أن صاحبك يدَّعى أنه رسول ، ماذا قال ؟ قال : ألا وقد قالها ؟ قالوا : نعم ، قال : فقد صدق ولم يبحث فى المسألة ، كذلك نحن فى كل أمر يقف فيه العقل ، ما دام قد جاءنا فيه خبرٌ من عند الله فعلينا أنْ نقبله ونؤمن به ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧) ﴾ [النساء]

وكوْن عقلك يستوعب هذا الخبر أو لا يستوعبه فهذا موضوع آخر ، لأن هناك فرقاً بين الوجود وكيفية الوجود ، فقد يوجد الشىء لكنك لا تعرف كيف وُجِد .

تأمل فى قصة أبى الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام حين قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

تجد السطحيين فى الفهم عن الله يتهمون القرآن فى هذه المسألة بالتعارض ، كيف ؟ يقولون : معنى (بلى) يعنى آمنت والإيمان يقتضى اطمئنان القلب إلى العقيدة ، فلماذا يقول بعدها : ﴿ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة] ؟

ونقول له : أنت معذور ، لأنك لم تفهم معنى السؤال ، ولو فهمتَ معناه ما اتهمتَ القرآن ، هل قال إبراهيم لربه : أتحيى الموتى أم قال ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِي .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة] فهو إذن لم يسأل عن إمكانية الفعل ولم يشُكّ فى قدرة الله ، ولكنه يسأل عن الكيفية ﴿ كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة] إذن : فإحياء الموتى أمر سابق يسأل إبراهيم عن كيفيته ، فلو قلت لك : كيف بنيتَ هذا البيت ؟ فهذا يعنى أن البيت قائم بالفعل .

إذن : فقوله (بَلَى) يعنى : آمنت يا رب أنك تحيى الموتى ، وطلب

الاطمئنان بعد ذلك للكيفية والسؤال عن الكيفية أمر ضرورى فى مسألة الخَلْق وكيفية الإيجاد لأنها عملية لا تتأتى كلاماً ، لأن فعْل الله تعالى ليس علاجاً كفعل البشر .

فلو قلت لك : كيف بنيت هذا البيت ؟ تقول : حفرتُ الأساس وأحضرتُ الحديد والأسمنت وفعلتُ كذا وكذا ، فلان صمم ، وفلان نفّذ ، وفلان بنى ، وفلان (غفق) .. إلخ فأعطيك كيفية الفعل بحيث تستطيع تطبيقها إنْ أردت ولا تجد فيها اختلافاً ، لكن إنْ أردنا أنْ نُبين كيفية الإحياء ، فكيف نبنيها ؟

إنها مسألة لا تتأتى بالكلام ، ولا بدّ من إجراء العملية بالفعل ، وتأمل أن الله تعالى أراد أنْ يُجريها إبراهيم بنفسه ، وألاَّ تجرى له إنما يمارسها بنفسه . وفَرْقٌ بين أنْ تُعدِّى قدرتك لغيرك فتنفعل له ، وأنْ تُعدِّى قدرتك لغيرك فتجعله يفعل بنفسه ، فمثلاً قد تعجز عن حمل شيء فأحمله عنك وهذا أمر طبيعى ، لكن العظمة فى أن أجعلك تقدر أنت بنفسك على حمله .

وهذا ما فعله الحق سبحانه مع نبيه إبراهيم عليه السلام : ﴿ **قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ..** (٢٦٠) ﴾ [البقرة] أى : ضُمهن إليك واعرف أوصافهن ﴿ **ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ..** (٢٦٠) ﴾ [البقرة] يعنى : اذبحهن وفرِّقْ أجزاءهن على الجبال ﴿ **ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ..** (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

إذن : هو الذى يذبح ، وهو الذى يُقطِّع الأجزاء ، وهو الذى يُفرِّقها ، وهو الذى ينادى عليها بنفسه فتتجمع بقدرة الله ويأتينَ سَعْياً كما كُنَّ من قبل ، فإذا كنت أقدرت ما لا يقدر على القدرة ألا أقدر أنا عليها ؟

والعرش هو سمة استتباب المُلْك والسيطرة على الحكم والاستيلاء

عليه ، وليس من الضرورى أنْ يقعد على العرش بالفعل ، لذلك لما تكلم الهدهد عن ملكة سبأ قال : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل] لأن الملك لا يقعد على العرش إلا عندما تستقر له الأمور ، وتدين له البلاد ، فإنْ كانت هناك منطقة معترضة أو مشاغبة للملك تفرغ لها حتى تدين له ، وعندها يستقر له المُلْك .

ولما تكلم الحق سبحانه عن استوائه على العرش قال سبحانه : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا .. ﴿١٢﴾ ﴾ [فصلت]

إذن : فاستواؤه سبحانه على العرش جاء بعد أن انتهى من الخَلْق وتَمَّ له كل شيء من أمور المُلك والسيطرة الكاملة .

فقوله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ .. ﴿٧﴾ ﴾ [غافر] هم الملائكة الثمانية حملة العرش . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٧﴾ ﴾ [غافر] وهؤلاء نوع آخر من الملائكة ، وهم الكروبيون الذين لا عملَ لهم إلا تسبيح الله ، وليس فى بالهم هذا الكون كله ، ولا يدرون عنه شيئاً ، فقط ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [غافر]

لكن هؤلاء الكروبيين الذين يحيطون بالعرش ويُسبِّحون الله ولا عملَ لهم غير ذلك ، هل يروْنَ الله سبحانه وهو على العرش ؟ قال علماؤنا رحمهم الله : أنهم رغم منزلتهم هذه إلا أنهم لا يروْنَ الله تعالى ، وأظهر

هذه الأقوال قول الفخر الرازى[1] رحمه الله ، فلما تكلم فى هذه الآية ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ .. ⑦ ﴾ [غافر] استأنس برأى صاحب الكشاف[2] الذى سبقه وقال : إن معنى ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ .. ⑦ ﴾ [غافر] أنهم لا يرونه سبحانه لأن المشهديات ليس فيها إيمان ، الإيمان للغيبيات ، فلو أنهم شهدوا الله وهو على العرش ما قال فى حقهم ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ .. ⑦ ﴾ [غافر] ثم قال الفخر الرازى : ولو لم يكُنْ للإمام صاحب الكشاف إلا هذه لكفتْهُ طيلة حياته[3] ، هذا مع ما بين الإمامين من خلاف فى الرأى .

إذن : لا نفهم من مكانة هؤلاء الملائكة وقربهم من ذى الجلال سبحانه أنهم يرونَه ، لا بل هو سبحانه بالنسبة لهم غيب لا يرونه ، يؤكد هذا قوله سبحانه ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ .. ⑦ ﴾ [غافر] فأنت الآن فى هذا

(١) هو : محمد بن عمر فخر الدين الرازى . مولده فى الرى (طهران حالياً) عام ٥٤٤ هـ إمام مفسر يقال له ابن خطيب الرى . له « مفاتيح الغيب » فى التفسير و « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين » وغيرها كثير له شعر بالعربية والفارسية ، وكان واعظاً بارعاً باللغتين . توفى بهراة عام ٦٠٦ هـ عن ٦٣ عاماً (الأعلام للزركلى ٦/٣١٣) .

(٢) صاحب الكشاف فى التفسير هو الزمخشرى محمود بن عمر جار الله أبو القاسم ولد فى زمخشر من قرى خوارزم عام ٤٦٧ هـ . سافر إلى مكة فجاور بها زمناً فلقب بجار الله . من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والأدب توفى بالجرجانية (خوارزم) عام ٥٣٨ هـ . من كتبه « أساس البلاغة » كان معتزلى المذهب مجاهراً شديد الإنكار على المتصوفة . الأعلام (جزء ٧) .

(٣) نص كلام الزمخشرى فى تفسيره الكشاف فى قوله تعالى : ﴿ ويؤمنون به ﴾ هى التنبيه على أن الأمر لو كان كما تقول المجسمة لكان حملة العرش من حوله مشاهدين معاينين ولما وصفوا بالإيمان لأنه إنما يوصف بالإيمان الغائب فلما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم علم أن إيمانهم وإيمان من فى الأرض وكل من غاب عن ذلك المقام سواء فى أن إيمان الجميع بطريق النظر والاستدلال لا غير وأنه لا طريق إلى معرفته إلا هذا وأنه منزه عن صفات الأجرام » . وقد أثنى الفخر الرازى على هذا فى تفسيره للآية فى « مفاتيح الغيب » وقال : « قد أحسن فيه صاحب الكشاف جداً .. فلو لم يحصل فى كتابه إلا هذه النكتة لكفاه فخراً وشرفاً » .

المجلس لا تقول مثلاً : آمنتُ بأن الشيخ الشعراوى جالس وحوله مُحبُّوه ويتكلم فى كذا وكذا ، لأن ما نحن فيه الآن مشهد لا دخْلَ للإيمان فيه ، الإيمان لا يكون إلا بأمر غيبى وهذه ميزة الإيمان ، لذلك كثيراً ما يتكرر قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. (٣) ﴾ [البقرة]

وسبق أنْ ضربنا مثلاً قلنا : هَبْ أننى أخاف من اللصوص فأخذت مالى الذى أخاف عليه وذهبتُ إلى مكان بعيد فى الحديقة مثلاً ووضعت المال وفوقه حجر ثقيل ، ولما احتجتُ لهذا المال ناديتُ العامل : يا فلان ارفع هذا الحجر ، فقال : لا أستطيع وحدى فهو ثقيل ، فقلت له : تدرى ماذا تحت هذا الحجر ؟ تحته المال الذى سأعطيك منه راتبك ، عندها يتقدم إلى الحجر ويرفعه ، إذن : المهم ليس إطاعة الأمر الذى عُلِم منفعته ، إنما إطاعة الأمر وهو غيب عنك .

ومعنى ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ .. (٧) ﴾ [غافر] أى : تسبيحاً مقروناً بالحمد ، لأن التسبيح ثناءٌ على الله ، أما الحمد فشكرٌ لله على نعمه التى سبقتْ ، ومن أجلِّ النعم أنه سبحانه لا يشبهه شىء ولو وجد له شبيه لحدثَ تعارض فى الكون : ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون] فهو وحده المعبود ، وهو وحده المستحق للحمد .

ثم بعد ذلك ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .. (٧) ﴾ [غافر] أى : أن هؤلاء الملائكة من ضمن مهمتهم أنهم يستغفرون للمؤمنين ، كما حكى عنهم القرآن يقولون : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) ﴾ [غافر]

هذا من دعاء الملائكة للذين آمنوا ، والدعاء عادة بـ (ربنا) محذوف الياء التى للنداء فلم يقُلْ : يا ربنا لأن النداء بالياء يدل على بُعْد

المنادَى ، أما الأبعد فيُنادى بأيا ، والقريب يُنادى بالهمزة مثل : أمحمد .

أما الحق سبحانه وتعالى فهو من القرب بحيث لا نستخدم فى ندائه أىَّ حرف من حروف النداء ، لأنه أقربُ لعبده من حبل الوريد ، لذلك نناديه سبحانه مباشرة (ربنا) ، ولك أنْ تستقرئ القرآن كله فلن تجد فى ندائه سبحانه حرفاً من أحرف النداء .

حتى الكفار لما نادوا الحق سبحانه قالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ .. (٣٢) ﴾ [الأنفال] ومعلوم أن الميم فى آخر لفظ الجلالة هنا عِوَضٌ عن ياء النداء ، فلم يقولوا : يا الله إنما قالوا : اللهم .

ثم يتابع الحق سبحانه ذكر دعاء الملائكة للذين آمنوا ، فيقول :

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ(١) ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٨) ﴾

معنى ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ .. (٨) ﴾ [غافر] أى : إقامة دائمة .

وتأمل ثمرة الإيمان بالله ، ثمرة لا إله إلا الله ، فلا يضر مع الإيمان معصية ، فالملائكة فى أعلى عليين يذكرونك وينشغلون بك أيها المؤمن ، ويدعون لك لأنك آمنتَ بالله ، وهذه تسلية لسيدنا رسول الله

---

(١) عدن بالمكان : أقام به واستوطنه . وقوله تعالى : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ .. (٨) ﴾ أى : جنات إقامة دائمة واستقرار ثابت . [القاموس القويم ٢/ ١١] .

ولأمته الذين تحمَّلوا مشاقّ الدعوة ومَنْ تبعهم إلى يوم الدين .

فيا محمد إن كان كفار مكة قد وقفوا منك ومن أتباعك هذا الموقف المعاند فلا تحزن ، ويكفيك وأمتك أنْ تستغفر لك الملائكة ، وأيّ ملائكة ؟ حملة العرش والذين يحيطون به .

وحين تقرأ هذا الدعاء من الملائكة تجد فيه إشارات ووقفات تستحق التأمل أولها أنك أيها المؤمن مذكورٌ بين حملة العرش ، وأنت موضع اهتمامهم مع دُنُوِّ منزلتك وعُلُوِّ منزلتهم ، هؤلاء الملائكة لا عملَ لهم إلا أن يسبحوا بحمد ربهم ويستغفروا للذين آمنوا .

وتأمل في دعائهم مسألة التخلية ثم التحلية يقولون : ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) ﴾ [غافر] هذه هي التخلية أولاً من المؤلم ، ثم تأتي التَّحلية بالنعمة التي تسرّ ، وذلك في ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ .. (٨) ﴾ [غافر] لأن التخلية والنجاة من العذاب أوْلى من التنعم ، والقاعدة أن دفع الضرر مقدم على جلْب النفع ، لذلك قال تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

ثم إن دعاءهم لم يخص المؤمنين فحسب ، إنما يشمل العائلة كلها ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ .. (٨) ﴾ [غافر] فذكروا الشجرة كلها ، لأن الآباء يُسرُّون بوجودهم مع الأبناء فلم يقطع عليهم هذه النعمة .

وفي موضع آخر ذكر حيثيات هذه النعمة ، فقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ .. (٢١) ﴾ [الطور] إذن : المقصود هنا الإيمان ، والإلحاق دلَّ على أن أحدهما كامل والآخر أقل ، وإلا لو كانوا متساوين في العمل لأخذ كل منهم (بفتحة ذراعيه) .

ومعنى : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ .. (٢١) ﴾ [الطور] لا يقصد بها أنْ نأخذ المتوسط الحسابي يعنى : ما عمله الآباء وما عمله الأبناء ويقسم على الاثنين ، لا ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ .. (٢١) ﴾ [الطور] يعنى : ما نقصنا شيئاً من أجورهم ، فالإلحاق تفضُّل من الحق سبحانه لقُرَّة عيون الآباء بالأبناء لكن بشرط الإيمان ، لماذا ؟ لأنهم لو لم يكونوا مؤمنين لكره الآباءُ معيَّتهم ومصاحبتهم .

فإنْ قلت : إذن يكون للإنسان ما لم يَسْعَ به . يعنى : يأخذ ثمرة عمل الغير ، نقول : لا لأنه آمن والإيمان من عمله ، صحيح ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) ﴾ [النجم]

لكن لا تنظر لسعيه هو ، إنما وسع الدائرة وانظر لمن جعله يسعى هذا السَّعْى الطيب ، إنها التربية الصالحة ، لذلك ورد فى الحديث الشريف « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث ، منها : أو ولد صالح يدعو له »[1] فكلمة (صالح) هذه من عمل مَنْ ؟ من عمل الآباء .

إذن : حين نعطى الأب ثواب الدعاء الصالح من الابن إنما نعطيه حقه وثمرة عمله وسَعْيه فى هذا الابن ، والأب إذا كان صالحاً تحرَّى أنْ ينفق على ولده من حلٍّ ، وحين يتحرى ذلك ربما يضيق عليه فى النفقة ، لأن بعض الأغنياء الذين لا يتحرَّوْن الحلال فى الكسب ينفقون على أولادهم ببذخ وإسراف فى الملبس والمأكل والسيارات الفارهة .. إلخ لأنهم جمعوا هذه الأموال من مهاوش[2] .

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٧٢/٢) والترمذى فى سننه (١٣٧٦) وأبو داود فى سننه (٢٨٨٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وتمامه « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له » .

(٢) المهاوش : مكاسب السوء ، فهو كل مال يُصاب من غير حله ولا يُدرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك . [لسان العرب - مادة هوش] .

وقد أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٣١٣/٢) وعزاه للقضاعى عن أبى سلمة الحمصى مرفوعاً وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقى السبكى : لا يصح .

والرجل الصالح ينأى بنفسه وأولاده عن الحرام ، لذلك ربما يشقى الصالح بالصلاح فى الدنيا ويصبر على هذا الشقاء وهذا الحرمان ، وهذا كله من عمله .

لذلك كانوا كثيراً ما يناقشوننا فى قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) ﴾ [النجم]

يقصدون كيف ينتفع الإنسان بعمل غيره ؟ وقلنا لبيان ذلك مثلاً : إننا نُؤْمر بالصلاة على الميت ، هذه الصلاة تفيده أم لا ؟ إنْ كانت لا تفيده فهى إذن عبث ، وإنْ كانت تفيده فهل استفاد بعمل غيره ؟

نعم يستفيد الميت بدعاء الحى له فى صلاة الجنازة ، لكن هذا الدعاء فى حَدِّ ذاته يُعتبر من عمل الميت . لأنه ثمرة إيمانه بالله ، ولولا أنه مؤمن ما صلَّينا عليه ، فأنت حين تصلى صلاة الجنازة لا تصلى على مطلق ميت ، إنما على ميت آمن بربه عز وجل ، والإيمان من عمله ، وبالتالى صلاتك عليه أيضاً من عمله .

أو نقول فى قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) ﴾ [النجم] أى : ليس للإنسان حَقٌّ ، فهى منعت العدل ولم تمنع الفضل من الله ، وفَرِّق بين العدل والفضل ، فالعامل عندك مثلاً أجره خمسون وهذا الاتفاق بينكما لا يمنع أن تعطيه سبعين مثلاً .

ثم تُذيل الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) ﴾ [غافر] ولم يَقُلْ مثلاً : إنك أنت الغفور الرحيم لتناسب الدعاء المذكور فى الآية .

وهذه مثل قوله تعالى فى قصة سيدنا عيسى عليه السلام : ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) ﴾ [المائدة] ثم

يقول : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

فلم يقل : فـإنك أنت الغـفور الرحـيم ، لمـاذا ؟ لأنهم اسـتـحقـوا العذاب ، إنما لو غفرت لهم لا يجـرؤ أحد على نَقْض هذه المغفرة لأنه لا معقِّبَ لحكمه سبحـانه ولا رادَّ لفضله ، فعزتك يا رب وحكمتك هى التى جعلتْك تغفر لهم مع أنهم يستحقون العذاب .

إذن : فالمغـفرة لم تأت من ناحية أنك أنت الغفـور الرحيم ، إنما من ناحيـة أنك أنت العزيز الحكيم . والعزيـز هو الغالب الذى لا يُغلب ولا يُعَارض .

لذلك قلنا : إن إبليس كان ناصحـاً حين قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ [ص] والمعنى : فـبعـزتك عن خَلْقك وغنَاك عنهم ، مَنْ شاء فليؤمن ومَنْ شاء فليكفر ، بـهذه العزة لأغوينهم ، إنما لو أردتهم جمـيعاً مؤمنيـن ما تعرضتُ لهم ولا جرؤتُ عـلى إغوائهم ، بدليل أنه استـثنى فـقال : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] فهؤلاء لا سلطانَ لى عليـهم ولا قدرةَ لى على إغـوائهم ، إذن : المسألـة ليست بين إبليس وربه عز وجل ، إنما هى بين إبليس وبنى آدم .

ثم يقول الحق سبحانه من دعاء الملائكة للمؤمنين :

﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) ﴾

قـولـه سبـحانه (وَقِهِمُ) فـعل أمر أو دعاء هـنا من الفعل وَقَى أى : يا ربِّ جنِّبهم المعاصى ، ويصح أنْ نقول : قِهِم السيئات . يعنى :

جنِّبهم عقوبةَ المعاصى ، أو جنِّبهم المعاصى ذاتها ، وعين الرحمة أنْ يجنبك الله المعاصى والسيئات ، لذلك قال : ﴿ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ .. ﴿٩﴾ ﴾ [غافر]

وهذه مثل قوله تعالى فى شأن القرآن الكريم : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء] فالشفاء يكون للداء الموجود بالفعل فى النفس الإنسانية ، فالقرآن يعالج مثلاً داءات الشُّح والجُبْن والكذب .. إلخ ، أما الرحمة فهى ألا يأتى الداء أصلاً ، ولا شكَّ أنْ تجنُّب الداء بدايةً أفضلُ من معالجته كما يقولون : الوقاية خير من العلاج .

﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [غافر] نعم ، وأىُّ فوز أعظم من أنْ يُجنِّبك الله السيئات فلا تقع فيها ؟ كلمة الفوز تعنى الفلاح والنجاح ، ووُصف بأنه عظيم لأنك قد تفوز فى الدنيا بالمال أو بالمنصب أو بالأولاد ، هذا فوز لكن الفوز العظيم فى الآخرة لأنه فوز بَاقٍ ودائم ، أما فوز الدنيا فمآله أن ينتهى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

لو تتبعنا هذه المسألة من أولها نجد أن الحق سبحانه دعا الخلق بواسطة رسله ومنهجه إليهم ، فمنهم مَن استجاب فآمن ، ومنهم مَنْ كفر ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [غافر] وهؤلاء الذين لم يستجيبوا لداعى الحق أرادوا ألاّ يرتبطوا بمنهج الله فى افعل ولا تفعل

وألاَّ يُضيِّقوا على أنفسهم بالالتزام بالمنهج ، وأنْ يسيروا فى الدنيا على هواهم ، هذا الذى دعاه إلى أنْ يكفر .

فحين يعاين العذاب فى الآخرة يندم ساعةَ لا ينفع الندم ، ويكره نفسه أشد الكره ، لأنها لم تتبع منهج الإيمان .

هذا معنى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [غافر] والمقت أشد البغض . أراد الحق سبحانه أن يقول لهم : إنْ كنتم كرهتم أنفسكم أشد الكره لأنها لم تؤمن بمحمد وبمنهج الحق الذى جاء به ، فاعلموا أن مقْتَ الله لكم لكفركم به أشدّ وأعظم من مقتكم لأنفسكم ، إنكم مقتّم أنفسكم لأنها حرمتكم الخير وجلبتْ لكم الشر حين كفرتْ بالله .

والحق سبحانه يمقتكم لأنكم أبعدتم أنفسكم عن مجال الخير منه وخرجتم من حضنه ودائرة رحمته ، لأنه سبحانه يغضب أشدّ الغضب حين يخرج عبده عن ساحته ويحرم نفسه من خيره ، وهذا يعنى أنَّ ربك يحبك ويحب لك الخير ويريدك فى جنبه وفى معيته ويَغار عليك حين تشرد أو تشذ عن منهجه ، فأنت عبده وصنعته .

فكأن مقته سبحانه للكافر رحمةٌ به وغيرة عليه . لذلك قال سبحانه فى الحديث القدسى : « لو خلقتموهم لرحمتموهم »[1]

إذن : الحق سبحانه أثبت أولاً بُغْضهم لأنفسهم ، ثم بيَّن لهم بُغْضه سبحانه للكافر أشدّ من هذا .

---

(١) أورده أبو حامد الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ، ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدل له حسنات ».

﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ﴾

لنفهم معنى ﴿ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴿١١﴾ ﴾ [غافر] لابدَّ أن نعرف ما هو الموت أولاً ، الموت هو إذهاب الحياة بعد أنْ كانت موجودة ، فما دام سيكون الموت فهو دليل على الحياة قبله ، والموت أيضاً يعنى عدم الحياة مطلقاً ، يعنى : عدم لم تسبقه حياة مطلقاً .

لذلك قال سبحانه : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة] وهذا استفهام للتعجب يعنى : قولوا لنا كيف يتأتَّى منكم الكفر ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة] أى : كنتم عدماً فوهبكم الحياة ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة] أى : يُذهب الحياة الموجودة ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة] أى : فى الآخرة .

إذن : فالموت مرتان والحياة مرتان كذلك ، والخلاف فى هذه المسألة : أيكون الموت بعد حياة ؟ أم يكفى أن يكون عدمٌ تأتى بعده الحياة ؟ نقول : الموت هو العدم المطلق ، سواء كان قبله حياة أم لم تكن قبله حياة ؟ وأنت مثلاً ترى البعوضة صغيرة ، والفيل ضخماً كبيراً فتقول : سبحان مَنْ صغَّر البعوضة وكبَّر الفيل ، أكانت البعوضة كبيرة ثم صغَّرها الله أم خُلقت هكذا ؟ إذن : الموت ليس من الضرورى أن يسبقه حياة ، فيكفى أنه لم تكُنْ فيه حياة ، بعد ذلك أحيانا الله واستوفينا الأجل فى الدنيا ثم يأتى الموت .

إذن : الآية جمعت بين المعنيين : الموت المطلق أو العدم الذى لم تسبقه حياة ، والموت بمعنى نَقْض الحياة الموجودة بالفعل ، فقال

سبحانه : ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ (١١)﴾ [غافر]

بعضهم [١] يرى أن الموت الأول هو إذهاب الحياة بعد انقضاء الأجل ، ثم يحيا فى القبر للسؤال ثم يموت فى القبر ثم يُبعث يوم القيامة ، والأول [٢] الذى اخترناه أليق .

وقوله سبحانه : ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١)﴾ [غافر] الاستفهام فى ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١)﴾ [غافر] استفهام للتمنى لكن هيهات ، فلو رُدُّوا لَعَادوا لما كانوا عليه ، فلا فائدةَ من تكرار هذه التجربة ، والحق سبحانه بيَّن هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا (١٠٠)﴾ [المؤمنون]

ولو رُدُّوا لعادوا بطباع الشر فيهم وكفروا ، والخروج أى من المأزق الذى نحن فيه ومن العذاب الذى نعاينه ﴿مِّن سَبِيلٍ (١١)﴾ [غافر] من طريق للخروج وللنجاة .

هذا الذى ذكرناه خاصٌ بحياة القوالب وموتها ، أما حياة القلوب والأرواح فلها طريق آخر ، ذكره الحق سبحانه فى قوله : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (٢٤)﴾ [الأنفال]

لا شكَّ أنه سبحانه يخاطبهم وهم أحياء الحياة المادية إذن : هناك حياة أخرى يدعوهم إليها ، إنها حياةُ المعنويات التى لا يأتى

---

(١) هذا القول قاله السدى فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩٤٥) قال القرطبى : « إنما صار إلى هذا لأن لفظ الميت لا ينطلق فى العرف على النطفة ، واستدل العلماء بهذا فى إثبات سؤال القبر » .

(٢) القول الأول الذى يقصده الشيخ الشعراوى هو أنهم كانوا أمواتاً فى أصلاب آبائهم ثم أحياهم ، ثم أماتهم الموتة التى لابد منها فى الدنيا ، ثم أحياهم للبعث والقيامة ، فهاتان حياتان وموتتان . وهذا هو قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة والضحاك . انظر تفسير القرطبى (٨/٥٩٤٥) .

بعدها موت وهى الحياة فى الجنة .

إذن : عندنا حياة للمادة بها تحيا وتتحرك وتأكل وتشرب وتنشط ، وهناك حياة أخرى معنوية بها تدخل الجنة حيث نعيمٌ بلا فَوْت ، وحياة بلا موت . الحياة المادية لها روح تناسبها وهى حياة تنتهى بالموت ، أما حياة القيم والمعنويات فلا بدَّ لها من روح عُلْوية تأتى بالالتزام بالمنهج فى : افعل ولا تفعل ، لذلك يسميها الله روحاً : ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى] وسمَّى مَنْ يحملها روحاً : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء]

وكل من الحياتين لها ما يناسبها من البقاء ، فالأولى موقوتة بالأجل ، والأخرى ممتدة باقية ؛ لذلك قلنا فى الشهيد الذى جاد بنفسه وأنهى حياته فى سبيل منهجه أن الله يُجازيه على ذلك بأنْ يعصمه من الموت بعد ذلك .

﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى حينما تكلَّم عن العقائد وأيَّدها بالمعجزات ، كان من الواجب أن نستقبل أحكامه تعالى فيها بالرضا والقبول ، فلم يكلفنا سبحانه بحكم افعل ولا تفعل إلا بعد أنْ قدَّم حيثيات الإيمان الأعلى بالإله الأعلى ، وآمن مَنْ آمن به وكفر مَنْ كفر رغم كل مصالحنا فى تنظيم حركة الحياة بمنهج الله .

فإذا حكم علينا بحكم فيجب أن نطيعه ، وإذا استقر فى أذهانكم شىء يخالف ذلك فإنَّ واقعكم يؤيد أنكم لم تؤمنوا بقلوبكم ﴿ ذَٰلِكُم

(١٢)﴾ [غافر] أى : ما يحدث منكم من مواجهة الدعوة ومصادمتها ووقوفكم هذا الموقف المعادى ناشىء من ﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ (١٢)﴾ [غافر] أى : كفرتم به .

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥)﴾ [الزمر]

أى : ظهر عليه الامتعاض والضيق لما سمعوا كلمة الله ، لماذا ؟ لأنهم يعلمون معنى الإيمان وما يترتب عليه من تكليف بمنهج : افعل كذا ولا تفعل كذا ، يعلمون أن هذا المنهج يقيد شهواتهم فينهاهم عن أشياء مُحبَّبة إليهم ويدعوهم إلى أشياء أخرى ثقيلة على نفوسهم ، لذلك إذا ذكَّرتهم بالله وبمنهج الإيمان امتعضوا فى حين إذا ذكر غيره سبحانه من آلهتهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥)﴾ [الزمر] ويفرحون ، لماذا ؟

لأن هذه الآلهة التى اتخذوها من دون الله ليس لها مطلوب ولا تكاليف بافعل ولا تفعل . إذن : أنتم مع هذه العبادة متروكون على هواكم ، وعلى سيئات نفوسكم ، هذا معنى الاستبشار ومعنى ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا (١٢)﴾ [غافر]

لكن بقيتْ حقيقة ينبغى ألاَّ تغيب عن أذهانكم : ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢)﴾ [غافر] فافرحوا بآلهتكم المزعومة كما تشاؤون ، فأنا سأحكمكم بقدرى قهراً عنكم فأمرضكم كما أحب ، وأميتكم متى أشاء وأُفقركم وأغنيكم .. الخ فلن تخرجوا أبداً بشىء عن ملكى إلاَّ فيما جعلتُ لكم فيه اختياراً .

فأنتم مختارون فى الإيمان والكفر فمَنْ شاء فليؤمن ومَنْ شاء

فليكفر ، مَنْ شاء فليطع ومن شاء فليعص ولن تنفعنى طاعتكم ، ولن تضرنى معاصيكم ، ومهما تمردتم فى الأمور التى لكم فيها اختيار فإنَّ مردكم إلىَّ ومنتهاكم عندى .

﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ [غافر] الذى لا يمكن أبداً لأحد أنْ يتمرد على قدره ، فإن كنتم ألفتم التمرد فى الإيمان وفى الطاعة فأرُونى كيف تتمرَّدون على الله فيما لا اختيارَ لكم فيه .

ثم يذكر الحق سبحانه حيثيات العلو والكبرياء له سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾

الآيات جمع آية وقلنا : إنها على أنواع ثلاثة : آيات كونية تدل على القدرة العالية والحكمة الفائقة للإله الحق صاحب العلو والكبرياء ، وآيات المعجزات التى يمنحها سبحانه لتثبيت الرسل والإيمان بصدق بلاغهم عن الله ، ثم آيات الأحكام التى تحمل أحكام الله .

يقول سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴿١٣﴾ ﴾ [غافر] أى : الكونية لتؤمنوا بالإله الأعلى ويُريكم المعجزات على أيدى الرسل ، ثم يُنزِّل لكم آيات الأحكام التى تحمى أديانكم وعقائدكم ، لأننى كما حميت أبدانكم بما أنزلتُ من ماء السماء وما نشأ عنه من رزق لكم تقتاتون به وتعيشون عليه ، فكذلك خذوا منى الشىء الآخر الذى جعلتُه لقوام أديانكم ، وهو الأحكام التى تحمى عقيدتكم فى الحركة الحُكْمية بافعل ولا تفعل .

فقوله سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴿١٣﴾ ﴾ [غافر] يُراعى الأمرين معاً بحيث لا تهمل أحدهما على حساب الآخر .

﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [غافر] أى : يرجع إلى الله ويخلع عن نفسه كبرياء الجحود بذلك الإله ، وينفض عن نفسه غبار الغفلة حتى يرجع إلى إيمان الفطرة التى أرادها الحق سبحانه فى قوله : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف] وكانت الإجابة أن قال الجميع (بلَى) أى : أنت ربنا الحق .

﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

الدعاء : هو إظهار الذلة والخضوع لله تعالى ، لماذا ؟ لأن من الناس مَنْ تمرَّد على الله وتكبَّر على الطاعة ، وتعالى على أنْ يظهر لله الخضوع فحين يرى منكم الذلةَ والخضوع لله ويرى الإخلاص فى العبادة يعلم أن هذا التمرد ليس طَبْعاً فى الإنسان ، بل هو طبْع هواه بدليل أن من الناس مَنْ ذلَّ وخضع ، ومن الناس مَنْ يدعو ربه ويخلص له ويطيعه .

إذن : ليس التمردُ خاصية لازمة للإنسان بل هو خاصية فى المتمرد فقط ، إنما الإنسان حينما يكون على طبيعته وفطرته لابد له أنْ يلجأ إلى الله ويستعين به ، لذلك ادعوا الله مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون منكم هذا الدعاء .

وقلنا فى فضل الدعـاء أنه « مخ العبادة »[(١)] ، والدعاء ما هو إلا ذلة عابد لعـزة معبود ، مجـرد إظهار الذلة بصرف النظر عمـا يترتب على الدعاء ، وإلا فـالحق سبـحانه أعطاك قبل أنْ تـدعوه ، وخلق لك قبل أن توجد ، لذلك ليس من اللازم أن يستجيب الله لكل مَنْ يدعوه ، وكأنه سبحانه يقول لنا : تنبَّهـوا إلى أن منكم مَنْ يدعو فلا أستجيب له ، وأنا حين لا أستجيب له أمنحه العطاء الأعلى لأنه قد يدعو بالشر دعاءه بالخير ، ويطلب الشىء وهو لا يعرف أن فيه هلاكه .

وسـبق أنْ ضربنـا لذلك مثـلاً بالأم التى تدعـو على ولدها حـين الغضب تقول (إلهى أشـرب نارك) ، فما موقف هذه الأم لو أن الله استجاب لها ؟

إذن : الحق سبحانه علم أنها حمقاء فى دعائها ، وأنها دَعَتْ بشَرٍّ تظنه خيـراً فصوَّب لـها الدعاء ؛ لذلك قلنا فى الثنـاء عليه سبـحانه : سبـحانك يا مَنْ تُصوِّب خطأ الداعـين بألاَّ تجيب ، وبذلك حمـيتنا من الضر ، فكَمْ يدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير ؟

وفى هذه الآية ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [غافر] حَثٌّ لنا على كـيد الكافريـن وإغاظتهم بإظـهار الذلة لله والخضوع له سـبحانه ، فهـذه المسألة تكيدهم ، لأنها تـظهر لهم عِزَّ الربوبيـة والكبرياء لله تعـالى الذى كفروا بـه ، وتعالَوْا على طاعـته ، وتكبَّروا عليه سـبحانه ، لذلك داوموا على الدعـاء أمامهم وأرُوهُمْ من أنفسكم منتهى الذلة لله .

---

(١) أخـرجه الـترمـذى فى سننه (حـديث ٣٣٧١) من حـديث أنس رفـعة لـرسول الله . قـال الترمـذى : غريب من هذا الوجـه لا نعرفـه إلا من حديث ابن لهـيعة ، وقـد أخرجـه مسلم وأحمد والبـخارى فى الأدب المفرد عن النعـمان بن بشير بلفظ « الدعـاء هو العبادة » انظر كشف الخفاء للعجلونى (١/ ٤٨٥) .

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ(١) ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ(٢) مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾

كلمة (رَفيع) على وزن (فـعيل) من الفعل رفع ، وهذا الوزن يأتي بمـعنى فاعل مثـل (رحيم) مبـالغة من راحم ، وتأتى بمـعنى مفعول مثل قتيل يعنى مـقتول ، كذلك كلمة (رفيع) يصح أنْ تكون بمعنى رافع . أى : أنه سبحانه رافع لغيره ، كما يرفع سبحانه بعض الخلق على بعض .

ويصح أنْ تكون (رفـيع) بمعنى مـفعول أى مـرتفع فى ذاته ، والرافع لا يرفع غيره إلا إذا كان مرتفـعاً فى ذاته ، فرفيع هنا بمعنى مرتفع عن كل شىء ، كما نقول : الله أكبر والله أعلى وأجلّ .

فـالله تعالى مـرتفع الوجـود لأن وجـوده أزلىٌّ لا عن عدم ، أمـا وجودنا نـحن فعن عـدم ، ووجوده سبـحانه إلى دوام ووجـودنا إلى عدم ، وهو موجود سبحـانه بذاته ووجودنا نحن به سبحانه ، إذن : فهو سبحانه أحسن مرتفع فى الوجود ، نعم .

والله سبـحانه مـرتفع فى قيـوميتـه ، فنحن نعمل ونتـعب وننام

---

(١) قال ابن عباس والكلبى وسـعيد بن جبير : رفيع السماوات السـبع وقال يحيى بن سلام : هو رفعة درجة أوليائه فى الجنة . [القرطبى فى تفسيره ٥٩٤٧/٨] .

(٢) الروح : الوحى أو أمر النبـوة ، قال أبو العـباس : سُمِّى روحـاً لأنه حياة من مـوت الكفر فصار بحياته للناس كالروح الذى يحيا به جسد الإنسان . [لسان العرب – مادة : روح] .

لنرتاح ، أما هو سبحانه فلا يُتعبه عمل ولا ينام ليستريح ، لذلك قال سبحانه : ﴿ **اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ** (٢٥٥) ﴾ [البقرة] وكأن الحق سبحانه يقول لنا : ناموا أنتم ملْءَ جفونكم لأنى لا تأخذنى سِنَةٌ ولا نوم ، يريد أنْ نطمئن ونحن فى معيته سبحانه .

وبهذه القيومية يرفع الله مَنْ يشاء ، وبطلاقة قدرته سبحانه يُبقى مَنْ يشـاء فى الرفعـة ويُنزل مَنْ يشـاء إلى الضِّعَـة ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ** (٢٦) ﴾ [آل عمران]

وقوله : ﴿ **رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ** (١٥) ﴾ [غافر] لأن الرفع يقتـضى منزلة أعلى من منزلة ، وهذه هى الدرجات أى : ما بين كل منزلة وأخرى ، والدرجـات لا تكون إلا فى العُـلُو ، أمـا النزول إلى أسـفل فـتـسـمى مراحله دركات .

والحق سبحانه يرفع من خَلْقه مـا يشاء على ما يشاء ، كما رفع من الزمان رمـضان على غيـره من الشـهور ، ورفع مـن المكان البيتَ الحرام وبيت المـقدس ، ورفـع من الملائـكة كما فى قـوله تعالى على لسان الملائكة : ﴿ **وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ** (١٦٤) ﴾ [الصافات]

ورفـع من الرسل أُولى الـعـزم منهـم ، كمـا قـال تعـالى : ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** (٢٥٣) ﴾[البقرة] ويرفع من عامة الخَلْق كما قال سـبحـانه : ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** (١١) ﴾ [المجادلة] وكما رفع الله سبحـانه أُولى العلم كذلك رفع أصحاب الحركـة فى الحياة الذين ما أُوتوا علـماً ، إنما عندهم حركـة تنفذ هذا العلم وتُطبِّقه وتحقق مطلوبه فى الحياة ، فالعلم يحتاج فى تنفيذه ليد

عاملة كأصحاب الحِرَف والعمال والصُّناع ، لذلك قال سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (١٦٥) ﴾ [الأنعام]

إذن : عندنا رفعةٌ للزمان ، ورفعة للمكان ، ورفعة للملائكة ، ورفعة للأنبياء ، ورفعة للمؤمنين ، ورفعة لأُولى العلم ، وأخيراً رفعة للخلائق فى الأرض ، وتأمل العدالة الإلهية فى رفعة الخلائف بعضهم على بعض .

فالحق سبحانه لم يقُلْ لنا أىَّ بعض مرفوع وأىَّ بعض مرفوع عليه ، ليبين لنا أن كل بعض مرفوع فى شىء ومرفوع عليه فى شىء آخر ، إذن : لا يرفع الغنى على الفقير ، ولا الجميل على القبيح ، ولا الذكى على الغبى ، إنما يُرفع كلٌّ بحسْب عمله ، كما ورد فى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ [الحجرات]

فكل الخَلْق غير ما تقدم ممَّنْ رفعهُ الله مرفوعٌ فى شىء ومرفوع عليه فى شىء آخر ، فالنجار الذى يصنع لى المكتب مرفوع علىَّ فى هذا العمل ومُفضَّل علىَّ فيه ، لأنه يعرف هذه الصَّنعة ويتقنها وأنا لا أعرفها .

فإذا ما جاء هذا العامل يسألنى فى مسألة كنت أنا مرفوعاً عليه فيها ، لأننى أعرفها وهو لا يعرفها ، وقلنا : إن الحق سبحانه أراد لحركة الحياة بين الخلق أنْ تُبْنى على الحاجة لا على التفضل ، فكُلٌّ منا يحتاج الآخر ولا تكتمل حركةُ حياته إلا به .

ولو قامتْ حركة الحياة على التفضّل لتعطلتْ أكثر المصالح ولما استقامتْ الحياة ، وتصور أننا جميعاً تخرَّجنا فى الجامعة وصرْنا علماء ، مَنْ سيؤدى لنا الأعمال الأخرى ؟ مَن يكنس الشارع ؟ ومَنْ

يعمل فى المجارى ؟ ومن يبيع فى الأسواق ؟ .. الخ وهذا هو مقصود الشاعر [1] الذى قال :

النَّاس للنَّاسِ من بَدْوٍ وَحَاضِرَةٍ بَعْضٌ لبَعْضٍ وإنْ لَمْ يَعْلَمُوا خَدَمُ [2]

فليس منا مَنْ هو مُسخَّر فقط ، بل كل منا مُسخَّر فى شيء ومُسخر له فى شيء آخر ؛ لذلك يقول تعالى وهو يُعلِّمنا هذا الدرس : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ (١١) ﴾ [الحجرات]

لذلك لا تنظر إلى عمل على أنه أفضل من عمل ، إنما هناك عامل أفضل من عامل ، والأفضل هو الذى يتقن عمله أكثر ، فالعامل الذى يتقن عمله فى الأدنى أفضل من العامل الذى لا يتقن عمله فى العمل الأعلى [3] .

لذلك قال الإمام على كرَّم الله وجه : (قيمة كل امرىء ما يُحسنه) [4] فمَنْ أراد من العلو الأفضلية فليتقن عمله مهما كان هذا

---

(١) هو : أبو العلاء المعرى أحمد بن عبد الله ، شاعر وفيلسوف . ولد عام ٣٦٣ هـ وتوفى ٤٤٩ هـ فى معرة النعمان ، عمى فى السنة الرابعة من عمره ، قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة ، كان يحرم إيلام الحيوان ولم يأكل اللحم ٤٥ عاماً ويلبس خشن الثياب ، له (لزوم ما لا يلزم) ، وسقط الزند . [الموسوعة الشعرية].

(٢) البيت من قصيدة لأبى العلاء المعرى من بحر البسيط عدد آياتها ٥ أبيات ونصه فى الموسوعة :

والناس بالناس من حضر وبادية بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

(٣) أورد العجلونى فى كشف الخفاء (١/ ٢٨٥) : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم العمل أن يتقنه » وفى لفظ عملاً بالتنكير . وقال : رواه أبو يعلى والعسكرى عن عائشة رفعه ورواه العسكرى أيضاً بلفظ « أن يحكمه » ، وصنيع الأئمة يقتضى ترجيحها (أى هذه الروايات وغيرها) .

(٤) أخرج ابن الشجرى فى كتابه « الأمالى الشجرية » بسنده أن على بن أبى طالب قال : قلت أربعاً أنزل الله تعالى تصديقي بها فى كتابه ، ذكر منها : قلت : قدر - أو قال - قيمة كل امرىء ما يحسنه ، فأنزل الله تعالى فى قصة طالوت : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ (٢٤٧) ﴾ [البقرة]

العمل حقيراً - أى : فى نظر البعض منا - فليس فى الإسلام عمل حقير ، إنما هناك عامل حقير ، وهو المتهاون الذى لا يجيد ولا يتقن ما فى يده ولا يخلص فيه .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً من فرنسا ومن مناقشات مجلس الشعب الفرنسى ، وقد كانوا يعرضون علينا بعض المواقف الحاسمة فى هذه المناقشات ، منها أن نقيب العمال كان كثير المطالب لصالح العمال ، وكان يسرف فى ذلك ، لكن كان الوزير المسئول عن تنفيذ هذه المطالب تحكمه ميزانية وأرقام وحسابات .

ومرَّت الأيام وصار نقيب العمال هذا وزيراً للعمل ، ووقف نقيب العمال الجديد يقول له : لا أطلب منك إلا ما كنت تطلبه أنت من سابقك ، فقال : لكن تحكمنى ميزانيات وحسابات ، فأراد أن يثير عاطفته نحو العمال ، أو أراد أنْ يحرجه فقال له : لا تنْسَ أنك كنتَ فى يوم من الأيام ماسح أحذية ، فأخذها الوزير بصدر رَحْب وروح رياضية وردَّ عليه : نعم نعم لكننى كنتُ أجيدها . إذن : العظمة ليست فى العمل إنما فى إجادته .

لذلك نقول : لو علم العامل المخلص فى عمله والمتقن له عن غيب من صاحب العمل يعنى يتقنه ويجيده لله ، لو علم هذا العامل ما أدَّاه لمواجيد الإيمان بالله لافتخر بهذا العمل على العلماء . قالوا : كيف ذلك ؟ وماذا يؤدى العامل لمواجيد الإيمان ؟ نقول : لأن كل مَنْ يرى عمله المتقن يقول : الله ، فكأن العمل المتقن يُشيع كلمة الجمال فى الكون ، ويؤدى إلى ذكر الله ، وفى هذا من الثواب ما لا يَخْفى على أحد .

وقوله تعالى :﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴿١٥﴾ ﴾ [غافر] يعنى : الذى يملك كوناً

استقر له بدون شغب عليه ، وهو المستقر فى كمال قدرته وألوهيته ، والملك لا يُتاح له الجلوس والاستواء على عرشه إلا بعد أن يستتبَّ له الأمر مع الفارق بين جلوسه سبحانه واستوائه على عرشه وبين جلوس ملوك الدنيا على عروشهم ، فنحن نؤمن بهذا الجلوس دون تكييف أو تشبيه ، وما دام وجوده تعالى ليس كوجودنا فكذلك جلوسه ليس كجلوسنا ، وقلنا : إننا نأخذ هذه المسائل فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ⦗١١⦘ ﴾ [الشورى]

والحق سبحانه وتعالى استتبَّ له الأمر فى الكون دون منازع ، بدليل قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ⦗١١⦘ ﴾ [فصلت]

ولأنه سبحانه رفيع الدرجات ، وهو سبحانه ذو العرش أراد سبحانه أنْ يضفى من رفعته على المؤمنين به ، وأن يرفعهم على غيرهم ، وألاَّ يتركهم هَمَلاً وهمجاً بدون منهج ، لذلك أنزل عليهم رُوحاً منه سبحانه :

﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ⦗١٥⦘ ﴾ [غافر]

فما كان سبحانه ليستعبد الخَلْق ثم يتركهم ، إنما أنزل لهم انمنهج الذى يحكم حركتهم فى الحياة بافعل كذا ، ولا تفعل كذا ، وهذا هو قانون الصيانة الذى يضمن للبشر الصلاح والرِّفْعة وعُلُوَّ المنزلة ، وجعل هذا المنهج اختياراً ، مَنْ شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، مَنْ شاء أطاع ومَنْ شاء عصى ، ليرى المؤمن أثر رفعة الله له فى الآخرة حين يُدخله الجنةَ دار النعيم الباقى ، حيث لا فَوْتَ للنعمة ، ولا مَوْتَ للوجود .

وهذا المنهج جاءنا فى كتاب الله وفى سنة رسوله ﷺ ، ينظم حركة حياتنا حتى تتكامل الحركات ولا تتصادم ، فحين ترى شرع الله يقيد حركتك فى شىء ، فاعلم أنه قيَّد حركات الملايين من أجلك ، فحين ينهاك عن السرقة مثلاً يُقيِّد حركتك وأنت فرد ويمنع يدك أنْ تمتد لما لا تملك ، وفى المقابل قيَّد ملايين الأيدى حتى لا تمتد إلى مالك أنت ، حين أمرك بغضِّ البصر وحفظ المحارم أمر الخَلْق جميعهم أنْ يغضُّوا أبصارهم عن محارمك .. الخ فتأمل مَن المستفيد من تطبيق هذا المنهج ؟

وقوله : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ ﴿١٥﴾ ﴾ [غافر] الروح لها معَانٍ عدَّة . فالذى يتبادر إلى الذِّهْن أنها هى الروح التي تدبّ فى المادة فتمنحها الحياة والحركة ، وهذه هى الروح التى ألقاها الخالق سبحانه فى آدم فتحرَّك وأدت كل الجوارح وظائفها بعد أنْ كانت طيناً .

ثم أراد سبحانه أنْ يحرس حركة المادة حتى لا تنطلق فى شهواتها ، فأنزل روحاً أخرى من عنده سبحانه هى المنهج القيمى فى القرآن الكريم ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال]

كيف يُحييهم وهم أحياء مخاطبين بهذا الكلام ؟ نعم هم أحياء حياةَ المادة بالروح التى دبَّتْ فى أجسامهم فتحركوا بها ، إنما المراد هنا حياة أرقى من حياة المادة هى حياة القيم التى تُرقِّى حركة الإنسان وتجعلها دائماً فى الخير لنفسه ولمن حَوْله ، وكما أن حياة المادة لها روح كذلك حياة القيم لها روح .

لذلك سمَّى القرآنَ روحاً ، وسمَّى الذى نزل به من الملائكة رُوحاً، فقال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى]

وقال : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء]

هذه هى حياة القيم والمثُل الرفيعة ، الحياة التى تُؤهلك لحياة أخرى باقية لا تفنى ، ولك أنْ توازن بين حياة تُؤهِّلك للدنيا الفانية وحياة تؤهلك للآخرة الباقية ، لابدَّ أنك ستجد الروح الثانية أعظم وأفضل من الأولى .

ويكفى فى التفريق بينهما أن الروح الأولى ، وهى روح المادة تسرى فى المؤمن والكافر ، وبهذه الروح يأتى كفر الكافر ومعصية العاصى ، أمَّا روح المنهج والقيم فلا تكون إلا للمؤمن ، ولا تُحرِّكه إلا فى الخير حركةً سويّة تُسعده وتسعد مَنْ حوله فى الدنيا قبل الآخرة .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] ومعنى (الحيوان) يعنى : الحياة الحقيقية الدائمة الباقية التى لا ينتهى نعيمها ولا يدركها فناء ، وإنْ كان نعيم البشر فى الدنيا على قَدْر حركتهم وإمكاناتهم فنعيمهم فى الآخرة على قدر المنعم سبحانه .

ثم أنت تعيش فى الدنيا عُرْضة للموت يهددك فى كل لحظة ، وربما يهجم عليك بغتة فليس له وقتٌ ولا سنٌّ معين ، وليس له سبب يرتبط به ، فمنا مَنْ يموت بعد عام ، ومنا مَنْ يموت بعد مائة عام ، ومنا مَنْ يموت وهو فى بطن أمه ، الموت لا يفرق بين كبير أو صغير ، ولا بين مريض أو سليم . لذلك أبهمه الله ، لماذا ؟ لنظلَّ دائماً ذاكرين له منتظرين هجمته ، فكأن الإبهام هنا هو عَيْن البيان .

لذلك الحق سبحانه ينبهنا إلى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٢) ﴾ [الملك]

تأمل ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك] فبدأ بالموت وقدَّمه على الحياة ، وكأنه سبحانه يقول لنا : لا تستقبلوا الحياة إلا وفى أذهانكم الموت ، لماذا ؟ لأن ذكر الموت يمنع الغرور بالدنيا والركون إليها ويضبط سلوك الإنسان ، فلا يتحرك إلا فى الخير لأنه دائماً يعمل حسابَ العواقب التى تنتظره .

وقوله سبحانه : ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (١٥)﴾ [غافر] يعنى : على مَنْ يختاره ويصطفيه لهذه المنزلة ، وهذا مثل قوله تعالى ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ (٧٥)﴾ [الحج]

وقوله تعالى : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (١٢٤)﴾ [الأنعام]

ثم يوضح الحق سبحانه العلة من قوله : ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (١٥)﴾ [غافر] لماذا ؟ ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (١٥)﴾ [غافر] يعنى : إياك أنْ تفهم أن المسألة تنتهى بنهاية الحياة الدنيا ، ويفلت أهل المعاصى بمعاصيهم وأهل الظلم بظلمهم لا ، إنما هناك مرجع ومردٌّ إلى هذا الإله الذى كفرت به أو الذى عصيته وتجرأت على محارمه ، تذكّر هذه الحقيقة مهما نفرت عنه بالكفر أو نَبَا جانبك عن جانب ربك ، فأنت مردود إليه رغماً عنك ، موقوفٌ بين يديه ، لا مهربَ لك منه أبداً ، ولا مفرَّ .

وقلنا : إن الإنذار يعنى التخويف من شرٍّ قبل أوانه لتستعدَّ له بأنْ تتجنب دواعى ما يخيف لتسلم منها ، ولا معنى للإنذار ساعة وقوع الحدث ، لابدَّ أنْ يكون قبل الحدوث بفترة كافية تمكننى من أن أتدارك الأمر وأعمل حسابى .

وقوله ﴿يَوْمَ التَّلاقِ (١٥)﴾ [غافر] أى : التلاقِى ، والتلاقى لا ينشأ إلا عن تباعد كان موجوداً بين شيئين ، فبين أىِّ الأشياء يكون هذا

التلاقى ؟ قالوا : التلاقى هنا والمراد يوم القيامة سيكون فى عدة صور ، ففى الآخرة سترى الملائكة الذين آمنتَ بهم فى الدنيا إيماناً غيبياً وتلتقى بهم مشهداً .

وفى الآخرة سترى رحمك وأسرتك الكبيرة من لَدُنْ أبيك آدم حتى آخر ولد له فى الدنيا ، ستلتقى بهم جميعاً ، وسترى هذا الرحم الذى قطعته فى الدنيا ، ستتمثل لك هذه الشجرة الكبيرة متشابكة الأغصان متداخلة الفروع ، وعندها ستقول : كيف قطعتُ هذه الرحم؟ وكيف جفوتُ هذه القربات لسبب وبدون سبب ، لذلك يقول النبى ﷺ : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب »[1] .

ويقول الحق سبحانه فى الحديث القدسى : « أنا الرحمن ، وهذه الرحم اشتققتُ لها اسماً من اسمى ، فمَنْ وصلها وصلْتُه ، ومَنْ قطعها قطعتُه »[2] .

وسيدنا معاوية بن أبى سفيان[3] رضى الله عنه دخل عليه حاجبه فى يوم من الأيام وقال : يا أمير المؤمنين رجل بالباب يقول أنه أخوك ، فقال له : ألاَ تعرف إخوتى ؟ قال : هكذا يقول الرجل ، قال أدْخِلْه ، فلما دخل على معاوية قال له : أىّ إخوتى أنت ؟ قال : أنا

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٦١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ولفظه : « الناس بنو آدم وآدم من تراب » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/١٩١ - ١٩٤) والترمذى فى سننه (١٩٠٧) وقال : حديث حسن صحيح . وكذا أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٩٤) كلهم من حديث عبد الرحمن ابن عوف .

(٣) معاوية بن أبى سفيان هو : صخر بن حرب بن أمية ، مؤسس الدولة الأموية فى الشام وأحد دهاة العرب ولد بمكة قبل الهجرة بعشرين عاماً وأسلم يوم فتح مكة توفى عام ٦٠ هجرية عن ٨٠ عاماً ، بلغت فتوحه المحيط الأطلنطى وهو أول مسلم ركب البحر لغزو الروم ، [الأعلام للزركلى المجلد ٧] .

أخوك من آدم ، فضحك معاوية ، وقال : رحمٌ مقطوعة ، والله لأكُونَنَّ أول مَنْ وصلها ، ثم قرَّبه وأعطاه ما يريد[١] .

ومن التلاقى الذى سيكون فى الآخرة أنْ يلتقى المظلومُ بظالمه ، والخصمُ بمخصومه ، نعم وعند الله تجتمع الخصومُ ، وعلى العاقل أن يحسب لهذا اللقاء ألف حساب ، ومَنْ تدبَّر العواقب نجا .

ومن التلاقى فى الآخرة أنْ يلتقى الإنسان بصحيفة أعماله التى أحصتْ عليه كل صغيرة وكبيرة ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ (٦) ﴾ [المجادلة]

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا (٣٠) ﴾ [آل عمران]

يوم يقول لك ربك : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء]

ثم يرتفع التلاقى إلى قمته ، فيلتقى المؤمنون بربهم عز وجل حين يتجلَّى عليهم سبحانه فيرونَه ، وتكون هذه أعظم النعم تفضلاً من الله وكرماً واقرأ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ[٢] (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ[٣] (٢٥) ﴾ [القيامة]

وإذا كانت رؤية الحق سبحانه هى أعظم النعم للمؤمنين فهى أشدّ

---

(١) ذكر نور الدين اليوسى (١١٠٢ هـ) فى كتابه (المحاضرات فى الأدب واللغة) إن إنساناً دخل على معاوية فقال له : أسألك بالرحم التى بينى وبينك إلا ما رفدتنى (أى أعطيتنى) فقال : أنت من عبد مناف ؟ قال : لا ، قال : أنت من قريش ؟ قال : لا قال : أنت من العرب ؟ قال : لا ، قال : أى رحم بينى وبينك ؟ قال : رحم آدم . فقال معاوية : رحم مجفوة لأكونن أول من وصلها ، فأعطاه . وذكره الأبشيهى فى كتابه (المستطرف فى كل فن مستظرف) وعزاه لأبى على القالي فى كتابه الأمالى .

(٢) وجوه يومئذ باسرة . أى : كالحة عابسة كناية عن الهم والغم والخوف الشديد [القاموس القويم ١/٦٦] .

(٣) فاقرة : داهية تكسر الظهر . قاله الليث فيما نقله ابن منظور عنه فى [لسان العرب - مادة : فقر] ، وقال أبو إسحاق : المعنى : توقن أن يفعل بها داهية من العذاب .

ألوان العذاب للكافرين لأنهم سيُحرمون منها ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥)﴾ [المطففين] يومها ستشتد حسرتهم وأسفهم : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ[1] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور]

وجد اللهَ الذى كفر به فى الدنيا ، ووجد العاقبة التى طالما حذَّرناه منها وذكّرناه بها .

وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ (١٦)﴾ [غافر] أى : فى هذا اليوم يوم التلاقى يأتون بارزين علانية بعد أنْ كانوا مُستترين بسيئاتهم في الدنيا ، اليوم يُفتضح أمرهم ويُكشف سترهم ﴿لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ (١٦)﴾ [غافر] الجميع فى ساحة واحدة : الملوك والسُّوقة ، السادة والعبيد ، الرؤساء والمرؤوسون ، الجميع فى مقام العبودية .

لذلك سينادى الحق سبحانه :﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ (١٦)﴾ [غافر] يقولها الحق سبحانه لأنه تعالى كان يُملِّك بعضنا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلا مُلْك إلا لله وحده ، لذلك يجيب على هذا السؤال المؤمن والكافر ، الجميع يقولون ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر] نعم لأنه لا إله غيره ولا ملك سواه .

ومعنى﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ (١٦)﴾ [غافر] أن المُلْك لله اليوم وقبل اليوم ، فهذه الحقيقة التى أنكرها الكفار فى الدنيا اعترف بها المؤمنون الذين رضوا بالله رباً ، يُؤتى الملك مَنْ يشاء ، وينزع المُلْك

---

(١) القيعة والقاع : أرض سهلة مطمئنة واسعة مستوية لا حزونة فيها ولا ارتفاع ولا انهباط ، وقيل : هو ما استوى من الأرض وصلب ولم يكن فيه نبات . [الزبيدى فى تاج العروس من جواهر القاموس . مادة : قوع] .

ممَّنْ يشاء ، ويُعز مَنْ يشاء ويُذلُّ مَنْ يشاء .

فكلمة ﴿الْيَوْمَ﴾ مُوجَّهة هنا إلى الكافرين الذين أنكروا هذه الحقيقة فى دنياهم ، لكنهم اعترفوا بها فى الآخرة فأقرّوا ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (١٧)﴾

﴿الْيَوْمَ﴾ يعنى : يوم القيامة ﴿تُجْزَىٰ﴾ تُحاسب ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (١٧)﴾ [غافر] قلنا : إن كسب تأتى للخير واكتسب للشر ، وعلماء اللغة يقولون : إن كل زيادة فى بنية الكلمة لابدَّ أن يقابلها زيادة فى المعنى ، لذلك كسب غير اكتسب . كسب على وزن فعل أىْ يأتى الفعل منك طبيعياً لا تكلّف فيه ، إنما اكتسب يعنى افتعل ففيه افتعال ومحاولة .

فالخير لا يحتاج منك إلى تعب ، على خلاف الشر فيحتاج إلى تعب ومشقة وتلصُّص ، يقول تعالى : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (٢٨٦)﴾ [البقرة] وقد أوضحنا هذه المسألة بالرجل الذى يجلس بين أهله وفيهم جميلات زوجته وبناته وخالاته وعماته .. الخ فينظر إلى هذا الجمال دون تكلُّف ولا تحرّج ، أمّا فى غير المحارم فإنه يختلس النظرة وينفعل لها ويحاول ألاّ يراه أحد .

كذلك نلحظ هذه المسألة فى المرأة تحمل من حلال والأخرى من الحرام ، وكيف أن الأولى تُدلّ بحملها وتتباهى به ، أما الأخرى

فتحاول جاهدة أنْ تُخفيه وأنْ تتخلص منه ، ففرحة الأولى وحسرة الأخرى هو الفرق بين الحلال والحرام .

كذلك الإنسان إذا أخذ شيئاً من بيته يأخذه علانية بلا تكلّف وبلا تخطيط ، إنما إنْ أراد أنْ يسرق من بيوت الآخرين فإنه يحتال لذلك ويخطط له ، إذن : نقول الحلال لا يُتعب صاحبه إنما الحرام هو الذى يتعب الدنيا كلها .

أما فى قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً .. (٨١) ﴾ [البقرة] فقد استعملت كسب هنا فى الشر ، فلماذا ؟ قالوا : هذا حين تصير السيئةُ عند صاحبها إلْفاً وعادة يفعلها بلا تكلُّف وبلا مشقة على نفسه وكأنها حسنة ، فلما تعوَّد عليها صارتْ فى حقه كسْباً لا اكتساباً ، وهذا الذى نسميه (الفاقد) أى : الذى تجرّأ على الحرام وألِفَ المعصية حتى صارتْ له عادة .

ومثل ذلك فى النظر فى قوله تعالى :﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ (١) الأَعْيُنِ (١٩) ﴾ [غافر] إذن : هناك خائنة أعين ، وهناك أمينة أعين ، أمينة أعين حين تنظر إلى الحلال ، وخائنة أعين حين تنظر إلى المحرم .

حتى فى الناحية الاقتصادية التى تحكم الشعوب وبها يُقاس تقدُّم الأمم ورُقيها نقول : الحلال لا يكلِّف إنما الذى يكلف الحرام - هذا من الناحية الاقتصادية - لأن الأصل فى الحلال ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا (٣١) ﴾ [الأعراف] وفى الحديث الشريف : « نحن قوم لا نأكل

---

(١) يعلم خائنة الأعين : قال المؤرج : فيه تقديم وتأخير أى يعلم الأعين الخائنة ، وقال ابن عباس : هو الرجل يكون جالساً مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها ، وعنه : هو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليه أصحابه غضَّ بصره ، فإذا رأى منهم غفلة تدسس بالنظر ، فإذا نظر إليه أصحابه غضَّ بصره ، وقد علم الله منه أنه يود لو نظر إلى عورتها. [تفسير القرطبى ٨/ ٥٩٥١] .

حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع »[1] .

ولو عشْنا على هذه الأصول لكفَانا القليل ، ولك أنْ تجرب نفسك فلا تأكل إلا على جوع ، وساعتها ستجد اللقمة لذيذة ولو كانت بملح، فكأن استقامتك على دين الله تُريحك وتسترك ولا تتعبك فى حركة الحياة ، ولا تحتاج منك لمزيد من العمل ولمزيد من المال .

كذلك إذا أكلنا لا نشبع ، وأنتم ترونْ الذى يأكل حتى التخمة وحتى يحتاج إلى مهضم ، فشقَّ على نفسه وكلفها فى الطعام وفى تصريف الطعام .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ (١٧) ﴾ [غافر] نعم لأن الحاكم فى هذا اليوم هو الله العدل المطلق ، وكأن الحق سبحانه يقول : الظلم عندكم أنتم أيها البشر ، فقد أمهلناكم فى الدنيا تربعون فيها بالظلم . يظلم القوى الضعيف ، ويظلم الغنى الفقير ، ويظلم الحاكم المحكومين إنما اليوم ﴿ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ (١٧) ﴾ [غافر] لقد وصل بكم الظلم فى الدنيا إلى غايته حين أشركتم بالله .

لذلك قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان] نعم ظلم بيِّنٌ واضح ؛ لأن الظلم معناه أنْ تأخذ حقَّ الغير لك ، أو تأخذ الحق من صاحبه وتعطيه لغير صاحبه ، وهذا هو ما حدث منكم حين أشركتم بالله فأخذتم منه سبحانه الألوهية ، وجعلتموها للأصنام .

الظلم يأتى من عدة وجوه . فمن الظلم أنْ تعمل خيراً ولا تجزى

---

(١) عن المقدام بن معد يكرب قال النبى ﷺ : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يُقمْنَ صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٢/٤) ، والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) وابن ماجه فى سننه (٣٣٤٩) .

به خيراً ، ومن الظلم أنْ تعمل الحسنة تستحق عليها عشرة فيعطيك خمسة ، ومن الظلم أن تعمل السيئة ولا تُحاسب عليها ، ومن الظلم ألاَّ تعمل سيئة وتُحاسب عليها .

إذن : كل اختلال فى موازين الملكية والنفعية من العمل تُعَد ظلماً ؛ لذلك قال تعالى فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، إنى حرمتُ الظلم على نفسى فلا تظالموا »[1].

كان هذا فى الدنيا ، أما فى القيامة فأنتم أمام الحاكم العادل وفى رحاب العدل المطلق الذى لا يُحابى أحداً على حساب أحد ، وليس له ولد ولا صاحبة فيميل عن الحق لأجلهما .

لذلك قلنا : إن الجن كانوا أصدق استقبالاً منا حين قال : ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ[2] رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ③﴾ [الجن] لأن معظم الفساد يأتى من هذين : الصاحبة والولد .

وقوله سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ⑰﴾ [غافر] إشارة إلى طلاقة قدرته تعالى فى الفصل بين الناس وفى مجازاتهم على أعمالهم ، وكأنه يقول لنا : إياكم أنْ تظنوا أن موقف الحساب يشقّ علينا ، أو أنه سيأخذ وقتاً طويلاً ، لا فعندنا حسابات أخرى ليس عندنا جلسة تطول ولا جلسة تتأجل .

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ⑰﴾ [غافر] لأن الله تعالى فعلَ فعْله بكُنْ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) وأحمد فى مسنده (٥/١٦٠) ، والبيهقى فى سننه الكبرى (٦/٩٣) والبخارى فى الأدب المفرد (ص١٧٢ ، ٤٩٠) من حديث أبى ذر رضى الله عنه ، ولفظه : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » .

(٢) قوله : ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ③﴾ [الجن] أى : أنه تعالت عظمة ربنا وتعالى مجد ربنا . [القاموس القويم ١/١١٨] .

لا يفعل بعلاج كما تفعلون ، والدليل على ذلك أن فى دنيا الناس آلاف وملايين القضاة يحكمون بين الناس بالحق فى آلاف وملايين البلاد فى وقت واحد فى بلاد مختلفة ومحاكم مختلفة ، والحق الذى يحكمون به ليس حقاً يتنقّل بين القضاة من قاض لآخر ، إنما هو موهبة ذابتْ فى نفوسهم جميعاً وصبغة صبغتْ أحكامهم جميعاً .

فإذا كان المخلوق لله وهو الحق يمكنه أنْ يستولى على نفوس القضاة فى مختلف الأرض فى وقت واحد ، فالذى خلق هذا الحق أوْلَى بأنْ يحكم بين الخلائق فى وقت واحد .

لذلك لما سُئل الإمام على رضى الله عنه هذه المسألة : كيف يُحَاسب الناس فى وقت واحد على كثرتهم ؟ قال : كما يرزقهم جميعاً فى وقت واحد[1] .

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾

قلنا : الإنذار هو الإخبار والتحذير من الشر قبل وقوعه و (الآزفة) من أزف الشىء يعنى : دنا وقرب ، والمراد بيوم الآزفة الموت لأنه يأتى بغتةً ، لا يعلم أحد موعده ، أو هو يوم القيامة[2] ، وهو أيضاً قريب لأن الله تعالى يقول فيه : ﴿**أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ** .. ﴿١﴾﴾ [النحل] فجاء بالفعل الماضى (أتى) للدلالة على تحقّق وقرب وقوعه ، لأن كل آتٍ قريب .

---

(١) ذكر ابن عبد البر القرطبى فى كتابه « بهجة المجالس » : « قيل لعلى بن أبى طالب : كيف يحاسب الله العباد على كثرتهم ؟ قال : كما قسَّم بينهم أرزاقهم » .

(٢) تفسير الآزفة بأنه يوم القيامة ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/٧٥) والقرطبى فى تفسيره (٨/٥٩٥٠) .

فى هذا اليـوم يوم الآزفة ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ.. (١٨)﴾ [غافر] تخيل أن القلب انخلع من مكانه فـى الصدر ، وخرج من حَيِّزه حتى وصل الحناجر حتـى كتم الأنفاس من شدة الهول والبؤس والشقـاء والضيق ، كما قـال سبحانه فى مـوضع آخر : ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ(١) وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠)﴾ [الأحزاب]

ومعنى ﴿كَاظِمِينَ.. (١٨)﴾ [غافر] الكظم أنْ تحاول كتم الشىء فى داخلك بحيث لا يخرج ، ومنه كَظْم القِرْبة إذا انخرقت حتى لا يتسرب منهـا الماء بأنْ تربط مكان الخُـرْق وتُحكم رباطه ، ومنه كَظْم الغـيظ حتى تتحكم فى غيظك وتكتمه فى نفسك ولا تُنْفذه ، كما قال تعالى :

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .. (١٣٤)﴾ [آل عمران] فهذا ترقٍّ فى مراتب العـمل الصالح ، أولهـا كظم الغيظ ، وأحسن منـه التخلص من الغيظ بالعفو ، وأحسن منه ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران]

وقوله : ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨)﴾ [غافر] هذا ساعة يجمع الله الظالمين معاً فى جـهنم والعياذ بالله ، هؤلاء اجتمعوا فى الدنيـا على معصـية الله ، وسـاروا فيهـا على هواهم ، والآن فى الآخرة يفـرّ بعضـهم من بعض ويهـرب المتبـوع من تابعه ، كمـا قال سبحانه : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ [عبس]

كذلك لا يجدون شـفيعاً يشـفع لهم ولا يدافع عنهم ، وقد أوضح

---

(١) زاغ البـصر : اضطرب ولم يحـقق ما يرى ، أو انحـرف عن القصـد فلم ير شـيئـاً . وقد وصف الله فزع بعـض النـاس فى المدينـة حـين أحـاطـت بهم الأعداء فى غزوة الأحزاب : ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ (١٠)﴾ [الأحزاب]

الحق سبحانه أن هؤلاء الشفعاء ورؤساء القوم وأئمة الكفر سيسبقون أتباعهم إلى جهنم ، فإذا دخلوا وجدوهم قد سبقوهم إليها ، فيكون ذلك أقطع لأملهم في النجاة وأشدّ لحسرتهم ، لذلك قال تعالى عن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) ﴾ [هود]

ومعنى (الحميم) أى : الصديق الحميم ، وهو الذى يخلص لك ويحميك حين يُراد بك الضر ويقف بجانبك وقت الشدة ، الظالم فى الآخرة لا يجد هذا الصديق ولا يجد مَنْ يشفع له ، فأصدقاؤهم فرُّوا منهم لأنهم اجتمعوا فى الدنيا على المعصية .

والله يقول : ﴿ الأَخِلاَّءُ(١) يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف] أى : يوم القيامة حيث يتبرأ كل منهم من صاحبه ويلقى عليه باللائمة ويكرهه ﴿ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) ﴾ [غافر] حتى إنْ قام للظالم شفيع يشفع له لا يطاع ، لأن الشفاعة فى الآخرة لها شروط : أنْ يأذن اللهُ للشافع أنْ يشفع ، وأنْ يرضى الله عن المشفوع له ، والله لا يأذن فى الشفاعة لظالم ولا يرضى عنه .

لذلك لا تُقبل مثل هذه الشفاعة ، ولا يُطاع صاحبها لأنه يطلب من الله الذى يملك العذاب أنْ يطيعه وأنْ يعفو عن المشفوع له ، فكيف ينقلب الحق سبحانه مطيعاً لعبده ؟

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) ﴾

(١) الأخلاء : جمع خليل ، وهو الصديق المخلص . [القاموس القويم ١/٢٠٨] والخلة : الصداقة . قال الزجاج : الخليل المحب الذى ليس فى محبته خلل . [لسان العرب - مادة : خلل] من هنا جاء إعجاز الآية المتحدثة عن شدة يوم القيامة التى تجعل الصديق المخلص المحب الذى ليست فى محبته خلل لصاحبه إلا أنه يوم القيامة لن يتخلى وينشغل عن خليله فحسب ، بل سيكون له عدواً .

يعنى : اعلموا أن علْمَ الله شامل ولا يخفى عليه شىء مهما دَقَّ ، فإنْ عمَّيتم على خلق الله فى الدنيا واختلستُم النظرات فيما لا يحل لكم فاعلموا أنكم لا تخفَوْنَ على الله ، ولو أيقن المؤمن بشمول علم الله وبنظره إليه ما كانت له خائنة أعين .

لذلك رأينا القاضى وهو يحكم بين الناس ويتحرَّى العدل فى حكمه وجد بحاسة الحق عنده أنَّ الشهود يشهدون زوراً ، لكن ماذا يفعل وهم متفقون فى أقوالهم جميعاً مهما حاورهم وقلّب لهم المواقف ليكشف زيفهم وباطلهم وجدهم على لسان واحد ؟ ذلك لأن المحامى مثلاً حفّظهم الجواب ، فماذا يفعل ؟ غضب وانفعل للحق الذى يحكم به وقال كلمة هزَّتْ الشهود جميعاً ، وجعلتهم ينطقون بالحق قال لهم : والله لو عميتم على قضاء الأرض فلن تُعمُّوا على قضاء السماء . كلمة أنطقه الله بها ، فأعادتْ إليهم رشدهم وهزَّتهم من الأعماق ، فرجعوا إلى الحق .

وقوله : ﴿ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ ⟨١٩⟩ ﴾ [غافر] يعنى : علم سبحانه مكنونات الصدور وخباياها ، وهذه لا يعلمها إلا الله .

﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ⟨٢٠⟩ ﴾

معنى : ﴿ يَقْضِى .. ⟨٢٠⟩ ﴾ [غافر] أى : يحكم بالحق ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونه ⟨٢٠⟩ ﴾ [غافر] أى : الأصنام وغيرها مما عبدوه من دون الله ﴿ لا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ .. ⟨٢٠⟩ ﴾ [غافر] لا يحكمون بشىء ، فليس لهم مركز فى القضاء أبداً ولا حتى فى الظلم ، ليس لهم أهلية لأنْ يقضوا ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ⟨٢٠⟩ ﴾ [غافر]. السميع لكل قول

خارج عن منهجه ، العليم بكل فعل يخرج عن منهجه المشاهد لكل شيء .

فالحق سبحانه وتعالى يكون هو الشاهد وهو القاضى والحاكم وهو المنفذ ، فإذا كانت السلطات عندكم متعددة فى الدنيا ، فالسلطة فى الآخرة لله وحده لا شريكَ له .

بعد ذلك يقول سبحانه : ما بال هؤلاء الكفار الذين يعاندون الدعوة ويصادمون الرسول الذى أرسله الله لهم رحمة ، ألم ينظروا فى تاريخ سابقيهم من الأمم التى كذَّبت وما جرى لهم من العقوبة ، وما حَلَّ بهم من هلاك يرونْ هم آثاره .

لقد سجَّل الحق سبحانه على نفسه ، فقال : ﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢)** ﴾ [الصافات]

نعلم أن الإنسان يحفظ السند الذى له ولا يحفظ الذى عليه ، أما الحق سبحانه فحفظ وسجَّل هذا الوعد عليه سبحانه ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)** ﴾ [الحجر] فالحق سبحانه ضمن لرسله النصرة والتأييد ، وما كان سبحانه وتعالى ليقول كلمة ويأتى واقع الحياة ليكذِّبها . إذن : فنُصرة الرسل سُنة من سُنَن الله فى كونه ، يقول سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ


مِن وَاقٍ (٢١) ﴾

يعنى : ألم يقفوا موقف المشاهد لآثار الأمم المكذِّبة وهم يمرون بهم فى رحلة الشتاء والصيف ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات] ألم تروا مدائن صالح[1] وقرى عاد وثمود وغيرهم ممَّنْ كذَّب الرسل ؟

إن آثارهم تدل على أَخْذ الله لهم ، وعلى العقاب الذى نزل بهم فخذوا منهم عبرةً ، واعلموا أن مصيركم كمصيرهم ، ولن تُعجزوا الله فى ذلك ، لأن هذه الأمم التى أخذها الله كانت أشدَّ منكم قوة وآثاراً فى الأرض ، أأنتم أشد من إرم ذات العماد ، وفرعون ذى الأوتاد .. أين هم الآن ؟ هل استطاعوا رغم حضارتهم حماية هذه الحضارة ؟ إن قوتهم وحضاراتهم لم تُغْنِ عنهم من الله شيئاً ، ونزل بهم عذاب الله فى الدنيا قبل عذاب الآخرة ولم يمهلهم .

لذلك قال سبحانه لرسوله : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر] يعنى : إذا لم تَرَ ما نعدهم من العذاب فى الدنيا ومتَّ قبلهم فسوف ترى عذابهم فى الآخرة . كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١)﴾ [السجدة]

والحق سبحانه يريد من سَيْرنا فى الأرض أمرين : سياحة فى الأرض للاعتبار وأَخْذ العظة ، وسياحة للانتفاع والاستثمار ، إذن : فالسياحة فى الأرض والسير فيها مطلوب إيمانى ، لذلك قال تعالى

---

(١) مدائن صالح : هو اسم أطلق على الحجر التى هى ديار ثمود ، وهو ما جاء فى القرآن الكريم : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠)﴾ [الحجر] وهى تقع شمال المدينة المنورة على مساحة ٢٥ كيلومتراً تتكون من تكتلات جبلية متباينة الحجم مع قصور منحوتة بدقة هندسية يصل عددها إلى ٨٠ . والبعض يرجع هذه المنطقة للأنباط والداديين وليس إلى الثموديين .

فى سياحة الاعتبار : ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ (٢١)﴾ [غافر] وقال فى سياحة الاستثمار : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ .. (٢٠)﴾ [العنكبوت]

وقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧)﴾ [النساء]

إذن : لا مانع أن تجمع فى سَيْرك فى أرض الله بين سياحة الاعتبار وسياحة الاستثمار والانتفاع ، فلا تحرم نفسك من نظرة الاعتبار فى خَلْق الله الجديد عليك ، ولا تُلهِكَ التجارة والاستثمار عن الاعتبار .

وهنا ملحظ فى قوله تعالى : ﴿فِي الأَرْضِ ..(٢١)﴾ [غافر] هذا الملحظ أخذناه من العلم الحديث أخيراً ، فقد كان العلماء يفسرون ﴿فِي الأَرْضِ .. (٢١)﴾ [غافر] على الأرض أى : الأرض والتربة التى نمشى عليها ، إلى أن عرفنا مؤخراً أن الأرض تشمل غلافها الجوى ، فهذا الهواء الذى فوق الأرض هو العنصر الأساسى والضرورى لاستمرار الحياة عليها ، وبدونه لا تكون على الأرض حياة ، لأن الإنسان لا يستغنى عنه بمقدار شهيق أو زفير ، وعليه فنحن نسير فى الأرض كما جاء نصّ القرآن الذى سبق العلم الحديث إلى هذه الحقيقة .

وحين تسير فى أرض الله للاعتبار بمخلوقات الله ترى ألواناً شتى لم تَرَها من قبل من الناس والأماكن والمزروعات والنعم التى لا تُحصى ، وتعلم أن الخالق سبحانه يعطى لكل مكان ما يناسبه ، ولكل بيئة ما يصلح لها من الغذاء ، لذلك تجد بعض المزروعات تجود فى أماكن دون أخرى ، فبيئة يكثر فيها الموز مثلاً ، وأخرى يكثر فيها البطاطس ، وأخرى القمح .

لذلك قال البعض : إن كثرة الأمراض وتعدّيها من بيئة لأخرى منشؤه أن الناس يعيشون على غير أقوات بيئتهم ، فسكان البيئات الحارة يستوردون أقوات البيئات الباردة والعكس ، ومن هذا الخلط نشأتْ الأمراض .

وقوله : ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ .. (٢١) ﴾ [غافر] أى : عاقبة تكذيبهم الرسل ووقوفهم أمام الدعوة ليُطفئوا نور الله بأفواههم ، فأخذهم الله ولم تمنعهم منه قوتهم ولا آثارهم فى الأرض ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ﴾ [غافر] يعنى : لم يقهم من الله وَاق ، ولم يدافع عنهم مدافع ، ولم تُغْن عنهم حضاراتهم ، لأنهم حينَ أقاموا هذه الحضارات لم يجعلوا لها قانوناً يصونها .

ثم يُعلِّل الحق سبحانه لأخْذهم أخْذ عزيز مقتدر :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) ﴾

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ .. (٢٢) ﴾ [غافر] بالآيات الواضحات وبالمعجزات الباهرات الدالة على صدق الرسول ، والآيات التى عجزوا هم عن مثلها رغم أنها كانت مما نبغوا فيه ، وقد كانت هذه الآياتُ كافيةً لأنْ يؤمنوا بالله وبرسول الله إليهم الذى جاء لهدايتهم ، لكنهم كفروا ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ .. (٢٢) ﴾ [غافر] وكلمة (أخذهم) تدل على التناول بقوة ﴿ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) ﴾ [غافر]

ولا شكَّ أن الأَخْذ يتناسب وقوة الآخذ فأَخْذة الطفل غير أَخْذة الشاب غير أَخْذة الفتوة ، فما بالك إنْ كان الآخذ هو الله القوى شديد العقاب ، إذا كان الله سبحانه هو الآخذ فلا قوة لمأخوذ على المكابرة أو الامتناع .

لذلك قال فى موضع آخر : ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) ﴾ [القمر] هذه هى القوة العليا ، فالعزيز هو الذى يَغلب ولا يُغلب ، والمقتدر هو القادر على كل شيء ، والذى لا يعجزه شيء .

ثم يقصُّ الحق سبحانه بعض قصص الرسل ممَّنْ كُذِّبوا وأُوذُوا ، وهنا يقص علينا طرفاً من قصة سيدنا موسى عليه السلام :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ (٢٥) ﴾

الحق سبحانه يذكر هنا قصة سيدنا موسى عليه السلام لأنها امتازت على قصص الرسل السابقين له ، من حيث إنهم جاءوا ليشفوا الناس من بعض الأمراض العقدية ، ويخرجوهم من جاهلية افعل ولا تفعل ، ويعيدوهم إلى الجادة ، أمَّا سيدنا موسى فقد جاء ليجابه رجلاً ادعى الألوهية وتكبَّر وتجبَّر فكانت مهمته أصعب ، لذلك كان أكثر الرسل قصصاً فى القرآن الكريم .

قوله تعالى : ﴿ بِآيَاتِنَا .. (٢٣) ﴾ [غافر] المراد الآيات الواضحات التسع التى أُوتيها موسى عليه السلام ، تأييداً له وبرهاناً على صدْق رسالته وأولها العصا ، وللعصا فى قصة سيدنا موسى تاريخ

ومواقف ، فبها ضرب البحر فصار كل فرْق كالطود[1] العظيم بها انفلق البحر وتجمد الماء ، وبنفس العصا ضَربَ الحجر فانفجرتْ منه اثنتا عشرة عيناً ، إذن : المسألة ليست فى الماء والجبل ، إنما معجزة خالق الماء وخالق الجبل الذى يقول للشيء : كُنْ فيكون .

لذلك وقف المستشرقون عند قصة سيدنا موسى ، ورأوا أنها أخذتْ النصيب الأوفر بين موكب الرسالات وفصَّلها القرآن تفصيلاً ظنوه تكراراً معاداً ، خاصة فى مسألة العصا ، حيث ذُكرت فى ثلاثة مواقف ، هى فى الحقيقة ليست تكراراً إنما هى لقطات مختلفة لحدث متجمع ، فأول ما أعطى الله موسى العصا معجزةً سأله عنها : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[2] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ[3] أُخْرَىٰ (١٨) ﴾ [طه]

وقلنا : إن موسى لم يرد على قدر السؤال لأن الذى يسأله ربه فأراد أنْ يطيل أمَد الحديث مع ربه عز وجل ، فلم يَقُلْ عصا أو عصاى . فلما أحسَّ أنه أطال أجمل وقال : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) ﴾ [طه]

الموقف الثانى الذى ذُكرت فيه العصا لما أراد الحق سبحانه أن يدرب موسى على استخدامها ، وأنْ يجربها هو بنفسه ليكون على استعداد ودُرْبة حينما يواجه مُدَّعى الألوهية فرعون فقال له : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ

---

(١) الطود : الجبل الثابت العالى . [القاموس القويم ١/٤٠٨] والانطياد : الذهاب فى الهواء صعداً . ومنه المنطاد الذى يرتفع فى السماء ، والجبل أيضاً يرتفع فى السماء .

(٢) أهش بها على غنمى : قال الفراء : أى أضرب بها الشجر اليابس ليسقط ورقها فترعاه غنمه . أما الليث فقال : هو جذب الغصن من الشجر إليك . والقول ما قاله الفراء لا ما قاله الليث . [لسان العرب - مادة : هشش] .

(٣) مآرب أخرى : أى أغراض وحاجات كثيرة أخرى كاتقاء ضر أو غير ذلك . [القاموس القويم ١/١٧] .

سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ (٢١) ﴾ [طه]

هذا هو المطلوب من إجراء هذه التجربة أمام موسى ، أن يخاف منها ، وأنْ يراها على حقيقتها وهى حية ، ولو أنها ظلتْ على حالتها عصا ما خاف منها موسى ، ولما قال له ربه ﴿ وَلا تَخَفْ .. (٢١) ﴾[طه]

ثم كان الموقف الأخير للعصا حين التقى موسى بسحرة فرعون وفى حضرته حين جابه سِحْرهم بعصاه التى ألقاها فراحتْ تلقف ما صنعوا ، وعن هذا الموقف قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَـٰمُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ[1] فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ (٦٨) ﴾ [طه]

إذن : ليس فى ذكر عصا موسى تكرار ، إنما هى مواقف مختلفة وحالات عدَّة للشىء الواحد .

وقوله ﴿ وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) ﴾ [غافر] السلطان هو الحجة الواضحة ، والسلطان هو القوة ، إما قوة البرهان والحجة ، وإما قوة القهر والغلبة ، كما ورد فى حوار الشيطان يوم القيامة : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

يعنى : لم يكن لى سلطان حجة تقنعكم ، ولا سلطان قهر وقوة ترهبكم وتجبركم على المعصية ، بل كنتم على (تشويرة) مجرد أن

---

(١) أوجس : أضمر الخوف فى نفسه حين رأى أعمال السحرة . وقال فى قصة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. (٢٨) ﴾ [الذاريات] أى : أحسَّ الفزع والخوف . [القاموس القويم ١/ ٣٢١] .

دعوتكم استجبتم ﴿فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم] نقول : صرخ فلان فأصرختُه يعني : أزلتُ أسباب صراخه .

وقوله : ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ .. (٢٤)﴾ [غافر] نعم كان فرعون هو رأس الفتنة ومُدَّعي الألوهية ، لكن ذكر معه هامان لأنه كان وزيره ومساعده ، وقارون لأنه كان صاحبَ خزانته ، فكان الثلاثة شركاء ، لذلك اشتركوا أيضاً في اتهام موسى ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤)﴾ [غافر]

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا .. (٢٥)﴾ [غافر] أي : بالآيات ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. (٢٥)﴾ [غافر] مسألة قَتْل الأبناء جاءت من فرعون مرتين : الأولى : أيام كان موسى طفلاً ، وعلم فرعون من المنجِّمين أن زوال ملْكه سيكون على يد أحد أبناء بني إسرائيل ، فأخذ يقتل الأبناء الصغار مخافةَ هذا الولد الذي سيُولد ويزول مُلكه على يديه .

والعجيب أن نرى هنا غباء فرعون وتغفيله في قتل أبناء بني إسرائيل وحرصه على ألاَّ يفلت منهم أحدٌ ، حتى أن رجاله كانوا يدخلون البيوت يبحثون فيها عن الأطفال الصغار .

وقد أظهر هذا الموقف غباءه من ناحيتين ، أولاً : أنه يقتل الأبناء الصغار مع أن النبوءة تقول : إن زوال مُلْكه سيكون على يد واحد منهم ، ثم يأتيه غلام بهذه الطريقة المريبة : صندوق في البحر بداخله غلام صغير جاءه إلى باب بيته ، فيطمئن إليه ويأخذه ويُربِّيه على عينه ويغفل عما يُراد به .

وهذا الموقف يوضحه قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ[1] بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال] نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يُقلِّبها كيف يشاء .

وقوله : ﴿ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ .. (٢٥) ﴾ [غافر] أى : اقتلوا الأبناء الذكور ، لأنهم مصدر الخوف ، ومنهم يكون التمرد ، ومنهم مَنْ يزول مُلْك فرعون على يديه ، أمَّا النساء فاتركوهن أحياء للخدمة وللإذلال .

وهذا يفسر لنا : لماذا كان العرب إذا خرجوا للحرب أخذوا معهم نساءهم ، لكى يكُنَّ معهم فى مصير واحد ، فإنِ انتصروا عادوا سالمين ، وإنْ قُتلوا قُتلوا جميعاً حتى لا يبقى النساء بعدهم للأَسْر والسَّبى والإذلال .

﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِى ضَلالٍ (٢٥) ﴾ [غافر] نعم كان هذا كيداً من فرعون وأعوانه ، لكن هل أنفذ كيده ببنى إسرائيل ؟ لا بل ردَّ الله كيده عليه وباء بالضلال والخسران .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ (٢٦) ﴾

قول فرعون ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ .. (٢٦) ﴾ [غافر] يعنى : اتركونى أقتله (سيبونى عليه) دَلَّ على وجود تيار من القوم يمنع فرعون من قَتْل موسى ، وإلا لما قال (ذَرُونى) فمَنْ هؤلاء ؟ ربما كانوا من أتباع

---

(١) قال ابن عباس : يحول بين المؤمن والكفر ، وبين الكافر والإيمان . وقال السدى : يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه . [تفسير ابن كثير ٢٩٨/٢] .

فرعون المؤمنين بصدق موسى ، وبما جاء به ، فأحبُّوا أنْ يدافعوا عنه بطريقة لا تثير شكَّ فرعون ، فاحتالوا عليه .

وهذا دليل على أن أصحاب الخير يجوز لهم أنْ يحتالوا على أهل الشر لنصرة الخير وأن الله يعينهم . جاء هؤلاء وقالوا لفرعون : إنْ قتلتَ موسى سيقول الناس أنه على حق ، وأنك لم تقدر على رَدِّ حجته فقتلته لتستريح منه ، وعندها سيقفون ضدك .

ومن هؤلاء المدافعين عن موسى الرجل المؤمن من آل فرعون الذى كان يكتم إيمانه خوفاً من بطش فرعون ، والذى دافع عن موسى دفاعاً قوياً وقدَّم الحجج ، فقال : ﴿ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ .. (٢٨) ﴾ [غافر]

وتأمل هنا سُخْرية فرعون واستهزائه ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ .. (٢٦) ﴾ [غافر] أى : ربه الذى يدعو إليه لينادیه كى ينقذه ولو لم يكُنْ مستهزئاً لقال : وليدْع ربَّنا ﴿ إِنِّى أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) ﴾ [غافر] سبحان الله انظر كيف يحاول أهل الباطل قَلْب الحقائق ، ففرعون يخاف من موسى أنْ يُبدِّل دين قومه ودينهم هو الإيمان بفرعون إلهاً لهم يعبدونه من دون الله .

﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) ﴾ [غافر] ينشأ الفساد من أين ؟ من وجود فريقين فى المجتمع : فريق يؤمن بفرعون إلهاً ، وفريق يؤمن بموسى وربه الحق ، فالرعية كلها فى شقاق ونزاع ، وأصحاب مراكز القوى المستفيدون من ألوهية فرعون لن يسكتوا ، ولا شكَّ أن هذه فتنة ستُحدثُ فساداً فى نظره .

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

هنا يؤكد موسى على ربوبية الحق سبحانه بعد أنْ هدده فرعون بالقتل ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ .. ﴿٢٦﴾﴾ [غافر] ثم استهزأ بربه ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ .. ﴿٢٦﴾﴾ [غافر] لذلك جاء ردّ موسى (إنِّى) وفيها تأكيد واستحضار لعبوديته أمام عِزِّ الربوبية التى يستهزىء بها فرعون ، فلما يقُلْ مثلاً : أعوذ بالله من فعلك ، إنما أكد أن الله ربه بل ﴿وَرَبِّكُمْ﴾ أيضاً .

ومعنى ﴿عُذْتُ .. ﴿٢٧﴾﴾ [غافر] أى : لجأتُ إليه وهو القادر على نُصْرتى وحمايتى ، فقوله ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي .. ﴿٢٧﴾﴾ [غافر] يبين لنا منزلة الاستعاذة بالله ، فالإنسان حين يستعيذ بالله من شىء لا يَقْوَى عليه فقد أفاض وأنصف ، لأنه سلط على مَنْ آذاه وليستْ له قدرة على أنْ يردَّه ، سلَّط عليه مَنْ يقدر على أنْ يفعل .

لذلك قال سبحانه : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل]

لماذا ؟ لأنك حين تقرأ القرآن تنفعل به ، وتكون معه فى حضرة الله يكلمك وأنت تسمع ، وحين تنفعل بالقرآن وتتدبر معانيه تحدث عندك إشراقات ومواجيد ترقى بك ، وهذا كله يغيظ الشيطان فيسارع إليك ليصرفك عن القراءة ، كما يحدث لنا كثيراً فى الصلاة مثلاً ، ويشكو الكثيرون منا من الانشغال فى الصلاة بسبب وسوسة الشيطان .

لكن لا عجبَ فى ذلك إذا تأملنا قوله تعالى يحكى لنا موقف الشيطان منا : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] نعم ، وأىّ صراط أقوم من الصلاة وقراءة القرآن ، لذلك قلنا : إن الشيطان ليس فى حاجة لأنْ يذهب إلى الخمارة مثلاً ، إنما يذهب إلى المسجد ليفسد عليك صلاتك ويشغلك عن منهج الهداية ، لذلك أمرك الله بالاستعاذة منه ليكون لك حصناً ووقاية .

هنا يقول موسى عليه السلام : إنى أعوذ بالله منك يا فرعون وهو أقوى منك وقادر على حمايتى من كيدك ، فهو (ربى) أى : الذى خلقنى وربَّانى وأنا مسئول منه ، فهو أوجدنى بقدرته ويصوننى بقيوميته ، ألاَ ترى أن كلَّ صانع يحفظ صنعته ، ويجعل لها ضماناً للصيانة ؟

أليس الخالق سبحانه أَوْلى بأنْ يضمن لى حياتى التى خلقها ؟ بلى بشرط أنْ تقولها : (عُذْتُ بِرَبِّى) .

وكان يكفى أنْ يقول (إنِّى عُذْتُ بِرَبِّى) فلماذا قال (وَرَبِّكُمْ) ؟ قالوا : ليؤكد على ربوبية ربه عز وجل ، ويؤكد سعادته بهذه الربوبية ، فهو ربى وربُّ الآخرين وربكم جميعاً ليقولوها معه : إنَّا عُذْنا بربنا من فرعون وعمله ، وكأنه يريد أن يستجمع قُوىَ الخير والإيمان ويُقوِّى جانبه بالجماعة المؤمنة ، ليكون الدعاء أدْعَى للقبول وأَوْلى .

هذه المسألة تفسر لنا أهمية الجماعة وروح الجماعة فى الإسلام ، إننا مثلاً فى الصلاة نقرأ بفاتحة الكتاب ، نقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ﴾ [الفاتحة] هكذا بالجمع ، فلماذا لم يَقُلْ : إياك أعبد وإياك

أستعين . لأن دعاء الجماعة أقوى ، الجماعة تُدخلك فى زمرة الصالحين ، فإذا لم تكُنْ صالحاً فجاور الصالحين لعله ينالك ما ينالهم من الثواب والقبول . لذلك احذر أنْ تحتقر أهل التقوى وأهل الصلاح ، فلعلَّك تُؤخذ فى محضِ الفضل معهم .

إذن : دعاء الجماعة أَوْلَى بالقبول من دعاء الفرد ، لذلك كانت صلاة الجماعة تفوق صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة[1] ، أنت ترى التاجر مثلاً يبيع السلعة فيها المعطوبة وفيها السليمة ، فإذا ناقشته وقلتَ له لا آخذ المعطوبة مثلاً يقول لك : هذه صفقة واحدة المعطوبة فى السليمة ، كذلك نحن فى صلاة الجماعة نداري المعطوبة فى السليمة أملاً فى أنْ تُقبل الصفقة كلها .

فمن أيِّ شيء استعاذ سيدنا موسى ؟ ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾ [غافر] هكذا بصيغة الجمع وبالوصف ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ .. (٢٧)﴾ [غافر] ولم يصرح باسم خصمه فرعون صاحب القضية ومُدَّعى الألوهية ومهدده بالقتل ، فلماذا ؟

قالوا : لم يُذكر فرعون فى هذا المقام لأمرين :

الأول : حتى لا يجعل فرعون فى مقابل الله لو قال : إنى عُذْتُ بربى من فرعون ، ثم إن فرعون لم يكُنْ وحده ، بل كان معه آخرون على شاكلته ، فأراد أنْ يجمعهم بكلمة تشمل كل متكبر .

---

(١) عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٦٥٠) .

الأمر الآخر : أن سيدنا موسى هنا يراعى حقَّ التربية ويحفظ لفرعون هذا الجميل فلم يصرح باسمه ، ويكفى أنه داخلٌ ضمن هذا الوصف ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾ [غافر]

لذلك نجد القرآن الكريم جعل التربية شقيقة الولادة ، يعنى الابن فى الدم مثل الابن فى التربية ، فقال سبحانه : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ .. (١٤)﴾ [لقمان] ثم خصَّ الأم بالحيثية ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا[1] عَلَىٰ وَهْنٍ .. (١٤)﴾ [لقمان] لماذا يذكر القرآنُ هذه الحيثية للأم ؟

قالوا : لأن هذه الحيثية لا يدركها الولد وهو طفل ، فى حين يدرك بعد ذلك فضلَ والده فذكَّره الله بفضل أمه لأنه لم يشهده ، ثم يقول سبحانه : ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء] فعلَّة الدعاء هنا التربية ، سواء أكانت للأم التى ولدت ، أم للأم التى ربَّتْ ، فمن ربَّى غير ولده كان أهلاً لأنْ يدعى له هذا الدعاء ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾ [غافر] يعنى : اجتمعتْ فيه خَصْلتان من خصال الشر ، فهو متكبر يعنى قاسى القلب ، وقسوة القلب لا تردعه عن القهر والجبروت ، ثم هو لا يؤمن بالحساب فلا يخاف من القصاص ، ولا يعمل حساباً للعواقب ، ومثل هذا لا أملَ فى إصلاحه .

---

(١) الوهن : الضعف . أى : ضعفاً على ضعف ، فالضعف يتزايد كلما ثقل الحمل . [القاموس القويم ٢/٣٦٢] .

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ(١) مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) ﴾

لما لجأ موسى عليه السلام إلى ربه عز وجل فقال : ﴿ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى .. (٢٧) ﴾ [غافر] استجاب الله له وأعاذه ، لا برسول ولا ملك ولا بأحد من أتباعه المؤمنين ، إنما برجل مؤمن من آل فرعون كان يكتم إيمانه خوفاً من بطش فرعون قام مدافعاً عن موسى ، وهذا أوضح فى الحجة وأبلغ .

لكن لماذا ﴿ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ .. (٢٨) ﴾ [غافر] ما دام مؤمناً ؟ قالوا : كانوا يغلفون إيمانهم ويسترونه لأنه ليس لديهم القوة التى يَدْفعون بها الطغيان ، فالإيمان فى النفس حتى يجد الفرصة فيظهر ويجاهر ، وها هو يظهر على لسان هذا الرجل المؤمن الذى يعلن أمام فرعون وجبروته أنه مؤمن ، ويدعو بدعوة هى أشبه بدعوة الرسل ، ويخبر بمنهج كأنه رسول .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٧٧) : « المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً (أى مصرياً) من أهل فرعون . قال السدى : كان ابن عم فرعون ويقال : إنه الذى نجا مع موسى عليه السلام . واختاره ابن جرير ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه وكف عن قتل موسى عليه السلام ، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل بالعقوبة لأنه منهم » .

وكلمة ﴿ يَكْتُمُ إيمَانَهُ .. (٢٨) ﴾ [غافر] لها فى الإسلام ملحظ وتاريخ ، ومعنى كَتْم الإيمان أن الإيمان يحاول أنْ يبرز فى تصرفات الرجل لكنه يكتم إيمانه ، فهو حريص على أنْ يجعل إيمانه سراً بينه وبين ربه فقط ليستطيع أن يقول كلمة الحق ويجهر بها أمام القوم وهو غير مؤمن حتى لا يُؤذَى .

إذن : فالإيمان عمل وجدانى له نضح على جميع جوارح النفس الإنسانية ، فالمؤمن تجده متواضعاً منكسراً يستجيب للحق ويخضع له ، المؤمن عطوف كريم حليم رحيم ، تلحظ إيمانه من تصرفاته ، ولكنه يحاول أن يكتم هذا حتى يقف الموقف الذى يمكنه من الجهر بالإسلام جهراً قوياً عنيفاً .

لذلك يقولون : إن الإيمان عملية قلبية وهو سرٌّ بين العبد وربه ، ثم له أمر ظاهرى بين المؤمن والناس ، وقد يلتحم الأمران السر والجهر بينه وبين ربه ، وبينه وبين الناس ، فقد يكون مؤمناً بينه وبين الله أما بينه وبين الناس فهو مؤمن أو غير مؤمن ، لأن العملية الإيمانية يُبدى فيها فوق ما يظهر إيمانه ، والرسول ﷺ شرع هذا ، كيف ؟

قالوا : فى غزوة الأحزاب حين اجتمعتْ قريش وغطفان[1] واليهود ، حيث استدرج اليهود كلاً من قريش وغطفان ليحاربوا معهم محمداً ليثأروا منه ﷺ بعد مسألة بنى قينقاع[2] لما آذاهم رسول الله .

---

(١) غطفان : قبيلة ضخمة تنتمى إلى غطفان بن سعد بن قيس عيلان إلى عدنان ، شكلت فى العهد الجاهلى والإسلامى كتلة مهمة ضمن القبائل القيسية التى بسطت سيطرتها على البوادى العربية ، انتقل الكثير من القبائل الغطفانية إلى مصر ويتركزون فى ليبيا ومنهم فى فلسطين فى جبال نابلس وكذلك العراق (ويكيبيديا) .

(٢) كان بنو قينقاع أول يهود ينقضون ما بينهم وبين رسول الله ﷺ فحاربوا رسول الله بين بدر وأحد ، فحاصرهم رسول الله حتى نزلوا على حكمه ﷺ . (دلائل النبوة ٣/١٧٤) ثم كانت غزوة بنى النضير وكانت قبل أُحد فقد رفضوا معاهدة رسول الله ﷺ فقاتلهم حتى نزلوا أن يجلوا عن ديارهم ولهم ما حملت إبلهم من الأمتعة وأبواب بيوتهم وخشبها . [دلائل النبوة ٣/١٧٩] .

فلما ذهب حيى[1] ومعه سلام بن مشكم[2] إلى مكة ليستثيروا قريشاً وغطفان على رسول الله ، قال لهم : يجب أن نقف جميعاً يداً واحدة فى مواجهة محمد ، لأننا إنْ تركناه سيستذلنا ويستذلكم ، فلا بُدَّ أنْ تنجدونا بقوتكم ، لكن قريشاً يعلمون أن اليهود أهلُ كتاب ، فقالوا لهم : نريد أنْ نسألكم أولاً : أمحمد على حق أم نحن ؟

وهم يعلمون موقف اليهود من قبل من رسول الله ، وأنهم كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، ويقولون : سيأتى نبىٌّ أظلَّ زمانه سنتبعه ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم[3] . المهم أنهم قالوا لهم : إنكم على حق ومحمد على باطل . وفعلاً اتحدوا فى محاربة رسول الله ﷺ ، هذه الحرب التى قال الله فيها عن المؤمنين : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤) ﴾ [البقرة]

---

(١) هو : حُيى بن أخطب النضرى ، جاهلى من الأشداء العتاة ، كان يُنعت بسيد الحاضر والبادى ، أدرك الإسلام وآذى المسلمين فأسروه يوم قريظة ثم قتلوه .. توفى عام ٥ هجرية - ٦٢٦ م . الأعلام للزركلى ٢/٢٩٢ .

(٢) سلام بن مشكم القرظى : شاعر يهودى ، يكنى أبا غنم ، كان سيد بنى النضير فى زمانه وكان صاحب كنزهم ، كان ممن يقول أن عزير ابن الله . وكانت امرأته زينب بنت الحارث اليهودية هى التى حاولت سمّ رسول الله .

(٣) يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة] أخرج أبو نعيم الأصبهانى فى دلائل النبوة (١/٥٢) عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء : يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا ، وقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد وإنّا أهل الشرك ، وتخبرونا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم : ما هو بالذى كنا نذكر لكم ما جاءنا بشىء نعرفه ، فأنزل الله الآية .

وسُـميت هذه الـغزوة غـزوة الأحزاب أو الـخندق ، ويأتى جند من جنود الله ﴿ وَمَـا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ .. (٣١) ﴾ [المـدثر] ويذهب إلى رسـول الله ﷺ ويقول له : يا رسـول الله لقـد أُشْرب قلبى الإيمـان ولا يعلم أحدٌ بإيمانى وأنا أشهـد أنك رسول الله ، واسم هذا الرجل نُعيم بن مسعـود الأشجعى[١] فقال له رسـول الله : « أنت رجل واحد وما غناؤك لى ، لكن اكتم إيمانك وخذِّل عنا »[٢] .

هذه أول مسألة فى قـضية كتم الإيمان ، إذن : فَـكَتْم الإيمان جائز وله مـهمة . فـقال الرجل : لكـن يا رسول الله سـأضطر لأنْ أقول غـير الحقيقة - أكذب يعنى - قال : (افعل ما تحب) .

فما كان من نُعيم بن مسـعود إلا أن ذهب إلى قريش وغطفان وقال لهم : أنتم تعلمون وُدِّى لكم ومحبتى إياكم وقـد جئتكم بنصيحة لأبرىء ذمتى من الوفاء لكم . إن اليـهود ندموا على معاداة مـحمد وهم يريدون أنْ يتراجعوا ولن يتراجعوا إلا بشىء تكون لهم يد يطمئنون إلى معاهدة محمد .

فإذا أردتم أنْ تناجزوا[٣] محمـداً مع هؤلاء وتضمنوا عدم خيـانتهم

---

(١) هو : نعيم بن مـسعود بن عـامر الأشجـعى ، صحابى من ذوى العـقل الراجح ، قدم على رسول الله سراً أيام الخندق واجتماع الأحزاب وكتم إسلامه ، فألقى الفتنة بين قبائل قريظة وغطفان وقريش سكن المدينة ومـات فى خلافة عثمان . وقيل : قُـتل يوم الجمل قبل قدوم على إلى البصرة . توفى نحو ٣٠ هجرية . الأعلام للزركلى (٨/٤١) .

(٢) أورده الأبشيهى فى كتابه « المستطرف فى كل فن مستظرف » أن رسول الله ﷺ قال له : خذِّل عنا فـإن الحرب خـدعة . وأخرجـه الطبرى فى تهذيب الآثـار (٤/١٧٥) وأبو نعيم الأصبهانى فى معرفة الصحابة (حديث ٥٧٩٧) .

(٣) المناجزة فى القتال : المبارزة والمقاتلة ، وهو أن يتبارز الفارسان فيتمارسا حتى يقتل كل واحد منهما صاحـبه أو يُقتل أحدهما . وتناجز القوم : تسافكوا دمـاءهم كأنهم أسرعوا فى ذلك . [لسان العرب - مادة : نجز] .

فسـوف يطلبون منكم سبـعين رجلاً رهينة من قـريش وغطفان مخـافةَ أنكم إذا اشتدتْ الحرب وحمـيَتْ تتركوهم وترجعوا إلى بلادكم ويظلُّون هم فى مواجهة محمد ويكونون هم أعداءه .

ثم ذهب إلى اليهـود فقال لهم : أنتم تعلمـون مودتى لكم ومحـبتى إياكم ، وإن هؤلاء القـوم يعنى قريشـاً وغطفـان ليسـوا من بلدكم ولهم مكانتهم فى بلادهم ، ولهم أموالهم وأهلوهم ، فإنِ استشعروا شيئاً فرُّوا وتركوكم فى مواجهـة محمد ، فلتأخذوا منهم سبـعين رجلاً رهينة حتى تضمنوهم .

فلمـا جاء أبو سـفـيان وقـال : لقـد طال بنا المـوقف وتعب الخُفّ والحافر وطالت المدة ، فـيا معشر يهود هيا لننجز مـهمتنا ، قالوا : هذا يوم السـبت ولا نقاتل فـيه ، ونحـن لا نقاتل الرجل إلا أن نضـمن أنكم معنا إلى نهاية المعركة فأعطونا سبعين رجلاً منكم رَهْناً .

عندها علم أبو سفيان أنِ كلام نعيم صحيح ، فقال : ليس لنا إلا أن نعود إلى بلادنا ، ثم قـال : يا قوم لينظرْ كل واحد مـنكم مَنْ عن يمينه ومَنْ عن شماله لأننا سنقول كلاماً مهماً .

وكان النبى ﷺ قد أرسل إليهم سيدنـا حذيفة ، فكان بين صفوفهم فبـادر مَـنْ عن يمينه وسـأله : مَنْ أنت ؟ ومنْ عن شمـاله وسأله : مَنْ أنت ؟ وكانت فطنةً ولباقة منه حتى لا يسأله أحد ولا ينكشف أمره[1] .

بعد ذلك قال أبو سـفيان : لم يَعُدْ أمامنـا إلا الرحيل حتى لا نقع فى مخالب اليهود فهيا ، وضـرب راحلته فقامت وهى معقولة فانقطع العقال .

---

(١) أورده السهيلى فى كتـابه « الروض الأُنُف » (٣/٤٣٣) ، فى قصة الأحـزاب وتجمـعهم لغزو المدينة .

الشاهد هنا أن نعيم بن مسعود كتم إيمانه عن القوم ليتمكن من القول الذى قاله ، وإنْ كان غير الواقع ، وهو لم يفعل ذلك إلا بعد أن استأذن فيه رسول الله ، وهذا دليلٌ على أن كتم الإيمان جائز وأن له مُهمة .

كذلك سيدنا العباس رضى الله عنه لا شكَّ أنه كان قد آمن برسول الله ، لأنه ساعة أخذ العهد[1] لرسول الله وكان لم يعلن إسلامه بعد ، ذهب وقال : هذا محمد فى مَنَعة من قومه ، فإنْ شئتم أنْ تأخذوه فعاهدوه على كذا وعلى كذا وإلا فاتركوه ، فكيف يأخذ العهد لرسول الله وهو ما يزال على دين قريش ؟

إذن : لابدَّ أنه كان يكتم إيمانه حتى لا تجرؤ قريش على إيذاء رسول الله الإيذاء البالغ إكراماً لعمه العباس . فهذه مهمة كتم الإيمان ، لذلك يقول تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ﴾ [النحل]

وفى غزوة خيبر كان فى اليهود رجل اسمه الحجاج بن علاط السُّلَمى[2] جاء فى هذه الغزوة وذهب إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله ، لقد شرح الله صدرى للإسلام وأشهد ألا إله إلا الله وأنك

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٤٤٦) من حديث كعب بن مالك من حديث طويل أنه لما كانت الليلة التى واعدنا فيها رسول الله ﷺ بمنى أول الليل مع قومنا فلما استثقل الناس فى النوم تسللنا من قريش تسلُّل القطا ، حتى إذا اجتمعنا بالعقبة ، فأتانا رسول الله ﷺ وعمه العباس ليس معه غيره ، أحب أن يحضر أمر ابن أخيه فكان أول متكلم فقال : « يا معشر الخزرج : إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وهو فى منعة من قومه وبلاده قد منعناه ممن هو على مثل رأينا فيه ، وقد أبى إلا الانقطاع إليكم وإلى ما دعوتموه إليه ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه فأنتم وما تحملتم ، وإن تخشون من أنفسكم خذلاناً فاتركوه فى قومه فإنه فى منعة من عشيرته وقومه .

(٢) هو : الحجاج بن علاط بن خالد بن ثويرة ، له صحبة . السلمى ثم الفهرى يكنى أبو كلاب ، قدم على النبى ﷺ وهو بخيبر فأسلم وسكن المدينة واختط بها داراً ومسجداً الإصابة فى معرفة الصحابة (١/٢١٢) .

رســول الله ، وأنا ذاهبٌ الآن إلـى مكة لأمــوال لى هـناك وأمــانات أستردها ؟ وسوف يســألوننى فاسمح لى أنْ أقول[1] قال له (قُلْ ما تشاء) .

وذهب الـحـجـاج إلى قريـش فقـالوا : لابدَّ أن عند هذا الخـبـر ، وسألوه : هـل ذهب القاطع إلى خـيبـر ؟ يقصدون رسـول الله لأنهم كانوا يتهمونه بقطع الأهل والعشيـرة بعد بعثته ﷺ فقال : نعم وهُزِم هناك هزيمةً منكرة وقُتل أصحابه ، وسيأخذه اليهود أسيراً ويأتون به إليكم ليـصنعوا معكـم يداً تظل عليكم لهم طوال العمـر ، وقد جـئتكم لآخـذ أموالى التـى عند الناس حتـى أذهب إلى السَّبْـى قبل أنْ تُبـاع فأشترى منه ، فأخذوا يساعدونه فى جمع أمواله ويُيسِّرون له مهمته .

بلغتْ هذه المـقالة العبـاس فذهب إليه وقـال له : يا حجـاج ماذا تقـول ؟ قال : هو مـا سـمـعت ، قال : أو حَقٌّ ذلك ؟ قـال : أفـتكتُم علىَّ ؟ قال : والذى نفسى بيده أكـتم عليك ، قال : أمهلنى حتى يخلو موضعى من الناس ، فجلس مُدة ثم ذهب إليه فقال : والله الخبر الذى بلغك عنى لم يحدث منه شئ ، بل تركتُ مـحمداً منتصراً فى خـيبر وعروساً على صفية بنت حيى بن أخطب ، ولكنى احتلتُ لآخذ أموالى من هؤلاء ، فاكتُمْ أمرى واستر علىَّ ثلاثة أيام حتى أُعجز القوم وأفرّ ثم أشِعْ ذلك ما شئتَ .

وبعـد ثلاثة أيام تطيَّب العبـاس بالطِّيب وأمـسك عصـاه ثم طاف بالبيت فلقـيه واحد منهم وقال : والله لهذا هو التـجلُّد يا أبا الفضل . يقصد بذلك الـمصيبة التى وقـعت لابن أخيه ، فقال الـعباس للرجل :

---

(١) أى : أن يقول مـا يستطيـع به أن يخدع المشـركين إلى أن يأخـذ ماله الذى عنـد امرأته . فأذن له رسول الله .

والذى حلفتَ به مـا هو تجلّد ولكـنه حقـيـقـة الأمر ، لأن صـاحـبكم أخبركم بخلاف الواقع وابن أخى انتصر على أعدائه وهو عروسٌ على بنت حُيى بن أخطب فى خـيبر ، قـال : أو يكون ذلك ؟ قال : هكذا ، قال : أفلتنا الخبيث فأوْلَى له[1] .

نقـول : كتم هؤلاء إيـمانهم ليـتـمكنوا من نُصْـرة الدين وليكونوا جنداً من جنوده ، ولـلإسـلام جـنديات مـخـتلفـة : جندية العـلانيـة ، وجندية الكتمان ، وجندية التجسس على الأعداء .

بعض المفسرين[2] قال : ﴿ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ (٢٨) ﴾ [غافر] أى : من آل فرعـون ، وهذا غير صـحيح بدليل أنه سـيقول ويخـبر بهـذا الإيمان ويُفصله كـأنه رسول ، ولو كان الكتـمان من آل فرعـون لَقَال : يكتم إيمانه آل فرعون لأن الفعل (كتم) يتعدى بنفسه إلى مفعولين ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢) ﴾ [النساء]

لكن ماذا قال الرجل المؤمن ؟

قال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ (٢٨) ﴾ [غافر] تأمل جرأة الحق من هذا المؤمن ، فهو يجهـر بهذا الاستفهام الإنكارى ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا (٢٨) ﴾ [غافر] يجهر به أمـام فرعون . ﴿ أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ (٢٨) ﴾ [غافر] أى : بسـبب قوله ربى الله فـلا جريـرةَ له غيـر هذا ، يقولهـا الرجل المؤمن علانية أمام فرعون ، وما أدراك ما فرعون ، إنه الوحيد

---

(١) أخـرجه أحـمـد فى مـسنده من مـسند أنس بـن مـالك ، والبـيـهـقى فـى السنن الكبـرى (٩/١٥١) وعـبـد الرزاق فى مـصنفـه (حـديث ٩٧٧١) (٥/٤٦٦) وابن سـعـد فى الطبقات الكبرى (٢/١٠٨) .

(٢) ما ذهب إليه ابن كثير فى هذا الأمر أنه قال (٤/٧٧) : « قد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومـه القبط فلم يظهـر إلا هذا اليوم حـين قال فـرعون : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ .. (٢٦) ﴾ [غافر] » .

الذى ادعى الألوهية وقال لقومه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى (٣٨)﴾ [القصص] فلا شكَّ أن كلمة الرجل المؤمن تغيظه وتهدم أركان ألوهيته المدَّعاة .

وقوله : ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ (٢٨)﴾ [غافر] أى : بالآيات الواضحات فكيف يُقتل ؟ ولنفرض أنه كذاب فلا يضيركم كذبه ، لأنه كذب على الله وسوف يتحمل عاقبة هذا الكذب ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ (٢٨)﴾ [غافر] يعنى : وإنْ كان صادقاً لم تُحرموا خيره وأصابكم بعض هذا الخير . إذن : لماذا تقتلونه ؟ فالاحتياط ألاَّ يُقتل .

لكن ، هل معنى ذلك أن نترك كلَّ ملحد يقول ما يحلو له ويخوض فى أمور الدين ولا نمنعه اعتماداً على ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ (٢٨)﴾ [غافر] قالوا : لا بل يجب أنْ نُقدِّر هنا جملة : امنعوه أن يقول لكن لا تقتلوه . كثيراً ما نسمع عن الزنادقة الذين يخوضون فى دين الله الآن ، فماذا نفعل ؟ أنتركهم ونقول : عليهم كذبهم ؟

لا إنما يجب أنْ نتصدَّى لهم ونمنعهم من هذا الهراء ، ونأخذ على أيديهم حتى لا يُحدثوا ما يضر بدين الله . كذلك قال الرجل المؤمن من آل فرعون يدافع عن سيدنا موسى عليه السلام كأنه يريد أنْ يستبقى حجة الحق لعله تُوجَد آذان فيما بعد تنصره .

ثم يقرر الحق سبحانه هذه الحقيقة : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨)﴾ [غافر] هذا الكلام يُعَد تعريضاً وطَعْناً فى فرعون ، فالحق سبحانه لا يترك أحداً يكذب عليه دون أنْ يفضح كذبه ، لماذا ؟ لأن سَتْر هذا الكذب يُعتبر تدليساً فى منهج السماء ، وحاشا لله تعالى ذلك ، لذلك نرى كلَّما ادَّعى أحدٌ النبوةَ افتُضِح أمره

وعلم الناس كذبه ، لأنه لا يصح أنْ يدَّعى كذابٌ النبوة ، ولا يظهر الله للناس كذبه ، وهذا مُتضمَّنٌ فى قوله تعالى وفى وعده : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٥١) ﴾ [غافر]

وفى قوله : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ[1] فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٢٩) ﴾

قوله : ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ (٢٩) ﴾ [غافر] هذا كلام الرجل المؤمن ينصح قومه . نعم لهم المُلْك أى : مُلْك فرعون وجبروته وسطوته وادعاؤه للألوهية .. إلخ و﴿ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ (٢٩) ﴾ [غافر] يعنى : منتصرين وعالين على غيركم ، لكن احذروا فهذا حال موقوت لا يدوم لكم فهو مُقيَّد ﴿ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ (٢٩) ﴾ [غافر] وكأنه يقول لهم : احذروا أنْ يضيع هذا الملْك من أيديكم .

فربما كان هذا الرجل - أى موسى عليه السلام - صادقاً فيجمع حوله الأتباع والأنصار ، ويقضى على هذا الملك ، فاستبقوا إذن ولو الضلال الذى أنتم عليه ولا تدخلوا معه فى صدام لا تعلمون عاقبته ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا (٢٩) ﴾ [غافر] لا أحدَ ، لأن بأسَ الله وانتقامه فى تأييد رسله بأسٌ لا يُرَدّ ولابدَّ أنْ يدمر المخالف

---

(١) ظاهرين : أى عالين ذوى مكانة ورفعة . [القاموس القويم ١/ ٤٢٠] فلان ظاهر على فلان أى غالب عليه . وقوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾ [الصف] أى : غالبين عالين . [لسان العرب - مادة : ظهر] .

فاحذروا ، هكذا يتحدث الرجل المؤمن بمنطق الإيمان الراسخ فى نفسه ويصدق قومه لا يغشهم .

وهنا لا بُدَّ أنْ ينتفضَ فرعون ، وأنْ يحاول القبض على زمام الأمور لصالحه : ﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ** (٢٩) ﴾ [غافر] لاحظ منطق التسلط فى ﴿ **مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ** (٢٩) ﴾ [غافر] ومنطق التزييف فى ﴿ **وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ** (٢٩) ﴾ [غافر]

لكن هذا من فرعون لم يمنع الرجل المؤمن أنْ يستمر فى دعوته ولم يصدَّه أنْ ينصح قومه :

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ[(١)] قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) ﴾

هنا يستمر الرجل المؤمن فى نُصْحه لقومه ، فكلمة فرعون لم تُخفهُ ولم تصدّه عن دعوته ، فيقول : ﴿ **يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ** (٣٠) ﴾ [غافر] يعنى : إنْ كنتم ظاهرين الآن فى الأرض ولكم الغلبة ، فلستم أظهر ممن سبقوكم فى موكب الرسالات من أول نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ﴿ **مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ** (٣١) ﴾ [غافر]

وقد أرانا الله العجب فيمن كذَّب الرسل ﴿ **فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم**

---

(١) دأب على الأمر : اعتاده . والدأْب والدأَب : العادة والشأن . فقوله تعالى : ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ .. (٣١) ﴾ [غافر] أى : عادتهم وشأنهم . [القاموس القويم ١ / ٢١٩] .

مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا[1] وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ[2] وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا [3] وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

إذن : عليكم أنْ تأخذوا ممن سبقوكم في التكذيب عبرة ، خاصة وأنتم تشاهدون آثارهم في الأرض التي تدل على أنهم كانوا أقوى منكم وآثاراً في الأرض ، ومع ذلك لم تنفعهم قوتهم ، ولم تمنعهم آثارهم من بأس الله حين نزل بهم ، وما أبقى الله على هذه الآثار إلا لتكون عبرة لمن بعدهم ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات]

ولو انطمستْ آثارهم لم تكُنْ هناك حجة واقع ، فبقاء الآثار إلى الآن تبين لنا أن الذين صنعوا هذه الحضارات وتركوا هذه الآثار لم يستطيعوا أنْ يحموا حضاراتهم ، وكانوا أكثر منكم قوة وآثاراً في الأرض وعمروها أكثر منكم ، فما دام قد حدث هذا في الواقع وأنتم تشاهدونه فخذوه قولاً من الرسول وواقعاً أمامكم في الكون .

ونلاحظ هنا أن كلمة (يَوْم) جاءت مفردة و (الأحزاب) جمع فلماذا لم يَقُل مثلاً (أيام الأحزاب) ، والحزب هم الجماعة المناهضون للرسول المكذبون له ، فحزب مناهض لنوح ، وحزب مناهض لهود ، وآخر لصالح .. الخ .

---

(١) الحاصب : ريح صرصر باردة شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقيها عليهم وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم من الأرض إلى عنان السماء ثم تنكسه على أم رأسه وهم قوم عاد . [تفسير ابن كثير ٣/٤١٣] .

(٢) الصيحة : عذاب يصحبه صوت شديد يخمد أصوات المعذَّبين ويشلهم عن الحركة . [القاموس القويم ١/٣٨٦] قال ابن كثير في تفسيره : « هم قوم ثمود » .

(٣) المقصود بمن أُغرقوا : هم فرعون وجنوده وملؤه ، الذين أغرقوا في البحر بعد انطباقه عليهم .

إذن : فالأيام هنا متعددة ، ومع ذلك قال : ﴿مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠)﴾ [غافر] فوحَّد اليوم وجمع الأحزاب ، لماذا ؟ لأن العملية كأنها حدثٌ واحد مُتحد فى الجميع ، وإنْ تعددتْ الأحزاب بتعدُّد الرسل فهو يوم الأحزاب لا أيام الأحزاب ، لأننا لو قلنا : أيام الأحزاب لكان لهذا يوم بسبب ، ولهذا يوم بسبب آخر وهكذا ، لكنه سبب واحد فى جميع الحالات ، ألا وهو التكذيب فى مقام العقيدة ، وفى مقام تشريع الحق سبحانه للخلق .

ثم بعد ذلك يُفصل ما أجملته كلمة الأحزاب : ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١)﴾ [غافر] يعنى : لم يأخذهم هذه الأَخْذة ظلماً لهم ، وكلمة (للعبَاد) يعنى : كيف يظلمهم وهم عباده وصنعته ، إنما أخذهم جزاءَ أفعالهم وتكذيبهم لرسلهم ليكونوا عبرة واقعية فى الكون يعتبر بها كل مَنْ يعارض منهج الحق .

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ[1] (٣٢) يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ (٣٣)﴾

---

(١) التناد (بكسر الدال) بمعنى المناداة . ومنه الأمثلة التى سيوردها فضيلة الشيخ من آيات نداء أصحاب الجنة لأصحاب النار ، وكذلك نداء أهل النار أهل الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء ، وكذلك مناداة أصحاب الأعراف .

وقد ورد فى هذه الكلمة قراءتان أخريان :

« التنادى » بإثبات الياء فى الوصل والوقف على الأصل . وهى قراءة الحسن وابن السميقع ويعقوب وابن كثير ومجاهد .

أما القراءة الأخرى فهى « التنادّ » بتشديد الدال . قال أبو جعفر النحاس : القراءة بها حسنة على معنى يوم التنافر . قال الضحاك : ذلك إذا سمعوا زفير جهنم ندّوا هاربين ، فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة فيرجعون إلى المكان الذى كانوا فيه .

يوم الأحزاب كان فى الدنيا ، أما يوم التناد فـيوم القيامة ، فكأنه حـذَّرهم بيـوم الأحزاب من المـصـائب التى تأتيـهم فى دنيـاهم ، ثم حذرهم بيوم الجزاء يوم القيامة فقال : ﴿ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [غافـر] والتناد تفـاعل يعنى : تناديني وأناديك ، والتنادى يوم القيـامة سيكون مـن وجوه عدة ، يقـول تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴿٧١﴾ ﴾ [الإسراء] وهذا أول نداء ، يقول : يا أمة محمد ، يا أمة عيسى ، يا أمة موسى .. الخ أو أن ينادى بعضهم بعضاً .

وقد ذكـر الحق سبحانه صـوراً متعددة من هذه النداءات ، فـقال سبحانه : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأعراف]

وقال : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيـضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأعراف]

وقال : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ ..﴿٤٨﴾ ﴾ [الأعراف] وأصحاب الأعـراف جماعة اسـتوت حسناتهم وسيـئاتهم ولم يدخلوا الجنة ، ومع ذلك يشمتون في الكفار .

أو : أن التناد ليس من مناداة بعضنا لبـعض ، إنما هو من الفعل (ندَّ) يعنى : بعُد وشرد ، يعنى : يوم التناد يوم تشرد منى وأشرد منك ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [عبس] والمـراد : يفر منهم وهم كـذلك يفرون منه ، فكلٌّ يهرب من الآخر لانشغاله بنفسه .

لكن ماذا يقصد الرجل المؤمن بذلك ؟ قالوا : يريد أن يقول لهم : إنْ كنتم تظاهرون بعضاً على الباطل فى الدنيا فـاعلموا أنكم ستفرون من بعض فى الآخرة ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [غافر]

وتأمل هنا حبكة الأداء القرآنى ، فحينما يأتى بلفظ يحمل معنيين أو يجمع بين معنيين يأتى بما يدل على كل منهما ، فهنا مثلاً قال ﴿ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) ﴾ [غافر] بمعنى المناداة . وقال : ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ (٣٣) ﴾ [غافر] بمعنى الفرار ، فجمع بين المعنيين فى كلمة (التناد)

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى فى سورة الرحمن ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) ﴾ [الرحمن] فالشمس والقمر مخلوقات علوية ، والشجر أرضى وبينهما كلمة (النجم) ولها معنيان : الأول : المتبادر إلى الذِّهْن هو النجم العالى فى السماء من جنس الشمس والقمر ، والآخر (النجم) بمعنى : العُشْب الذى لا ساقَ له ، وهو جنس الشجر .

وقوله : ﴿ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) ﴾ [غافر] (مِنْ عَاصِم) يعنى : لا أحد يستطيع أن يمنعكم من الله ، ولا يدفع عنكم بأساً إِنْ نزل بكم ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) ﴾ [غافر] يعنى : من يحكم الله بضلاله لا يهديه أحد ، لماذا ؟ قالوا : لأن الله تعالى سيعينه ويُمكنه من الضلال .

لذلك قلنا : إذا أحبَّ العبدُ شيئاً قال الله لعبده : أحببته يا عبدى سأبليك به ، كمن مات له عزيز مثلاً فحزن عليه حزناً شديداً وبالغ فيه واستمرأ الحزن ، فيقول الله له : أحببتَ الحزن وعشقته ، سوف أزيدك منه ، كلما تقادم جددته لك .

لذلك قال أهل المعرفة : أغلقوا أبواب الحزن بمسامير الرضا ، لأنكم إنْ ألفتم الحزن وعشقتموه أدامه الله عليكم ، لأنه سبحانه ربكم والمتولى لأموركم ، ويعطى كلاً منكم بُغْيته ، حتى الكافر الذى أحب الكفر وعده الله أنْ يعينه عليه ، لذلك يختم على قلبه بحيث لا يدخله الإيمان ولا يخرج منه الكفر .

ثم يستمر الرجل المؤمن من آل فرعون فى نصحه لقومه فيقول[(١)] :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

لما جاء يوسف عليه السلام لم يكُنْ فى زمنه فرعونٌ على مصر ، إنما كان هناك ملك هو العزيز ، لذلك لما تقرأ قصة سيدنا يوسف عليه السلام لا تجد ذكراً لفرعون أبداً كما فى قصة سيدنا موسى ، ولما عرفنا أحداث التاريخ المتعاقبة واستطعنا أن نُرجع الأحداث إلى أزمانها عرفنا أن يوسف كان فى فترة ملوك الرعاة (الهكسوس) ، وهؤلاء بعد أنْ دخلوا مصر قضوا على حكم الفراعنة وألغوا الفرعونية وجعلوا أنفسهم ملوكاً ، لذلك يقول فى القصة ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ﴿٤٣﴾ ﴾ [يوسف] ولم يقُلْ فرعون .

ولما عادتْ الفرعونيةُ مرة أخرى أخذوا يضطهدون بنى إسرائيل لأنهم كانوا يناصرون الملك ويؤيدونه .

قوله ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [غافر] أى : الآيات الواضحات الدالة على صدقه فى البلاغ عن الله ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [غافر]

---

(١) ذهب القرطبى فى تفسيره (٥٩٦١/٨) إلى أن هذا القول من كلام موسى عليه السلام لقومه . ولكنه قال : « وقيل : هو من تمام وعظ مؤمن آل فرعون ذكّرهم قديم عتوهم على الأنبياء » .

أى : تشكُّون فى صدق رسالته[1] ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ** ﴿٣٤﴾ ﴾ [غافر] يعنى : مات ﴿ **قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً** ﴿٣٤﴾ ﴾ [غافر] قالوا : ذلك لأنهم ينكرون الرسالة ، فهم فى أنفسهم منافقون ﴿ **كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ** ﴿٣٤﴾ ﴾ [غافر] يعنى : متجاوز للحد ﴿ **مُّرْتَابٌ** ﴿٣٤﴾ ﴾ [غافر] شاكٌّ فى الرسالة مُكذِّب لها .

﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

وهل هناك جدل فى الله وله سلطان يؤيد ؟ قالوا : نعم الجدل المقصود جدلٌ فى الله . يعنى : فى أمر الله للإثبات ، وجدل من المقابل لنفيه . وقلنا : إن الآيات تأتى على معان ثلاثة : آيات كونية تدل على طلاقة قدرة الخالق سبحانه ، وآيات لإثبات صدْق الرسل فى البلاغ عن الله وهى المعجزات وآيات القرآن التى تحمل الأحكام . ففى أىِّ هذه الأنواع كانوا يجادلون ؟

أولاً : جادلوا فى آيات المعجزات وقالوا عنها سحر ، والرد على هذا الادعاء سهل ، إذ نقول لهم : الذى سحر الناس فآمنوا به ، لماذا لم يسحركم أنتم أيضاً لتؤمنوا به وعندها تنتهى المسألة ؟

كذلك جادلوا فى آيات الأحكام ، لماذا ؟ لأن كل حكم يُنزله الله

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٤/٧٩) لفتة فى مسألة أن المصريين ظلوا فى شك مما جاءهم به يوسف عليه السلام ، فقال : « كان يوسف رسولاً يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسط ، فما أطاعوه تلك الطاعة إلا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوى » .

على عباده يمنع طغيان جيل فى جيل أو فرد فى فرد ، وهذا ينافى مصلحة أهل التسلط والكبرياء فى الأرض ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) ﴾[القصص]

أما الآيات الكونية التى تثبت قدرة الخالق سبحانه كالشمس والقمر والنجوم وغيرها فليست مجالاً للجدل ، لذلك لم يجادلوا فيها .

ومعنى ﴿ كَبُرَ مَقْتًا (٣٥) ﴾ [غافر] أى : أن هذا الجدل فى آيات الله بغير حَقٍّ جدلٌ ممقوت يبغضه الله بغضاً كبيراً ، ويبغضه الذين آمنوا الذين يحرصون على دين الله وتقوية دواعى الإيمان به فى النفوس :

﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ[1] اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) ﴾ [غافر] معنى ﴿يَطْبَعُ ﴾ أى : يختم على قلبه . والمتكبر : هو الذى يفتعل الكبر ويدعيه وليس عنده مبرراته ، فهو يتكبر بلا رصيد عنده للكبر . لذلك ورد الحديث القدسى الذى يوضح هذه المسألة ، ويقسم المجتمع الإيمانى إلى اثنى عشر قسماً ، ست منها فى المحبوبية : منها ثلاثة للمحبوبية العليا ، وثلاثة للمحبوبية الأقل . وستٌ أيضاً للمبغضين منها ثلاثة للمبغضين ، وثلاثة للمبغضين أقلّ ، فانظر فى أيِّها يكون المتكبر .

قال تعالى فى الحديث القدسى : « أحب ثلاثاً وحبى لثلاث أشدّ : أحب الفقير المتواضع وحبى للغنى المتواضع أشدّ ، وأحب الشيخ الطائع وحبى للشاب الطائع أشدّ ، وأحب الغنى الكريم وحبى للفقير الكريم أشدّ . وأبغض ثلاثاً وبغضى لثلاث أشدّ : أبغض الغنى المتكبر وبغضى للفقير المتكبر أشدّ ، وأبغض الشاب العاصى وبغضى للشيخ

---

(١) الطبع فى أصل اللغة : الختم وهو التأثير فى الطين ونحوه . وأصل الطبع الصدأ يكثر على السيف وغيره . قال أبو إسحاق النحوى : معنى طبع فى اللغة وختم واحد ، وهو التغطية على الشىء والاستيثاق من أن لا يدخله شىء . [لسان العرب - مادة : طبع] .

العاصى أشدّ ، وأبغض الفقير البخيل وبغضى للغنى البخيل أشدّ »[(١)]

ففى ضوء هذا الحديث نتعلم أن المجتمع الإيمانى ينبغى أن يكون غنيه متواضعاً ، وفقيره كريماً ، وشبابه طائعاً . هذه صورة أرقى المجتمعات وأعلاها يأتى بعده فى المرتبة مجتمع : فقيره متواضع ، وغنيه كريم ، وشيخه طائع .

إذن : قلنا إن المتكبر مَنْ يتكبّر وليس عنده مبررات الكبر ، فماذا لو كان عنده مبررات الكبر ؟ نقول : إنْ كان عنده مبررات الكبر فإنه ينقصه أنه يتكبر بشىء غير ذاتى فيه ومن الممكن أنْ يُسلب منه ، كمن يتكبر بعافيته فقد يسلبها الله منه لأنها عَرَضٌ زائل عنك ، ثم إن المتكبر حينما يرى مَنْ هو أكبر منه يتضاءل فى كبريائه ، ولو أنه رأى ببصيرته كبرياء ربه لما تكبَّر .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا[(٢)] لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

(١) أورد أبو الليث السمرقندى نحو هذا فى كتابه « تنبيه الغافلين » الباب ١٩ فى الحسد والنهى عنه (ورقة ٥٨ مخطوط الأزهرية ٣٠٧٠٧١) أورده بلفظ يقال بصيغة التمريض وهى صيغة تضعيف ، ولم يذكر له راوياً أو سنداً ولفظه : « إن الله يبغض ثلاثة وبغضه لثلاثة أشد ، يبغض الفاسق وبغضه للشيخ الفاسق أشد ، ويبغض البخلاء وبغضه للغنى البخيل أشد ، ويبغض المتكبرين وبغضه للفقير المتكبر أشد . ويحب ثلاثة نفر وحبه لثلاثة منهم أشد ، يحب المتقين وحبه للشاب التقى أشد ، ويحب الأسخياء وحبه للفقير السخى أشد ، ويحب المتواضعين وحبه للغنى المتواضع أشد » .

(٢) الصرح : القصر العالى ، قال تعالى فى قصة سليمان عليه السلام وبلقيس ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [النمل] [القاموس القويم ١/٣٧٣] والصرح أيضاً وهو المقصود من أمر فرعون لهامانَ ببناء صرح : بيت واحد يُبنى منفرداً ضخماً طويلاً فى السماء . [لسان العرب – مادة : صرح].

يأمر فرعونُ وزيره ومعاونه هامان أنْ يبنى له بناءً شامخاً يصعد عليه ، لعلَّه يرى هذا الإله الذى يدعو موسى إلى عبادته ، كأن الصَّرْح سيُوصلّه لرؤية الإله ، والله الإله الذى تراه من صرح لا يصح أنْ يكون إلهاً ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ (٣٧) ﴾ [غافر] أى : ضلال وخُسْران ، فلن يظل كذلك ، ولكن سيعلو ويعلو إلى أنْ يفضحَ اللهُ أمره يوم الغرق .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٣٨) يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ (٣٩) ﴾

هذا قوْل الرجل المؤمن من آل فرعون يعظ قومه وكأنه نبىّ ، فإنْ قُلْتَ : وماذا أسكته عن فرعون حتى وصل بضلاله إلى أنْ يدَّعى الألوهية ؟ قالوا : هذه من ضمن قولنا إن للحق صَوْلة لكن لها وقتها المناسب ، وساعةَ ينطق الحق على لسان هذا المؤمن فكأن الحق سبحانه هو الذى يتكلم ، لذلك لم يعارضه أحدٌ لأن وارد الرحمن لا يُعارَض إنما يُعارض وارد البشر .

لذلك لما قال الحق سبحانه :﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ[1] وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي (٧) ﴾ [القصص] لم تعارض هذا الرأى ، ومَنْ يقول للمرأة : إنْ خافت على وليدها ألقيه

(١) اليم : يطلق على ما كان ماؤه ملحاً شديد الملوحة ، وعلى النهر الكبير العذب الماء ، والمقصود هنا هو نهر النيل بمصر، وقد خطّأ ابن منظور فى لسان العرب (مادة يمم) الليث فى قوله : اليم البحر الذى لا يدرك قعره ولا شطّاه ، فإن الله قال : ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ..(٣٩) ﴾ [طه] فجعل له ساحلاً أى : شاطئاً .

فى اليم ؟ والله لو قالها أحدٌ غير الحق سبحانه لَعُورضت لكن قبلتها أم موسى ولم تعترض ، لأن وارد الرحمن لا يُعارض ولا يُناقَش ، وإلا لكانَ لها أنْ تقول : أأنجيه من موت مظنون إلى موت مُحقَّق ؟

إذن : لا عجبَ أنْ يقول الرجل المؤمن هذا الكلام على مَرْأىً ومَسْمع من فرعون ، ومع ذلك لم يعارضه .

﴿ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [غافر] هذه تلفتنا إلى أن الإنسان فى أحداث الحياة معه لابدَّ له أن يخدم غاية ، ويُشترط فى الغاية التى تخدم ألاَّ يكون بعدها غاية أخرى ، فإنْ كان بعدها غايةٌ أخرى فليستْ بغاية ، بل هى مرحلة مُوصِّلة للغاية ، مثل الولد تعلمه ليأخذ الإعدادية مثلاً ، فهل الإعدادية غاية ؟ لا إنما هى مرحلة مُوصِّلة إلى مرحلة أخرى هى الثانوية ، كذلك الثانوية مرحلة مُوصِّلة إلى ما بعدها . فالشىء ما دام له بَعْد فليس بغاية ، الغاية هى التى ليس لها بَعْد ، لذلك يقول لهم الرجل المؤمن : إن الدنيا كلها بما فيها متاع مجرد متاع ليست غاية ، إنما الغاية الحقيقية هى الآخرة .

والنظرة المتأملة ترى أن الإنسان له عمر مظنون فى الكون غير مُحدَّد أبهمه الله ، وجاء هذا الإبهام عين البيان وأرفع درجاته ، لأنه سبحانه حين أبهمه فى الزمان وفى المكان جعلنا نتوقعه وننتظره فى كل لحظة وفى أىِّ مكان ، لذلك قالوا[1] : الموت سهمٌ أُرسِل إليك وهو فى الطريق إليك بالفعل وعمرك بقدر سفره إليك .

---

(١) من أقوال عبد الله بن المعتز ، عزاه إليه أبو منصور الثعالبى فى « الإعجاز والإيجاز » : « الموت سهم مرسل إليك ، عمرك بقدر سفره إليك » ، وكذلك الحصرى القيروانى فى كتابه « زهر الآداب وثمر الألباب »

وحين تتأمل الكون من حولك تجد الخالق سبحانه خلق لك كوناً منسجماً يخدمك ، شمس وقمر ونجوم وهواء وماء ونبات .. الخ فانظر يا مَنْ خُلقت له هذه الأكوان كيف تفنى أنت وتبقى هى ، تموت أنت والشمس كما هى والقمر والنجوم والهواء والماء ، لم يتغير فى كون الله شىء ، حتى الماء الذى نظنه ينقص هو فى الكون كما هو منذ خلقه الله لا يزيد ولا ينقص .

فالماء الذى أخذته من الكون فى حياتك خرج منك مرة أخرى فى صورة عرق وفضلات ، حتى النسبة التى تبقى فينا بعد الموت تخرج وتمتصّها الأرض ، كذلك الماء فى الوردة مثلاً وفى كل الكائنات ، إذن : فالكون كله كذلك عبارة عن تغيُّرات فى مُتحد .

لكن أيُعقل أن يكون الخادمُ أطولَ عمراً من المخدوم ، أموت وتبقى الشمس التى تخدمنى والتى خُلقت من أجلى ؟ نعم لتعلم أنَّ خادمك أطول عمراً منك فى الدنيا مع أنك المكرَّم المخدوم ، إذن : لا بدَّ أن لى عمراً آخر يناسب هذا التكريم ، عمراً يبقى بعد فناء هذه المخلوقات حيث تنتهى الشمس والقمر والنجوم .. وأبقى أنا ، وهذا لا يكون إلا فى الآخرة ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم]

ولا بدَّ للمؤمن أن يقول بهذا اليوم ، وأنْ يؤمن به ليكون هو المكرَّم حقاً وهو الأطول عمراً . حتى الموت نفسه يموت وتبقى أنت فى الآخرة خالداً لا تفوتك النعمة ولا يدركك الموت .

لذلك يريد منا الحق سبحانه أن ننظر إلى هذه الغاية ، لا أن ننظر تحت أقدامنا ، ونعيش فقط للحظة التى نحن فيها ، فالغاية الحقيقية لكل مؤمن هى الآخرة لأنها ليس لها بَعْد ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ

لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] والحيوان مبالغة من الحياة . أى : الحياة الحقيقية .

وهنا يقول الرجل المؤمن : ﴿ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) ﴾ [غافر] أى : المستقر التى لا عدولَ عنها ، ولا سُكْنى غيرها ، ولا بُدَّ أن نعمل لها :

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) ﴾

نعم ما دامت الآخرة هى دار القرار والمستقر فلابدّ من الرجوع إلىَّ والوقوف بين يدىّ أجازى كُلاًّ بعمله ، وأنا لستُ جباراً عليكم إنما أنا رحيم بكم أجازى السيئة بمثلها ، أو أغفر وأضاعف الحسنة أضعافاً كثيرة .

والوقفة هنا عند قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ (٤٠) ﴾ [غافر] فهذا الشرط لا يمنع غير المؤمنين من فعل الخير والعمل الصالح ، وقد بيَّن الحق سبحانه هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى]

والكافر حين يفعل الخير يأخذ حظه منه فى الدنيا ، ولا نصيبَ له فى ثواب الآخرة ، يأخذه فى الدنيا شهرةً وصيتاً وسُمعة طيبة على ألسنة الناس ، يأخذه فى صورة تكريم واحتفال ، ألاَ تراهم يقيمون لهم التماثيل ويُخلِّدون ذكراهم .. الخ .

إذن : أخذوا حظهم فى الدنيا ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا

أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

تأمل ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ.. (٣٩) ﴾ [النور] يعنى : فوجىء به لأنه لم يكُنْ فى باله فى الدنيا وما عمل من أجله قطّ ، ومعلومٌ أن الإنسان يأخذ أجره ممَّنْ عمل له .

وقد سُئِلْنا فى هذه المسألة فى سان فرانسيسكو : أيضيع أجر الكافر الذى عمل الخير فى الدنيا ؟ قلت : أعملَ للخير لله أم للإنسانية ورُقيِّها ؟ قالوا : عمل للإنسانية ورُقيِّها وخدمتها ، قلت : فليأخذ أجره منها وقد أخذه شهرةً وصيتاً وتخليداً ، قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً [1] مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

لذلك نقول : إن الكافرين الذين عملوا لرقى المجتمع وتقدمه نحن ننتفع بأعمالهم ومخترعاتهم ومكتشفاتهم ، بل ونطوعها لخدمة الإيمان والدعوة إلى الله ، فهذا المسجِّل وهذا الميكرفون وغيرها ثمرة جهدهم ، لكن لا حَظَّ لهم فى ثوابه ، لذلك نقول : إن هؤلاء خُدَّام حَرْف واحد من حروف القرآن ، ما هو ؟ هو السين فى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ (٥٣) ﴾ [فصلت]

فهم يتعبون ويعيشون حياة قاسية فى تقشُّف ليتفرغوا للبحث والدراسة للوصول إلى سرٍّ من أسرار الله فى كونه ، وفى النهاية ينتفع الناس بأعمالهم ، ويُحْرمون هم ثواب هذا العمل .

وقوله : ﴿ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) ﴾

---

(١) الهباء : الغبار المتطاير فى الجو هنا وهناك ، وقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان] أى : جعلنا كل عمل عملوه كالهباء المنثور لا يعتد به ولا قيمة له . [القاموس القويم ٢/٢٩٧] .

[غافر] الرزق كل ما ينتفع به الإنسان ، وليس محرد المـال كمـا يظن البعض ، فالعافـية رزق ، والسلامة رزق ، والعلم رزق ، واالحلم رزق ، كلٌّ ما تنتـفع به رزقٌ لك ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافـر] كلمة حـساب تعنى : أنك تحسب للشىء حساباً على قدره .

أما فى الآخرة فالرزق فيها بغـير حساب ، أى : بغير حساب من أحد لأن المعطى الرازق هو الله ، والله حين يعطيك لا يعطيك على قدر عملك ، إنما يعطيك على قدره هو سبحانه .

وحين يأتيك الخير غير المظنون تقول : لم أكُنْ أعمل له حساباً ، فمعنى ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر] يعنى : طلاقة قدرة فى العطاء ، قدرة تعطى للمعطى بلا حساب مُسبَّب منه ، وبلا حساب على قدرك ، فالمسألة إذن واسعة .

قالوا : ومن غير الحساب فى الجنة أنك تأكل ولا تتغوط[1] ، كيف ؟ لأنك تأكل بطهى الله لك ، وما دُمْت تأكل بطهى الله الـخالق فلا بدَّ أنْ يعطيك الغـذاء على قدر مـقومات الحـياة دون زيادة ، فـمن أين تأتى الفضلات إذن ؟ ولماذا ننكر هذه المســألة أو حتى نتعجب منها ونحن نراها فى الدنيا رغم إمكاناتنا المحدودة ؟

ألا تراهم فى الحـروب مثـلاً يعطون الجنود حبـوباً خاصـة تحلُّ محلَّ الغذاء تعطيهم الطاقـة اللازمة دون زيادة ، ولا تترك فى الجسم

(١) عن زيد بن أرقم قـال : « جـاء رجل من أهل الكتـاب إلى النبى ﷺ فقـال : يا أبا القـاسم تزعم أن أهل الجنة يأكلـون ويشربون ؟ قـال : نعم ، والذى نفس محـمد بيده إن أحـدهم ليعطى قوة مائة رجل فى الأكل والشرب والجماع والشهوة . قال : فإن الذى يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس فى الجنة أذى . قال : تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كرشح المسك فيضمر بدنه ، أخرجه أحمد فى مسنده والنسائى فى سننه بإسناد صحيح على شرط الصحيح . [انظر : حادى الأرواح لابن القيم ص ١٧٧] .

فضلات للتغوط ؟ فإذا كان المخلوق فعل هذا فما بالك بالخالق سبحانه ؟

وقد تأكل فى الجنة بغير حاجة للطعام ، تأكل لمجرد التمتع بالأكل ، وقد لا تحتاج إلى الطعام أصلاً ؛ لذلك قالوا : أفضل درجات الجنة وأحسن نعيمها فى عليين لأنها مرتبة ليس فيها شىء من مُتَع الحياة إلا أنْ ترى ربك عز وجل وكفى بها نعمة ، فأنت فى حضرته تعالى لا تحتاج أصلاً إلى هذه المتع .

لذلك لمّا ذهب الشَّعبى[1] إلى ملك الروم وسأله الملك : أنتم تدّعون أنكم فى الجنة تأكلون ولا تتغوطون ، فكيف ذلك ؟ قال : وما العجب فى ذلك ؟ ألم تر إلى الطفل فى بطن أمه كيف يتغذَّى وينمو ، فهل يتغوَّط فى بطنها ، إنه لا يتغوط ولو تغوَّط لاحترق فى مشيمته ، كذلك المؤمن فى الجنة .

فقال الملك : وتدَّعُون أنكم تأكلون من الطعام فى الجنة فلا ينقص ، وكل شىء تأخذ منه لا بدَّ أنْ ينقص . قال : نعم ينقص إذا لم يكُنْ له مدد يكمل نقصه ، هات لى شمعة فأتى له بشمعة فأشعلها ثم قال للموجودين فى المجلس : ليأتِ كل واحد منكم بشمعة ويشعلها من هذه فأشعلوا جميعاً شموعهم ، فقال لهم : أنقص من ضوء الشمعة شىء ؟ كذلك عطاء الله لأهل الجنة لا ينفد ولا ينقص.

---

(١) هو : عامر بن شراحيل الشعبى الحميرى أبو عمرو ، راوية من التابعين يضرب المثل بحفظه ، ولد عام ١٩ هجرية ونشأ ومات فجأة بالكوفة عام ١٠٣ هـ عن ٨٣ عاماً ، اتصل بعبد الملك بن مروان فكان نديمه ورسوله إلى ملك الروم ، وكان ضئيلاً نحيفاً ، ولد لسبعة أشهر . من رجال الحديث الثقات . [الأعلام للزركلى ٣/٢٥١] .

ومن عجائب الجنة أن فيها أنهاراً ، نهراً من لبن ، ونهراً من عسل ، ونهراً من خمر ، ونهراً من ماء ، وهذه الأنهار ليس لها شطوط ولا حواجز ، بل هى متداخلة ومع ذلك لا تختلط ، ويجب أن نؤمن بذلك ولا ننكره ، بل لا نعجب له لأن رسول الله أخبرنا « أن فى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[1] فلِمَ العجب إذن ؟

لذلك حين يصفها لنا الحق سبحانه يخبرنا أنه لا يصف لنا الجنة ذاتها ، إنما يعطينا مثالاً لها ، فيقول سبحانه : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (١٥) ﴾ [محمد]

ثم إن الحق سبحانه حينما يعطينا هذا المثل للجنة ليقربها لأفهامنا لا بدَّ أنْ ينقى هذا المثل من شوائبه عندنا فى الدنيا ، تأمل : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى (١٥) ﴾ [محمد]

فماء الجنة غير آسن لا يتغير كماء الدنيا ، ولبن الجنة لا يتغير طعمه كما يتغير لبن الدنيا ، وخمر الآخرة لذة ولا يذهب بالعقل ، أما خمر الدنيا فكَرِية ويذهب بالعقل ، وعسل الآخرة مُصفّى من الشوائب على خلاف عسل الدنيا .

ثم يقول مؤمن آل فرعون ، فيما يذكره لنا الحق سبحانه فى قرآنه :

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ ﴾

هذا كلام الرجل المؤمن من آل فرعون ، كأنه كلام الأنبياء ، وإنى حتى الآن لم أهْتد إلى سبب يقنعنى كيف سكت فرعون على هذا الكلام ، ولا أستطيع إلا أن أقول : إن الله سبحانه قادر على أنْ يجمع بين الشيء ونقيضه ، فالمؤمن يجهر بهذا الكلام الإيمانى لكن الحق سبحانه يُدخله فى أذن فرعون غير ذلك ، وإلا لما سكت عنه وتركه يتكلم بهذا المنطق الإيمانى الذى يهدم ألوهية فرعون المدَّعاة ، أو كما قلنا أن وارد الرحمن لا يُعارض .

وقوله ﴿مَا لِى ﴿٤١﴾﴾ [غافر] يستفهم عن شيء فى نفسه : كيف أدعوكم إلى النجاة وأنتم تدعوننى إلى النار ؟ أى : إلى ما يؤدى إلى النجاة وما يؤدى إلى النار ، قالوا : لأن الخير لا يكون خيراً إلا إذا أحببته لسواك ، لذلك قال ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[(١)] .

ثم يوضح معنى ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاة وَتَدْعُونَنى إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾﴾ [غافر] فيقول : ﴿تَدْعُونَنِى لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ [غافر] فأنتم تحثوننى على الكفر بالله والشرك به ، وأنا أحثكم على الإيمان به .

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ : « والذى نفسى بيده ، لايؤمن عبد حتى يحب لجاره – أو قال لأخيه – ما يحب لنفسه » .

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣)﴾

كلمة (لاَ جَرمَ) أى : لا شك ولا محالة ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ (٤٣)﴾ [غافر] أى : إلى عبادته من دون الله ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ (٤٣)﴾ [غافر] أى : دعوة مستجابة لأنهم لا يسمعون الدعاء ولو سمعوا ما استجابوا ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا (٤٣)﴾ [غافر] أى : مرجعنا ومصيرنا ونهاية المطاف بنا ﴿إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣)﴾ [غافر] أى : المستحقُّون لها الجديرون بها كأنهم أصحابها .

ومعنى ﴿الْمُسْرِفِينَ (٤٣)﴾ [غافر] أى : المتجاوزين للحدِّ فى الكفر والطغيان ، وأشدهم المسرف على نفسه الذى تجاوز الحدَّ الذى ينبغى أنْ يقفَ عنده ، وهذا الحد إما أنْ يكونَ فى المأمورات أو فى المنهيات .

والحق سبحانه يوضح لنا هذه القضية فى قوله تعالى : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا (٢٢٩)﴾ [البقرة] أى : فى المأمورات ، ويقول فى المنهيات : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا (١٨٧)﴾ [البقرة]

ففى الأوامر احرص على ألاَّ تتعدَّاها وفى النواهى لا يقول لك : لا تفعلها بل لا تقربها ، لا تقترب منها ولا من الأسباب المؤدية إليها لأنه مَنْ حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه[1] ، ولا بدَّ للمؤمن أن يحترم

---

(١) قطعة من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه ، وتمامه : « إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) .

هذا الاحتياط من ربه ، لأنه سبحانه خالقه ، وأعلم به من نفسه .

والرجل المؤمن حينما يُذيل موعظته للقوم يقوله ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) ﴾ [غافر] كأنه يريد أنْ يُعرِّض بفرعون الذى بلغ القمة فى الإسراف على نفسه ، لأن قضية الإسراف فى الدين أنك قد لا تسمع لنداء الحق وتلغى أوامره وتعرض عن نواهيه ، قد تلغى الإيمان بالله كلية ، لكن هذا الطاغية زاد على هذا كله حيث ادَّعى هو الألوهية ، وقال لقومه : ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤) ﴾ [النازعات] وأىُّ إسراف بعد هذا ؟

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ (٤٤) ﴾

قوله ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ (٤٤) ﴾ [غافر] يعنى : إنْ كنتم تكذبوننى الآن وأنا أريد أنْ أُخرجكم ممَّا تعودتم عليه من عبوديتكم لفرعون فسوف تذكرون ما أقوله لكم من النصح ؛ والمراد تذكرونه فى الدنيا أو تذكرونه فى الآخرة ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ (٤٤) ﴾ [غافر] أى : أردّ أمرى إليه سبحانه فهو وليِّى .

وكأنه استشعر أن هذا الكلام الذى قاله سيُغضب فرعون ، ولا بدَّ أنه سيُبيِّت له لينتقم منه دون مجابهة أو مواجهة حتى لا يُؤلب عليه القوم ، فقال ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ (٤٤) ﴾ [غافر]

يعنى : إنْ كنتَ قد بُليتَ بأمر نتيجة ما أفضت فيه من شرح منهج الله والدفاع عن نبيه موسى والاستماع إلى المنهج الحق والسير عليه ، فأرجو أنْ يعطينى من العمل ما ينفعنى فى الآخرة ﴿ إِنَّ اللَّهَ

بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤)﴾ [غافر] فكانت نتيجة تفويض أمره لله :

﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ[1] بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)﴾

قوله تعالى : ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا (٤٥)﴾ [غافر] يعنى : لم يحدث له مكروه ، وهذا أمر يدعو للعجب ، لأن هذا الرجل يقف أمام مَنْ ؟ أمام فرعون ومع ذلك لم يُصبْه مكروه ولم تضره محاولات فرعون للانتقام منه . لكن ولِمَ العجب ؟ الوقاية من الله ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا (٤٥)﴾ [غافر] لأن الفعل لا يُترك لذاته ولا يُؤخذ لذاته ، إنما الفعل بمقارنة فاعله ، لا بدَّ من مصاحبة الفعل للفاعل ، فالفعل قد يكون واحداً لكن يختلف الحكم فيه سعادةً به أو شقاءً بالنظر إلى الفاعل .

قلنا : هَبْ أن ولدك دخل عليك والدم يسيل من وجهه ، ما أول سؤال تبادره به ؟ مَنْ فعلَ بك هذا ؟ إذن : فأنت لم تنشغل بالدم الذى يسيل منه بقدر انشغالك بمَنْ فعل هذا . فلو قال لك : عمى فلان ضربنى تهدأ وتقول له : لا بدَّ أنك فعلتَ شيئاً يستحق العقاب فضربك ، لكن إنْ قال لك : ابن فلان ضربنى تقول : نعم لأنه يكرهنا وكذا وكذا . وتقيم الدنيا ولا تقعدها .

---

(١) حاق به العذاب أى نزل به وأصابه وأحاط به من كل جانب ، فلا يمكنه الفرار منه . [القاموس القويم ١/١٨١] مع زيادات .

إذن : فكل فعل لا يُحكم عليه لذاته إنما بضميمة فاعله ، ومعرفتك للفاعل هى التى يترتب عليها ردُّ الفعل منك .

وهذه المسألة حلَّتْ لنا الإشكال فى قضية الإسراء والمعراج ، وفسَّرتْ لنا قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ① ﴾ [الإسراء] فما دام أن الذى أسرى هو الله فلا عجبَ إذن ، فالفعل يتناسب وفاعله ، ونزه الله عن الزمان والمكان وعن كل ما يشبه الخَلْق . ولو قال : محمد سَرَى لكان لنا كلام وجدال ، أمَا وقد أسرى اللهُ به فلا عجبَ فى ذلك . كما لو قلت : صعدتُ بابنى الرضيع قمة الهملايا ، أيقول قائل : كيف صعد الرضيعُ قمة الهملايا ؟

كذلك الحال هنا ، وحين تكون الوقاية من الله فأىُّ قوة إذن وأىُّ طاغية أو جبار يستطيع أنْ يُؤذيك ، والله واقيك منه . وقد جاءت هذه الوقاية إجابةً ورداً لتفويض الأمر لله تعالى ، فالرجل المؤمن قال : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ ㊹ ﴾ [غافر] فجاء الرد فوراً ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ㊺ ﴾ [غافر]

وهذه الآية وقف عندها الإمام جعفر الصادق[1] واستنبط منها بعض اللطائف والحكَم حين قال :

عجبتُ لمن خاف ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ١٧٣ ﴾ [آل عمران] لأنِّى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ .. ١٧٤ ﴾ [آل عمران]

---

(١) هو جعفر بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسن بن بنت رسول الله الهاشمى القرشى ، أبو عبدالله الملقب بالصادق ، كان من أجلاء التابعين ولد عام ٨٠ هـ وتوفى بالمدينة عام ١٤٨ هـ أخذ عنه الإمامان أبو حنيفة ومالك ، كان جريئاً مع خلفاء بنى العباس . [الأعلام للزركلى ٢/١٢٦] .

وعجبتُ لمن مُكر به ولم يفـزع إلى قوله تعالى : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [غافر] فإنِّى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر]

وعجبتْ لمن طلب الدنيا وزينتـها ولم يفزع إلى قوله تعالى ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الكهف] فإنِّى سمعت الله بعـقبها يقول : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الكهف]

وعجبتُ لمن اغتمَّ - والاغتمام انقباضُ الصدر وضيق النَّفَس دون أنْ تعرف له سـبباً - ولم يفزع إلى قولـه تعالى : ﴿ لاَّ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] فإنِّى سمعت الله بعـقبها يقول : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ[1] وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء] يعنى : ليست خاصة به وحده .

هذه من دقائق كتاب الله ولطائفه ، ومَنْ أخذها وِرْداً له لا يمر به شىء من هذا ، ونجّـاه الله منه ووقـاه مـن الخـوف ومن المكر ومن الفقر ومن الغَمِّ .

ثم إن استـجابة الحـق سبحـانه لعبـده المؤمن لم تقف عـند حَدِّ الوقـاية من عدوه ، إنمـا تعدَّتْ إلى العـدو نفسـه حيث انقلب الـحال ودارتْ الدائرة عليه تأمل : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافـر] أى : نزل بهـم وحَلَّ بهم سـوء العذاب ، والمراد عذاب الدنيا قـبل الآخرة ، لأن الإنسان له فى حياته ثلاث مراحل : الحيـاة الدنيا التى نعيشـها الآن ، ثم حـياة البرزخ بعد أن يموت إلى أنْ يُبعثَ يوم القيامة ، ثم حياته بعد البعث .

---

(١) أى : استـجبنا ليونس عليـه السلام وهو ذو النون صاحب الحـوت ، فالضمـير فى (له) يعود على يونس ، فاستجاب له ربه ونجّاه من الغم الذى كان فيه بابتلاع الحوت له .

فقوله : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر] أى : نزل بهم قبل الحساب وقبل الآخرة ، أما قوله : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر] فالعرض على النار إذن ليس فى الآخرة لأنه قال بعدها : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر]

عندنا عَرْضٌ ودخول ، العرض على النار قبل دخولها ، فهو إما فى الدنيا أو فى البرزخ ، وما داموا لم يُعرَضُوا على النار فى الدنيا فلم يَبْقَ إلا حياةُ البرزخ يُعرَضُون فيها على النار إلى قيام الساعة ، وهذا ما نسميه عذاب القبر ، ثم يأتى دخولهم النارَ بعد البعث والحساب .

وهكذا جمع الله على المسرفين عذاباً فى الدنيا ، وعذاباً فى البرزخ ، وعذاباً أشدّ وأنكَى فى الآخرة .

وكلمة ﴿ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر] تثبت أيضاً عذابَ القبر ، ففيه عذابٌ شديدٌ لكن عذابَ الآخرة أشدّ ، عافانا الله وإياكم من العذاب .

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ(١) فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾

---

(١) يتحاجون : يتجادلون ويتخاصمون فى النار ، كُلٌّ يلقى باللائمة على الآخر ويحاول تبرئة نفسه ويُحمل الآخر الوزر والذنب فيما وصلوا إليه من مصير مؤلم .

معنى : ﴿ يَتَحَاجُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [غافر] أى : يُحاج بعضهم بعضاً فى النار ، ويُلقى كلٌّ منهم التبعة على الآخر ، يقول (الضُّعَفَاءُ) أى : الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴿٤٧﴾ ﴾ [غافر] أى : الزعماء والرؤساء ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [غافر] يعنى : تابعين لكم نفعل كما تفعلون ، كنا نسير خلفكم ونقتدى بكم ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [غافر] يعنى : هل أنتم مدافعون عنا أو دافعون عنا عذاب النار ، أو هل تحملون عنا ذنوبنا ؟

والقرآن يعطينا صوراً عدة للمحاجَّة وللجدال يوم القيامة ، نقاش بين المؤمنين والكافرين ، بين الأقوياء المتبوعين والضعفاء التابعين ، قال تعالى : ﴿ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾[النساء]

ثم يردّ المتبوعون : ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [غافر] ومادام الله قد حكم بين العباد فقد قُضِى الأمر ، ولا رادَّ لقضاء الله ، ولا ناقضَ لحكمه ، وكيف يدافعون عنهم وقد سبقوهم إلى النار ، اقرأ قوله تعالى فى موضع آخر : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ[1] مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ﴾ [مريم]

وقال عن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود]

---

(١) نزع الشىء : جذبه واقتلعه . [القاموس القويم ٢/٢٥٩] قال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٣١) : « عن ابن مسعود قال : يُحبس الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أتاهم جميعاً ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً . وقال قتادة : ثم لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم فى الشر » .

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ (٩٨) ﴾ [هود] يعنى : يتقدمهم ويسبقهم إلى النار حتى يقطع عنهم الأمل فى النجاة ، ولو تقدَّموا هم لَقالُوا : سيأتى زعيمنا ويُخلِّصنا مما نحن فيه ، فكيف وقد سبقهم إليها ، ففى هذا تيئيسٌ لهم وقَطْعٌ لآمالهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ (٤٩) قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ (٥٠) ﴾

نفهم من قوله تعالى على لسان أهل النار : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) ﴾ [غافر] كأنهم أقروا بأنفسهم أنهم ليسوا أهلاً لأنْ ينادوا الله أو يدعوه . لذلك نادوا الملائكة ، فردَّ الملائكة عليهم : ﴿ أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ (٥٠) ﴾ [غافر] أى : بالحجج والبراهين الدالة على صدق الرسل ﴿ قَالُوا بَلَىٰ (٥٠) ﴾ [غافر] أى : جاءتنا الرسل بالبينات ، فأقروا على أنفسهم .

﴿ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٥٠) ﴾ [غافر] أى : دعاؤهم هباء لا يُجدى ولا ينفعهم - ولا يَخْفى ما فى الآية من التبكيت والتقريع للكافرين والاستهزاء بهم .

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾

هذا وعد منه سبحانه أنْ ينصر رسله وأنْ ينصر الذين آمنوا ، كما قال سبحانه : ﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ** ﴿١٧١﴾ **إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ** ﴿١٧٢﴾ **وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات] لذلك قلنا : إذا رأيت قوماً نسبوا إلى الإسلام وانهزموا ، فاعلم أنه قد اختلَّتْ فيهم شروط النصرة ، وما داموا قد اختلت فيهم شروط النصرة فلابدَّ أن يلقوا جزاء ذلك فى الدنيا ، لأنها سنة الله لا تتبدل .

قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ** ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر] جاءت بعد أن قام الرجل المؤمن من آل فرعون يؤيد موسى عليه السلام ، ويدعو بدعوته ، ويجهر بمنطق الحق أمام فرعون ، والمعنى : إنَّا لننصر رسلنا بأىٍّ وسيلة من الوسائل ، لأن الله تعالى ما كان ليرسل رسولاً بمنهج جديد يهدى به الضالين ثم يُسلمه .

لكن الحق سبحانه قد يترك أمر الدعوة فى أولها تُضطهد وتُعاند من الخلق ليمحص أهل الدعوة وحتى لا يثبت من حملتها إلا الأقوياء الصناديد ، لأنهم هم الذين سيحملون هذه المهمة على أكتافهم يسيحون بها فى الكون كله ، فلا غرابةَ أنْ يُمحَّصُوا ، وأنْ يختبر إيمانهم ومدى ثباتهم على المبدأ .

رأينا هذا فى المؤمنين الأوائل الذين حملوا راية الإسلام مع رسول الله ، فهاجروا إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة ، قال تعالى : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢)﴾ [العنكبوت]

أبداً ، والفتنة معناها عَرْض الناس على مِحَن وشدائد لا يثبت أمامها إلا أقوياءُ العقيدة الواثقون فى الله وفى نصرة الحق ، والمؤمن الحق هو الذى يرى أن ما بشر به من الوعد والوعيد فى الآخرة أمر واضح لا شكَّ فيه ، لأن الإنسان دائماً لا يخدع نفسه وإنْ خدع الآخرين .

لذلك لما سأل رسول الله ﷺ سيدنا حذيفة[١] : « كيف أصبحتَ يا حذيفة » ؟ قال : أصبحتُ بالله مؤمناً حقاً . ولما كانت كلمة (حقاً) هنا كلمة كبيرة المعنى سأله رسول الله : « وما حقيقة إيمانك » ؟ قال : عزفتْ نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها[٢] ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون ، فقال له : « عرفتَ فالزم »[٣]

ومعنى ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٥١)﴾ [غافر] أى : ينصرهم فى الدنيا بأن يغلب حقهم على باطل خصومهم ، لذلك قال سبحانه : ﴿فَإِمَّا

---

(١) هو : حذيفة بن حسل اليمان بن جابر العبسى صحابى من الولاة الشجعان الفاتحين ، كان صاحب سر رسول الله فى المنافقين ، توفى بالمدائن عام ٣٦ هـ ، له فى كتب الحديث ٢٢٥ حديثاً [الأعلام للزركلى ٢/١٧١] .

(٢) المدر : قطع الطين اليابس المتماسك . ومنه قول رسول الله : « لنا الوبر ولكم المدر » عنى به المدن أو الحضر ، لأن مبانيها إنما تُبنى بالمدر أما البدو فمساكنهم الأخبية والخيام

(٣) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/٥٧) وعزاه للطبرانى فى معجمه الكبير من حديث الحارث بن مالك الأنصارى وليس حذيفة ، وقد عزا ابن حجر العسقلانى الحديث لابن المبارك فى الزهد ، انظر « الإصابة فى تمييز الصحابة » (١/٣٤٣) .

نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر] إذن : فهناك نُصْرَة فى الدنيا ونصرة فى الآخرة .

ثم يبين سبحانه أن ما يحدث فى الآخرة عليه شهود متعددون يشهدون عليكم فى الآخرة ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر] والأشهاد جمع شهود ، فالشهود يومئذ كثيرون ، تشهد الرسل والأنبياء : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [المائدة]

والمؤمنون يشهدون أنهم بلَّغوا مَنْ بعدهم : ﴿هَـٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج] وتشهد الأبعاض والأعضاء على صاحبها .

وكذلك يشهد علينا الحفظة ، ويشهد الشهداء الذين قاتلوا فقُتلوا ، لأن الإنسان قد يُدلس فى حياته الدنيا لينعم عيشه لكنه لا يخدع نفسه أبداً بعد أنْ يموت ، فهو حريص أن يذهب به الموت إلى خير مما ترك ، ولذلك يجازيه الله .

فلو تطوع إنسان لكى يجاهد فى سبيل الله وهو يعلم أنه سيموت فى سبيل الله يقول الله له : أنت متّ فى الدنيا من أجلى فلا بدَّ أن تكون حياً عندى ؛ لذلك قلنا فى فلسفة الشهادة لما تكلمنا عن سيدنا حمزة[1] أن الشهادة جعلتْ لك من الموت عصمة ، كيف ؟ لأنك حين تختار الموت على الحياة وتستشهد تصير حياً عند الله ، فوصلتَ

---

(١) هو : حمزة بن عبد المطلب ، عم رسول الله ، ولد عام ٥٤ ق هـ ، وتوفى فى غزوة أحد شهيداً عام ٣ هجرية عن ٥٧ عاماً ، هاجر إلى المدينة وحضر بدراً وأحداً . [الأعلام ٢/٢٧٨] .

حياتك الأولى بحياتك عند الله بحياة البعث ، فكأنك لم تمُتْ .

أحمْزَة عَمّ المصْطفَى أنتَ سَيِّدٌ عَلَى شُهَداء الأرْضِ أجْمعهم طُرّا
وَحَسْبُكَ مِنْ تلْكَ الشَّهادة عِصْمةٌ مِنَ الموْتِ فى وَصْلِ الحيَاتَيْنِ بالأُخْرى.

فمَنْ ضحَّى بحياته لله فكأنه قدَّمها تحيةً لربه وإعلاءً لمنهجه ، فبماذا يُحييك الله ؟ يحييك بأنْ يعصمك بعدها من الموت .

ثم يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ (٥٢) ﴾ [غافر] يعنى : إن اعتذروا لا يُقبل منهم عذر ، وفى موضع آخر قال : ﴿ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) ﴾ [المرسلات] كأنها مواقف متعددة ، مرة يعتذرون حين قالوا : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ (٣٧) ﴾ [فاطر] ومرة لا يُؤذَن لهم فى الاعتذار ﴿ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) ﴾ [غافر]

بعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن موكب رسالة سيدنا موسى عليه السلام .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ (٥٤) ﴾

(الهُدَى) يعنى : الدلالة على الطريق الموصِّلة إلى الغاية النافعة ، كما قال تعالى فى أول البقرة : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ (٥) ﴾ [البقرة] فالدين لم يأت ليكلفكم أو يشقّ عليكم ، إنما جاء الدينُ رحمةً بكم وليكون مركبَ النجاة والهداية الذى تركبونه فيحملكم ويُوصِّلكم إلى الغاية النافعة لكم ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ

الْكِتَابَ (٥٣) ﴾ [غافر] أى : التوراة والإنجيل والزبور .

كل هذه الكتب ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤) ﴾ [غافر] معنى (ذِكْرى) أى : تذكرةً لأن الإنسان إذا استمر على طبيعته الأصيلة بدون تأثر بعوامل الفساد تظل مناعة العهد[1] القديم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ (١٧٢) ﴾ [الأعراف] موجودة عنده تحميه ، لكنه قد ينسى هذا العهد وينحرف عن الجادة ، والإنسان من طبيعته النسيان ؛ لذلك تأتى الرسل للتذكرة بهذا العهد الأول . ومعنى ﴿ الْأَلْبَابِ (٥٤) ﴾ [غافر] أى · العقول المفكرة المتأملة .

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥) ﴾

كلمة ﴿ فَاصْبِرْ (٥٥) ﴾ [غافر] دليل على أنه ﷺ خُوطب بها فى مواطن شدَّة ، هذه المواطن قال الله فيها : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ (٥٥) ﴾ [غافر] الوعد هو : الإخبار بالخير قبل أوانه ، ووعد الله حق . يعنى : متحقق لأن الوعد أنْ تعدَ إنساناً وتُبشِّره بالخير والنعيم والسعادة ، فهل تقدر وتضمن أن تفىَ بوعدك ؟ لا فربما تموت قبل أنْ يأتى أوانه ، أو تضعف قدرتك التى

---

(١) هو العهد الأول الذى أخذه الله على ذرية بنى آدم ، وقال عنه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف] فأشهدهم على أنفسهم أن الله ربهم وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على هذا وجبلهم عليه .

تفعل بها فلا تستطيع ، أما إذا جاء الوعد من القيوم القادر الذى لا يُعارَض ، وهو سبحانه بَاقٍ لا يزول ، فهو إذن وعد حَقٌّ لابدَّ أنْ يتحقق .

لذلك يُعلمنا الحق سبحانه ألاَّ تجزم بوعد ، ولا تقوله بصورة القطع لأنك من الأغيار ، يقول تعالى : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ (٢٤) ﴾ [الكهف]

فتعليق الوفاء على المشيئة يعفيك من الاتهام بالكذب لو لم تفعل فلو قلت أفعل كذا وكذا غداً ، هل تملك أسباب الوفاء ؟ هل تملك الزمن أو تضمن القوة الفاعلة ؟ أبداً لا تضمن بقاء شيء من هذه الأسباب ، إذن فَقُلْ : إنْ شاء الله ونزِّه نفسك عن الكذب لو لم تفعل .

وقوله : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ (٥٥) ﴾ [غافر] يعنى : اطلب المغفرة ، وكلمة ﴿ لِذَنْبِكَ (٥٥) ﴾ [غافر] هل تعنى أن الرسول فعل ذنباً ؟ قالوا : رسول الله ﷺ بشر يُوحَى إليه ، وله رأى ببشريته فى الأمور التى لم يأتِ فيها حكم من الله ، حتى إنْ كان رأيُه صواباً فرأى الحق سبحانه أصوب .

لذلك يصوب له ربه ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ (٥٥) ﴾ [غافر] فمن أىّ شىء يستغفر رسول الله ؟ يستغفر الله من استبطاء النصر فى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ (٢١٤) ﴾ [البقرة] فالنصر آتٍ ، فلم استبطاؤه ؟

لذلك وردتْ فى القرآن آيات تثبت أن الرسول ﷺ فعل شيئاً يُعاتَب عليه ، والحق سبحانه صحَّح له وصوَّب له فعله ، لكن كيف جاء هذا العتاب ؟ تأمل قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ

﴿٤٣﴾ [التوبة] فقبل أن يعاتبه قدَّم العفو عنه[1] .

لكن لماذا أذن الرسول لهؤلاء ؟ قالوا : إن الذى شغل رسول الله فى هذه المسألة أنه قال فى نفسه أن الذى يطلب الإذن منى فى ألاَّ يقاتل إما صادق العذر فلا مانع من الإذن له ، وإما كاذب العذر وهذا لا خيرَ فيه ، وعدمه أفضل من وجوده بين الصفوف ، كما قال تعالى : ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً[2] وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة]

ثم إن هذا العتاب لرسول الله ﷺ : ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة] لم نعلمه إلا من رسول الله نفسه ، ولولا إخباره به ما علمناه ، فهو ﷺ لا يستنكف أنْ يعاتبه ربه ، وأنْ يُصوِّب له اختياره .

وقد أوضحنا هذه النقطة فى مسألة التبنى التى كانت بين سيدنا رسول الله وزيد بن حارثة ، وكيف أن الحق سبحانه لما أراد إبطالَ عادة التبنى جعل نبيه محمداً ﷺ وزيد بن حارثة نموذجاً لهذا الحكم الجديد .

فزيد كان عبداً عند خديجة ووهبته لرسول الله ، ولما علم أهله بوجوده بمكة عند رسول الله جاءوا واستأذنوا فيه رسول الله ، فما كان من رسول الله إلا أنْ خيَّره بين البقاء معه أو الذهاب مع أهله ، فاختار زيدٌ البقاءَ مع رسول الله ، فأراد ﷺ أنْ يكرم زيداً لموقفه منه

---

(١) ذكر ابن أبى حاتم بسنده عن مسعر عن عون قال : هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ؟ نداء بالعفو قبل المعاتبة . وكذا قال مورق العجلى وغيره . [تفسير ابن كثير ٢/٣٦٠] قال مجاهد : نزلت هذه الآية فى أناس قالوا : استأذنوا رسول الله (أى فى التخلف عن الجهاد) فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا . أى : أنهم فى كل الحالات لن يخرجوا مع رسول الله ، لذلك كان عتاب الله لنبيه محمد فى الإذن لهم ، بل انتظر حتى يتبين لك الصادق من الكاذب

(٢) خبالاً : نقصاناً وخسارة وهلاكاً ، وخبله : أفسد عقله . [القاموس القويم ١/١٨٦] .

وحُبه للبقاء فى صحبته فتبنّاه ونسبه إليه ، فصار زيد من يومها يُعرف بزيد بن محمد .

لكن أراد الحق سبحانه أنْ يبطل هذه العادة ، وأنْ يُحرّم التبنى فأنزل : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ (٥) ﴾ . [الأحزاب]

فمعنى ﴿ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ (٥) ﴾ [الأحزاب] أن ما فعله رسول الله قسط وعدل ، لكن حكم الله أقسط وأعدل ، فهل هذا التصويب يُغضب رسول الله ؟ أبداً بدليل أنه ﷺ هو الذى أخبرنا به ولو كتمه رسول الله ما عرفناه .

كذلك فى قوله تعالى فى أسرى بدر : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ[1] فِي الأَرْضِ (٦٧) ﴾ [الأنفال] لما اختلفوا[2] فى أخذ الفداء من الأسرى ، وعاتب الله رسوله بهذه الآية ، لكن هل تغير الحكم بعد ذلك ؟ لا بل ظل كما هو وقال تعالى : ﴿ لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) ﴾ [الأنفال]

---

(١) يثخن فى الأرض : يحارب فيهزم أعداءه ويُعجزهم عن القتال وعن المقاومة . [القاموس القويم ١/١٠٦] .

(٢) كان هذا الأمر فى يوم بدر ، قال ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ « ما تقولون فى هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر : يا رسول الله كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم ، وقال ابن رواحة : يا رسول الله أنت فى واد كثير الحطب فاضرم الوادى عليهم ناراً ثم ألقهم فيه . فسكت رسول الله فلم يرد عليهم شيئاً ثم قال فدخل غرفته ثم خرج عليهم فقال : إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ... ثم قال : أنتم عالة فلا ينفكنّ أحدٌ منهم إلا بفداء أو ضربة عنق ، فأنزل الله الآية يعتب عليه ﷺ أنه أخذ بالفداء .

فكان لرسول الله ﷺ أن ينكر هذه المسألة ، خاصة وأن الحكم كما هو لم يتغير ، إذن : نحن لم نعلم معتبة الله على رسوله إلا من الرسول نفسه ، والمتأمل فى عتاب الحق سبحانه لرسوله يجد أنه إما عتاب لمصلحته هو ﷺ ، أو عتاب لأنه جانبَ الصواب الذى حكم به الحق سبحانه ، كما فى هذه المسألة التى ذكرناها .

أما العتاب لمصلحته ﷺ فمثل قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ[١] تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ①﴾ [التحريم] وهذا كما تعاتب ولدك على كثرة سهره فى المذاكرة وإجهاده لنفسه ، كذلك الحق سبحانه يعاتب رسوله أنه ضيَّق على نفسه وشقَّ عليها طلباً لمرضاة أزواجه .

كذلك عاتبه فى مسألة الأعمى[٢] فقال : ﴿عَبَسَ[٣] وَتَوَلَّىٰ ① أَن

---

(١) قال السيوطى فى أسباب النزول (ص٢٨٠) : « أخرج الطبرانى بسند صحيح عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يشرب عند سودة العسل ، فدخل على عائشة فقالت : إنى أجد منك ريحاً ، ثم دخل على حفصة فقالت مثل ذلك ، فقال : أراه من شراب شربته عند سودة ، والله لا أشربه ، فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ①﴾ [التحريم] وله شاهد فى الصحيحين » .

(٢) هو : عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم (يعرف بابن أم مكتوم) صحابى شجاع ، كان ضريراً ، أسلم بمكة وهاجر إلى المدينة بعد وقعة بدر ، كان يؤذن لرسول الله فى المدينة مع بلال ، حضر حرب القادسية ، ومعه راية سوداء فقاتل وهو أعمى ورجع بعدها إلى المدينة فتوفى فيها قبيل وفاة عمر بن الخطاب عام ٢٣ هجرية . [الأعلام للزركلى ٥/٨٣] .

(٣) عبس الرجل : قطَّب وجهه لضيق صدره من شىء يكرهه . والرجل العبوس : الدائم التقطيب . [القاموس القويم ٢/٤] . وسبب نزول السورة فيما رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس أنه بينما رسول الله ﷺ يناجى عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وكان يتصدى لهم كثيراً ويحرص عليهم أن يؤمنوا=

جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ[1] (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠)﴾ [عبس]

والعتاب هنا لأنه ﷺ شقَّ على نفسه حين ترك هذا الأعمى وانصرف عنه لأنه مؤمن ، وذهب إلى صناديد الكفر يدعوهم ، ورأى أنهم أوْلَى بالدعوة منه .

بعض العلماء[2] أخذوا من قوله تعالى ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ (٥٥)﴾ [غافر] دليلاً على عدم عصمة الأنبياء ، وقالوا آخرون : إن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وقد ورد أنه ﷺ قال فى دعائه : « اللهم

= فأقبل إليه رجل أعمى يقال له عبد الله بن أم مكتوم يمشى وهو يناجيهم فجعل عبد الله يستقرىء النبى ﷺ آية من القرآن وقال : يا رسول الله علِّمنى مما علمك الله فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعبس فى وجهه وتولى وكره كلامه وأقبل على الآخرين فلما قضى رسول الله نجواه وأخذ ينقلب إلى أهله فأمسك الله بعض بصره وخفق برأسه ثم أنزل الله تعالى : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤)﴾ [عبس] فلما نزل فيه ما نزل أكرمه رسول الله ﷺ وكلّمه وقال له رسول الله ﷺ : ما حاجتك ؟ هل تريد من شىء ؟ وإذا ذهب من عنده قال : هل لك حاجة فى شىء ؟ » .

(١) لعله يزكَّى : أى لعله يحصل له زكاة وطهارة فى نفسه .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسير قوله تعالى : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ..(٥٥)﴾ [غافر] عدة أقوال :

- استغفر لذنب أمتك . حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .
- استغفر لذنب نفسك . على من يُجوِّز الصغائر على الأنبياء .
- من قال لا تجوز الصغائر على الأنبياء قال : هذا تعبّد للنبى عليه السلام بالدعاء .
- استغفر الله من ذنب صدر منك قبل النبوة .

[القرطبى فى تفسيره ٨/٥٩٧٤]

إنى أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك »[1] .

والبعض له فى الآية ملحظ آخر قال : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [غافر] لا تدل على وقوع الذنب منه بالفعل ، والمعنى : إنْ فعلتَ ذنباً . أى فى المستقبل استغفر ، مثل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴿١﴾ ﴾ [الأحزاب] فهل معنى هذا أنه ﷺ لم يكُنْ يتقى الله ؟ لا بل هو أمر ابتدائى بالتقوى .

ولا يعنى أنه ﷺ خالف منهجه فأمره الله بتقواه ، كما نرى نحن الآن مخالفاً لمنهج الله فنقول له : يا فلان اتق الله ، يعنى : استقم على منهجه ، واترك المخالفة ، واجعل بينك وبين الله وقاية .

لذلك قال : الأمر فى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [غافر] أمر تعبُّدى ، كما جاء فى قوله سبحانه : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [آل عمران] الأمر هنا أمر تعبُّدى لأننا نقول آتنا ، وهو سبحانه قد وعد رسله بذلك ، فهو أمر متحقق واقع .

ثم نقول للذين يقولون بوقوع الذنب من الرسل : هل خلعهم الله من الرسالة لأنهم ارتكبوا الذنب ؟ أم تركهم رسلاً ؟ بل تركهم وأبقى على رسالاتهم ، إذن : ما قولك أنت إذا كان ما فعله الرسولُ لا ينافى رسالته ، وهو مرضىٌّ عند مَنْ خالفه وأذنب فى حقه ؟

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى كتابه « جامع العلوم والحكم » (ص٢٧) من دعاء مطرف بن عبد الله أنه كان يقول : اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ثم لم أف لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ما قد علمت .

وقوله : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ (٥٥) ﴾ [غافر] العشى : الوقت من بعد صلاة الظهر إلى آخر النهار ، والإبكار من الفجر إلى الضحى ، فالمعنى : كُنْ دائماً مُسبِّحاً بحمد ربك .

وإذا كان الأمر هنا للرسول ﷺ ومَنْ معه من المؤمنين الذين اشتركوا معه فى العشىِّ والإبكار ، فهو من ناحية أخرى أمرٌ للناس كافَّة فى الزمان وفى المكان لعموم رسالته ﷺ .

إذن : فالعشىُّ والإبكار هنا شائع فى الزمان كله والمكان كله ، فكلٌّ له عشىٌّ وإبكار يناسب زمانه ومكانه ، وهذا يعنى أنْ يظلَّ تسبيحُ الله شائعاً فى الزمان والمكان مستمراً لا ينقطع أبداً ، هذا إذا نظرنا إلى اختلاف الأوقات من مكان لمكان .

لذلك قلنا : إن رَبْط التكاليف والعبادات بدورة الهلال يُراد بها استدامة دورة العبادة لله تعالى ، فلو كانت مرتبطة بالشمس كانت تتحد الأوقات عند الناس ، إنما بحساب الهلال ترى أن هذا يصلى الصبح ، فى نفس الوقت الذى يصلى فيه آخرُ الظهر ، وآخرُ العصرَ ، وآخر المغربَ ، وهكذا ، إذن : فالحق سبحانه معبود فى كلِّ وقت بكل وقت .

ومعنى ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ (٥٥) ﴾ [غافر] يعنى : تسبيحاً موصولاً بالحمد ، لأن التسبيحَ تنزيهٌ لله تعالى ، وما دام الحق مُنزَّهاً عن كل النقائص فثمرة هذا التنزيه عائدة عليك أنت ، أنت المستفيد من كوْن ربك الذى آمنت به واحداً مُنزَّهاً عن النقائص .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾

الجدل : هو المراء والأخذ والردّ ، مأخوذ من جَدْل الحبل وفَتْله ، والفتْل عملية تتماسك فيها الخيوط ، وتتداخل بعضها فى بعض بعد أنْ كانت هشَّة متفرقة ، فالجَدْل يحمل معنى التقوية ، تقوية الرأى بالرأى .

والجدل منه جدل بنَّاء يهدف للوصول إلى الحق ، وجدل مراء لا فائدةَ منه ، جدل الحق جدل بسلطان يعنى : حجة وبرهان ، وجدل المراء بالباطل . يعنى : بدون سلطان ولا حجة ، والسلطان إما أن يكون سلطانَ قهر يحملك ويُرغمك ويقهرك على الشىء ، وإما سلطان حجة وإقناع ، سلطان القهر يجعلك تفعل وأنت كاره مُجبر ، وسلطان الإقناع والحجة يجعلك تفعل وأنت راضٍ مقتنع .

لذلك قال عدو الله إبليس : ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم]

يعنى : لم يكن عندى سلطان قهر أقهركم به على المعصية ، ولا سلطان حُجة وإقناع أقنعكم به .

لذلك قلنا فى آية السجود لآدم أن الحق سبحانه قال مرة ﴿مَا

مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ (٧٥) ﴾ [ص] وفى موضع آخـر قال : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ (١٢) ﴾ [الأعراف] فواحـدة بالإثبات والأخرى بـالنفى ، كيف ؟ يعنى : هل جئتَ لـتسجـد فجاءت قـوةٌ منعتك من السجـود ؟ أم قوةٌ أقنعتك بعدم السجود فلم تسجد وأنت رَاضٍ مُقتنع بذلك ؟

ومـعنـــى ﴿ فِي آيَاتِ اللَّهِ (٥٦) ﴾ [غافـر] قلـنا : إنهـا على ثلاثة أقسام :

آيات كـونيـة لإثبات الوجـود الأعـلى وقـدرته وبديـع صنعـه ، ومن هذه الآيات الكونيـة الشمـس والقمـر والنجوم والأرض والهـواء والماء .. الخ .

الثـانية : هى المـعجـزات التى يجعلهـا الله للرسل لإثبـات صدق الرسول فى البلاغ عن الله .

والثـالـثـة : هى آيات القـرآن الـكريم التى تحـمـل أحكام الله إلى الناس ، وتحمل منهج الله بافعل ولا تفعل .

ففى أىٍّ هذه الأنواع يجادلون ؟ قالوا : يجـادلون فى المعجزات ، وفى آيات الأحكام ، أما الآيات الكونية فليستْ مجالاً للجدل .

وقوله :﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ (٥٦) ﴾ [غافر] هل يعنى هذا أن هناك جدلاً فى آيات الله بسلطان ؟ قـالوا : بل المعنى أنه مـمتنع أى : ليس فى آيات الله جدل ، المسألة ﴿ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ (٥٦) ﴾ [غافر] هذا هو السـبب ، ومصـدر الجدل فى آيات الله ، كِـبْر فى صـدورهم يمنعهم من قـبول الحق ، ويمنعهم أنْ ينقـادوا لرجل منهم ربما ظنوا أنهم أفضل منه .

لذلك فى بعض الآيات يوضح الحق سبحانه أنهم يؤمنون بالقرآن ، لكن اعتراضهم هو على رسول الله كشخص جاء بالرسالة ، وهو واحد من عامة القوم ليس بأعظمهم ولا أغناهم ، يقول تعالى يحكى على لسان الكفار : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

وفى موضع آخر ينكرون الجميع ويقولون : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال] وكان المنطق أن يقولوا : فاهدنا إليه .

وهذا القول منهم دليلٌ على أنهم كارهون للدين جملة ، لأن قلوبهم مشغولةٌ بقضية مخالفة هى شركهم بالله وعبادتهم الأصنام ، هذه العبادة التى شَبُّوا عليها وتوارثوها ، وإذا شُغل الإنسان بالباطل لا يمكن أن يهدى للحق إلا إذا أخرجتَ القضية الباطلة من قلبه أولاً ، عندها يسمح للحق أنْ يدخل .

لذلك يوضح لنا الحق سبحانه أن مسألة العقائد لا تُنَاقش فى جمهرة الناس ، إنما تتأملها بينك وبين نفسك ، وإنْ كان لا بدَّ من المشاركة ، فواحد فقط ، لماذا ؟ لأنك حين تجلس بمفردك أو مع شخص واحد معك يثمر النقاش ولا تتسع دائرة الخلاف ، فيكون أدْعَى للوصول إلى الصواب ، وإذا انهزم واحدٌ منكما فلن ينهزم أمام جمهرة الناس ، وساعتها لن يكابر ولن يعاند وسيعود إلى الحق ويرجع إليه دون حرج .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ

وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ[1] (٤٦)﴾ [سبأ] يعنى : لا تبحثوا مسائل العقيدة جماهيرياً ؛ لأن الجماهير لا ضابط لها ، وتفكيرها الجماعى يؤدى إلى الخَلْط والغوغائية ، فكُنْ بمفردك حتى لا يداخلك هَوَىً فتميل معه .

والكبر فى قوله تعالى :﴿إِنْ فِى صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ (٥٦)﴾ [غافر] إنْ بمعنى ما فى صدورهم إلا كِبْر . يعنى : تَعَالٍ على الحق الذى يأتى به الرسول ، هذا الكبر أو التكبر هو الذى منعهم من الاستماع للرسول ، وجعلهم يتغالوْنَ عليه ، ذلك لأنهم كانوا فى مجتمعهم سادةً ، واستماعهم لرسول الله وطاعتهم له سيجعلهم مسُودين لمن يسمعون منه ويطيعونه .

ومعلوم أن قريشاً كان لها السيادة على كافة العرب ، هذه السيادة جعلتهم متمكنين من رحلاتهم التجارية بالشتاء والصيف ، ويتنقلون بها دون أنْ يتعرَّض لهم أحد ، لماذا ؟

لأن قبائل العرب جميعها تأتى إلى قريش فى مكة موسم الحج ، ويكونون فى ضيافة قريش ورعايتها وفى باطنها ، فالبيت الحرام وحجه هو الذى أعطى قريشاً هذه المكانة وهذه المهابة ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾ [قريش]

وقال سبحانه : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ .. (٦٧)﴾ [العنكبوت]

---

(١) الجِنَّة : الجنون . وتجنن عليه وتجانن وتجانّ : أرى من نفسه أنه مجنون . قاله الأزهرى فى الصحاح مادة جن .

والدليل على ذلك أنهم لما رأوا فى الأصنام آلهةً لا أوامرَ لها ولا تكاليفَ رَضُوا بها وعبدوها من دون الله ، ومع ذلك لما أرادوا مكاناً يكرمون به هذه الآلهة لم يجدوا إلا الكعبة يضعون أصنامهم حولها ، إذن : فالكعبة لها قداسة عندهم رغم كفرهم بالله .

هذا هو الكِبْر الذى منعهم من قبول الحق ، وهذا الكبر وصفه الله بقوله ﴿ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر] يعنى : ليس عندهم دواعى الكبر ، فهو كِبْر كاذب لأن الذى يتكبَّر ينبغى أن يتكبر بشىء ذاتى فيه لا بشىء عارض ربما يُسلب منه ، فهو كبر كاذب كمَنْ يتكبّر بقوته وعافيته أو بماله أو بسلطانه .

وقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر] لأن الاستعاذة بالله تعنى أن شيئاً جاء فوق أسبابك المادية فلا تقفْ أمامه مكتوفَ الأيدى ، إنما توجَّه إلى ربك الذى أرسلك وقُلْ له : إن هذا الأمر أعجزنى وفاقَ طاقتى فاحمله عنى ، لذلك قال سبحانه : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل]

فإذا عزَّتْ الأسباب فتوجَّه إلى المسبِّب ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر] هذان من صفات الكمال المطلق لله تعالى السمع والبصر ؛ لأن كل حركات جوارح الإنسان عملٌ ، فاللسان له عمل ، واليد لها عمل ، والرِّجْل لها عمل .

وهذا العمل ينقسم إلى قسمين : إما قول وإما فعل ، القول أخذ وحده شطر العمل وهو عمل اللسان ، وباقى الجوارح عملها يُسمى (فعل) .

لذلك قال تعالى : ﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ

﴿ ٢ ﴾ [الصف] فذكر القول والفعل ، وكله يُسمَّى عملاً ، فالسمع لما يُقال ، والبصر لما يُفعل ، فالحق سبحانه يُبيِّن لرسوله ﷺ منزلة الاستعاذة ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر] لأنه سميع لكل ما يُقال ، بصير بكلِّ ما يُفعل .

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

اللام فى (لَخَلْقُ) تدل على القسم ، وكأن الحق سبحانه يقول : وعزَّتى وجلالى لخَلْق السموات والأرض أكبر من خَلْق الناس ، كيف ؟ قالوا : لأن الناس فى الدنيا أعمارهم متفاوتة : واحد عمره لحظة ، وواحد عمره ساعة ، وواحد عمره مائة عام إلى عمر نوح عليه السلام ، فأين عمرى من عمر الشمس مع أنها خُلقتْ لخدمتى ، أيكون الخادم أطولَ عمراً من المخدوم ؟

إذن : لا بدَّ أن لك عمراً آخر باقياً بعد ذهاب الشمس وغيرها من المخلوقات التى تخدمك ، وهذا لا يكون إلا فى الآخرة . قالوا : العمر له طول لا يعلمه إلا الله وله عَرْض قد يفوق الطول ، وكذلك جعل له حجماً وعمقاً ، فالله الذى حدد العمر زمناً من الممكن أنّ الإنسان يأخذ عمره طولاً ، لكن يمكنه أن يزيد فى عرضه فيكون العرض هو البُعد الأطول ، بمعنى أن يوسع دائرة نشاطه لينفع نفسه وينفع مجتمعه ويبقى له ذكرى طيبة بعد موته ، فكأنه أضاف بنشاطه إلى عمره أعماراً .

لذلك نقول : إن أوطان الناس تتحدد على قدر هممهم ، فواحد وطنه نفسه يريد كل شىء له وهو ليس لأحد ، وهذا هو الأنانى ،

وواحد وطنه أسرته ، وآخر وطنه قبيلته ، وآخر وطنه بلده ، وواحد وطنه العالم كله ، فكلما ازدادت الهمّة اتسعتْ دائرة الوطن وزادتْ رقعته .

وحين نقول : إن الشمس أطولُ عمراً منى نلاحظ أنك أيها الإنسان كائن حَىّ تأكل وتشرب ، أما الشمس فجماد لا تأكل ولا تشرب ، أنت لك قانونُ صيانة ويعتريك المرضُ وغيره لأنك ابنُ أغيار ، أما الشمس فليس لها شئ من هذا فليس لها قانون صيانة ولا يعتريها ما يعتريك ، وهى منذ خلقها الله تعمل دون توقّف ودون خلَل ودون صيانة ، والآلة التى بهذا الوصف تدل على قدرة خالقها وعظمة مبدعها .

لذلك نقول : إذا نظرنا إلى خَلْق السموات والأرض لوجدناه فعلاً أكبر من خَلْق الناس : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [غافر] لكن ما معنى (لاَ يَعْلَمُونَ) الكون يقع تحت حواسّنا ، ونراه بأعيننا ، وكان ينبغى حين نرى هذا الكون بما فيه من إبداع أن نفكر فيه ، وفى عظمة خَلْقه ودقَّة نظامه ، وكم هو محكم منضبط لا يتخلف أبداً .

ألسنا الآن بالعلم نستطيع أنْ نحدد وقت الكسوف مثلاً بالدقيقة والثانية ؟ وكأن الحق سبحانه جنَّد حتى غير المسلمين لإظهار صدق آياته الكونية ، وكيف أنها منضبطة انضباطاً لا يمكن لأحد أنْ يفسده، لذلك قلنا : إنك إذا رأيت خللاً أو فساداً فى الكون فاعلم أن يد الإنسان المختار تدخلتْ فيه ، والشئ الذى نتركه على طبيعته لا يمكن أنْ نرى فيه خللاً أو فساداً .

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) ﴾

نعم لا يستوى مَنْ يهمل آيات الله ولا يتأملها مع مَنْ يفكر فيها ويستنبط منها ويهتدى بها ، فالذى لا يتفكر فى هذه الآيات مثل الأعمى لأنه لا يتنبه لآيات الكون التى هى أكبر من خَلْق الناس ، وإذا كانت هذه الآيات الكونية أكبر فى الخَلْق وأعظم من خلق الناس ، فكيف تغفل عنها ، ومنها يمكن أن تأخذ الدليل على وجود واجب الوجود الأعلى سبحانه ، وعلى طلاقة قدرته وإبداع صنعته .

وكما أنه لا يستوى الأعمى والبصير ، كذلك لا يستوى عند الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات مع المسىء ، وهذا مظهر من مظاهر عَدْله سبحانه :﴿ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) ﴾ [غافر] يعنى : قليلٌ منكم مَنْ يتذكر ذلك .

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩) ﴾

يُذكِّرنا الحق سبحانه بهذه الحقيقة التى طالما تغيب عن الأذهان ، وكان يجب عليكم ألاَّ تغفلوا عنها ، لأن المسألة ليستْ مجرد علم بشىء ، إنما المسألة أبعد من ذلك ، إنه احتياط لما سيحدث ولما سيأتيكم .

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ (٥٩) ﴾ [غافر] أى : القيامة ﴿ لاَّ رَيْبَ فِيهَا (٥٩) ﴾ [غافر] لا شكَّ ، وما دام أن الساعة آتية لا شكّ فيها فلا بدَّ أن نستعدّ لها ، فلو كنتَ قد خُلقت وتُركتَ هكذا وانفلتَّ من الله لكانَ لك أنْ تفعل ما تشاء ، لكن ماذا وأنت لك مرجع إلى ربك ومردٌّ إلى

خالقك ، وموقفٌ للحساب والجزاء ؟ إذن : لا مفر لك من أن تحمى آخرتك ، وهى الغاية العظمى التى ليس بعدها بعد .

وقوله : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (٥٩) ﴾ [غافر] أى : لا يعلمون هذه الحقائق أو يغفلون عنها ، مع أن العقل المجرد لا بدَّ أنْ يهتدى ويعتقد بوجود الساعة والحساب والجزاء ، لماذا ؟ لأنك حين تنظر إلى الكون تجد المرتبط فيه بمنهج افعل ولا تفعل ، ويسير وفْق هذا المنهج تجده مُؤدَّباً مع الكون منْ حوله لا يأتى منه فساد ولا تعدٍّ ، وتجد المنحلَّ الذى انفلتَ من هذا المنهج مصدرَ إزعاج وفساد للكون من حوله ، فهل يستويان فى العقل مجرد العقل ؟

هل يستوى المصلح والمفسد ؟ مَنْ عربد فى الكون وآذى خَلْق الله وأتعب الدنيا كلها ومَنْ أصلح الكون وأسعد الناس وأعانهم ؟ ثم ألسْنَا فى عملية التعليم نُجرى للتلاميذ اختبارات آخر العام ونقول : هذا ناجح ، وهذا راسب ؟ ألسنا نضع فى دنيانا قواعدَ للثواب والعقاب تقضى بمكافأة المحسن ومعاقبة المسىء ؟

إذن : فلماذا ننكر الحساب يوم القيامة يوم يُجازى كُلٌّ بما عمل ، حتى الناس الذين لا يؤمنون بالآخرة يؤمنون بمبدأ الثواب والعقاب ، وعندهم عقوبات على الجرائم ضد المجتمع لتأديب الخارجين على القانون ، فإذا كنتَ فى دنياك جعلتَ العقوبات وجرَّمت بعض الأفعال وعاقبتَ عليها لتستقيم حركة حياتك الدنيا ، فلم تنكر هذا المبدأ مع الله فى الآخرة ؟

أيُعقل أن تكون حركة الناس جميعاً فى الدنيا من أولها إلى آخرها متروكة هكذا دون حساب ، دون ثواب للمحسن وعقاب للمسىء .

والله ، لو كان الأمر كما يدَّعُون وينكرون فقد فاز المنحرفون المجرمون ، وربح المخالفون الخارجون على القانون والدين ، حيث فعلوا ما فعلوا ، وظلموا ما ظلموا ، وأفلتوا بجرائمهم ، وما خسر فى هذه الصفقة إلا المؤمنون والمستقيمون الذين ألزموا أنفسهم بمنهج دون فائدة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [غافر]

يعنى : أن المسألة ليستْ قائمة على العقل إنما على الإيمان ، فلو تركتْ للعقل لقلنا ما قلناه الآن ، لكن أمرَ الساعة قائمٌ على الإيمان والعقيدة ، والذى يريد ألاَّ يرتبط بالإيمان وأنْ ينفلت من قيوده يريد ألاَّ يقيد حركته فى الوجود بمنهج افعل ولا تفعل ، يريد أن يكون حُراً يسير فى الحياة على هواه .

لذلك قلنا : إن الذين عبدوا الشجر والحجر عبدوها لأنها آلهة لا منهج لها ولا تكاليف ، وهذه العبادة فى معناها باطلة ، لأن العبادةَ تعنى : طاعة العابد لأمر المعبود ، فهذه الآلهة التى تزعمونها بِمَ أمرتكم ؟ وعمَّ نهتكم ؟ ماذا أعدَّتْ لمن عبدها ؟ وماذا أعدتْ لمن كفر بها ؟

إذن : أنتم ما ارتضيتُم هذه الآلهة إلا لتسيروا فى الحياة بلا قيود ، وبلا تكاليف ، وبلا منهج وبلا ضابط لشهواتكم .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

معنى ﴿ رَبُّكُمُ (٦٠) ﴾ [غافر] من تولى تربيتكم ، والتربية هنا تعنى الإيجاد من العدم والإمداد من عُدْم ، وما دام هو ربى فأنا مسئولٌ منه يضمن لى رزقى وعيشى فى الدنيا ، وقبل ذلك أعطانى الجوارح التى تعمل ، والأعضاء التى بها أعيش ، فهو ربى وخالقى الذى استدعانى للكون ، ووفَّر لى فيه أسبابَ الحياة .

لذلك لما أراد سبحانه أنْ يجعل نموذجاً فى الكونِ جعله بحيث يتعاطف الكونُ مع ذاته ويتكامل فى نفسه ، فجعل هذا قوياً ، وهذا ضعيفاً ، هذا صحيحاً وهذا مريضاً .

فالقوى حركته فى الحياة حركة كاملة قوية تزيد عن حاجته ، وقال له : ما زاد عن حاجتك اجعله للضعيف الذى لا يقدر على الحركة ، والخالق سبحانه قادر على جَعْل الناس جميعاً أقوياء ، لكن أراد أنْ يرتبط الخَلْق فى حركة الحياة ارتباطَ حاجة لا ارتباطَ تفضُّل ؛ لأن الارتباط لا يأتى بقانون التفضُّل ، فالتفضل لا إلزامَ فيه ، والمتفضل بالشىء حُرٌّ ، يفعل أو لا يفعل .

وقوله : ﴿ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ (٦٠) ﴾ [غافر] يعنى : فيما عجزتُم عن أسبابه ولن تقدروا عليه ، ولم تجدوا من بيئتكم عَوْناً عليه ، فليس لكم إلا التوجُّه إلىَّ تدعوننى ، فأستجيب ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ (٦٢) ﴾ [النمل] فأنا ربكم وخالقكم استدعيتُكم إلى الوجود ومنحتكم الأسباب والجوارح ، واستخلفتكم فى الأرض ، فليس لكم ملجأ غيرى تلجأون إليه إنْ عزَّت عليكم الأسباب .

أما إنْ كانت الأسبابُ ميسَّرة لكم ، وقام كلٌّ مكلَّف بدوره ، فلا تتركوا الأسباب وتقولوا : يا ربّ ، عليكم بما فى أيديكم من الأسباب

أولاً ، زاولوها فإنْ ضاقتْ بكم فاذهبوا إلى المسبِّب .

لكن نلحظ فى هذه المسألة أن الله تعالى أمرنا بالدعاء ووعدنا الإجابة ، ومع ذلك منا مَنْ يدعو فلا يُستجاب له ، فلماذا ؟ قالوا : لأنك تدعو وأنت غير مُضطر ، فلو كنتَ فى حالة الاضطرار لاستُجيبَ لك . أنت تسكن فى مسكن محترم وتدعو الله أن يكون لك (ڤيلا) أو قصر ، فإنْ أعطاك القصر قلت : أريد عمارة تصرف على القصر ، هذا دعاء عن ترف لا عن اضطرار ، والإجابة هنا مشروطة بالمضطر.

والحق سبحانه وتعالى لا يُعفى عبداً من مسئولية استطراق النفع للعباد ، قالوا : لأن الواجد يبذل ، وغير الواجد ينصح الواجد ، فإنْ نصحت دون جدوى فلن تبرأ ذمتك حتى بعد ذلك .

ولو قرأتَ القرآن تجد قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) ﴾ [التوبة]

متى هذا ؟ قالوا : إذا لم يكن عندك مال لا بدَّ أنْ تنصح ﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ (٩١) ﴾ [التوبة] نصحت ولم يستجب لك . قالوا : اقدر على نفسك ، كيف ؟ ﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ[1]

---

(١) قال الواحدى فى كتابه « أسباب النزول » (ص ١٤٨) : « نزلت فى البكائين وكانوا سبعة : معقل بن يسار وصخر بن خنيس وعبد الله بن كعب الأنصارى وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن مغفل أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا نبى الله إن الله عز وجل قد ندبنا للخروج معك ، فاحملنا على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة نغزُ معك ، فقال لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا وهم يبكون » .

﴿ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾ [التوبة] فهل أعفى أحداً ؟ لا بل حثَّ الجميع على أنْ يفعلوا : إما بذل المال ، وإما بذل المقال ، فإذا لم تستطع هذا ولا ذاك فيجب أنْ تحزن لأنك لم تشارك ، ولا يكفى هنا الألم الوجدانى ، بل لا بدَّ أنْ يصحبه انفعال عاطفى ينتج عنه بكاء ، تبكى أنك لم تجد شيئاً تنفقه فى سبيل الله .

إذن : المسألة استطراق نفعى فى الكون ، هذا الاستطراق لا يدعُ أحداً منا فى حاجة .

وبعد ذلك نقول له : أأنت فقير عَجْز أم احتراف ؟ إنْ كان فقير احتراف لا يُحسب ولا يُؤْبه له ، وإنْ كان فقير عجز فله أنْ يجلس فى بيته مُعززاً مكرَّماً ، والغنى هو الذى يذهب إليه ويعطيه حقَّه ، فالقادر إذن أصبح فى خدمة غير القادر .

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) ﴾ [غافر] معنى : ﴿ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي (٦٠) ﴾ [غافر] أى : عن دعائى والذلة لى ، وإظهار الحاجة إلىّ ، لذلك قال أهل المعرفة : لا يكُنْ حظك من الدعاء أنْ تُجاب ، لكن اجعل حظك من الدعاء ذلةَ محتاجٍ لمن معه الخير ، هذه هى معنى العبادة هنا ؟

لذلك تجد ربك عز وجل دائماً يُصحِّح لك خطأك فى الدعاء : ﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾ [الإسراء]

فقد تدعو أنت لنفسك بشرٍّ تحسبه خيراً ، ومن رحمة الله بك ألاّ

يستجيب لك ، لذلك قلنا فى الثناء على الله تعالى : سبحانك يا مَنْ تُصوِّب خطأ الداعين بألاَّ تستجيب ، وبذلك حميتنا من الضر ، فكم يدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير .

وقلنا فى ذلك : ما حال المرأة التى نسمعها تدعو على ولدها تقول : إلهى أشرب نارك ؟ فمن رحمة الله بها ألاَّ يستجيب لها ، إذن فى المتع هنا عطاء .

لكن لماذا ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر] أى : منكسرين صاغرين أذلاء ، قالوا : لأنك لا تدعو واحداً إلا إذا كنتَ مطيعاً له ، لأن الدعاء والعبادة متساويان ، لذلك قال ﷺ : « كل أمر لا يُبدأ باسم الله فهو أبتر »[1] يعنى : لا بركة فيه .

وعلمنا أن نقول : بسم الله الرحمن الرحيم . يعنى : أنا أبدأ عملى ببسم الله لكى تكون يد الله معى فى الفعل ، فما معنى (الرحمن الرحيم) هنا ؟

قالوا : ربما كنت عاصياً فأذكر له سبحانه صفة الرحمة ، لأنه سبحانه لا يتخلَّى عن عبده حتى لو كان عاصياً ، فهؤلاء سيدخلون النار داخرين أذلاء لأنهم استنكفوا[2] أنْ يدعوا الله واستكبروا عن عبادته ، فالنار جزاء الاستكبار .

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٥٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه : « كل كلام أو أمر ذى بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر . أو قال : أقطع » .

(٢) استنكفوا : أى امتنعوا وأنفوا وكرهوا واستكبروا أن يدعوا الله ويعبدوه .

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ(١) لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ﴾

الحق سبحانه يذكر هنا آيتين من آياته الكونية هما آية الليل وآية النهار ، الليل نعلمه وهو من مغيب الشمس إلى شروقها ، والنهار نعلمه وهو من شروق الشمس إلى غروبها ، هذا زمن والزمن وعاء الأحداث ، وما دام الزمن وعاءَ الأحداث فلكلٍّ حدث زمنٌ يقع فيه .

فالحدث الذى يحتاج عملاً له وقت ، فحين تعمل بالنهار تتعب جوارحك وتحتاج إلى وقت للراحة ، فجعل لك الخالق سبحانه الليل تستريح فيه والنهار تعمل فيه ، تستريح بالليل لتستعيد قوتك ونشاطك للعمل فى النهار التالى ، وهكذا .

فإنْ طرأتْ عليك ظروف منعتْك من راحة الليل ، فكيف تكون بالنهار ؟ تكون متعباً لا توجد لك قوة تعالج بها شيئاً ، فكأن الله تعالى يريد أن يُعلِّمنا أن من خلقه متقابلات ، ومن حُمْق البشر أنْ جعلوها متعاديات ، وهى فى الحقيقة متكاملات .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ(٢) (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل]

---

(١) جعل هنا بمعنى خلق . والعرب تفرق بين جعل إذا كانت بمعنى خلق وبين جعل إذا لم تكن بمعنى خلق فإذا كانت بمعنى خلق فلا تعديها إلا إلى مفعول واحد ، وإذا لم تكن بمعنى خلق عدَّتها إلى مفعولين . نحو قوله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا .. (٣) ﴾ [الزخرف] . [تفسير القرطبى ٥٩٧٨/٨] .

(٢) تجلى : ظهر ظهوراً قوياً وتبدى وتكشَّف . [القاموس القويم ١٢٦/١] وقال ابن كثير فى تفسيره (٥١٨/٤) : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) ﴾[الليل] أى : بضيائه وإشراقه .

وهذا يعنى أن لليل مهمة ، وللنهار مهمة ، وللذكر مهمة ، وللأنثى مهمة ، فلا تظنوا عداءً بين الليل والنهار ، ولا بَيْنَ الذكر والأنثى ، فكُلٌّ منهما مكمِّل للآخر وبينهما تساند لا تعاند كما يظن البعض .

لذلك يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا[1] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص]

وتأمل تذييل الآية هنا وهنا : ففى الليل قال ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)﴾ [القصص] لأن الليل تتعطل فيه حاسة البصر ، وتبقى الأذن تسمع ، وهى آلة الاستدعاء ليلاً ، أما فى النهار فقال : ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص] لأن البصر يكون فى النهار .

كلمة سرمد ، بعض المفسرين يرى أن الليل ليس سرمداً ، كذلك النهار بمعنى أنه ليس دائماً مضطرداً ، لكن إذا نظرنا إلى حركة الأرض وتعاقُب الليل والنهار وجدنا فيهما سرمدية ، لأن الليل حين يغادرنا يذهب إلى آخرين لا أنه سرمد وينتهى .

فهما إذن دائمان سرمديان ، لكن السرمدية المنفعية هى السرمدية بالنسبة للمكان الواحد ، فلهما سرمدية فى ذاتهما سرمدية فى كل مكان ، أمَّا سرمدية المكان الواحد فتنتهى لتبدأ فى مكان آخر .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن

---

(١) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . وليل سرمد : طويل . وقال الزجاج : السرمد الدائم فى اللغة . والسرمد : الدائم الذى لا ينقطع . [لسان العرب - مادة : سرمد] .

يذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان] خلفة : يعنى يخلف كلّ منهما الآخر ، فالليل يخلف النهار ، والنهار يخلف الليل ، هذا الآن واضح لنا كآية كونية ، لكن ماذا عن بَدْء الخَلْق أيّهما كان أولاً وخلفه الآخر؟

قالوا : فى البدء خلقهما الله معاً فى وقت واحد ، لأن الشمس خُلقت مواجهة للأرض ، فما كان من الأرض ناحية الشمس كان نهاراً ، وما حُجِب عنها فى الناحية الأخرى كان ليلاً ، ثم دارتْ الأرض فى فلكها فتعاقب الليل والنهار ، وهذا دليل على كروية الأرض ولو كانت مسطحة ما أمكن ذلك .

والعظمة فى قوله : ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴿٦١﴾ ﴾ [غافر] أى : مُبصَراً فيه ، وقديماً كانوا يعتقدون أن شعاع الرؤية يخرج من العين إلى المرئى ، إلى أنْ جاء العالم المسلم الحسن بن الهيثم[1] وأثبت عكس ذلك ، وبيَّن أن الشعاع يأتى من الشيء المرئى إلى العين فتراه ، بدليل أنك لا ترى ما فى الظلام وترى ما فى النور حتى لو كنتَ أنت فى ظلام ، لأن الشعاع ينعكس من المرئى فتراه .

وعليه فالنهار نفسه (مُبصراً) : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴿٦١﴾ ﴾ [غافر] نعم الله صاحب الفضل والتفضل على الناس جميعاً ، لأنه سبحانه أعطاهم بلا حَقٍّ لهم عليه سبحانه ، فهو متفضل فى

(١) الحسن بن الهيثم : محمد بن الحسن بن الهيثم أبو على ، مهندس من أهل البصرة ، يلقب ببطليموس الثانى ، له تصانيف فى الهندسة ، بلغ خبره الحاكم بأمر الله الفاطمى ونقل إليه : لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملاً يحصل به النفع فى حالتى زيادته ونقصه فدعاه إلى مصر ووصل إلى جنوب أسوان وأشار ببناء سد هناك ولكنه لم يستطع تنفيذه . كتبه كثيرة تزيد على السبعين منها المناظر . ولد ٣٥٤ هـ وتوفى نحو ٤٣٠ هـ . [الأعلام للزركلى ٦/٨٣] .

الإيجاد من عدَم ، ومتفضل فى الإمداد من عُدْم ، ومتفضل فى التكليف ، نعم حتى فى التكليف متفضل ، كيف ؟

قالوا : لأنه حين كلّفك كلّفك بشىء يعود نفعه عليك أنت ، ولا ينتفع هو منه بشىء ، ثم بعد ذلك جازاك عليه ، وجعل لك ثواباً ، فكأنه سبحانه تفضَّل عليك فى التكليف مرتين .

وقوله : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٦١) ﴾ [غافر] هذا يعنى أن القلة هى الشاكرة ، ويُعرف الشكر بزيادة النعم ، فالشكر وزيادة النعمة متلازمان ، وقد وعد الحق سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ (٧) ﴾ [إبراهيم]

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ (٦٢) ﴾ [غافر] إشارة إليه سبحانه . أى : الذى فعل لكم كذا وكذا ، وتفضَّل عليكم هو الله ربكم ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢) ﴾ [غافر] وهذه مسألة لم ينكرها أحد ، ولم يدَّعها أحدٌ لنفسه ﴿ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ (٦٢) ﴾ [غافر] هكذا حكم بها الحق سبحانه لنفسه بأنه لا إله إلا هو .

إذن : فأنت تؤمن بالله ، والله سبحانه آمن بذاته ، وشهد لنفسه بهذا ، شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو قبل أنْ يشهد بها أحد ، لذلك يطلق سبحانه كلمة كُنْ ، ويعلم أنها نافذة لأنها كلمته وليس لها معارض ، وليس هناك إله آخر يردّها أو يُعدِّلها أو يعترض عليها .

قال تعـالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمـران] قالوا : شهد الله لنفسه سبحانه شهادةَ الذات للذات ، وشهدت الملائكة شهادةَ المشهد ، وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال .

والحق سبحانه ساعة يقول ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ [غافر] يطلقها هكذا قضية عامة على إطلاقها ، نقول : إما أنْ تكون قضية صادقة أو غير ذلك - وحاشا لله - فإنْ كانت صـادقة فقد ثبـتت الحجة ، وإنْ كانت غير ذلك فأين خالق كل شيء ؟

أين خالق هذا الكون إذا لم يَكُنْ الله هو خـالقه ؟ مَنْ هو ؟ ولماذا سكت ولم يخبر عن نفسه ؟ إنْ كان لا يدرى بوجود الله فهو إله نائم غافل لا يصلح للألوهيـة ، وإنْ كان يدرى بوجود الله الذى أخـبر هذا الخبر ولم يعارضه فهو عاجز ، والإله لا يكون أبداً عاجزاً .

لذلك قال سبـحانهُ مؤكِّداً على صحة هذه القـضية : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء] يعنى : لذهبـوا إلى الإله الـحق ليناقـشـوه كـيف أخذ مـنهم الخَلْق ؟ وكيف ادعاه لنفسه ؟ وهذا لم يحدث .

وقوله : ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [غافر] أى : تُصرفون عن الحق الذى يقول بـه العقل وتثبـته الـحجج والبراهين والواقع ، فـالحق فى هذه القضيـة واضح ، وقد أطلقت هذه القضية وأخـبرت بها ولم يَقُمْ لها مـعارض ، ولم يدَّعـها أحـدٌ لنفســه ، ومعلوم أن القـضية تـثبت لصاحبها ما دام ليس لها معارضٌ .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة وقلنا : هَبْ أن جماعة جلسوا فى

مكان ، ولما انصرفوا وجد صاحب المكان محفظة نقود فقال لخادمه : ابحث عن صاحب هذه المحفظة ، فأخذ الخادم يتصل بهم واحداً واحداً فلم يقُلْ أحد منهم أنها لى ، ثم طرق البابَ واحدٌ منهم . وقال : والله لقد نسيتُ محفظتى هنا ، فلمن تكون إذن ؟ تكون لمن ادَّعاها إلى أنْ يظهر مُدَّعٍ آخر .

وقوله : ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣)﴾ [غافر] أى : يُصرفون عن هذا الحق الواضح البيِّن ، ومعنى يجحدون الآيات . أى : ينكرونها كِبراً واستعلاءً ، فهم لا يجحدونها ولا ينكرونها لدليل عندهم ولا لمنطق يعتمدون عليه ، إنما يجحدونها لأنها آياتُ الله وهم لا يريدون الله ، ولا يريدون منهج الله .

إنهم يخافون هذا المنهج الذى يُؤدِّب حركتهم فى الحياة ويُقيد شهواتهم ، إنهم يريدون أنْ ينطلقوا فى الحياة بشراسة القوة والبطش بالناس وبشراسة الشهوات التى لا ضابط لها ، فجحود الآيات هو سبب الانصراف عن الحق ، فكأنه أمر غير طبيعى منهم .

لذلك رأينا كفار قريش تكبروا عن قبول الحق وعاندوا رسول الله ، ولم ينطقوا أبداً بلا إله إلا الله ولو مجرد النطق بها ككلمة ، لماذا ؟ لأنهم يعرفون معناها تماماً ويعلمون مطلوباتها ، ولو كانوا يعلمون أنها مجرد كلمة تُقال لَقالوها ، لكنهم وهم العرب أصحاب هذه اللغة يعرفون أن معنى لا إله إلا الله : لا معبود إلا الله ، ولا سيادة ولا رأىَ إلا لله ، ولا حكم ولا خضوع إلا لله ، وكيف يقبلون بذلك وهم قد ألفوا السيادة على قبائل العرب ؟

وكلمة ﴿يُؤْفَكُ (٦٣)﴾ [غافر] من الإفك ، وهو الكذب وقَلْب

الحقائق ، والكذب أنْ تقول قضية مخالفة للواقع فكأنك تقلب الحقيقة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النجم] المؤتفكة : هى القرى[1] التى قَلَبها الله رأساً على عقب ، كذلك الكذب يقلب الحقائق ، فينكر الموجود ويثبت غير الموجود .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [غافر] أى : تُصرفون عن الحق الواضح كأن هذا أمر فطرى ، فبالفطرة يصل الإنسان إلى الله ، وما كان ينبغى أنْ يقف الإنسان أمام هذه القضية لأنها واضحة وعليها دليل ، وكل تعاليم العقائد كذلك أمور فطرية أولاً ، إنما ضَبَّب هذه الفطرة هوى النفوس والغفلة وأغيار الزمن .

فما جاء به الدليل والعقيدة أمور يصل إليها العقل بالفطرة والطبيعة الصافية ، بدليل أن الناس الذين لم يؤمنوا برسول فكَّروا فى هذه المسائل، وتوصَّلوا إلى وجود الخالق سبحانه لما تأملوا آياته فى كونه .

لذلك تجد مثلاً الفلاسفة الذين كانوا لا يحبون كلمة رسول ويقولون : نحن مهتدون بطبيعتنا ولسنا فى حاجة إلى رسل ، قالها سقراط[2] ، لذلك

---

(١) المؤتفكة هى قرى ومدائن قوم لوط قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ولهذا قال : ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النجم] يعنى : من الحجارة التى أرسلها عليهم [ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٥٩)] . قال ابن منظور فى لسان العرب (مادة : أفك) : « الائتفاك عند أهل العربية : الانقلاب كقريات قوم لوط التى ائتفكت بأهلها أى انقلبت » .

(٢) سقراط : فيلسوف ومعلم يونانى ، ولد ٤٦٩ قبل الميلاد وعاش فى أثينا ، عُرف عنه تواضعه فى مأكله ومشربه وملبسه ، وكان يعلم الناس فى الشوارع والأسواق والملاعب معتمداً على توجيه الأسئلة إلى مستمعيه ، أعدم باحتساء السم بتهمة إفساد الشباب على حكامه ، توفى عام ٣٩٩ قبل الميلاد عن ٧٠ عاماً . (موسوعة ويكيبيديا) .

ناقشه فيـها تلميذه (أرسطودين)[(١)] وعرض عليه من المسائل والآيات كما يعرض الدين تماماً .

قال له : انظر إلى نفسك وإلى تكـوينك فى ذاتك ، وتأمل ما فيك من جوارح ، لا أقول لك : انظر إلى الآيات الـكونية من حولك بل إلى نفـسك وجوارحـك فى ذاتك ، أليس لك حـواس ؟ قال : بلى ، قـال : اذكرها . قـال : لى عين تبـصر ، وأذن تسمع ، ولســان يتكلم ، ويد تلمس .. الخ .

قـال : فلماذا خُـلِق لك عينان وأذنان ولـسان واحـد ، أليس وراء ذلك حكمـة ؟ تأمل هذه الحـواس وتأمل الحكمة مـن خَلْقهـا على هذه الصـورة ، خلق لك عينين لاسـتيـعـاب المرئيـات من هنا ومن هنا ، وأذنين لاستيعاب المسموعات من هنا ومن هنا .

أما اللسان فيكفى فى القيام بمهمته لسان واحد به تتكلم وتعبِّر ، وبه تتذوق المطعـومات ، اللسـان على صِغَر حـجمه تتـذوَّق به الحار والبارد ، والحلو والمر ، ثم إذا التذَّ به ابتلعه ، وإذا لم يلتذ به يلفظه وكأنه (كنـترول) على كل ما تتـناوله ، ثم إن التذوق يحـفزك على الأكل ويُرغِّبك فـيه ، لأن به اسـتبقـاءَ الحيـاة والقوة التى نُحـقِّق بها مطلوب الله منَّا .

---

(١) المقصـود هو أرسطوقليس الملقب والمشتهر بـ (أفـلاطون) بسبب ضخامة جسمه وهو أشهر فلاسفة اليونان على الإطلاق ، ولد فى أثينا فى عائلة أرسطوقراطية (عاش بين ٤٢٧ قبل المـيلاد - ٣٤٧ ق.م.) ارتبط بمـعلمه سـقراط فى العشـرين من عمـره . تأثر كثـيراً بإعدام مـعلمه بحكم جائر وبُنيت فلسـفته على كيـفية سيـاسة الدولة بالفلسفة فكتب كـتابه (جمهورية أفلاطون) [انظر : قاموس ناتان الفلسفى - تاليف : جيرار دوروزوى وأندريه راسيل - تعريب : أكرم أنطاكى] .

ثم ألا ترى حكمة فى قُرْب مدخل الطعام من الأنف الذى يشمُّ ، والعين التى تبصر ؟ لقد خلقه الله على هذه الصورة البديعة لتتمكن من رؤيته ، ومن شَمِّ رائحته قبل أنْ تتناوله ، أما مخارج الطعام فأين هى ؟ بعيدة عن العين ، بعيدة عن الأنف ، حتى لا تؤذيك الفضلات . نعم ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات]

ثم تأمل العين الواحدة تجد لها جَفْناً ينقبض ، وينفتح حسب إرادتك ، وفوق العين حاجبٌ يمنع تساقط العرق داخل العين وتحت أهداب ورموش تدفع عن العين ما يؤذيها من الغبار والأتربة ، فإذا نفذ إلى العين شيء بعد ذلك ، جاءت الدموع لتمسح العين وتُطهِّرها كما تفعل (المسَّاحة) التى تمسح زجاج السيارة .

والأنف الذى نشم به الروائح الطيبة فى الطبيعة وبه نميز الأشياء ، والآن نستخدمه ونُوظف حاسة الشم عند الكلب مثلاً للكشف عن الجرائم والمجرمين .

هذا كله كلام نظرى يقوله بالفطرة إنسانٌ صَفَتْ نفسُه ، وسلمت فطرته ، فتوصَّل إلى الحق بقليل من التأمل .

إذن : فقوله تعالى ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢) ﴾ [غافر] تحمل معنى التعجب من الانصراف عن الحق ، لأنه أمر لا ينبغى أن يكون وما كان يصح من أصحاب العقول أن ينصرفوا عن الحق وهو واضح .

لذلك قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ .. (٢٨) ﴾ [البقرة] هذا استفهام تعجبىّ إنكارىّ ، يعنى : قولوا لنا كيف يتأتى منكم الكفر مع وجود هذه الآيات الواضحات الدالة على قدرة الله تعالى ؟

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [غافر] أى : مستقراً لكم تعيشون عليها ، وكلمة (لَكُمْ) أى : لكل العباد ، وهذه يشرحها قوله تعالى فى سورة الرحمن : ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الرحمن] هكذا على العموم ، فأىّ أرض وأى أنام ؟ لم يحدد .

إذن : فالأرض كل الأرض للأنام كل الأنام[1] ، لكن أهذا المبدأ هو واقع حياتنا ؟ لا ، وما حَلَّ الفساد بالعالم ، وما وقع الناسُ فى الأزمات وضيق العيش إلا بسبب عدم تطبيق هذا المبدأ .

ففى الكون الآن أرض بلا رجال ، وفى مناطق أخرى رجال بلا أرض ، والسبب فى ذلك تلك الحواجز التى وضعها البشر تحُول بين عباد الله وأرضه .

ولك أنْ تقرأ قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. ﴿٩٧﴾ ﴾ [النساء]

لكن يا رب ، كيف لنا أن نهاجر وقد جعلوا على الأبواب حواجزَ

---

(١) الأنام : الخَلْق . والأنام ما ظهر على الأرض من جميع الخلق . وقال المفسرون : هم الجن والإنس . [لسان العرب - مادة : أنم] .

وسدوداً وحدوداً وقوانينَ للدخـول ما أنزل الله بها من سلطان ؛ لذلك انظر إلى الخريطة وتأمل حدود الدول المختلفة تجدها حدوداً متداخلة وغـير منظمـة ، وفى بعض المناطق تجـد الحـدود غيـر واضحـة أو مُختلفاً عليها ، وفى بعض الـبلاد تجد الحدود بؤراً للخلاف والنزاعات بين الدول .

هذا إنْ دلَّ فإنمـا يدلّ على أن الأرض أرضٌ واحدة للجمـيع ، لما طرأ عليهـا الإنسان قسَّـمها وجـعل عليهـا حدوداً ، خلقهـا الله واحدة منفتحة واسعة ، حتى إذا ضـاقتْ عليك الأسبابُ فى بقعة منها فاذهب إلى أخرى وانطلق فى أرض الله ، وإذا لم يطبق هذا المبدأ الإلهى فلن تحلّ مشاكلنا ، وسوف تظلّ الأزمات تطحن الناس .

والاستقـرار فى الأرض على نوعين : استقرار للحيـاة والحركة ، واستقرار للراحة والهدوء ، فالواحد منا له بيت يعيش فيه ويأوى إليه وهو مُستقره ومكان راحته ومبيته ، لذلك نسميه بيتاً .

وله أرض يسعى فيـها ويطلب الرزق والحركة ؛ لذلك قـال سيدنا إبراهيم : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ (٣٧) ﴾ [إبراهيم] وقـال : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا (١٢٦) ﴾ [البقرة] فـالأولى قرار للمبيت وللراحـة ، والأخرى قـرار للحركة والسعى .

وتلحظ أن قـرار المبيت والراحة خـاصّ بك ، أما قـرار الحركـة فمـشترك مع غـيرك ، وأن الأرض ليست قـراراً لك فى حيـاتك الدنيا فحـسب ، إنما هى قـرار لك حتى بعـد موتك ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ (٥٥) ﴾ [طه]

وقوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴿٦٤﴾ ﴾ [غافر] أى : بناءً محكماً لا اختلالَ فيه ، والبناء معروف أنه يقوم على عمد تحمله ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد] إما بغير عمد موجودة أصلاً ، أو يوجد عمد تحملها لكنكم لا ترونها ، فالعمد موجودة لكن لا تدركها حواسُّكم .

فالسماء محمولة بقدرة الله سبحانه ، ولِمَ لا والأرض التى نعيش عليها ما هى إلا كُرة مُعلّقة فى الهواء ، فلِمَ لا تقع رغم ثقلها ؟

اقرأ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر] يعنى : لا أحدَ يمسكهما بعد الله .

ثم يعطينا الحق سبحانه مثلاً حسّياً يقرب لنا قدرة الله فى حمل السماء والأرض ، فيقول : خذوا من الحسِّيات التى تدركونها دليلاً على ما غاب عنكم ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ[1] وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ ﴿١٩﴾ ﴾ [الملك]

نعم ، نحن نرى الطير فى جو السماء يقف فى الجو بلا حركة هكذا ، ومع ذلك لا يقع ، فمَنْ يمسكه ؟ يمسكه ربه عز وجل بقدرته ، كذلك يمسك السموات والأرض بقدرته .

وقوله : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴿٦٤﴾ ﴾ [غافر] بعد أنْ تكلم سبحانه عن الأشياء الكونية الخارجة عنَّا كالليل والنهار

---

(١) صافات : باسطات أجنحتها . وصفَّت الطير فى السماء تصف : صفت أجنحتها ولم تحركها . [لسان العرب – مادة : صفف] .

والســمــاء والأرض يتكـلــم هنــا عن شىء فى أنـفـسنا ، لأنــه قــال سبـحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ[1] وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]

قوله : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ ﴿٦٤﴾ ﴾ [غافـر] أى : جعل لكم شكلاً مـميزاً تتميَّـزون به ، ثم جعل لكم سمات خاصــة تتميز بها الأشــخاص ليتم التعريف بحيث لا يفعل أحد فعلاً ويستتر منه فى آخر .

فـتمـييـز الأشخـاص هنا مـهم حتى يُنسـب الفعل إلى صــاحبـه ﴿ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴿٦٤﴾ ﴾ [غافـر] أى : جـعلها أحـسن صــورة بين المخلـوقات ، وكان سـبحانـه قادراً على أنْ يُصوِّر الإنســان على أية صــورة ، كأنْ يمـشى على أربع مثـلاً مـثل الحيـوانات ، لكنه كرَّمــه وأحسن شكله ، وجعله يمشى معتدلاً مرفوعَ القامة .

يقول تـعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ [الانفطار] يعنى : فى أحسن صورة وأجمل شكل وأعدله .

بعد ذلك ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴿٦٤﴾ ﴾ [غافر] ذلك لاستبقاء الحياة بالقوت ، لكنه لم يذكـر هنا الزواج الذى به استبقــاء النوع ، فأعطانا هنا لمحــةً وترك الأخرى لموضع آخـر حتى لا يخلوَ مكان من كـتابه من إعجاز فى خَلْقه .

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [غافـر] يعنى : تنزَّه وتقدَّس

---

(١) الآفاق : جـمع أفق وهو الناحية . وخط التـقاء السمـاء بالأرض فى رأى العين . ويستـعار لمدى الاطلاع والذكاء . فيقال : هو واسع الأفق . [القاموس القويم ١/٢٢] .

وجاء منه البركة ، وجاء منه الفضل ، وجاء منه الإمداد .

وكلمة (تَبَارَكَ) أخذتْ حظَّها من كتاب الله[1] ، نجدها للأمور المادية الحسِّية ، ونجدها للمعنويات وللمنهج الذى وضعه اللهُ لاستقامة حركة الحياة ، فالله جعل لك الجسمَ المادى ، وجعل لك الروح التى يعيش بها هذا الجسم .

﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الْحَىُّ ﴿٦٥﴾ ﴾ [غافر] كأن كلّ صفات الكمال الأصل فيها أنْ توجد بحياة ، فلا يمكن أنْ توجد قوة إلا بحياة ، ولا سمع إلا بحياة ، ولا بصر إلا بحياة . وكلمة (الحى) تعنى أن الله تعالى ليس من الأغيار ، فأنتم لكم وجود وحياة مرتبطة بهذا الوجود ، أما الحق سبحانه فحىٌّ بذاته ، الحىُّ صفة ذاته ، والمحيى صفة فعله ، وما دام الحىُّ صفة الذات ؛ فما بالذات لا يتخلف ، فهو حَىٌّ أى : لا يموت ، لكن صفة المحيى يقابلها صفة المميت ؛ فيُحيى هذا ويُميت هذا .

---

(١) ذكرت كلمة تبارك فى القرآن ٩ مرات : (الأعراف ٥٤) - (المؤمنون ١٤) - (الفرقان ١ ، ١٠ ، ٦١) - (غافر ٦٤) - (الزخرف ٨٥) - (الرحمن ٧٨) - (الملك ١)
قال السيوطى فى [الإتقان فى علوم القرآن ٢/١٨٨] : « تبارك : فعل لا يُستعمل إلا بلفظ الماضى ولا يُستعمل إلا لله » . ومعنى تبارك الله : تقدس وتنزه عن كل نقص ، أو كثر خيره على عباده . [القاموس القويم ١/٦٥] .

لذلك قالوا : الاسم الذى له مقابل (صفة فعل) ، والاسم الذى ليس له مقابل (صفة ذات) فقالوا فى الثناء عليه سبحانه : يا حى صفة ذاته ، ويا محيى صفة فعله ، وما بالذات لا يفوت ، وما بالفعل يحيا ويموت .

وما دام أنه سبحانه حَىٌّ ولا إله إلا هو ﴿ فَادْعُوهُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [غافر] بشرط ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [غافر] يعنى : حين تدعوه لا يكون فى بالك غيره ، فإذا لم يكن فى بالك غيره حين تدعوه كان معك واستجاب لك .

نعم ﴿ فَادْعُوهُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [غافر] لأنه قيوم يقول لك : نَمْ واسترح لأن ربك قيُّوم لا ينام ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة] وكأنه سبحانه (بيدلع) مَنْ آمن به ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [غافر] فإياك أنْ تقول : توكلت على الله وعليك ، أو توكلت على الله ثم عليك ، هذا كله كذب ، استكفِ بالله وكفى به وكيلاً .

وحين تدعوه مخلصاً له الدين فقد وضعتَ أمرك فى يد واحد ، هو الذى يملك أنْ يفعل ، لا أنْ تذبذبه فى يد مَنْ لا يستطيع ، ثم لاحظ فى الدعاء أن ربك أعطاك واستجاب لك قبل أنْ تدعو ، بل وقبل أن تعرف الدعاء ، بل وأعطاك قبل أنْ توجد أصلاً ، إذن : كل ما يريده منك هو إظهار ذل العبودية لعزِّ الربوبية .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [غافر] يعنى : احمدوا الله أنْ تفضَّل عليكم بكلِّ هذه النعم بداية ، أوجدكم من عدم وأمدكم من

عُدْم ، إلى أنْ ينتهى بكم المطاف فى الجنـة إنْ شاء الله ؛ لذلك ساعة ندخل الجنة نقول كما قال سبحانه : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑩ ﴾ [يونس]

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ⑥⑥ ﴾

(قل) الخطاب لسيدنا رسول الله ﷺ ﴿ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. ⑥⑥ ﴾ [غافر] يعنى : المسألة ليستْ من عندى ، إنما هى نَهْى من الله جاءنى فى آيات بينات واضحات ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ⑥⑥ ﴾ [غافر] أى : أُسْلِم قيادى وأمرى لرب العالمين سبحانه ..

نعم ، لأن الإنسان منا حتى فى دنيا الناس حينما يكون لا يحسن شيئاً ولا تسعفه أسبابه يلجأ إلى مَنْ يقضى له حاجته ويقدر عليها ، كما نذهب مثلاً للمحامى فى رَفْع قضية أو نذهب للطبيب للتداوى .. الخ لأنك لا تستطيع أنْ تدافع عن نفسك أمام القاضى ، ولا تستطيع أن تداوى مرضك ، فإذا ما ذهبتَ إلى واحد من هؤلاء فلا شكَّ أنك تسلم له زمام أمرك ، وتُفوِّضه أنْ يفعل ما يراه صالحاً دون أنْ تناقشه أو تعترض عليه .

إذن : معنى ﴿أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦)﴾ [غافر] يعنى : إسلام الزمام من عاجز عن شىء لقادر على هذا الشىء ، فإذا أمرك ربك أمراً فخذ الأمر من منطلق إيمانك به ، كيف ؟ قال : مثل حالى مع الطبيب حين يصف لى الدواء المناسب لحالتى لا أناقشه فيه ، ولا أقول له : لم كتبت كذا وتركت كذا ؟ حتى حين أسأل عن الدواء أقول : والله كتبهُ لى الطبيب ، وألقى التبعة والمسئولية عليه .

فإذا كنت تُسلم أمرك وزمامك للطبيب وهو بشرٌ مثلك يخطىء ويُصيب ؛ لأنك رأيت له حكمة فوق حكمتك وعلماً ليس عندك ، كيف تفعل هذا معه ولا تفعله مع الله عز وجل ، وهو العليم الحكيم القادر ؟

إذن : ما أمرك به ربُّكَ فامتثل للأمر ونفِّذ دون نقاش أو اعتراض أو تبرُّم بما قضى عليك به . والحق سبحانه يعلمنا درس التسليم له سبحانه فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وكيف أنه أسلم وجهه ، وألقى زمام أمره لربه تعالى ، حينما أمره بذبح ولده إسماعيل الذى لم يُرزق به إلا على كبر[1] وبعد يأس ، لذلك قال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ .. (٣٩)﴾ [إبراهيم]

أراد المفسرون تقريب هذا المعنى ، فقالوا : المراد الحمد لله الذى

---

(١) ذُكِر فى العهد القديم - سفر التكوين أن عمر إبراهيم عليه السلام حين ولد له إسماعيل كان ٨٦ عاماً . [تكوين أصحاح ١٦ : ١٦] وقد كان بين إسماعيل وإسحاق ٤١ عاماً ، وكان عمر إبراهيم حينها ١٠٠ عام [تكوين ٢١ : ٥] .

وهب لى على الكِبَر ، فجعلوا على بمعنى مع[1] ، وفرْقٌ بين كلمة من حرفين ، وكلمة من ثلاثة أحرف ، ولا يعدل القرآن الكريم عن الحرفين ويختار الثلاثة إلا لملحظ يحتاجه المعنى ، فما هو ؟ قالوا : معنى (مع الكبر) أى : مظنة ألاَّ ينجب ، لكن مراد الله تعالى فوق هذه المظنة ، يعنى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ .. (٣٩) ﴾ [إبراهيم] لا مع الكبر .

كذلك فى قصة سيدنا زكريا عليه السلام قال : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا[2] وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ (٩) ﴾ [مريم]

إذن : فمعنى ﴿ عَلَى الْكِبَرِ (٣٩) ﴾ [إبراهيم] أن الكبر كان يقتضى عدم الإنجاب لكن مراد الله أعلى من الكبر وفوقه . ونفهم هذا المعنى أيضاً من قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ (٦) ﴾ [الرعد] البعض قال : يعنى مع ظلمهم ، وهذا لا يصح بل على ظلمهم كما أرادها الحق سبحانه ، لأن الظلم يقتضى العقاب ، لكن تأتى مغفرة الله وتعلو على الظلم ، وعلى قانون مجازاة الظالم بظلمه .

وقوله : ﴿ نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ (٦٦) ﴾ [غافر]

---

(١) ذكر جمال الدين بن هشام الأنصارى تسعة معان لـ (على) منها المصاحبة كـ (مع) نحو : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. (١٧٧) ﴾ [البقرة] ونحو ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦) ﴾ [الرعد] .

(٢) عقرت المرأة : أصيبت بالعقم فهى لا تلد فهى عاقر . [القاموس القويم ٢/ ٣٠] .

نهى لأنه مُحبّ له ، فقال له : وجِّه عبادتك لمن يقدر أنْ يفعل لك ، وهذا النصح لا يكون إلا من مُحب كما تنصح صاحبك وتدلّه على الخير ، ولولا حبك إياه ما نصحته .

وقوله : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) ﴾ [غافر] أسلم قيادى وزمام حركتى فى الحياة لربى أفعل ما أمر بفعله ، وأنتهى عما نهانى عنه ، أمر سكت عنه ولم يقل لى فيه : افعل ولا تفعل فأدخله فى مقام المباح ، ولو كان أمراً النفس العادية تنفر منه .

وحتى إنْ حكم عليك حكماً ترى فيه مشقة ظاهرية على نفسك فاعلم أنه يريد لك الخير من حيث لا تدرى ، كما قلنا فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام .

وتعلمون أن سيدنا إبراهيم ابتلاه ربه بأمور كثيرة كلها مشقة : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ[1] فَأَتَمَّهُنَّ (١٢٤) ﴾ [البقرة] ولما أتمهن ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا (١٢٤) ﴾ [البقرة] فى شبابه ابتُلى بالإحراق ، ولما كبر سنه ابتُلى بذبح ولده ، وهو فى حال ابنه أعزّ

---

(١) اختلف العلماء فى الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم على أقوال ، منها :

- ابتلاه الله بالمناسك . ابن عباس .

- ابتلاه بالطهارة : خمس فى الرأس وخمس فى الجسد ، فى الرأس : قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس . وفى الجسد : تقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء . [ذكرهما ابن كثير فى تفسيره ١/١٦٥] .

عليه من نفسـه ، لأن الإنسان حين يتقدم به سِنُّه ويقبل على الآخرة والنهاية يودّ أنْ يكون له امتداد فى ولده من بعده .

فـابتُلِى إذن فى أول حـيـاته فى ذاته بـالإحراق ، ثـم ابتُلى عند وجود الولد وبعد كِبَر السنِّ بقتل الولد .

والابتلاء هنا ابتـلاء مبالغة ، فلو أنه سيـموت موتاً طبيـعياً لكان ابتلاءً ، فمـا بالك حين يقول له : اذبحه بيـديك ، عندها يكون الابتلاء أشدّ ، وهذا الابتـلاء لم يأتِ بأمر مـباشر ، إنمـا برؤيا مناميـة قابلة للتـأويل ، ومع ذلك أذعن إبراهيمُ لمجـرد الرؤيا لأنـه يعـلم أنهـا من الله .

لكن كيف أقبـل سيدنا إبراهيم على تنفيـذ هذا الأمر ؟ أأخذ ولده على غِرَّة ؟ لا بل أحب أنْ يُدخله معه فى مجال الابتلاء ، وألاَّ يحرمه ثواب التـسليم مـعـه لله ، فـقـال له : ﴿ يَـٰبُنَىَّ إِنِّى أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ (١٠٢) ﴾ [الصافات]

وقوله : ﴿ فِى الْمَنَامِ (١٠٢) ﴾ [الصـافات] أراد أنْ يعطيه فـرصة لأنْ يقـول : كـيف تذبـحنى يا أبى برؤيا منام ، فـيكون له مـجـال لأنْ يعترض لكنه لم يفعل ﴿ قَالَ يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ (١٠٢) ﴾ [الصافات]

وتصـوَّر لو أن سيـدنا إبراهيم أخـذ ولده دون أنْ يخبـره بشىء وألقـاه على الأرض وأمسك بالسكـين ليذبحـه . ماذا سـيكون شعـور الولد نحـو والده ؟ سيكـرهه ويكره فعله ويـغضب عليـه ، وفى هذه

الحالة لا نصيبَ له فى ثواب هذا الابتلاء .

وتأمل قول إسماعيل فى الرد على أبيه : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ (١٠٢) ﴾ [الصافات] فيُذكِّره بالآمر يعنى : يا أبت افعل ما دام الأمر من أعلى منك ، وسبق أن قلنا : إن الفعل فى ذاته ينبغى ألاَّ يترتب عليه فرحٌ به ولا غضبٌ منه إلى أنْ تعرف الفاعل ، فإذا عرفتَ أن ربك هو الآمر ، فقد انتهتْ المسألة وليس إلا التسليم للأمر .

وهكذا رأينا التسليم منهما معاً ، لذلك قال : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا (١٠٣) ﴾ [الصافات] هكذا بصيغة المثنى ﴿ وَتَلَّهُ[1] لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات] يعنى : بدأ التنفيذ والانقياد بشكل عملى قال له ربه : ارفع يدك فقد نجحتَ فى الامتحان ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات]

هكذا رفع البلاء ولا يُرفع قضاء حتى يُرْضَى به ، رفع عن إسماعيل القتل ونزل له الفداء وعوَّضه ربه عن الفزع الذى أصابه ، فبشّره بغلام آخر[2] ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) ﴾ [الصافات] يعنى : كنا نريد أَخْذ إسماعيل ، فلما رضيتَ بقضائنا فيه

---

(١) تلّه : ألقاه على وجهه على الأرض ، أى : ألقاه وجبينه ووجهه إلى الأرض [القاموس القويم ١/١٠١] .

(٢) بشر الله إبراهيم عليه السلام بإسحاق وكان عمر إسماعيل حينئذ ثلاثة عشر عاماً . وقال سعيد بن المسيب : بشَّر الله إبراهيم بولد يكون نبياً بعد هذه القصة جزاءً لطاعته وصبره . [زاد المسير لابن الجوزى - سورة الصافات] .

زدناه بآخر ، ثم جعلناهما من الأنبياء ومن ذريتهما الأنبياء ، فتأمل ماذا جرَّ لك التسليمُ بالقضاء والرضا به ؟

إذن : أنت فى التسليم لله لا تأخذ الفعل لذاته ، إنما بضميمة صاحبه ، الآمر به .

﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ(١) ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

الحق سبحانه يعود بنا مرة أخرى إلى مسألة الخلق الأول ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [غافر] معلوم أن لنا خَلْقين : خلقاً من تراب لما خلق الله آدم وحواء ، وخلقاً من النسل الذى تناسل منهما .

لاحظ أن الله تعالى قال ﴿ مِّن تُرَابٍ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [غافر] وقال ﴿ مِّن طِينٍ .. ﴿٢﴾ ﴾ [الأنعام] و ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحجر] وقال ﴿ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الرحمن] ، وهذه كلها مراحل للشىء الواحد ، فالتراب حين نضع عليه الماء يصير طيناً ، فإذا تركناه فترة

---

(١) العلقة : الدم الجامد الغليظ الذى يعلق بما يمسُّه . [القاموس القويم ٢/ ٣٢] . فالعلقة : قطعة دم منعقد غليظ .

تعطّن وتغـيَّرتْ رائحـته ، وهذا هو الحـمأ المـسنون[(١)] ، فإذا تركناه يجف يصير صلصالاً[(٢)] .

وقوله تـعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ .. (٦٧)﴾ [غافـر] لا يعنى أبانـا آدم وحـده ، إنمـا كلنا من تراب حـتى مَـنْ خُلِقـوا بالزواج والتناسل ، لماذا ؟ لأن الميكروب الذى سـتنشـأ مـنه جرثـومة الرجـل وبويضة المرأة إنمـا تأتى مما نأكله من طعام ، والطعـام يُؤخذ إما من نبات أو حيـوان ، والنـبات والحيـوان منشـؤهما تـراب الأرض .

ولذلك رأينا فى عملية التحليل الكيماوى لعناصر الإنسان أنها هى نفسها عناصـر التراب ، وهى العناصر الستة عشـر المعروفة ، فكَوْنُ الإنسان خُلِق من طين لها دليلٌ مادى معلوم لنا الآن ، إذن : كلنا من تراب ، وإنْ جـئنا من زوجـين ، لذلك قـال ﷺ : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب »[(٣)] .

---

(١) الحمأ : الطين الأسود المنتن . (تاج العروس من جواهر القاموس - مادة : حمأ) وقال : « وفى كتاب المقـصور والممدود لأبى على القالى : الحمأ : الطين المتـغير » . والمسنون : المتغير المنتن . فكأنه تأكيد للمعنى الذى فى الحمأ .

(٢) الصلصال : الطين الجاف لم تحرقه النار . [القامـوس القويم ١/ ٣٨١] . فإذا مسته النار فهو حينئذ فخار . فالصـلصال طين يابس يصِلّ من يبسه أى : يُصوِّت . [لسان العرب - مادة : صلل] .

(٣) أخرج الترمـذى فى سننه أن ابن عمر قال : خطب رسـول الله ﷺ الناس يوم الفـتح فقال : يا أيها الناس إن الله قد أذهـب عنكم عيبة الجاهليـة وتعاظمها بآبائهـا ، فالناس رجلان : بر تقى كـريم على الله ، وفاجـر شقى هيِّن على الله ، الناس بـنو آدم وخـلق الله آدم مـن تراب . [سنن الترمذى حديث ٣٢٧٠] .

لذلك الحق سبحانه لما تكلم عن الخَلْق قال : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ.. (٥١) ﴾ [الكهف] لأن خَلْق السموات والأرض سابقٌ على خَلْق الإنسان ، والإنسان طارىء عليهما ، ولما خُلِق آدم لم يكُنْ له تمييز ليعرف كيف خُلق .

ثم يأتى سبحانه بكلام يدل على الإعجاز وإفحام المعاندين ، فيقول : ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

يعنى : ما أخذت منهم مساعدين لى ، ولا معينين لى فى عملية الخلق ، والمضلون هم الذين يُضللون الناس ، ويقدمون لهم الباطل فى ثوب الحق ، ويُراد بالمضلين المضلين فى مسألة الخلق كمَنْ يقول لنا الآن : إن الإنسان فى أصل خَلْقه الأول كان قرداً وتطور كما قال داروين[1] .

لكن الحق سبحانه يقطع عليهم طريق الضلال ، ويقول لهم : أنتم ما شهدتم الخَلْق لتخبروا الناس به ، وأنا الخالق وحدى ولم يكُنْ معى أحدٌ غيرى خبر بما حدث ، فإذا أردتُم أنْ تعرفوا كيفية الخلق فاسمعوا منى أخبركم به ، وقد أخبرنا الله به فى آيات كثيرة فى كتابه .

فإنْ قلت : هذا كلام أخبر الله به ولم نشهده ، نقول : تأمل واقع

---

(١) داروين : عالم حيوان ، إنجليزى الجنسية اشتهر بنظرية التطور حول نشأة الإنسان ، ولد فى انجلترا فى ١٢ فبراير ١٨٠٩ م وتوفى ١٩ أبريل ١٨٨٢ م عن ٧٣ عاماً ، درس الطب واللاهوت ، له كتاب « أصل الأنواع » ، « سلالة الإنسان » ، « دودة الأرض » .

الحياة فإنه يدلّ على صدق الله فيما قال ، فأنت لم تَرَ الخلْق لكن رأيتَ نقيضه وهو الموت ، ونَقْض الشيء يأتى على عكس بنائه ، فحين تبنى مثلاً بيتاً من أربعة أدوار تبدأ بالأول ، فإنْ أردتَ أنْ تهدم تهدم الرابع .

كذلك الموت ، يبدأ بخروج الروح وهى آخر شيء فى خَلْق الإنسان بعد خروج الروح يتصلَّب الجسد ، ثم يرمّ ويتغيّر مثل الجيفة ، ثم يتبخَّر منه الماء الموجود فيه ، ثم يتحلل الباقى إلى تراب ، فجاء الموت ليصدق ما غاب عنك فى بداية الخَلْق .

قوله : ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا .. (٦٧)﴾ [غافر] هذه مراحل فى الخَلْق ، ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً .. (٦٧)﴾ [غافر] قالوا : هو طفل طالما هو فى مراحل النمو ، فإذا استوى وأخذ شكله النهائى واستقر على صورة كاملة فقد وصل إلى مرحلة البلوغ التى يستكمل فيها كلّ أجهزة الوجود ، لأنه بالبلوغ أصبح قادراً على إنجاب مثله .

يقول تعالى : ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ[1] فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٥٩)﴾ [النور] فالطفولة هى مرحلة النمو . ومرحلة البلوغ هى الأشد ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ .. (٦٧)﴾ [غافر] أى :

---

(١) الحُلم : البلوغ مبلغ الرجال . وهو أيضاً الاحتلام وهو الإنزال حال النوم . وغلام حالم إذا بلغ الحلم ، ومنه قول رسول الله . « غُسْلُ الجمعة واجب على كل حالم - وفى رواية : محتلم » . [جمهرة اللغة لابن دريد] .

قوتكم ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا .. (٦٧)﴾ [غافر] أى : تنحدرون مرة أخرى من القوة إلى الضعف وإلى الشيخوخة ، وهى مرحلة ضعف وهُزَال فى الجسم .

فإذا انتهتْ مرحلة النمو والزيادة بدأتْ مرحلةُ الضعف والهزال ، فى مرحلة النمو تجد أن ما يدخل له من الغذاء أكثرُ مما يخرج منه من الفضلات لذلك يزيد ، أما فى مرحلة الشيخوخة فتكون الفضلاتُ أكثر ، فيحدث له النقص والهزال ، وتأخذ قوته فى الانحدار وعضلاته فى الضمور ، إلى أنْ يصلَ إلى المخزن الأخير فى الجسم وهو العظام ، فتحدث فيها هشاشة وتتكسَّر لما يُمتص منها .

لذلك قال سيدنا زكريا : ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ[1] الرَّأْسُ شَيْبًا . (٤)﴾ [مريم] فذكر آخر مراحل الشيخوخة وهى وَهَن العظام . هذا فى الناحية الجسمية المادية ، أما فى الذاكرة والأشياء المعنوية فيعتريه النسيانُ ، كما قال سبحانه : ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا .. (٥)﴾ [الحج] فيصل به النسيانُ كأنه لم يعلم شيئاً فى حياته ، ثم نراه يحبو ويُحمل كما يُحمل الأطفال : ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ[2] فِي الْخَلْقِ

---

(١) اشتعل الرأس شيباً : معناه انتشر فيه الشيب كالنار فى الحطب . [القاموس القويم ١/٣٥٠] . قال ابن منظور فى اللسان [مادة : شعل] : دخل فى قوله الرأس شعر الرأس واللحية لأنه كله من الرأس .

(٢) ننكس فى الخلق : أى أنه يرجع إلى حالة ضعفه جسمياً وعقلياً حينما كان طفلاً ، أو ننكس رأسه بانحناء ظهره . [القاموس القويم ٢/٢٨٧] .

﴿أفلا يَعْقِلُونَ (٦٨)﴾ [يس]

وقوله : ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ .. (٦٧)﴾ [غافر] يعنى : منكم مَنْ يعاجله الموت فلا يصل إلى هذه المراحل ، ربما يموت الإنسانُ فى بطن أمه أو بعد ولادته أو فى طفولته ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى .. (٦٧)﴾ [غافر]

فالأجل مختلف ومكتوب عند الله ، منا مَنْ عمره لحظة ، ومَنْ عمره دقائق ، ومَنْ عمره ساعات ، ومَنْ عمره أيام أو شهور ، ومن الخَلْق مَنْ لا يصل إلى تمام مراحل الخلق ، فيُؤخذ وهو علقة أو مضغة ولا يستكمل الخلق .

وقوله : ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧)﴾ [غافر] يعنى : افهم أن الله حين يعطيك الأشدَّ ، وتصل إلى مرحلة القوة أنها ليستْ ذاتية فيك ، إنما هى موهوبة لك وكلُّ نعمة عندك موهوبة ليست ذاتية ، ويمكن أنْ تُسلبَ منك فى أيِّ لحظة ، وما دمت قد عرفتَ أنها موهوبة وقد تُسلَب منك فى أيِّ وقت ، فالزم أدبك مع مَنْ وهبك هذه النِّعم .

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٦٨)﴾

عرفنا أن الإنسان فى خَلْقه يمرُّ بمراحل عدة ، وأن عمره مظنون قد يموت فى أيِّ مرحلة من هذه المراحل ، فكيف نفهم قوله تعالى :

﴿ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [غافر] بالنسبة لمَنْ عمره لحظة مثلاً ، أو لمَنْ يموت فى بطن أمه ؟

قالوا : كُنْ هنا تُقَال لما يوجد عليه الإنسانُ ساعتها علقة أو مضغة أو غيرهما ، كأنه يقول له : كُنْ حياً . ثم تؤخذ الحياة منه بقانونها فى أزمانها التى لا يعلمها إلا الله .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

قلنا : يجادلون فى آيات الله ، وهى على ثلاثة أنواع : آيات كونية كالشمس والقمر . وآيات المعجزات التى تصاحب بعثة الرسل . وآيات القرآن حاملة الأحكام . ورأينا أنهم جادلوا فى المعجزات فقالوا عنها : سحر . وقالوا : شعوذة . وجادلوا فى آيات الأحكام وقالوا : إنها غير مناسبة ، أما الآيات الكونية ، فليستْ محلاً للجدال .

قوله : ﴿ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [غافر] أى : يُصرفون عن الحق وهو واضح فأين عقولهم المفكرة ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [غافر] قال ﴿ كَذَّبُوا .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [غافر]

بزمن الماضى ، لكن فى الجزاء قال ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ⁽⁷⁰⁾﴾ [غافر]

يعنى : فى المستقبل ، قالوا : لأن الجزاء ليس بالضرورة أن يكون فى نفس الوقت أو وهم موجودون فى سعة الحياة الدنيا ، يصح أن نؤخر لهم الجزاء فى الآخرة .

وكلمة سوف دلَّتْ على المستقبل سواء القريب فى الدنيا أو البعيد فى الآخرة ، فإذا لم يدركهم العذاب فى الدنيا فهو ينتظرهم فى الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ⁽⁷⁷⁾﴾ [غافر]

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يصلنا دائماً به وَصْلاً بحيث لا يأتى غيره على بالنا ، هذا الوصل يجعلك حينما تأتى الأشياء لا تظن أنك أخذتها بذاتيتك ، إنما هى موهوبة لك ، وللواهب أن يرجع فى هبته .

ولذلك ينبهنا سبحانه فيقول : ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ⁽⁶⁾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ⁽⁷⁾﴾ [العلق] ثم يقول بعدها : ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ⁽⁸⁾﴾ [العلق] يعنى : تذكَّر مردّك إليه ووقوفك بين يديه .

وقوله (الكتاب) أى : الذى أنزله الله حاملاً لمنهجه ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا.. ⁽⁷⁰⁾﴾ [غافر] أى : على ألسنة رسله ، فإنْ قلت الكتاب هو ما أرسلنا به رسلنا ، نقول : لا .. هناك فرق ، فالكتاب هو المنهج ، أما الرسول فقد أُرسل يحمل المنهج ويُبلِّغه وأُسْوة

تطبيقية لذات المنهج كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. (٢١) ﴾ [الأحزاب]

﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ﴾

أى : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) ﴾ [غافر] متى ؟ يوم القيامة ﴿ إِذِ الأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) ﴾ [غافر] تأمل مدى ما هم فيه من الإهانة ﴿ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ﴾ [غافر]

الأغلال جمع غل ، وهى قيود تُوضع فى الأيدى وتضمها إلى العنق ، والسلاسل أى : من حديد تُقيَّد بها الأرجل ، أىّ ذلة بعد هذا ؟

ومعنى الحميم أى : الماء الذى تَنَاهى حَرُّه ، يعنى : بلغ الدرجة القصوى فى حرارته ، ثم بعد ذلك يُسْجرون فى النار يعنى تُحْمى بهم ويصيرون وقوداً لها .

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ﴾

تأمل هذا التبكيت للمشركين فى هذا الموقف العصيب : أين شركاؤكم الذين أشركتموهم مع الله ؟ ادعوهم فليدفعوا عنكم هذا العذاب ، والله إنْ كانوا عبدوا أشخاصاً أمثالهم فسوف يرونَهُم وقد سبقوهم إلى النار ، وإنْ كانوا عبدوا حجارة فسيرونَها أمامهم وقوداً لجهنم .

لذلك هم الذين سيقولون : ﴿ضَلُّوا عَنَّا .. (٧٤)﴾ [غافر] يعنى : لم يهتدوا إلينا ولم يعرفوا طريقنا ، ثم يرونَ أن الموقف أكبر من شركائهم فيكذبون ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا .. (٧٤)﴾ [غافر] سبحان الله يكذبون حتى فى هذا الموقف ، كما سبق أنْ أقسموا بالله أنهم ما أشركوا : ﴿قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣)﴾ [الأنعام]

لذلك يقول تعالى يصف هؤلاء الكذبة : ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ[1] الْعَظِيمِ (٤٦)﴾ [الواقعة] إذن : فهم ألفوا الكذب ، حتى إن موقف الحساب لم يردعهم عنه فيقولون : ﴿لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا .. (٧٤)﴾ [غافر] يعنى : ما أشركنا مع الله أحداً ، وقد يكونون صادقين فى هذا لأنهم لم يدعوا هذه الآلهة لأنهم يعرفون أنها لا تضر ولا تنفع ، وما عبدوها إلا ليُرضوا رغبة التديُّن عندهم بآلهة لا منهجَ لها ولا تكاليف .

---

(١) الحنث : الخُلْف فى اليمين ونقضها والنكث فيها . وهو من الحنث الإثم . وحنث فى يمينه أى : أثم . وحنث اليمين إذا لم تبرّ . والحنث : الذنب العظيم والإثم . فهم يصرون عليه ويدومون عليه . [لسان العرب - مادة - حنث] .

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤)﴾ [غافر] نعم الحق لا يُضل أىّ إنسان إنما يضل مَنْ كفر ، فمَنْ كفر كيف يهديه الله ؟ سبق أنْ مثَّلنا لذلك ولله المثل الأعلى قلنا : إن رجل المرور مثلاً حين تسأله عن الطريق يدلُّك ، فإنِ اعترضتَ عليه ولم تطاوعه أو سخرتَ من رأيه . وقلتَ له : أنت لا تعرف هذا المكان . تركك وتخلَّى عن إرشادك ، فإنْ أذعنتَ لرأيه وشكرته على صنيعه معك قال لك : لكن والله أمامك هناك على بُعد كذا كيلو عقبة أو تحويلة ، سأذهب معك حتى تمرّ منها ، إذن : هداه أولاً بالدلالة ، فشكره أنه هداه فلمَّا شكره استحقَّ معونته .

كذلك الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد] وهنا ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤)﴾ [غافر] أى : الذين لا يستحقون الهداية ، لذلك قلنا أن مَنْ عشق الكفر وركن إليه واختاره لنفسه ، يقول الله له : أنا رَبٌّ أعطيك ما تريد ، وما دُمْت أحببتَ الكفر فسوف أُعينك عليه وأختم على قلبك ، بحيث لا يدخله الإيمانُ ، ولا يخرج منه الكفر .

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥)﴾

﴿ذَٰلِكُم﴾ إشارة إلى ما وقع بهم من العذاب بالأغلال والسلاسل

والنار ، سببه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ[1] (٧٥)﴾ [غافر]

الفرح : انبساط النفس بما يسرُّها ويُسعدها ، لكن الفرح الحقيقى أن تسعد وتسر بما يُعينها على غايتها الأصيلة ، فهناك فرح بأىِّ شىء ربما كان بالمعصية ، وفرح بحق هو أنْ تفرح بما يُعينك على غايتك ، أما الشىء الذى لا يعيننى على هذه الغاية ، بل يصادمها ، فهذه لذَّة عابرة تعقبها حسراتٌ ربما تفوق أضعاف اللذة التى حصلتْ من هذا الشىء .

واقرأ مثلاً فى الفرح الحقيقى قوله تعالى : ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. (١٧٠)﴾ [آل عمران]

نعم هذا هو الفرح بحقٍّ ، بل يتعدَّى الفرح للآخرين : ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)﴾ [آل عمران] فهذا فرح يتعدَّاك إلى غيرك فرح حقيقى ، لأنه يحقق الغاية الأصيلة فى الوجود .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾ [يونس] هذا فرح بالفضل

---

(١) تمرحون : أى تبطرون وتأشرون . قاله مجاهد وغيره . وقال الضحاك : الفرح السرور والمرح العدوان . [تفسير القرطبى ٥٩٨٣/٨] .

وبالرحمة من الله لا بعملهم ، وهذا فرح مشروع .

ومن الفرح المشروع : ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ .. (٣٦)﴾ [الرعد] لأنه جاء مُصدِّقاً لما معهم ومؤيداً لمنطقهم فى الحق ، وهذا تفرح به لأنه يُعينك على الغاية الأصيلة فى الوجود .

ويقول تعالى : ﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الروم] فكم فرح مشروع إذن ؟ فرح الشهداء بفضل الله وبرحمته ، وفرح الذين أُوتوا الكتاب برسول الله ، وفرح المؤمنين بنصرة منهج السماء على منهج الأرض .

وما عدا الفرح المشروع فرح أحمق ، ومنه قوله تعالى عن الكافرين : ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا .. (٥١)﴾ [التوبة] يعنى : ما أصابنا من الله محسوب لنا لا علينا .

وقال : ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾ [آل عمران]

وقال تعالى أيضاً فى الفرح غير المشروع أو الأحمق كما قلنا : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً .. (٤٤) ﴾ [الأنعام]

وقال تعالى : ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا .. (١٨٨) ﴾ [آل عمران] يفرحون بأنهم آذوا المؤمنين وسخروا منهم ﴿ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ[1] مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) ﴾ [آل عمران]

وقال : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) ﴾ [هود]

وقال : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا[2] كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) ﴾ [المؤمنون]

وما دامت قد تعددت الأحزاب ، وفَرِح كُلٌّ بما عنده ، فهو فرح باطل غير مشروع .

وقال أيضاً : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ

---

(١) المفازة : سميت الصحراء مفازة تفاؤلاً بالفوز فى اجتيازها والنجاة من أخطارها ، ومعنى الآية : فلا تحسبنهم بمكان فوز يفوزون فيه بالنجاة من العذاب أى : لا تحسبنهم بمنجاة منه . [القاموس القويم ٢/ ٩١] .

(٢) زُبُراً : جمع زُبْرة بمعنى القطعة . أى : تفرقوا فى دينهم . [لسان العرب - مادة : زبر] .

الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ[1] بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [القصص]

إذن : عندنا فرح مشروع فى أربعة مواضع ، وفى تسعة مواضع ، فرح غير محمود وغير مشروع .

هنا يقول تعالى : ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [غافر] هذا دليلٌ على أن هناك فرحاً بالحق وفرحاً بغير الحق ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [غافر] المرح : هو المبالغة فى الفرح والسَّيْر به فى بَطَر وتفاخر وخيلاء .

﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

﴿ مَثْوَى ﴾ مرجع ومستقر ﴿ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ الذين تكبَّروا على الله الذى وهبهم الحياة ، ومع ذلك لم يؤمنوا به ، وهؤلاء تكبَّروا على الله فلم يؤمنوا به ، وتكبَّروا على رسله فلم يُصدِّقوهم ، وتكبَّروا على منهجه فلم يعملوا به ، اختاروا هواهم وأسلموا إليه قيادهم بدل أنْ يُسلموه لله .

---

(١) ناء الحمل بالبعير إذا أثقله . وقال ابن عباس : كانت خزائنه يحملها أربعون أقوياء ، وكانت أربعمائة ألف ، يحمل كل رجل عشرة آلاف . [البحر المحيط] وقال الشوكانى فى فتح القدير (٥/٤٢١) : « ناء بحمله : إذا نهض به مثقلاً . والمعنى : يثقلهم حمل المفاتح . قال أبو عبيدة : هذا من المقلوب . والمعنى : لتنوء بها العصبة . أى : تنهض بها ، وقال الفراء : تميلهم بثقلها » .

بعد ذلك يلتفت إلى رسوله ﷺ يقول له : ستواجه كثيراً من المتاعب تحتاج منك إلى صبر ، لأن مهمتك شاقة ، وسوف تُؤْذَى بكل لون من الإيذاء :

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾

نعم ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. (٧٧) ﴾ [غافر] أى : وعده بنصرة رسله وهو حق ، لأنه تعالى قادر على إنفاذ وعده ، وبيَّنا الفرق بين وعدك ووعد الله ، وعدك أنت غير الحق لأنك لا تملك أسباب الوفاء به وتضمنها ، أما الحق سبحانه فله صفات الكمال ، ولا يمنعه شيء من تحقيق وعده .

وقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ .. (٧٧) ﴾ [غافر] أى : من العذاب فى الدنيا . ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ .. (٧٧) ﴾ [غافر] تموت قبل أن ترى فيهم آية ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر] أى : فى الآخرة حيث لا يفلتون من العذاب ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) ﴾ [السجدة]

العذاب الأدنى ما يقع لهم فى الدنيا ، والعذاب الأكبر يوم القيامة ، يعنى : لا مفرَّ لهم .

ثم يُوضح سبحانه لنبيه ﷺ حقيقة الرسالة ، يقول له : اعلم يا

محمد أنك لستَ بدعاً من الرسل ، ولستَ أول مَنْ أُوذِى فى سبيل دعوته ، فكل مَنْ سبقك من إخوانك فى موكب الرسالات أُوذِى بقدر رسالته ، لذلك فأنت أشدّهم إيذاءً ، لأنك نبىٌّ آخر الزمان ، ورسالتك عامة للناس كافة فى كل زمان ومكان ، فلا بُدَّ أنْ يكون ابتلاؤك أشدَّ ممَّنْ سبقوك .

يقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ[1] وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

نعم ذكر الحق سبحانه لرسوله ﷺ أسماء بعض الرسل ، وعددهم فى القرآن خمس وعشرون ، قال الناظم :

فِى تِلْك حجتنا منهم ثمانيةٌ من بَعْد عشر ويَبْقَى سَبْعةٌ وَهُمُو

---

(١) ذكر السيوطى فى (الدر المنثور فى التفسير بالمأثور) فى تفسير آية غافر ٧٨ : أخرج الطبرانى فى الأوسط وابنِ مردويه عن على بن أبى طالب قال : بعث الله عبداً حبشياً نبياً ، فهو ممن لم يقصص على محمد ﷺ ، وقال الزمخشرى فى تفسيره الكشاف : قيل : بعث الله ثمانية آلاف نبى : أربعة آلاف من بنى إسرائيل ، وأربعة آلاف من سائر الناس .

إدْريـس هُـود شُعَـيْب صَـالح ذُو الكِفْل آدم بالمخْتَار قَدْ خُتِموا

لكن الحق سبحانـه يقول فى موضع آخر : ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيـهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾ [فاطر] وهذا يعنى أن الذين لم يُذكـروا من الرسل كثيرون .

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٣٨)﴾ [الرعد] ما مناسبة هذه هنا ؟ قـالوا : لأنهم كانوا يقترحون عليـه الآيات ، كما قال سبحانه : ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١)﴾ [الإسراء] يعنى : لتستديم هذه الجنة ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[1] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. (٩٣)﴾ [الإسراء] فماذا كان جوابه : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ

---

(١) الكِسْفة والكُسْفة من السحاب والثوب : القطعة منه . والتكسيف : التقطيع . [الصحاح للجوهرى] . وقد حدث من رؤساء قـريش فى حوار طويل مع رسول الله ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية ، وفـيه أنهم قالوا له : أسقط السماء علينا كسفـاً كما زعمت إن ربك إنْ شاء فـعل فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل . فـقال رسول الله : ذلك إلى الله إن شـاء أن يفعله بكم فعل . قالوا : يا محمد أفما علم ربك أنّا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب فيتقدم فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا ، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به ، إنه قد بلغنا أنك إنما يـعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن وإنا والله لا نؤمن بالرحمـن أبداً فقد أعـذرنا إليك يا محمـد ، وإنا والله لا نتركك وما بـلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا .

كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء] يعنى : مـا أنا إلا رسول من الله أبلغ ما أرسلت به .

والحق سـبحانه أوضح لـنا حينمـا لا يجيبـهم إلى ما طلـبوا من الآيات أنهم لم يكتـفوا بمـا عندهم ولم يقنعوا به ، فطلب الآيـات بعد ذلك يُعَد طعناً فى الآية السابقة هذه واحدة ، وأيضاً هناك أُناس طلبوا الآيات فأجـابهم الله ، ومع ذلك كفروا بها . إذن : كَـوْنى أجاريهم فى طلب الآيات عـبثٌ لا فائدة منه ، لذلك قـال سبـحانه : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَـذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الإسراء] أى : الآيات المطلوبة .

وقولـه سبحـانه : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُـضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [غافر] معنى ﴿ قُضِيَ بِالْحَقِّ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [غافر] ما دام القضاء بالحق ، فقد فاز المؤمنون وخسر ﴿ هُنَالِكَ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [غافر] أى : فى الآخرة ﴿ الْمُـبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [غافـر] الكافرون أهـل الباطل ، وهذه هى النهاية الطبيعية والجزاء من جنس العمل .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

﴿ الأنْعَام ﴾ هى : الإبل والبقر والغنم والماعز وهذه لها مهمة ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا .. (٧٩)﴾ [غافر] يعنى : منها ما يُركب وهو الإبل ، فلا نركب الخروف مثلاً ﴿ومِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩)﴾ [غافر] أى : اللحوم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ .. (٨٠)﴾ [غافر] أى : منافع أخرى غير الركوب والأكل ، كأن ننتفع منها بالجلود والأصواف والأوبار ، وكانوا يصنعون منها الملابس والأغطية والمفروشات والخيام ... الخ .

وتأمل هنا عظمة الأداء القرآنى ، ففى الركوب قال : ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا .. (٧٩)﴾ [غافر] وفى الأكل قال : ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩)﴾ [غافر] قالوا : لأن الأكل من المباحات ، أما الركوب فمن الضروريات .

وقوله : ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ .. (٨٠)﴾ [غافر] أى : أنها تُبلغكم حاجتكم فى السفر للحج مثلاً أو للتجارة وحمل الأثقال ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠)﴾ [غافر] عليها نعم لأننا نركبها ونضع عليها الأحمال .

أما ﴿عَلَى الْفُلْكِ .. (٨٠)﴾ [غافر] أى : السفن . فمعلوم أننا نركب فى السفينة كما قال تعالى فى سفينة سيدنا نوح عليه السلام : ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا .. (٤٠)﴾ [هود] ولم يَقُلْ عليها ، كيف ؟ قالوا : لأن الحق سبحانه كأنه يُعطينا المراحل التى تمر بها صناعة السفن وكيفية الاستفادة منها ، فسفينة نوح كانت أولَ سفينة فكانتْ على صورة بسيطة ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُعلمنا

أن صناعة السفن ستتطور ، ويكون بها طوابق مختلفة فنركب عليها .

لذلك كنا سألناهم فى سان فرانسيسكو[1] عن السفن العملاقة هذه ، متى صُنِعت ؟ وكانوا لا يعرفون سنة بالتحديد ، فقال أحد الحضور : اعتبر أنها منذ قرن مثلاً ، قلت : نعم ، وفى القرآن الكريم إخبار بها ووصفٌ دقيق لها ، فهى متسعة من أسفل تضيق فى كل دور من الأدوار إلى أعلى ، فتراها عملاقة على صفحة الماء مثل الجبل .

فكيف يقول الحق سبحانه فى قرآنه وهو يُعدِّد نعمه علينا فى سورة الرحمن : ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤)﴾ [الرحمن] يعنى : كالجبال ، ومعلوم أن محمداً ﷺ لم يركب البحر ولم يَرَ مثل هذه السفن العملاقة ، إنه دليلٌ على صدق محمد ﷺ فى البلاغ عن ربه .

ثم قولوا لى : متى صُنِعت هذه (الأسانسيرات) وهذه المصاعد الحديثة ؟ قالوا : من خمسين عاماً مثلاً ، قلت : فالحق سبحانه يقول فى القرآن الكريم : ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ

---

(١) سان فرانسيسكو مدينة أمريكية فى ولاية كاليفورنيا على المحيط الهادى ، سميت بهذا الاسم فى ٣٠ يناير ١٨٤٧ م ، وهى المركز المالى والبنكى لشاطىء الولايات المتحدة الغربى ، وهى مدينة ليبرالية ويسارية أكثر من معظم مدن الولايات المتحدة . (موسوعة ويكيبيديا) .

بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ[1] عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) ﴾ [الزخرف]

معارج يعنى : مصاعد كالتى عندكم منذ خمسين سنة ، أخبرنا الله بها منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان .

هذه كلها لقطات من كتاب الله ذكرها الحق سبحانه لتكون دليلاً على الإعجاز : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١) ﴾

يعنى ﴿ آيَاتِهِ ﴾ فى هذه المخلوقات ، وآياته فى البحر حين تركبون السفن وترونَ عوالمَ أخرى فى البحر ، وآيات هى أعظم مما ترونَهُ على البر . والآن وبعد التقدم العلمى الحاصل رأيناهم يصنعون للفُلْك نوافذ من زجاج تحت سطح الماء ، ويصنعون زوارق زجاجية تُمكِّنك من رؤية الأعماق وما فيها من بديع صُنْع الله وآياته الدالة على قدرته ، لدرجة أنك تقول : سبحان الله ، كيف يكفر الكافر بعد رؤية هذه العوالم ؟

كذلك حين تركب الإبل فى البر وتتنقل بها عَبْر المسافات ترى كثيراً من آيات الله فى كونه ، فى الجمل الذى تركبه والصحراء

---

(١) المعارج : جمع معراج ومعرج : المصعد . والمعراج : الطريق الذى تصعد فيه الملائكة . والمعراج شبه سلَّم أو درجة تعرج الأرواح فيه إذا قبضت . [العين - للخليل بن أحمد الفراهيدى - مادة : عرج] .

والجبال التى تمر بها ، فى كل ما حولك ترى آية ، لذلك تجد الحق سبحانه وتعالى يطلب منَّا السير فى الأرض .

فيقول سبحانه : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [النمل]

ويقول سبحانه فى موضع آخر : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. ﴿١١﴾ ﴾ [الأنعام]

فكأن السير فى الأرض لاعتبارين : السير فى الأرض للاعتبار (فانظروا) والسير فى الأرض للتجارة والاستثمار فقال لكم : سيروا فى الأرض وابتغوا الرزق والاستثمار ، لكن لا تحرموا أنفسكم لذَّة الاعتبار والتأمل فى بديع خلق الله ، فقال : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. ﴿١١﴾ ﴾ [الأنعام] ومعلوم أن الفاء للترتيب والتعقيب ، وثم للترتيب والتراخى[1] .

وقوله : ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [غافر] يعنى : هذه الآيات التى ترونها أيها تنكرون ، وكيف تنكرونها وهى واضحة

(١) تحقيق هذه المسألة أن الحق سبحانه :
- استخدم (الفاء) فى ٣ آيات للسير فى الأرض للاعتبار كيف كان عاقبة المكذبين والمجرمين والذين من قبل ، (النحل ٣٦) (النمل ٦٩) (الروم ٤٢) ، واستخدم (ثم) فى التعبير عن نفس المعنى فى آية واحدة ، وهى قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنعام] .
- وأيضاً استخدم الفاء للتعبير عن المعنى الآخر وهو التأمل فى بديع خلق الله ، فى قوله ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [العنكبوت] . ولم يستخدم (ثم) كما قال الشيخ رحمه الله هنا ، فالآية الوحيدة التى وردت فيها (ثم) خاصة بالاعتبار بما حدث للمكذِّبين كما قلنا .

الدلالة على قدرة الله ، كما قال سبحانه فى سورة الآلاء (الرحمن) : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن] كررها الحق سبحانه بعد كل نعمة من النعم ، والمراد أنها آيات لا ينبغى أن تُكذَّب ، ولا ينبغى أنْ تُنكر .

لذلك قال النبى ﷺ لصحابته : لقد قرأتُ سورة الآلاء على إخوانكم الجن ، فكانوا أحسن استجابةً منكم ، كانوا إذا قرأتَ عليهم ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن] نطقوا جميعاً : ولا بشىء من نعمائك ربنا نكذب[١] .

وجاء بلفظ (أى) للمذكر مع أن (آيات) مؤنث ولم يقُلْ آية قالوا : لأنها مؤنث مجازى جاء بصيغة الجمع ، فيجوز فيه التذكير ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي .. (٧٨) ﴾ [الأنعام] فقال : هذا مع أن الشمس مؤنث .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) ﴾

هذا سير كما قلنا للاعتبار ، والاعتبار هنا بمَنْ سبقهم من

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٦٩٠) وعزاه للترمذى وابن المنذر وأبى الشيخ فى العظمة والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

الأمم ، يُبين لهم الحق سبحانه أن مَنْ سبقكم من الأمم المكذِّبة كانوا أكثر منكم عدداً ، وأشدّ منكم قوة وآثاراً فى الأرض ، والآثار هى ما يتركه القوم بعدهم كالأهرام بالنسبة للفراعنة ، مثلاً يبقيها اللهُ شاهدةً عليهم .

وهناك آثار أخرى لم نَرَها لأنها مطمورة ، لكن أخبرنا الله عنها كما فى قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) ﴾ [الفجر] هذه آثار باقية ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات]

فأين أنتم أيها العرب من هذه الحضارات الذاهبة ؟ لقد كان عليكم أن تفهموا الدرس من السابقين الذين كذَّبوا الرسل وعاندوهم ، أخذهم الله وهم أقوى منكم وأشدّ ونصر رسله ومنهجه ، وأنتم دون هؤلاء ولن تُعجزوا الله ، بل إن مسألتكم أسهل .

وقوله : ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) ﴾ [غافر] يعنى : هذه الحضارات وهذه العمارة التى تُعدُّ إعجازاً لم نصل إلى سِرِّه حتى الآن ، لم تنفع أصحابها .

ولنتكلم عن آثارهم فى مصر مثلاً ، عندنا آثار الفراعنة فى المعابد وفى الأهرام ، رأينا الألوان على الجدران كما هى وكأنها منقوشة فى العصر الحديث ، رأينا بعض الحبوب كما هى وقالوا إنها صالحة للإنبات بعد هذه الآلاف من السنين ، وتعلمون ما فى بناء

الأهرام من الأسرار التى لم نتوصل إليها حتى الآن .

كل هذا التقدم لم يستطع أصحابه حمايته ، ولم يستطيعوا الإبقاء على هذه الحضارة ، ولا حتى استطاعوا أنْ يتركوا لنا ما يُفسِّرها ، ولولا شامبليون[1] فكَّ لنا رموز حجر رشيد لما استطعنا التوصل إلى هذا التاريخ ولا معرفته .

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

أى : جاءتهم رسلهم بالآيات الواضحات وبالمعجزات قال : لسنا فى حاجة إلى الرسل كما قلنا أن سقراط الفيلسوف قالها على الفطرة ، نحن قوم مهتدون بطبيعتنا ولسنا فى حاجة إلى رسل ، ومع ذلك حكموا عليه بالقتل .

لذلك قلنا : إنهم حكموا عليه ظلماً لأنهم لم يحتكموا فى ذلك إلى شىء منطقى ، فأنت سوىّ السلوك فى ذاتك ، لكن هل منع عنك سىء السلوك ؟ فكان يجب أنْ يوجد طرف محايد يراعى ما لى وما علىّ .

---

(١) هو : جان فرانسوا شامبليون ، ولد ١٧٩٠ م وتوفى عام ١٨٣٢ م عن ٤٢ عاماً ، عالم فرنسى ، كان صبياً عمره ٨ سنوات حين جاء مع الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ م ، قضى ثلاث سنوات فى دراسة اللغات الشرقية والقبطية على يد كبار علماء ذلك العصر ، وشغل وظيفة أستاذ كرسى الآثار المصرية فى الكوليج دى فرانس .

قوله : ﴿ فَرِحُوا[1] بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ .. (٨٣) ﴾ [غافر] هذا نوع من الفرح الذى ذكرناه ، وقلنا : إنه غير مشروع وفرح أحمق . والمراد : فرحوا بما عندهم من العلم الذى يُحاجُّون به القرآن كقولهم : ﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ .. (٢٤) ﴾ [الجاثية] وهكذا يقول العلمانيون ، ومثل قولهم : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا .. (١٤٨) ﴾ [الأنعام]

فكل قضية تُعرض عليهم يريدون أنْ يعارضوها معارضةً هم مقتنعون بها رغم بطلانها ، وهذا نوع من العلم عندهم .

أو المعنى : فرحوا بما عندهم من العلم بظواهر الحياة والحضارات التى أقاموها ، فقالوا : لسنا فى حاجة إلى الرسل ، لأن ما عندنا من العلوم أى المادية فيه كفاية . ونقول : أنتم نظرتم إلى سطحيات الأمور وإلى الأشياء التى تبررون بها فكركم ، فقلتم : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا .. (١٤٨) ﴾ [الأنعام] يعنى : تتهم الله ، وهذا دليلٌ على أنك تريد ذلك .

---

(١) قال ابن الجوزى فى زاد المسير فى تفسير الآية :

المشار إليهم قولان :

– القول الأول : أنهم الأمم المكذِّبة قاله الجمهور ، ثم فى معنى الكلام قولان : أحدهما : أنهم قالوا : نحن أعلم منهم لن نُبعث ولن نحاسب ، قاله مجاهد . والثانى : فرحوا بما كان عندهم أنه علم ، قاله السدى .

– والقول الثانى : أنهم الرسل ، والمعنى : فرح الرسل لما هلك المكذبون ونجوا بما عندهم من العلم بالله إذ جاء تصديقه ، حكاه أبو سليمان وغيره .

والبعض يقول أن ﴿فَرِحُوا..(٨٣)﴾ [غافر] تعود على الرسل ، يفرحون أنْ جعلهم الله هُداة مهديين ، لكن هذا القول فيه خروج عن مقتضيات السياق فى الآية ، ويتعارض مع تذييل الآية ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣)﴾ [غافر] أى : حَلَّ بهم ونزل بهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣)﴾ [غافر] يعنى : جزاءَ استهزائهم ، ومن الاستهزاء قولهم : ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦)﴾ [الأعراف]

وقالوا : ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾ [الأعراف]

ومعنى ﴿يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣)﴾ [غافر] من هُزْء الباطل من الحق ، لماذا ؟ قالوا : لأن الباطل حين يرى حقاً يدفعه فلا بُدَّ له أنْ يفُتَّ فى عَضُد مَنْ يؤمن به ، لأنه لو لم يَفُت فى عضده جذبه هو إلى الحق ؛ ولذلك سمعناهم يقولون : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا[1] فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ [فصلت]

والله لو لم يكونوا يعلمون حلاوة القرآن وأخْذه لمن سمعه واستيلاءه على الأسماع والقلوب ، ولولا خوفهم من أنْ يأخذ

---

(١) قال السمرقندى فى بحر العلوم فى تفسير الآية ٢٦ من سورة فصلت : « نزلت الآية فى أبى جهل وأصحابه فإنه قال : إذا تلا محمد القرآن فارفعوا أصواتكم بالأشعار والكلام فى وجوههم حتى تُلبِّسوا عليهم ، فذلك قوله ﴿وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦)﴾ [فصلت] يعنى : الغطوا واللغط هو الشغب والجلب » .

القرآنُ منهم سيادتهم لما قالوا هذا الكلام ، ولما حذَّروا الناس من سماعهم ، ولو كان كلاماً عادياً ما وقفوا منه هذا الموقف . إذن : فهموا أن القرآن حَقٌّ ، ومَنْ سمعه لا بدَّ أنْ يهتدى به . ومعنى سمعه يعنى : بمواجيده .

سمعنا كثيراً قصة إسلام[1] سيدنا عمر بن الخطاب ، وكان جباراً فى الجاهلية عنيداً غليظ القلب ، فماذا حدث له بعد سماع القرآن ؟ لقد سمعه أولاً من أخته فغضب ولطمها على وجهها ، فسال الدم من وجهها ، وعندها تحركت عاطفته نحو أخته ، فلما تحركت عاطفته غطتْ على لدد الخصومة عنده للإسلام ، ولما غطَّت على لدد الخصومة للإسلام وصل القرآنُ إلى قلبه بدون لدادة فأثَّر فيه فآمن .

وقد صوَّر لنا القرآنُ فى موضع آخر نموذجاً لاستهزاء أهل الباطل بأهل الحق ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) ﴾ [المطففين]

---

(١) كان إسلام عمر بن الخطاب فى ذى الحجة سنة ست من بعثة رسول الله وعمره حينئذ ست وعشرون سنة فيما ذكره ابن سعد عن ابن المسيب . وقال أبو نعيم : كان إسلامه بعد إسلام حمزة بثلاثة أيام . قال ابن إسحاق : كان المسلمون قريباً من أربعين من رجال ونساء . [انظر : سبل الهدى والرشاد - الباب ١٧ فى إسلام عمر بن الخطاب] .

ثم يذكر الحق سبحانه عاقبة هذا الاستهزاء ، واللقطة الأخيرة فى هذا الموقف ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) ﴾ [المطففين] ثم يسألنا ربنا ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين] يعنى : هل قدرنا أنْ نجازيهم بما يستحقون ؟

﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ (٨٥) ﴾

هذه الآية تُمثِّل نفس الموقف الذى مرَّ به فرعون لما أدركه الغرق ﴿ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ فردَّ الله عليه ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [يونس]

يعنى : لا ينفعك الآن إيمانك . إذن : هناك فترة لا يمكن الرجوع فيها من الكفر إلى الإيمان ، وهى ساعة يحيق به الموتُ ، إنما يقبل منه الإيمان وهو فى سَعَة من أمره حين يؤمن وفى مكْنته ألاَّ يؤمن .

كذلك هؤلاء ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا .. (٨٤) ﴾ [غافر] أى : عذابنا حَلَّ بهم فى الدنيا ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) ﴾

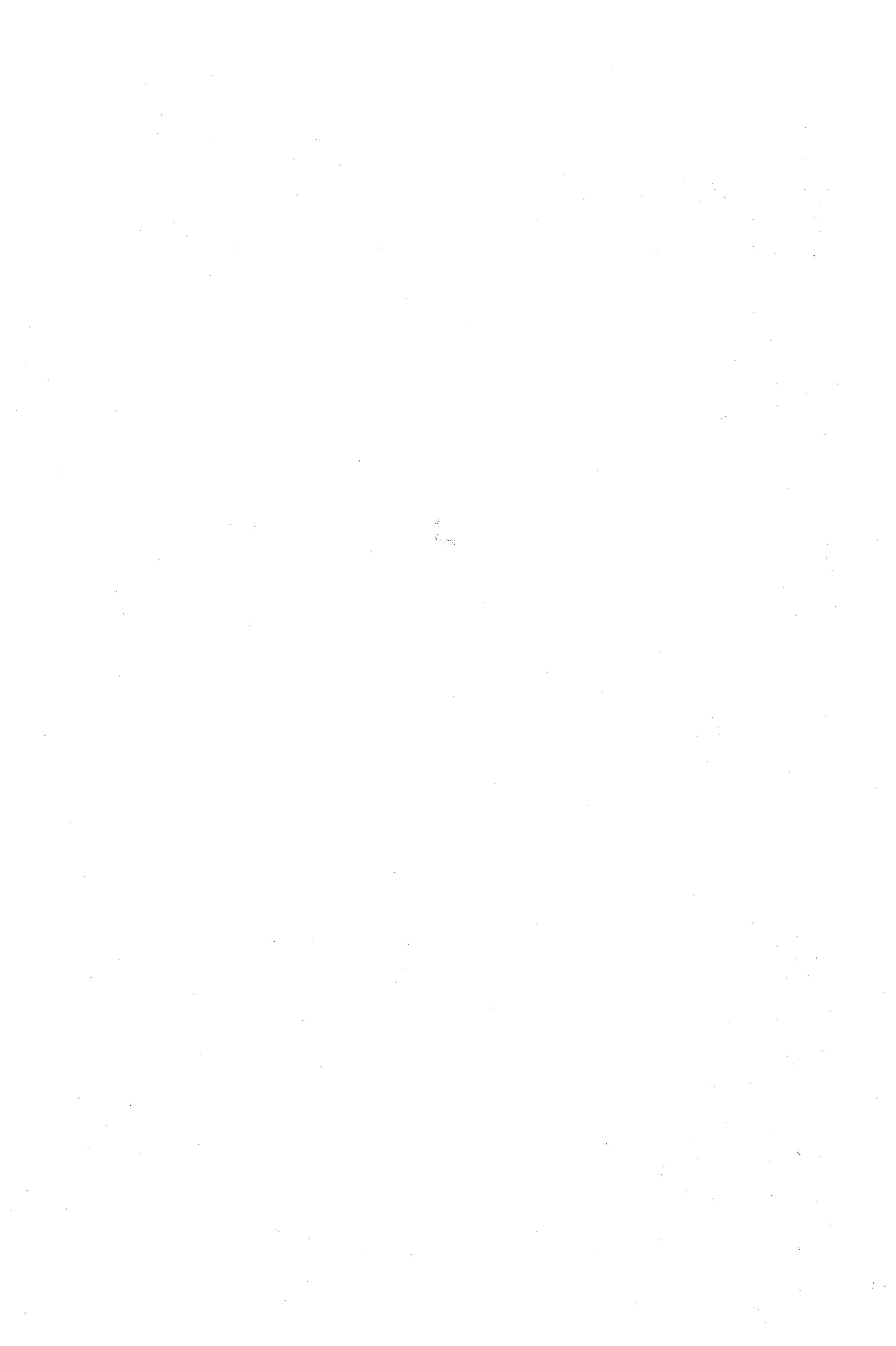
[غافر] فهل هذا وقت يُقبَل منهم فيه إيمان ؟

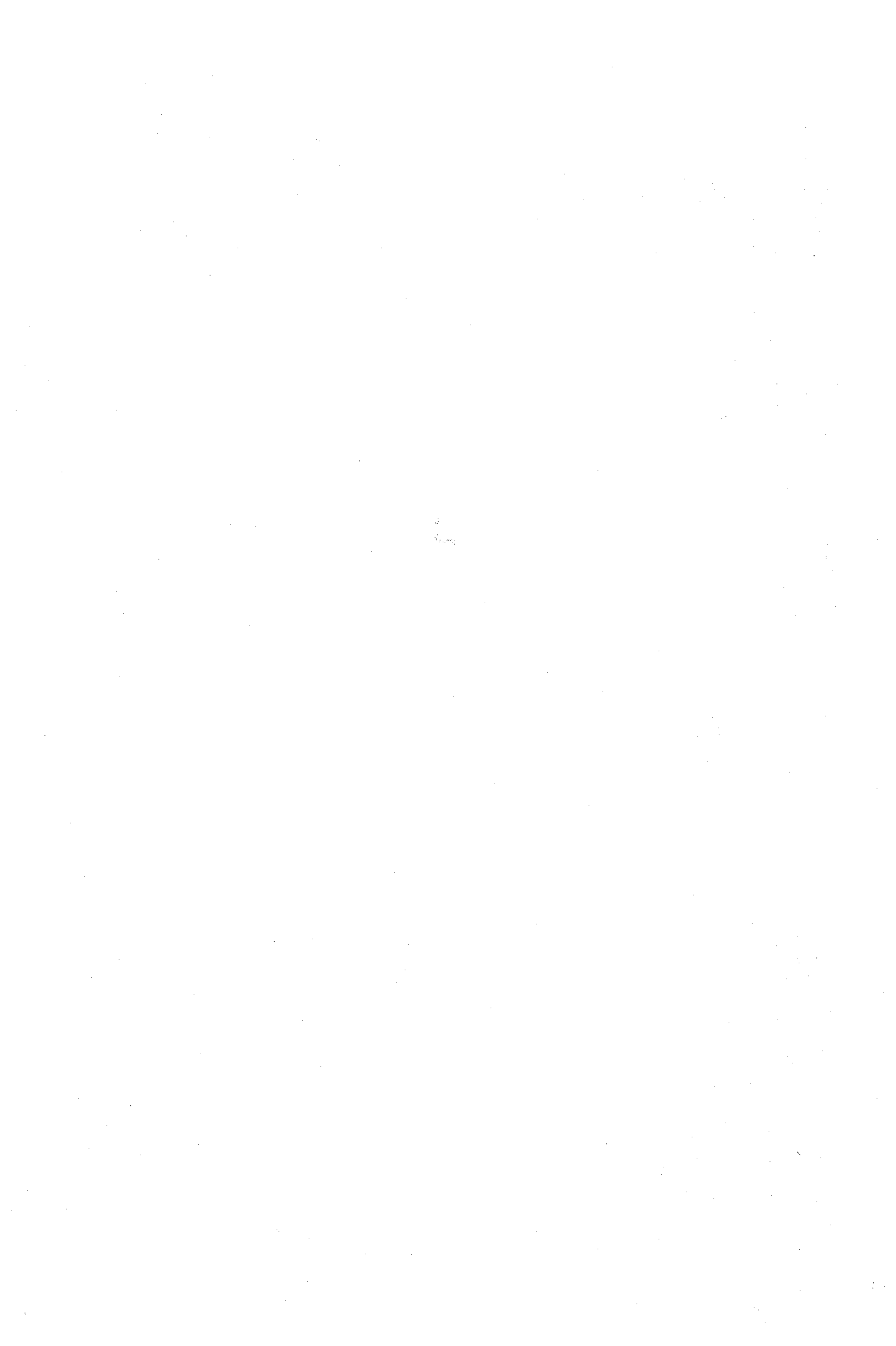
يقرر الحق سبحانه : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا .. (٨٥) ﴾ [غافر] يعنى : ما كان يصح فى عُرْف العقل ، ولا فى عرف الحق أن ينفعهم هذا الإيمان ، وكيف والآن لم تعُدْ لهم حيلة فى أنْ يُصادموا منهج الله ولا قوةَ ، الآن ليؤمنوا ؟

ما كان ينبغى أبداً أنْ ينفعهم هذا الإيمان ، وهذا الإيمان بظنهم هم ، وإلا فهو إيمان باطل مردود ، ولا معنى له لأنه فى غير وقته .

وهذه ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ .. (٨٥) ﴾ [غافر] يعنى : مضتْ ﴿ فِي عِبَادِهِ .. (٨٥) ﴾ [غافر] وقد رأينا هذه السُّنة على مرِّ التاريخ ، فكما أخذ أقواماً بذنوبهم ، ولم يقبل منهم إيمانهم ساعةَ غرغرتهم ، أو ساعة نزول العذاب بهم ، كذلك أنتم ولن تتغير هذه السُّنة لأنها ثابتة ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢) ﴾ [الأحزاب] ، وستظل سُنةُ الله جاريةً على الخَلْق أجمعين .

﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) ﴾ [غافر] وهذا هو الأمر الطبيعى والنهاية التى يستحقونها .





سورة فُصِّلَتْ[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ ﴾

قلنا : (حم) من الحروف المقطعة ، وقد حام العلماء حول معانى هذه الحروف وهذه المحاولات إرضاءً لشهوة البحث فى العقل ، ولكن الإيمان غير ذلك ، فالإيمان يأخذ القضية مُسلَّمة ، وما دام الله قد قالها فقد انتهت المسألة .

ولذلك سيدنا أبو بكر الصديق ساعةَ قالوا له : إن صاحبك يدَّعى أنه فعل كذا وكذا قال : أَو قَاله رسول الله ؟ قالوا : نعم ، قال : فقد صدق[2] يعنى : هذه مسألة فوق البحث ، ولا مجالَ لإعمال العقل فيها

---

(١) سورة فصلت هى السورة رقم (٤١) فى ترتيب المصحف الشريف نزلت بعد سورة غافر ، وهى ٥٤ آية ، قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٠١) : « سورة فصلت مكية فى قول الجميع » . ومعنى فصلت : أى بينت وفُسرت . قال قتادة : ببيان حلاله من حرامه وطاعته من معصيته .

(٢) ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١٢) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير ؟!

لأن لها رصيداً من الصدق يجعلها فوق البحث .

ولقد ذكرنا سابقاً خلاصة القول فى هذه الحروف ، وهذه الحروف هى التى يذكر الله فيها اسم الحرف ، لأن كلَّ حرف له اسم وله مُسمَّى ، فالألف مثلاً اسمه الألف ومُسمَّاه أَ - أُ - إِ . الاسم لا يَنطق به إلا المتعلم ، فالأمى لا يَعْرف الباء والتاء والثاء ، لكنه ينطق بها حين يتكلم .

إذن : ينطق الأُمىّ مُسمَّى الحرف ، ولا يعرف اسمه بدليل أننا حينما نُعلِّم الأولاد نقول لهم : تهجّ هذه الكلمة ، فيقول : ك ت ب . أما الأمى فينطقها كتب دون أنْ يعرفَ حروفها ولا هجاءها . اتفقنا على هذه المسألة .

اذكروا أن رسول الله ﷺ كان أُمياً ، فما الذى أفهمه أن (ح) اسمها حاء ، و (م) اسمها ميم ، بدليل أنك تقرأ فى أول سورة البقرة (الم) ألف لام ميم . أما فى أول الشرح فتقول ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ①﴾ [الشرح] فلماذا قرأتها فى البقرة هكذا ، وفى الشرح هكذا ؟

أنت قرأت فى البقرة اسم الحرف ، أما فى الشرح فقرأتَ مُسمَّى الحرف ، وهذه لا يفرق بينها إلا متعلم ، فمَنْ علَّم محمداً هذه المسألة ، والحروف هى نفس الحروف بنفس الترتيب ؟

شىء آخر : أن الحروف المقطعة فى القرآن أخذت نصف حروف الهجاء ، حروف الهجاء معروف أنها ثمانية وعشرون حرفاً ، أخذتْ منها الحروفُ المقطعة أربعة عشر حرفاً موزَّعة توزيعاً عجيباً ، وما زال العلماء حائرين فى فهم معانيها .

ففى الحروف التسعة الأولى لم يذكر منها إلا حرفين : الألف

والحاء . وفى الحروف التسعة الأخيرة جاء منها سبعة فقط ، ولم يأتِ حرفان على عكس الأولى ، أما العشرة فى الوسط فقد أخذ منها غير المنقوط وترك المنقوط ، فأخذ السين وترك الشين ، وأخذ الصاد وترك الضاد ، وأخذ الطاء وترك الظاء ، وأخذ العين وترك الغين ، إذن : هى مسألة مدروسة ليست رتابة ، إنما هى بنظام وحكمة مثل أسنان المفتاح ، فهى دقة مقصودة .

ثم ترى أنه سبحانه مرة يأتى فى أول السورة بحرف واحد مثل : ص ، ق . ومرة حرفين مثل : حم ، ومرة ثلاثة مثل : الم ، ومرة أربعة مثل : المر ، وخمسة مثل حمعسق ، كهيعص . إذن : المسألة حكمة مقصودة ليستْ هكذا دون نظام ، لها مقصد ، مقصد يضع الله فيه حَدَّ الخلاف بين الحروف وباقى الكلام ، كيف ؟

قالوا : الحروف المقطعة تنطقها أسماء ، ولا بدَّ أنْ تقف فيها فلا تقول مثلاً : ألفٌ لامٌ ميمٌ هكذا بالوصل . إنما تقول : ألف وتسكت . لام وتسكت . ميم وتسكت ، مع أن القرآن كله فى مُجْمله مَبنىٌّ على الوصل لا على الوقف ، تقول فى سورة (الرحمن) : ﴿ **مُدْهَامَّتَانِ** ﴿٦٤﴾ ﴾ [الرحمن] هكذا بالكسر ليتم الوصل بما بعدها ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن]

حتى آخر كلمة فى القرآن فى سورة (الناس) تقول : ﴿ **مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ** ﴿٦﴾ ﴾ [الناس] لتبدأ بعدها وتُوصلها بـ ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ** ﴿١﴾ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴿٢﴾ ﴾ [الفاتحة]

أما الحروف المقطَّعة فجاءت مبنية على الوقف ، لذلك قال ﷺ :

« لا أقول الم حرف . ولكِن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[١]

إذن : في الحروف المقطَّعة مقاصد وحكَم ما يزال العلماء يحاولون التوصل إلى شيء منها ، كلٌّ حسب ما فتح الله عليه منها ، أما هي فكنز باقٍ لا ينفد يعطينا منه الحق سبحانه على قدرنا .

يقولون : القرآن جاء معجزةً أسلوبية بلاغية ، وأمة العرب مشهورة بالفصاحة والبلاغة ، ومع ذلك ما استطاعوا محاكاة القرآن ولا الإتيان بمثله ، مع أن الله جاء به بلغتهم وبنفس حروفهم وتعبيراتهم ، وتحدَّاهم بهذا كله ، فلم يستطيعوا الإتيان ولو بآية واحدة من مثله .

وكأن الله يقول لهم : معكم نفس الحروف ونفس الكلمات ، فلماذا لم تنسجوا منها مثل نسجي ؟ إذن : وجه الإعجاز هنا أنه سبحانه وتعالى هو المتكلم بالقرآن ، هو الذي صاغه وتكلم به .

وأيضاً ، والمعنى الذي يجب أنْ يسودَ في هذا كله ، أن الحق سبحانه أنزل لنا عقائد وأحكاماً صدرتْ ممن اعتقدته وآمنتَ به ، وقرآن يدل على ذلك ، هذه ثلاثة : العقائد وهي الإيمان بالوجود الأعلى وواجب الوجود ، وأن له صفات الكمال المطلقة : الأول والآخر والظاهر والباطن .. الخ لأن هذه يُقام عليها دليل عقلي .

فهذا الكون البديع المحكم لا بدَّ له من خالق قادر حكيم عليم ..

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » أخرجه الترمذي في سننه (٢٩١٠) وقال : حديث حسن صحيح .

الخ .. فالعقل يؤيد هذه العقيدة ويثبتها ، لكن ليست هذه كل العقائد ، بل هناك سمعيات لا يقوم عليها دليل عقلى لأنها غيبيات كما نقول مثلاً : فى الجنة كذا وكذا ، وصفتها كذا وكذا .

ومثلها كذلك عذاب القبر ، هذه غيبيات ، نعم لا يقوم عليها دليل من العقل ، إنما هى محمية فيما له دليل عقلى ، فما دُمتَ قد آمنتَ بهذا الإله ، ودلَّكَ العقل عليه ، فخذ ما أخبرك به دون أنْ تناقشها ، فقط تقف عند سماعها .

كذلك الأحكام مثل الصلاة ، وأنها إدامة الولاء لله تعالى ، والزكاة للاستطراق المالى والاقتصادى فى المجتمع ، كذلك الحج لبيت الله الحرام . وهكذا . فالأحكام أيضاً فيها جانب عقلى وجانب سمعى ، فالصلاة كعبادة لله ودليلِ ولاء للمعبود سبحانه هذا أمر عقلىٌّ ، أما كيفيتها وعدد ركعاتها فهذا أمر سمعى نأخذه كما هو ولا نناقشه ، كذلك كل العبادات .

والأحكام فيها أمر عقلى يُفهم ، وأمر سمعى يُؤخذ مُسلَّماً به ، فإنْ قلت : كيف نقف عند أمور فى الدين لا تُناقش . نقول : نعم لأن هذا الوقوف فى أمور الغيبيات هو دليلُ إيمانك بالله ، لأن الأمور العقلية يستوى فيها كل الناس .

قلنا : لو عندك مبلغ تخاف عليه السرقة مثلاً ، ووضعتَه تحت حجر فى الحديقة ، وجاء آخر الشهر وأردتَ مثلاً أن تعطى خادمك راتبه من هذا المال . تقول له : يا فلان ارفع هذا الحجر وهات ما تحته ، فيقول لك : لا أقدر على رفعه وحدى ، وسأنتظر فلاناً يرفَعه معى ، تقول له : اعلم أن تحته الكيس الذى به النقود التى ستأخذ منها راتبك ، عندها يذهب ويرفع الحجر وحده .

أما إنْ قلتَ لشخص آخر : ارفع هذا الحجر فرفعه دون علة . فهل يستوى فى طاعتك هذا وهذا ؟

كذلك أمر العقائد ، فَرْق بين مَنْ يؤمن بالأمور العقلية الحسية ، ومَنْ يؤمن ويصدق حتى بالأمر الغيبى الذى تخبر به .

كذلك الحال فى العقائد وفى الأحكام وفى القرآن كُلٌّ فيه الأمر العقلى والأمر الغيبى ، وعليك أنْ تحمل الأمور الغيبية على الأمور العقلية . والقرآن الكريم - وهذا هو موضوعنا - فيه كلام عقلى يُفهم بالعقل ، وحروف لا يُفهم معناها إلا أن الله قالها ، ولذلك نقول فيها : والله أعلم بمراده .

وقوله : ﴿ حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) ﴾ [فصلت] أنا أقول أن (حم) هذه هى التى يقول الله عنها ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) ﴾ [فصلت] وما دامتْ تنزيلاً من الرحمن الرحيم ، فإياك أنْ تخوض فيها وتقول : ماذا تعنى ، أو أنها مبهمة .. الخ لا بل قف عندها وخُذْها على أن لله فيها مراداً هو أعلم به .

واعلم أنه سبحانه يقول بعدها : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ .. (٣) ﴾ [فصلت] ففى القرآن إذن الأمران : الأمر الغيبى الذى ينبغى الوقوف عنده مثل (حم) ، وهذه الغيبيات هى مجالُ اختبار الإيمان ، ثم يعطيك أيضاً الأمر العقلى المفهوم يُفصِّله لك تفصيلاً .

كلمة ﴿ تَنزِيلٌ .. (٢) ﴾ [فصلت] من نزول الشىء ، والنزول يكون من مكان عَال إلى مكان منخفض عنه ، أو من مكانة عليا إلى مكانة أدنى ، وهذه المادة جاءت كثيراً تدل على نزول القرآن والمنهج من أعلى ، وجاءت بكل الاشتقاقات : تنزيل ، نزل ، ننزل ، نزَّلناه ، أنزلنا ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء] وقال :

﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ[(١)] فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ④﴾ [القدر]

لذلك ساعة تسمع كلمة ﴿تَنزِيلٌ .. ②﴾ [فصلت] تعلم أن الذى جاءك من أعلى منك منزلة حتى لو كانت مكانته عندك ، وتحت رجليك كما قال فى الحديد : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ .. ㉕﴾ [الحديد] فالحديد معلوم أنه من الأرض من حيث نشأته وتكوينه، لكنه مُنزَّل من أعلى من حيث خالقه وواهبه لك .

إذن : فكل هذه الاشتقاقات من (نزل) تدل على علو الشىء المنزَّل ، ومُنزَّل مِنْ مَنْ ؟ ﴿مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ②﴾ [فصلت] فيجب أن تتلقى هذا المُنزَّل إليك بالتسليم المطلق والقبول ، لذلك سيدنا أبو بكر لما قالوا له : إن صاحبك يدَّعى أنه أُسرىَ به إلى بيت المقدس وعُرِج به إلى السماء لم يناقش هذه المسألة عقلياً . إنما قال لهم : إنْ كان قال فقد صدق .

فجعل قَوْل رسول الله هو الأساس ، فإنْ حدث منه القول فهو صادق ، لذلك منذ هذا اليوم لُقِّب بالصدِّيق . مع أن الإسراء آية أرضية وفيه جانب عقلى ، لأن المسافة معلومة لهم ، وكيفية السفر إلى بيت المقدس معلومة زماناً ومكاناً ، ومع ذلك لم يناقش فيها . أما المعراج فهو أمر غيبىٌّ ، فكأنه جعل تصديق محمد فيما يعلمون فى الأرض وسيلةً لتصديقه فيما لا يعلمونه فى السماء .

ونفهم أيضاً من قوله تعالى : ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ②﴾ [فصلت] أن التكليف الذى نزَّله الله لك لم يأتِ ليشقَّ عليك ، إنما هو

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٣١) : « أما الروح فقيل : المراد به هنا جبريل عليه السلام فيكون من باب عطف الخاص على العام . وقيل : هم ضرب من الملائكة » .

من رحمن بك واسع الرحمة ، رحمته وَسِعَتْ كل شيء المؤمن والكافر .

و (الرحيم) يعنى : دائمَ الرحمة لأن رحمته تعالى تنسحب وتدوم حتى فى الآخرة ، فإنْ رأيتَ فى التنزيل تكليفاً تظنه يشق عليك ، فلا تفهم أنه من قاسٍ عليك ، إنما هو من رحمن رحيم .

رحمن بك ، لأنه يدلُّك على ما يسعد دنياك ويسعد آخرتك ، بدليل أنه سبحانه حين يكلفنا بأمور قد تشقّ على النفس العادية لا يستفيد من هذا التكليف ، فسواء أن تكفر أو أن تؤمن ، تصلى أو لا تصلى ، لأنه سبحانه بصفة القدرة موجود ، وإنْ لم تؤمن به وإنْ لم تُصلِّ .

فعملك إذن لا علاقة له بالله من حيث النفع ، العملية لصالحك أنت كما تقول لولدك مثلاً : إذا نجحتَ هذا العام سأشترى لك كذا وكذا .

﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾

سماه ﴿ كِتَابٌ .. ۝٣ ﴾ [فصلت] لأن الكتاب تعنى الجمع . والكتيبة جمع الجنود ، فالكتاب تجمع الكلمات إلى بعضها ، والكتاب يعنى : مجتمع فيه أشياء ، وفى القرآن اجتمع كل خير فى الدنيا والآخرة ، وهو كتاب لأنه مكتوب ومُسجَّل تستطيع أن تقرأه .

ولذلك لما أرادوا جمع القرآن وضع الجامعُ مبدأ ، وهو ألاَّ يكتب آية إلا إذا وجدها مكتوبة بالفعل على الرِّقاع أو العظام أو غيره ، مما كانوا يكتبون عليه ، ثم يشهد على صحتها اثنان من القراء ، فهو كتاب لأنه مكتوب فى السطور ، وقرآن لأنه مقروء محفوظ فى الصدور .

الحق سبحانه وتعالى أراد بذلك كما قال الشيخ المرحوم محمد عبد الله دراز[1] : أنْ تُذكِّر إحداهما الأخرى ، فالمكتوب مع المقروء يتعاونان فى تسجيل كتاب الله تسجيلاً دقيقاً لا يتطرق إليه الشك .

والدليل على ذلك أن جامع القرآن وجد آية مكتوبة ، وطلب لها شاهدين فلم يجد إلا واحداً يشهد على صحتها فتوقف عن كتابتها ، وكان هذا الشاهد هو سيدنا حذيفة[2] رضى الله عنه ، وجاء للكاتب مَنْ ذكَّره بحديث سيدنا رسول الله فى شأن خزيمة حين قال : « من شهد له خزيمة فحَسْبه »[3] فجعل شهادة خزيمة بشهادتين ، وأخذ عنه الآية وكتبها .

ولها قصة : قالوا إن رسول الله ﷺ كان قد استدان مالاً من يهودى ، وأدَّاه لَهُ دون شاهد بينهما ، ثم جاء اليهودى مرة أخرى يطالب رسول الله بالسداد فقال له رسول الله : لقد أديتك . قال : لا ، قال : أدَّيْتُك ، قال : إذن ابغنى شاهداً ، فقام أحدُ الصحابة وقال : أنا يا رسول الله شهدتُ ذلك ، عندها سكت اليهودى لأنه كاذب .

---

(١) محمد عبد الله دراز : فقيه متأدب مصرى أزهرى ، كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر ، له كتب منها « الدين » دراسة تمهيدية لتاريخ الإسلام . توفى عام ١٩٥٨م . [الأعلام للزركلى] .

(٢) هو : خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الأنصارى ، أبو عمارة ، صحابى من أشراف الأوس فى الجاهلية والإسلام ، حمل راية بنى خطمة يوم فتح مكة ، عاش إلى خلافة على ابن أبى طالب وشهد معه صفين فقتل فيها ، توفى ٣٧ هجرية . روى له البخارى ومسلم وغيرهما ٣٨ حديثاً [الأعلام للزركلى] .

(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك على الصحيحين (١٨/٢) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠١/٤) من حديث خزيمة بن ثابت . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣٢٠/٩) : « رجاله كلهم ثقات » .

وبعد نهاية الموقف استدعى رسول الله الصحابى وقال له : كيف شهدتَ بذلك ولم يكُنْ معنا أحد ؟ فقال له : يا رسول الله ، كيف أُصدقك فى خبر السماء وأُكذِّبك فى كذا درهم ..

نعم : نقول هنا نعْمَ الاستنباط ، لذلك استحق هذه المكانة من رسول الله « من شهد له خزيمة فَحَسْبُه » .

ومعنى ﴿ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ .. (٣) ﴾ [فصلت] يقولون فى الفعل (فُصِّلت) مبنى للمجهول أو لما لم يُسَمَّ فاعله ، والمعنى هنا أن الله فصَّلها أولاً ففُصِّلت أى : صارتْ مُفصَّلة ، فلما بلَّغها رسول الله للناس أصبحت هى مُفصِّلة لأمورهم ولأحكامهم .

ومعنى ﴿ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ .. (٣) ﴾ [فصلت] لأن القرآن مُقسَّم ومُفصَّل إلى سور ، كل سورة قائمة بذاتها ، وداخل السُّور آيات ، كل آية بذاتها ، ففى السُّوَر الطويل والقصير ، كذلك فى الآيات تجد كلمة واحدة آية ، وتجد آية من عدة أسطر ، كذلك فصَّل الكلمات من حيث مادتها ، كذلك فصَّل الحلال والحرام ، وفصَّل الطاعة والمعصية ، ألم يفصل بين الوعد والوعيد ، بين الثواب والعقاب .

لقد فَصَل القرآن بين كل هذه المسائل ، أو فُصلت فيه كل آيات الكون إلى قيام الساعة ، لذلك قالوا : « خطبنا رسول الله خطبة بليغة ، ما ترك فيها شيئاً ، وما ترك من ورقة تسقط إلا حدَّثنا عنها إلى أنْ تقوم الساعة ، حفظها مَنْ حفظها ونسيها مَنْ نسيها »[1] .

نعم كما قال تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. (٣٨) ﴾

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة بعد العصر إلى مغيربان الشمس ، حفظها منا من حفظها ونسيها منا من نسى ، فحمد الله فقال ما هو كائن إلى يوم القيامة ...» الحديث أخرجه أحمد فى مسنده (١٩/٣) .

[الأنعام] يعنى : أن الأمور التى تحدث فى الكون موجودة عندكم فى هذا الكتاب .

ولذلك لما سُئلنا فى إحدى رحلاتنا إلى أوربا من أحد المستشرقين قال : عندكم فى القرآن : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .. ۝٩﴾ [الصف]

وفيه : ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٨﴾ [الصف]

ومع ذلك وبعد مرور أربعة عشر قرناً على ظهور الإسلام ، ما يزال اليهود والنصارى والملاحدة والمشركون موجودين ، ولم يظهر عليهم الإسلام ، فكان الرد الذى وفقنا الله إليه أن الإسلام ظهر بالفعل عليهم رغم وجودهم ، والمراد بالظهور هنا ظهور الحجة ، فالإسلام ظهر على هؤلاء بالحجة من أعدائهم .

وفرْق بين أن تظهر الحجة من مُعتقده ، وبين أن تظهر الحجة من معاند ، كيف ؟ قالوا : ستظهر فى الكون أقضية من صُنْع البشر لا يجدون لها حلاً ، إلا أن يرجعوا إلى حكم القرآن .

إذن : ظهر القرآن عليهم وعلى أفكارهم وعلى أحكامهم وعلى حضارتهم ، وإلا لما رجعوا إليه .

ومثَّلنا لذلك بقضية الطلاق فى الإسلام ، وهى من أهم القضايا التى عارضوها وانتقدوها ، وبعد ذلك اضطرّ الفاتيكان نفسه إلى إباحة الطلاق عندهم ، وهذا هو ظهور الإسلام ، لا بأنْ يكونوا مسلمين ، إنما بأنْ تظهر حجته ويشهد له منهم مَنْ لم يؤمن به .

وقوله : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا .. ③ ﴾ [فصلت] أى : بلسان عربى وفى أمة عربية ، لكن كيف ذلك وهو رسالة عالمية لكل البشر ولكل اللغات ؟ ولماذا لم ينزل بكل اللغات ؟ قالوا : إذن لم يكُنْ هناك لغة (اسبرانتو) فالقرآن نزل على محمد فى بيئته العربية ، لأن الله تعالى يريد أن يظهر هذا الدين فى أمة أمية ، وعلى لسان رسول أُميٍّ حتى لا يقول أحد : إن القرآن وثبة حضارية .

فالعرب كانوا أمة لا دولةَ لها تحكمها ولا نظام ولا قانون ، كانوا مجموعة من القبائل كل قبيلة لها قانونها ، كل واحد منهم (شوكته من ظهره) ومع ذلك تأتى مثل هذه الأمة وتوحد العالم كله بما فيه من دول متحضرة من فارس فى الشرق إلى الروم فى الغرب .

فمن أين أتت هذه الأمة بذلك ؟ كان عليهم أنْ يفهموا أنه قانونُ السماء جاء من أعلى ، وإلا ما كان العرب ليقوموا بهذا الدور لولا رسالة محمد ﷺ .

إذن : لا مجالَ لأنْ نقول عن الإسلام إنه وثبة حضارية ، لذلك لما أراد الحق سبحانه إعلاءَ دينه جعل محمداً ﷺ يجهر بهذا الدين فى مكة ، لماذا مكة بالذات ؟ لأن فيها قريشاً وهى موضع السيادة فى الجزيرة كلها ، وفيها الصناديد الذين لا يجرؤ أحد على مواجهتهم .

فبين هؤلاء صاح محمد بالإسلام وجهر به ، ومع ذلك لم ينصر الدين هؤلاء السادة ، إنما نصره المستضعفون والعبيد فى المدينة ، وقلنا : إن لهذه المسألة حكمة ، هى ألاَّ يظهر أحد أن العصبية لمحمد هى التى خلقتْ الإيمان بمحمد ، ولكن الإيمان بمحمد هو الذى أوجد العصبية لمحمد .

فالقرآن عربى لأنهم أمة الدعوة الذين سيحملون لواءها ويسيحون بها فى أنحاء العالم كله ، فالعرب أمة تقوم على الترحال ليس لهم بيوت ولا يسكنون الفيلات والعمارات ، إنما هى الخيمة يحملها معه أينما سار ، فوطنه إذن العالم كله وبيته على ظهر جمله ، كما أنها أمة قبلية يتعصب كُلٌّ لقبيلته ، لذلك كثرت بينهم الحروب حتى أن بعضها استمر أربعين سنة .

هذه الحروب دربَّتهم على القتال ، وزرعت فيهم الشجاعة والتضحية بالنفس فى سبيل المبدأ ، لذلك لما أراد رسول الله أنْ يُعدَّ جيشاً لم يفتح له مدرسة حربية ، إنما وجد جيلاً من الرجال جاهزاً مُعداً يعلم كل فنون الحرب ، كلما سمع أحدهم هيعة طار إليها .

هؤلاء هم الرجال الذين سيتلقوْنَ الدعوة من رسول الله ، هم الذين سينشرونها . إذن : لا بُدَّ أنْ يكون الكلامُ بلسانهم ، والدعوة بلغتهم ، ليستطيعوا حملها .

لذلك قال تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ .. ﴿٤﴾ ﴾ [إبراهيم] نعم لأنهم هم الذين سيسمعون منه أولاً .

لكن كيف تكون عالمية الدين ؟ قالوا : حين يسمع منه قومه يؤمنون به ، ثم يحملون دعوته إلى الناس لا ألفاظاً ، لكن يحملونها منهجاً وسلوكاً وقدوةً ، ومعلوم أن المناهج لا تختلف فيها اللغات ، لذلك غزا المسلمون العالم كله ، ليس بالقرآن وآياته إنما بالسلوك وبالمبادىء التى أرساها القرآن .

إذن : نزل القرآن بلسان عربى ، لأن العرب هم المعَدُّون لهذه المهمة ، القادرون على حملها ، والسياحة بها فى العالم كله لكونهم

أمـة بدوية غيـر متـوطنة ، وأمة قـتال ، وهى أمـة أميـة لا يمكن أن نتهمها باختلاق هذا الدين ، أو أنه وثبة حضارية .

وقوله : ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾ [فصلت] أى : يعلمـون أساليب العربيـة ، بل ويُجوِّدون فيـها ، فهـم أعلى قمة الفـصاحة والبـلاغة ، بدليل أنك لن تجد أمة فى الأرض صنعتْ معارض للأدب وللكلمة كما صنع العرب فى عـكاظ والمربد وذى المجـاز والمجنة ، فـفيهـا كانوا يعرضـون إنتاجهم الأدبى ويُقيِّمونه ، وما استحسنوه منه يكرمونه بأن يضعوه على أستار الكعبة .

إذن : ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾ [فصلت] العربية وينبغون فيها نبوغاً ، بحيث نزل القـرآن المعجز بلسـانهم . والإعجاز لا يتأتى لمن لا يـجيد مجال الإعـجاز ، فالذى يجهل شيئـاً لا يصح أنْ تقول له : أتحداك فى هذا الشىء ، إنما يكون الإعـجاز للمُجـيد فى الشىء المتـحدَّى به ، لأن الجاهل له أن يقول لك : والله لو كنت أعلم الشىء الفـلانى لغلبتك فيه . ومن هنا تحدى الله العرب بالقرآن .

ولذلك الحق سـبحـانه وتعـالى لا يُنزل آية مع رسـول من رسُله لإثبـات صدقـه فى الدعوة إلا من جنس مـا نبغ فـيه القـوم ، فكانت معجزة سيدنا عيسى فى الطب ، فكان يبرئ الأكمه[1] والأبرص[2] بإذن الله ، وسيدنا مـوسى عليه السلام كانت مـعجزته العصـا ، لأن قومه نبغـوا فى السحر ، وجاءت مـعجزة محـمد ﷺ فى البلاغة والبـيان ، فتحدَّى القوم بالقرآن ، وبذلك يتأتَّى الإعجاز .

---

(١) الأكمه : الأعمى ، سواء وُلد أعمى أو فقد بصره [القاموس القويم ٢/ ١٧٥] .
(٢) البرص : بياض يصيب الجلد يحدث بقعاً بيضاء فى الجلد تشوهه وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة . [القاموس القويم ١/ ٦٤] .

لذلك نسمع مَنْ يقول : إن العرب انهزموا أمام القرآن ، وهذا غير صحيح ، لأن العرب لم ينهزموا بل انتصروا أمام القرآن ، كيف ؟ لأن الله تعالى لا يتحدى إلا قوياً ، فتحدِّى الله لهم دليلٌ على أنهم قوة ، لديهم القدرة على البيان ويمتلكون ناصية اللغة .

﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً .. ﴿٤﴾ ﴾ [فصلت] هذا أول شيء فى التفصيل ، كما قلنا : فصَّل الحق والباطل ، والحلال والحرام ، هنا بشيراً ونذيراً ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [فصلت] إعراض الكثرة يدل على أن القلة هى التى آمنتْ وهى القلة المستضعفة ، أما أكثرهم فكانوا أهل السيادة وأهل القوة الذين لم يقبلوا الدعوة الجديدة التى تسويهم بهؤلاء الضعفاء والعبيد .

لذلك سيدنا أبو بكر لما تولى الخلافة ، وجاءه جماعة من هؤلاء الصناديد ، وكان عنده جماعة من المستضعفين السابقين للإسلام أخَّر الصناديد والكبراء حتى يفرغ ممَّنْ عنده فشقَّ ذلك عليهم ، ووجدوا فى أنفسهم شيئاً ، كيف يُقدِّم أبو بكر عليهم العبيد والضعفاء ، فقال الصِّدِّيق : ما بال هؤلاء ؟ كلهم ورم أنفه[1] أنْ قدَّمتُ عليه فلاناً وفلاناً ، فما بالهم إذا قدَّمهم الله عليهم يوم القيامة فى الجنة ؟

لكن ما وجهة الإعراض فى قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ .. ﴿٤﴾ ﴾ [فصلت] قالوا : وجهة الإعراض أنهم يفهمون مطلوب الدين الجديد

(١) ورم أنفه : امتلأ من ذلك غضباً . [المبرد فى الكامل فى اللغة والأدب] .

بقولهم : لا إله إلا الله .

وأن السيادة لن تكون إلا لهذه الكلمة ، ولن تكون سيطرة إلا لهذه الكلمة ، وأن العباد سيكونون سواء أمامها ، إذن : كيف يقولون لا إله إلا الله ، وهم يعرفون مطلوبها ؟ لذلك لم يقولوها ، ولو كانت مجرد كلمة تُقال لقالوها ، لكنهم يعرفون معناها فوقفوا .

وقوله : ﴿ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ④ ﴾ [فصلت] أي : لا يسمعون سماعاً نافعاً ، وسماعاً واعياً مقبولاً ، وإلا فقوله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ④ ﴾ [فصلت] دلَّ على أنهم سمعوا دعوة رسول الله ، سمعوها بالآذان فقط ، ولم يستفيدوا بهذا السماع ، لذلك قال تعالى فيهم : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. ⑯ ﴾ [محمد]

لذلك يختلف الناس في تلقِّي القرآن ، فواحد يسمع وينفعل ويسجد لعظمة القرآن ، وآخر يسمع ويقول : ماذا قال !! على سبيل الاستهزاء والاستقلال . لأنه لا يسمع بأذن الاعتبار والتأمل ، لماذا ؟ لأن منافذ القلب من العقل مُضببة بالمطلوب الذي يطلبه الإيمان منهم ، فقد ألفوا السيادة ، فساعةَ يسمعون ما يعارض سيادتهم وسلطتهم الزمنية يعرضوا .

لذلك قلنا في قصة إسلام سيدنا عمر أنه لما سمع القرآن أولاً عاند وثار ، لأن قلبه لم يكُنْ مُعداً للاستقبال السليم ، فلما لطم أخته وسال الدم منها رقَّ قلبه ولاَنَ ، وزال عنه الضباب ، فلما سمع القرآن تأثر به وانفعل به فآمن .

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ(١) وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) ﴾

معنى ﴿ أَكِنَّةٍ .. (٥) ﴾ [فصلت] يعنى : أغطية جمع كنان أى : غطاء . والغطاء يغلف الشىء بحيث لا ينفذ إليه النور ، وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ .. (٥٧) ﴾ [الكهف] فالأكنة مرة من جَعْل الله ومرة منهم ، فأيهما أسبق ؟ أجعل الله لهم أكنة أولاً ثم أصابتهم الغفلة ، أم أن إعراضهم عن دين الله هو الذى جعل الأكنة على قلوبهم ؟

وقلنا : إن الإنسان إذا أَلِفَ الكفر وأَنس به زاده الله منه وختم على قلبه ، بحيث لا يدخله الإيمان ولا يخرج منه الكفر .

إذن : يأتى منهم الكفر أولاً ، وبعد ذلك يختم الله على القلب ، كذلك فى مسألة الأكنة جاءتْ منهم أولاً ، فزادهم الله ، وجعل على قلوبهم الأكنة وزادهم مرضاً على مرض .

إذن : المراد بالأكنّة أى الأغطية التى تمنعهم فَهْمَ وتدبُّرَ ما يسمعون ، وما يُلقى عليهم ﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ .. (٥) ﴾ [فصلت] وقر يعنى : صَمَم يمنع السماع . وفى سورة البقرة قال : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ .. (١٨) ﴾ [البقرة]

ومعلوم أن البكم ينشأ عن الصمم ، لأن الأصم الذى لا يسمع كيف يتكلم ؟ لأن اللغة ظاهرة اجتماعية وهى بنت المحاكاة ، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان ، فإذا لم تسمع الأذن شيئاً لا ينطق

---

(١) الوقر : ثقل فى السمع . وقيل : هو أن يذهب السمع كله . والثقل أخف من ذلك [لسان العرب - مادة : وقر] . يقول الكافرون ذلك سخرية وإصراراً على العناد والكفر والتكذيب . [القاموس القويم ٢/ ٣٥٠] .

اللسان بشىء ، فاللغة ليست جنساً ، اللغة سماع ومحاكاة ، بدليل أنك تأتى بالطفل الإنجليزى مثلاً فى بيئة عربية ينطق العربية .

والأصم عنده القدرة على الكلام ، بدليل أنه ينطق ببعض الأصوات غير المفهومة كما نسمع من الأخرس مثلاً ، حتى الإنسان السَّوى الفصيح لا يستطيع أنْ يتكلم بكلمة لا يعرفها من لغته هو ، من أين يأتى بها ؟ من السماع أولاً .

ولذلك أخذنا من هذه المسألة أدلة مادية على وجود الخالق الأعلى سبحانه ، نقول : أنت كيف تتكلم ؟ يقول : أتكلم لأننى سمعتُ فى صِغَرى أبى وأمى ومَنْ حولى يتكلمون ، فقلت كما يقولون ، إذن : لا تنشأ لغة إلا بالسماع .

وكذلك الحال فى الآباء وفى الأجداد ، وارْتَقِ بهذه السلسلة إلى آدم عليه السلام وقُلْ : كيف تكلم آدم وليس قبله أحدٌ يسمع منه ؟ لا بُدَّ أنه سمع ، سمع من مَنْ ؟ سمع من الله تعالى حين علَّمه الأسماء كلها .

منافذ الخواطر التى ترد الآذان ، ومنافذ الخواطر التي تصدر من اللسان ، ولأن هؤلاء صُمٌّ لا يسمعون لم يأخذوا شيئاً ، وبالتالى لم يُخْرجوا شيئاً ، لذلك قال سبحانه : ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ .. ۝٥ ﴾ [فصلت] يعنى : أغطية تمنع عنهم الاستفادة ﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ .. ۝٥ ﴾ [فصلت] يعنى : صمم ، ولم يأتِ هنا بذكر اللسان لماذا ؟ لأنهم لن يتكلموا فى الدين لأنهم لم يسمعوه ، فكوْنه لم يأت بالكلام هنا دلَّ على أنهم لن يسمعوا ولن يتكلموا ، تأمل هنا الدقة لأنه كلامُ ربٍّ .

وقولهم : ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ .. ۝٥ ﴾ [فصلت] أى : ستر

غليظ يحجبك ، فأنت تكون مع جليسك تُحدِّثه ويُحدِّثك ، تسمعه ويسمعك ، تراه ويراك ، تأنس به ويأنس بك .. الخ لكن إنْ كان بينك وبينه حجاب امتنع ذلك كله .

هذا الحجاب قد يكون معنوياً ، تقول : بين فلان وفلان جفوة أى : جفوة صغيرة سرعان ما تزول . لكن إنْ قلتَ : بين فلان وبين فلان جفوة ، وكررتَ ظرف المكان دلَّ ذلك على أنها جفوة كبيرة ليس من السهل إزالتها .

كذلك قالوا : ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ .. ۝٥ ﴾ [فصلت] يعنى : كثيف غليظ يستر كل شىء ، من هنا إلى هنا ، يعنى : يملأ كل ما بيننا من مسافة . قالوا : لما كان سيدنا رسول الله ﷺ يكلم القوم ، ويعرض عليهم دين الله كان أبو جهل يأخذ ثوبه ويضعه على وجهه حتى لا يرى رسول الله .

وما دام أن بيننا وبينك حجاباً ، فلن نتفق وكُلٌّ منا فى طريق ، وما دام أن لكل طريقه ﴿ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥ ﴾ [فصلت] وهذه القضية أوضحها الحق سبحانه فى سورة الكافرون : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ [الكافرون] هذه هى النتيجة الطبيعية للحجاب بينهما .

بعض الناس حين يقرأون هذه السورة يظنون بها تكراراً ، وهذا ليس تكراراً ، بل فى السورة قَطْع علاقات ، وقطع العلاقات له ظرف يحكمه ، ألم تر إلى الدول تقطع إحداها علاقتها بالأخرى ، ثم تصفو الأجواء مرة أخرى ، وتعود العلاقات أحسن مما كانت ، فَفرْقٌ فى الدبلوماسية بين الماضى والحاضر .

لكن فى مسألة الكفر والإيمان الأمر مختلف فهما ضدان لا يلتقيان ، مهما حدث فى المستقبل . فلن تعود العلاقاتُ بينهما ، لذلك قال سبحانه : ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣)﴾ [الكافرون] أى : فى الزمن الحاضر الآن ﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥)﴾ [الكافرون] أى : فى المستقبل ، فلا تظنوا أن العلاقات بيننا قد تتحسن وتعود بيننا علاقة ، لا .. لا التقاء بيننا .. لا فى الحاضر ولا فى المستقبل .

هذه هى قطع العلاقات ، وما دام بيننا حجاب وحاجز ، فكُلٌّ منا فى طريقه (والحَمْرة فى خيله يركبها) .

﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥)﴾ [فصلت] اعمل ما يروق لك ، وما يأتيك من إلهك وإسلامك ، ونحن نعمل على قدر آلهتنا وديننا وعبادتنا ، اعمل لإلهك الذى أرسلك ، ونحن نعمل لآلهتنا التى نعبدها ، أو اعمل لآخرتك ونحن نعمل لدنيانا ، فالمسألة من الرسول إصرار ، ومنهم معاداة ، إلى أنْ يستقيم الميسم[1] ، ويأبى الله إلا أن يُتِمَّ نوره .

لذلك نرى تدرُّج الإسلام وانتشاره فى بطء ، أمر أتباعه بالهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، تدرج بهم إلى أنْ تقوى شوكتهم ، بدأ ضعيفاً بالضعفاء ، ثم قوى حتى دخله الأقوياء ، كان منحصراً فى مكة ثم اتسعتْ دائرته ، وكانت تزيد كل يوم بحيث تزيد أرض الإسلام وتنقص أرض الكفر .

لذلك لما رأى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص انتشار الإسلام

---

(١) أصل الميسم : المكواة أو الشىء الذى يُوسم به سمات الدواب . والميسم : أثر الجمال فى المرأة . وهو من الوسامة ، ومنه قوله تعالى ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦)﴾ [القلم] .

على هذه الصورة قال خالد لعمرو : والله لقد استقام الميسم . يعنى : استقام أمر هذا الدين فهيا بنا نسلم[١] .

وأخذ صناديد الكفر يعودون إلى الجادة ، ويدخلون فى دين الله ، فهذا عكرمة بن أبى جهل الذى قاد المعركة فى فتح مكة يوم الخندمة[٢] ثم أسلم وأبلى فى الإسلام بلاءً حسناً ، حتى مات فى إحدى المعارك ، وقال قبل أنْ يموت : أهذه ميتة تُرضِى عنى رسول الله ؟

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ ﴾

(قل) أى : فى الرد عليهم ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ..

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية قصة إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد ومبدؤها أن النجاشى أقنعه أن محمداً على الحق قائلاً له : ويحك يا عمرو أطعنى واتبعه فإنه والله على الحق وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . قلت : أتبايعنى له على الإسلام ؟ قال النجاشى : نعم فبسط يده فبايعته على الإسلام وكتمت أصحابى إسلامى . ثم خرجت عامداً إلى رسول الله لأسلم فلقيت خالد بن الوليد وذلك قبيل الفتح وهو مقبل من مكة فقلت : أين يا أبا سليمان ؟ قال : والله لقد استقام الميسم وإن الرجل لنبى أذهب والله فأسلم فحتى متى ؟ قلت : والله ما جئت إلا لأسلم . فقدمنا المدينة على رسول الله فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع ثم دنوت فقلت : يا رسول الله إنى أبايعك على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى ولا أذكر ما تأخر . فقال رسول الله : يا عمرو بايع فإن الإسلام يجبُّ ما كان قبله ، وإن الهجرة تجبُّ ما كان قبلها .

(٢) الخندمة : جبل منه بنيان مكة . [الأمكنة والمياه للزمخشرى] فهو أحد جبال مكة وهو المستعلى على جبل ابي قبيس من ناحية المشرق وهو جبل أحمر محجر فيه صخرة كبيرة بيضاء كأنها معلَّقة . [الروض المعطار فى خبر الأقطار - لابن عبد المنعم الحميرى] .

(٦) ﴾ [فصلت] يعنى : لماذا تقفون منى ومن دعوتى هذا الموقف المعاند ؟ لماذا تجعلون بينى وبينكم الحُجُب ، وأنا واحد منكم عربى مثلكم تعرفون صِدْقى وتاريخى قبل ذلك بين ظهرانيكم .

ومن رحمة الله بكم أنْ أرسلنى إليكم بشراً من جنسكم ، ولم يرسل إليكم ملكاً : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام] ، وتعلمون سوابقه فى الصدق والأمانة والعفة . ثم لو جاءكم ملَكٌ ، أكنتم تقتدون به على ملكيته ؟ إن الأسوة لا تكون من الملَك للبشر .

وتأمل الأدب والتواضع من رسول الله فى قوله : ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ .. (٦) ﴾ [فصلت] يعنى : لا كبرياء ولا تعال ، لكن فضلنى الله عنكم بأنه ﴿ يُوحَىٰ إِلَيَّ .. (٦) ﴾ [فصلت] ومضمون هذا الوحى ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ .. (٦) ﴾ [فصلت] وما دام يُوحى إلىَّ فأنا مُبلِّغ لا ذنبَ لى تؤاخذوننى عليه ، أنا بشر مثلكم ومن أنفسكم لا أمتاز عليكم إلا بما ميَّزنى الله به من الوحى .

لذلك نجد الحق سبحانه كثيراً ما يصحح لرسول الله ويُعدِّل له الحكم ويعاتبه ، ورسول الله هو نفسه الذى يخبرنا بذلك ، وهذا دليلٌ على أنه أمين فى البلاغ عن ربه ، لذلك يقول تعالى : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[١] (٤٦) ﴾

[الحاقة]

وقال : ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ .. (٦) ﴾ [فصلت] ولم يقل ربكم لأنهم

---

(١) الوتين : عرْق فى القلب إذا انقطع مات صاحبه ، وهو لاصق بالصلب من باطنه يسقى العروق كلها الدم ويسقى اللحم وهو نهر الجسد ، وهو نياط القلب [لسان العرب - مادة : وتن] .

يؤمنون بوجود الله الخالق الرازق ، المشكلة عندهم فى الإله المعبود ، فالإله المعبود له أوامر ومطلوبات الإله يقتضى الطاعة فى الأمر وفى النهى ، فهم مسلمون بالربوبية مشركون فى الألوهية ، فأراد أنْ يبين لهم : ﴿أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. ⁦(٦)⁩﴾ [فصلت] ليس متعدداً ، مرة يقول ﴿إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. ⁦(٦)⁩﴾ [فصلت] وفى سورة الإخلاص قال : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ⁦(١)⁩﴾ [الإخلاص] واحد يعنى ليس له ثانٍ ، وأحد يعنى أحد فى ذاته غير مركّب من أشياء فهى تنفى التجزؤ .

وقد اتخذ الكفارُ آلهةً متعددة ليُرضوا ما فى أنفسهم من عاطفة التديُّن ، وليكون لهم إله معبود بلا منهج وبلا تكاليف ، لذلك قلنا : إن من الوسطية فى ديننا أنه يؤمن بإله واحد ، فى حين يوجد مَنْ يؤمن بآلهة متعددة ، ويوجد مَنْ ينكر الإله بالمرة ، فجاء الدين الإسلامى وبيَّن أن الإله واحد .

وما دام هو إله واحد ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ .. ⁦(٦)⁩﴾ [فصلت] استقم يعنى : سِرْ على حدّ الاستقامة لا تميل هنا ولا هناك . قالوا : كان رجل من طيء ، اسمه ابن بندر رأى شاباً بيته هنا ، لكن لا يذهب إليه من الطريق المعتاد المستقيم ، إنما يدور فى طرقات القرية ليذهب إلى بيته .

فعرف من ذلك أن الشاب يقصد بدورانه فى الطرقات شيئاً مريباً ، فقال له : يا هذا استقم إلى بيتك يعنى : اذهب إليه من الطريق المستقيم ، عندها عرف الشاب أن الرجل (فقسه) وعرف قصده غير الشريف فارتدع .

كذلك قوله تعالى : ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ .. ⁦(٦)⁩﴾ [فصلت] يعنى : اقصدوه من طريق الاستقامة ، وسمَّى طريقه الصراط المستقيم ، وقد

أثبت العلم أن الطريق المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين ، ثم إن الطريق المستقيم قد يكون ضيقاً يجبرك على الاستقامة عليه ، وقد يكون واسعاً يسمح بالميل يميناً ويساراً (أوتوستراد) .

فإنْ كان واسعاً فاستقم فيه أيضاً لتقصر على نفسك مسافة الوصول ، لأنك حين تميل تزيد المسافة ، لذلك قال : ﴿ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) ﴾ [البقرة] يعنى : فى وسطه دون ميل ، بحيث يكون ما على يمينك مثل ما على شمالك ، فمرة قال ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) ﴾ [الفاتحة] ومرة قال ﴿ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) ﴾ [البقرة]

فقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ .. (٦) ﴾ [فصلت] أى : بدايةً ، فإنْ أصابتكم غفلة عن المنهج واقترفتم شيئاً ﴿ وَاسْتَغْفِرُوهُ .. (٦) ﴾ [فصلت] أى : اطلبوا منه المغفرة .

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ .. (٧) ﴾ [فصلت] لأن الاستغفار طلب مَحْو الشيء السابق ، والقاعدة الشرعية تقول : إن درء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة . ومثَّلْنا لذلك بواحد يريد أنْ يرمى لك تفاحة ، وواحد يريد أن يرميك بحجر فأيهما أوْلى ، الأَوْلَى دَفْع الحجر ، فقال ﴿ وَاسْتَغْفِرُوهُ .. (٦) ﴾ [فصلت] ليتم لكم مسْح الذنوب ، ولتُنشئوا مع الله علاقة جديدة قائمة على الطاعة والاستقامة .

كلمة ﴿ وَوَيْلٌ .. (٦) ﴾ [فصلت] يعنى : هلاك ﴿ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ .. (٧) ﴾ [فصلت] وهل فُرضَتْ الزكاةُ على مشرك ؟ الزكاة لم تكُنْ فُرضت حتى على المؤمنين فى هذا الوقت . قالوا : المراد بالزكاة هنا تطهير المال فى حالة نموه ، وكان

المشركون يفعلون ذلك بالفعل ، لكن يفعلونه من منطق الكرم والسمعة الطيبة ، ولم يكُن الله فى بالهم .

لذلك حُكى أن المطعم بن عدى[1] كان له قِدْرٌ يطعم فيه كذا وكذا ، حتى أن رسول الله ﷺ قال : « كنت أستظل من وهج الشمس بظل قِدْر المطعم بن عدى »[2]

ومثله حاتم الطائي[3] وغيرهم من كرماء العرب ، لكنه قال : ﴿ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴿٧﴾ ﴾ [فصلت] لأن الإنسان عادة يحب ماله ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر] لأن للإنسان مطالبَ كثيرة فى الحياة .

كان البيع والشراء تبادلاً عينياً . يعنى : تعطينى سلعة ، وأعطيك مقابلها سلعة أخرى ، وقت لم يوجد النقد بَعْد تعطينى قمحاً ، وأعطيك تمراً مثلاً ، فكل شيء من هذه الأشياء ثمن وسلعة ، فالقمح عندك سلعة ، والتمر عندى ثمن . فكل واحد منا بائع ومُشْتَرٍ .

لذلك قال تعالى فى قصة سيدنا يوسف : ﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن

---

(١) المطعم بن عدى بن نوفل من قريش رئيس بنى نوفل فى الجاهلية وقائدهم فى حرب الفجَار عام ٣٣ ق. هـ ، وهو الذى أجار رسول الله بعد أن آذاه أهل الطائف ، وكان أحد الذين مزقوا الصحيفة التى كتبتها قريش على بنى هاشم وقد كان كافراً ، مات قبل وقعة بدر وله بضع وتسعون عاماً . توفى عام ٢ هجرية . [الأعلام للزركلى] .

(٢) ما وجدته فى هذا أن رسول الله ﷺ قال : « لقد كنت أستظل بظل جفنة عبد الله بن جدعان فى الهاجرة » وفى لفظ « صكة عُمَىّ » . أورده ابن كثير فى السيرة النبوية (١/١١٧) والسهيلى فى الروض الأنف (١/٢٤٤) .

(٣) هو : حاتم بن عبد الله الطائى القحطانى ، أبو عدى ، فارس شاعر جواد جاهلى . يُضرب المثل بجوده ، كان من أهل نجد وزار الشام فتزوج ماوية بنت حجر الغسانية ، مات فى عوارض جبل فى بلاد طيء عام ٤٦ هجرية . أخباره كثيرة متفرقة فى كتب الأدب والتاريخ . [الأعلام للزركلى ٢/١٥١] .

مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف] فقال : اشتراه يعنى أخذه وقال عن الآخرين : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ[1] دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [يوسف] يعنى : باعوه . إذن هذه مبادلة ، كل واحد منهم بائع ومشترٍ فى نفس الوقت .

﴿ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [فصلت] أم أن هذه كلمة عامة ، فبإشراكهم لم يأخذوا حكم الله فى الزكاة ، فلم يَعُدْ فيهم خير لبيئاتهم ولا لمواطنيهم ، لأن الله تعالى يريد من الإيمان أنْ ينشر الاستطراق العبودى فى البشر ، بأن يعين القوى الضعيف ، والصحيح يعين المريض ، والغنى يعين الفقير ، والعالِم يعين الجاهل .

ولكن أهم زاوية من زوايا الحياة هى زاوية استبقاء الحياة بالقوت ، والقوت يحتاج إلى المال ، لذلك الحق سبحانه وتعالى حين يتكلم فى هذه المسألة عن المؤلَّفة قلوبهم ، وهم قوم نريد أنْ نُرقق قلوبهم ناحية دين الله ، ونجذبهم إليه ليُحسنوا التمعن والاختيار ، لا أن نشتريهم للدين كما يدعى البعض .

ومن الطرق إلى هذه الغاية أنْ نحسن إليهم ، لذلك جعلهم الله تعالى مصرفاً من مصارف الزكاة ، ولما جعلهم الله مصرفاً من مصارف الزكاة وأعطاهم من مال الله لانتْ قلوبهم .

وحين تُحسن إلى شخص ماذا فعلتَ به ؟ أولاً نفضت عنه البغض ، وما دُمْتَ نفضتَ عنه البغض ، فلا ينظر إليك وهو كاره لك

---

(١) الثمن البخس : القليل الناقص عن مثله . [القاموس القويم ١/٥٦] . قال ابن منظور فى لسان العرب [مادة : بخس] : « جاء فى التفسير أنه بيع بعشرين درهماً ، وقيل باثنين وعشرين ، أخذ كل واحد من إخوته درهمين . وقيل : بأربعين درهماً » .

ولا حاقد عليك ، وعلى الأقل يسمع منك ، وهذا ما حدث للمؤلَّفة قلوبهم .

لذلك لما انتقل رسول الله ﷺ ارتد جماعة من العرب عن دين الله، لماذا ؟ أول شيء ارتدوا من أجله فريضة الزكاة ، ومن أجلها كانت حروب الردة ، لذلك سمعنا أن سجاح[1] مدعية النبوة ومسيلمة[2] أول ما قالوا في دعواهم قالوا : نسقط عنكم الزكاة . لينالوا بذلك الرضا عن نبوتهم المزعومة ، يريدون بذلك تخفيف التكاليف التي تشق على النفس .

وبعضهم قال : نسقط عنكم نصف الصلاة ، وكل مُخفف لشرع الله باطل وفيه إيذاء ، لأنه ينزل من منهج الله إلى منهج التخفيف ، والله سبحانه حين يريد التخفيف والتيسير يأتي بالتيسير من عنده سبحانه ، ومنهج الله لا يُستدرك عليه .

وفي شرع الله أحكام كثيرة تدل على هذا التخفيف ، كصيام المريض والمسافر ، وصلاة المريض والمسافر ، وغير ذلك كثير في الشرع ، فالله المشرِّع لك هو الذي يحدد لك التخفيف ، لا أنت ، وهو سبحانه أعلم بمدى المشقة التي تحتاج إلى تخفيف الحكم .

لذلك نسمع مَنْ يقول : نريد أنْ نُجدد الإسلام ، نقول : سبحان الله ، يا قوم اتقوا الله كيف نُجدد الإسلام ؟ وكيف نستدرك على

---

(١) هي سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية من بني يربوع أم صادر ، متنبئة مشهورة ، ادعت النبوة بعد وفاة النبي ﷺ وكان لها علم بالكتاب أخذته عن نصارى تغلب ، فتبعها جمع من عشيرتها بينهم بعض كبار تميم ، فنزلت باليمامة فأقبل مسيلمة عليها في جماعة من قومه فتزوجها ثم انصرفت . توفيت ٥٥ هجرية . [الأعلام للزركلي] .

(٢) هو مسيلمة بن ثمامة الحنفي الوائلي أبو ثمامة ، متنبيء ولد ونشأ باليمامة بوادي حنيفة في نجد ، وتلقب في الجاهلية بالرحمن وعُرف برحمان اليمامة ، سماه رسول الله بـ (مسيلمة الكذاب) ، ألَّف كلاماً هزلياً ليُعارض به القرآن ، نحو قوله : إنَّا أعطيناك الوحواح . فصلِّ لربك وارتاح . إن شانئك هو العجل النطاح .

أحكام الله ؟ ونقول : يا شيخ جدِّد ما شئتَ فلن يلبس مسلم جديدك ، والعلة أن لباسَ التقوى من الخالق لا يَخْلَقُ حتى يُجدده مخلوق ، أريحوا أنفسكم .

لكن لماذا جعل الله تعالى من الناس الغنيَّ والفقير المحتاج ؟ لماذا لم يجعلهم جميعاً فى سَعَة ولا داعى للزكاة إذن ؟ قالوا : لأن الله تعالى يريد أنْ يُشيع بين خَلْقه التراحم والتوادّ ، وحين يجد الفقير الغنى لا يتكبر عليه بغناه ، بل يأتى إليه ويطرق عليه بابه ، ويعطيه حقه فى مال الله ، ساعتها يحبه ويحب له الخير والمزيد ولا يحقد عليه ، ولا يتمنى زوال النعمة من بين يديه .

إذن : حين تعطى إنما تستل الغضب والحقد من النفوس ، فتجعل مالك عُرْضة للمزيد . والحق سبحانه قادر على أنْ يجعل الناس جميعاً أغنياء ، إنما الحكمة فى أن يوجد الغنى والفقير ، وأن تتداول هذه المسألة ، فقد لا يدوم للغنى غنَاه ، ولا يدوم للفقير فقره ، فالأحوال تتقلب ، بحيث يرتبط كُل بكُلٍّ ارتباطَ محبة ومودة ، والارتباط هنا ليس ارتباطَ تفضل ، إنما ارتباط حاجة .

إننا لو تخرَّجنا جميعاً فى الجامعة ، فمَنْ يكنس الشارع ، ومَنْ يقود السيارة ، ومَنْ يصنع لنا كذا وكذا ؟ تقول : يمكن أنْ نتفق على أن يقوم كلٌّ منا بعمل فى يوم محدد .

نقول : نعم لكن يكون العمل هنا تفضُّلاً ، والتفضل لا يلزم أحداً إنما تلزمه الحاجة ، والله يريد أن ترتبط مصالح الناس بالحاجة ، ولذلك تجد الرجل يعمل العمل الشاقّ ، وربما فيه أذى ، قد لا تتحمله أنت ، وقد ترى هذا العمل حقيراً ، فما الذى حمله عليه ؟ حملته

الحاجـة ، وألجأته إليـه ضروريات الحـياة ، وأكْل العيش ومـسئـولية الأسرة والأولاد ، وإلا ما أهان نفسه هكذا .

ووالله لقـد شاهدنا فـى بيت واحد رجـلاً يعـمل (صرمـاتى) ، وأخاه يبيع العطور ، وتأمل ماذا يشم كل واحد منهما .

وكان سيدنا الشيخ موسى رضى الله عنه كثيراً ما يدعو ويقول : اللهم أفقر الصنَّاع وأغْنِ العلمـاء ، وكنا نغضب من هذا الدعاء ونقول له : ماذا تقول يا سيدنا ؟ كيف ذلك ؟ فـيقول : والله لو افتقر العلماء لزلُّوا فى الفتوى ، ولو اغتنى الصناع لما انتفعنا منهم بشىء .

نعم رأينا فعلاً العامـل إنْ كان فى جيبه عشرة جنيـهات قعد عن العمل حتى يصرفها . إذن : لا بدَّ من الحاجة لتُقضَى مصالح الخَلْق .

الحق سبحانه وتعالى جعل استطراق المال فى المجتمع أهمَّ قضية فى الإسلام ، لذلك جعلها من أركان الإســلام ، فالحق سبحانه لم يعْفِ أحداً من أنْ يمدَّ يد الاستطراق الاقتصادى للغير ، إنْ كان واجداً يبذل ، وإنْ كان غير واجد مالاً فليجد مقالاً ينصح به مَنْ يجد .

قال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ .. (٩١) ﴾ [التوبة]

فإذا لم يكُنْ لديه المال ولا المقال الذى يُرقِّق به القلوب ، فلا أقلَّ من أنْ يفـعل ذلك فى ذاته : ﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَـا أَتَوْكَ لِتَـحْمِلَهُمْ .. (٩٢) ﴾ [التوبة] أى فى الجـهاد ﴿ قُلْتَ لا أَجِدُ مَـا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾ [التوبة]

وهذه هى المرحلة الثالثة : إنْ كان واجـداً فليبذل ، وإنْ كان غير

واجد فليبذل المقال الذى يُرقِّق به قلوب الواجدين ، وأخيراً إذا لم يجد هذا ولا هذا يحزن فى نفسه أنه لا يجد ، فنفسه تتوق للبذل لكنه لا يجد ، ويصل به الوَجْد فى هذه المسألة إلى أنه يبكى ألماً وحزناً لشوقه إلى العطاء .

هذا كله لاستطراق المال والاقتصاد فى المجتمع الإسلامى لأنه عَصَبُ الحياة وبه تُسْتبقى الحياة ، وبه يكون القوت .

وقوله سبحانه : ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧)﴾ [فصلت] يعنى : كفروا فى البداية حين أشركوا بالإله الواحد ، وكفروا فى النهاية بالآخرة ، كفروا فى المنبع والمصب .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨)﴾

ذِكْر المقابل سِمَة من سمات الأسلوب القرآنى ، فبعد أنْ ذكر المشركين ذكر بعدهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلم يترك المسألة هكذا عائمة ، بل وضع أمامك الصورتين لتقارن أنت وتحكم كما فى : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار]

وقال ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً .. (٨٢)﴾ [التوبة]

ذلك لتتم المقارنة فى وقتها .

معنى ﴿مَمْنُونٍ (٨)﴾ [فصلت] أى : غير منقطع ، أو (ممنون) يعنى : لا يمتن به عليهم ، كما فى ﴿وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣)﴾ [القلم] وفيها ملحظ آخر أن الذى يعمل عملاً صالحاً ، ثم تُعجزه

أموره عن عمله يقول الله له : العجـز فيك منى ، ولذلك سأعطيك أجر مـا كنت تعمله أولاً ، ويـظل لك أجره إلى يوم القـيـامة ، هذا مـعنى ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑧﴾ [فصلت]

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ⑨﴾

انتقل السـياق هنا إلى النظر فى آيات الكون ، لأنهـا هى الوسيلة للإيمان بالمكوِّن سبحانه ، فالكون كَـوْن عجيب بديع مُتقن فى نظامه وفى هندسته ، هذا النظام مُستقر لا يتخلف ولا يطرأ عليه ما يُخرجه عن هذا الإتقـان ، فإنْ أردتَ أنْ تُرقِّق قلـوب الناس فذكِّـرهم بالآيات الكونية الطبيعية التى لا دخْلَ للإنسان فيها .

لذلك نجد كثيراً فى القرآن : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ .. ㉜﴾ [الشورى]

وهنا يحدثنا عن الخلق الأول وبداية نشأة هذه الأرض ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ .. ⑨﴾ [فصلت] والهمزة هنا أفادتْ الاستفهام الإنكارى الذى ينكر عليـهم كفرهم بالخالق سبحانه ، وكأنه يقول لهم : إن هذا العمل منكم معلوم لنا وهو لا يجوز ، فيريد سبحانه أنْ يلفتهم إلى المقابل .

ثـم لـم يكـتـفـوا بالكـفــر بالخـالق بل ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا .. ⑨﴾ [فـصلت] يعـنى : شـركـاء . مـع أنهـم يعلمـون أنـه سبـحـانـه الخـالق وحده ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ㊇﴾ [الزخرف] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ㉕﴾ [لقمان]

هكذا يعترفون بها عندما يغيب عنهم اللَّدد والعناد .

وقوله : ﴿ فِي يَوْمَيْنِ .. ⑨ ﴾ [فصلت] أى : اليوم المعروف لنا ، واليوم عندنا من الوقت إلى مثله ، ويشمل الليل والنهار لأن الله يخاطبنا بما نعرفه ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا .. ⑨ ﴾ [فصلت] شركاء لم يخلقوا شيئاً ﴿ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ⑨ ﴾ [فصلت] أى : هذا الذى تجعلون له أنداداً هو ربُّ العالمين ، وهو ربّ العالمين بإقراركم أنتم ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ㉕ ﴾ [لقمان]

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ⑩ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ⑪ ﴾

تكلم الحق سبحانه عن خَلْق الأرض ، وأخبر أنه خلقها فى يومين ، فهل معنى هذا أن خَلْق الأرض استغرق مُدَّة يومين بيومنا نحن ؟ لا ، إياك أنْ تظنَّ أن خَلْق الأرض استغرق يومين ، أو أنه كان معالجة تحتاج إلى وقت .

فالمسألة كما تقول مثلاً : أريد أنْ أصنع الزبادى عندى فى البيت ، فأقول لك : هات اللبن وضَعْ عليه المادة المعروفة لعمل الزبادى ، ثم اتركه فى درجة حرارة معينة لمدة معينة ، وبعدها يصير اللبن زبادى بعد عدة ساعات مثلاً ، فهل يعنى هذا أن صناعة الزبادى استغرقتْ منك عدة ساعات ؟ لا بل دقائق أعددتَ فيها المادة وتركتها تتفاعل لتصبح زبادى .

مثلاً حين تذهب للخياط ليخيط لك ثوباً ، يقول لك : تعالَ خُذْه بعد أسبوع ، فهل استغرق الثوب فى يده أسبوعاً ؟ كذلك مسألة الخَلْق هذه .

وبعد أنْ خلق اللهُ الأرض جعل فيها الرواسى ، وهى الجبال الراسية الثابتة المستقرة ، والتى بها تستقر الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾ [النبأ] ولو أن الأرضَ مستقرةٌ بطبيعتها ما احتاجتْ إلى الجبال ، إذن : دلَّتْ الرواسى على أن الأرض تدور ، فهذا دليل على دوران الأرض .

﴿ وَبَارَكَ فِيهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] قلنا : البركة أنَّ الشىء يعطى من الخير فوق مظنَّة حجمه وفوق المنتظر منه ، كأن تجدَ الطعام مثلاً الذى تظنه يكفى خمسة يكفى لعشرة فتقول : فيه بركة .

وقوله ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] فى أى شىء ؟ فى الأرض حيثُ ذُكرت أولاً ؟ أم فى الجبال وهى آخر مذكور ؟ قالوا ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] أى : فى الرواسى ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ..﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] أى : فى الجبال أيضاً .

وقد أثبت الواقع ذلك ، وأثبت العلم أن الجبال هى مصدر الخير لباقى الأرض ، ومنها عناصر الخصوبة والغذاء الذى لا بدَّ منه لبقاء حياة الكائن الحى ، ومعلوم أن العناصر فى التربة تنقص وتحتاج إلى مَدَد وتجدُّد من حين لآخر .

وهذا ما يحدث فعلاً ، حين يسقط المطر على الجبال فيفتت قشرتها ، ويحمل السيل هذا الفتات ويسير به ليوزعه على الأرض

المسطحة المنزرعة ، كما فى طمى النيل زمان وقبل بناء السد العالى ، هذا الطمى من أين جاء ؟ من منابع النيل فى أعلى الجبال .

وكنا نرى ماء النيل مثل الطحينة ، ويظل كذلك إلى المصبِّ فى البحر المتوسط ، ومن هذا الطمى نشأتْ الدلتا ، فالبحر كان يمتد حتى دمياط ، والآن انظر لما بين دمياط ورأس البر مثلاً .

كذلك الحال فى الوديان حول الجبال ، حيث تؤثر عوامل التعرية فى القشرة الخارجية من الجبال ، ويجرفها السيل إلى الوديان ، فتجدد التربة وتزداد خصوبتها ، فكأن الجبال بالفعل مخازن قوت البشر ، لذلك قال عنها ﴿وَبَارَكَ فِيهَا .. ١٠﴾ [فصلت]

وتأمل أيضاً الحكمة والهندسة الكونية العالية ، فالجبل قاعدته أسفل وقمته أعلى على عكس الوادى بين الجبلين ، فرأس المثلث فيه إلى أسفل وقاعدته إلى أعلى ، وكلّ عام يأتى المطر ليأخذ من قمة الجبل ويعطى لقاعدة الوادى ، وكأنه تجدد واتساع للوادى يناسب الزيادة البشرية .

فالله تعالى يعطى من نعمه على قدر الزيادة التى تخيفنا الآن ، يعنى : اطمئنْ فالرزق عند الله مضمون ؛ لذلك قال بعدها ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ١٠﴾ [فصلت]

هذه المراحل : ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ١٠﴾ [فصلت] جاءت فى ﴿أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ١٠﴾ [فصلت] هذه الأربعة أيام ﴿سَوَاءً .. ١٠﴾ [فصلت] أى : أيام متساوية ﴿لِّلسَّائِلِينَ ١٠﴾ [فصلت] أى : الطالبين للرزق .

أو ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ١٠﴾ [فصلت] يعنى : فى تتمة أربعة أيام

﴿سَوَاءً .. (١٠)﴾ [فصلت] أى : استوت وتمتْ . وحين نضيف هذه الأربعة أيام ، إلى اليومين السابقين تعطينا ستة أيام هى مجمل خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٥٤)﴾[الأعراف]

بعد ذلك يتكلم سبحانه عن خَلْق السموات على وجه التفصيل ، فيقول : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت]

كلمة ﴿اسْتَوَىٰ .. (١١)﴾ [فصلت] عملت معارك بين العلماء ، ولما حصرنا مادة استوى فى القرآن الكريم وجدنا أنها وردتْ اثنتا عشرة مرة ، سبعة منها فى الاستواء على العرش واثنتان للسماء وللأرض ، هذه الآية التى معنا ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ .. (١١)﴾ [فصلت] وواحدة فى البقرة : ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ .. (٢٩)﴾ [البقرة]

هذه تسعة ، ويبقى ثلاثة مواضع ، واحد خاص بالوحى فى قوله تعالى عن جبريل : ﴿ذُو مِرَّةٍ[1] فَاسْتَوَىٰ (٦)﴾ [النجم] يعنى : بلغ مداه .

وواحدة فى موسى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٤)﴾ [القصص] يعنى : بلغ سنَّ الرشد .

وواحدة فى التمثيل لهذه الأمة فى الإنجيل ، قال تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا

(١) ذو مرّة : ذو قوة . المرّة : القوة والشدة . [اللسان – مادة : مرر] وقاله مجاهد والحسن وابن زيد . وقال ابن عباس : ذو منظر حسن . وقال قتادة : ذو خَلْق طويل حسن . ولا منافاة بين القولين فإنه عليه السلام ذو منظر حسن وقوة شديدة . [تفسير ابن كثير ٤/٢٤٧] .

﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ[1] فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

هذه صورة أمة محمد فى التوراة ، فهم قوم أشدَّاء على الكفار رحماءُ على المؤمنين ، وهم رُكَّع سُجَّد لهم سيمة وعلامة يُعرفون بها ، وهذه كلها قِيَمٌ معنويةٍ لم يأتِ فيها شيء مادى ، ذلك لأن اليهود كانوا يؤمنون بالماديات ، حتى أنهم أرادوا أنْ يخلعوا الماديات على الخالق الأعلى ، لذلك قالوا لموسى عليه السلام : ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .. (١٥٣) ﴾ [النساء]

أما مثلُهم فى الإنجيل فلم يأتِ بقيم ولا روحانيات ، إنما جعله مثلاً مادياً بحتاً ، لماذا ؟ لأن المسيحية كلها مواجيدُ دينية روحية ، ليس فيها شيء من مادة الأرض ، لذلك سُئل سيدنا عيسى عن مسألة ميراث . فقال : لم أُرسَل مُورِّثاً .

لذلك جاء مثل أمة محمد عنده مثلاً مادياً ، فالمثل عند اليهود جاء روحانياً لأنها مفقودةٌ عند اليهود ، وجاء مادياً لأن المادية مفقودة عند النصارى ، فقال : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ[2] فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] هذا مَثَلٌ مادى صِرْف ، فالمثل المادى مفقود فى المسيحية ، والعنصر الروحى مفقود فيما اتخذه اليهود ، فجاء الإسلام ليجمع بين العنصرين معاً فى دين واحد .

---

(١) السيما : العلامة . سيماهم فى وجوههم : أى علامة إيمانهم نور فى وجوههم . [القاموس القويم ٢/٣٣٧] .

(٢) شطء الزرع : ما خرج وتفرَّع منه من ورق وأغصان وفروع . [القاموس القويم ١/٣٤٨] . فآزره : فقوَّاه . قال فى اللسان (مادة أزر) : أى آزر الصغار الكبار حتى استوى بعضه مع بعض .

هذه اثنتا عشرة موضعاً ذُكرتْ فيها مادة الاستواء ، وكان الخلاف بين العلماء فى المواضع السبعة التى تتكلم عن الاستواء على العرش ، وهذه المواضع السبع فى سبع سور جمعها الناظم فى قوله :

فَفِى سُورَةِ الأعْرَافِ ثمَّةَ يُونُسٌ   وَفِى الرعْدِ مَعْ طَهَ فَللعدِّ أكِّدْ
وَفِى سُورَةِ الفُرْقان ثُمةَ سَجدةٌ   كَذَا فِى الحدِيدِ فَافهَمُوا فَهْمَ مُؤيِّد

كلمة ﴿اسْتَوَىٰ .. (١١)﴾ [فصلت] إنْ كانت للعرش يقول : استوى على ، وإنْ كانت للسماء قال : استوى إلى ، البعض فَهِمَ استوى على أنه كاستواء المخلوق على الكرسى فوقعوا فى التشبيه والتجسيم ، أما استوى إلى السماء يعنى : قصدها وتوجَّه إليها بإرادته سبحانه .

ذلك لأن العرش فى الموجودات سمة التمكُّن من الحكم واستتباب الأمر للحاكم ، فالحاكم إنْ كان عليه مشاغبات لا يستقر على العرش ولا يستتب له أمر الملْك إلا إذا دَانَ له الجميع وخضعوا .

لذلك قال فى بلقيس[1] : ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾ [النمل] يعنى : استتبَّ لها الأمر ، فكلمة (استوى على العرش) دلتْ على أن الكون كله استجاب له وانقاد لأمره دون منازع ؛ لذلك قال هنا عن السماء والأرض ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت]

وللعلماء فى الاستواء عدة مقالات جمعها الناظم فى قوله :

وَلَهُمْ مَقَالاَتٌ عَلَيْهَا أرْبَع   قَدْ حُصِّلَتْ للفَارِسِ الطّعَّانْ

---

(١) بلقيس : هى ملكة سبأ ، أرسل لها النبى سليمان الهدهد برسالة يدعوها للتوحيد ، وكانت بلقيس وشعبها يعبدون الشمس ، وهى من بنى يعفر بن سكسك من حِمْيَر ، يمانية من أهل مأرب ، دفنت بتدمر . [الأعلام للزركلى ٢/٧٣] .

وَهْيَ اسْتَقرَّ وَقَدْ عَلاَ وكَذاكَ قَدْ صَعَدَ الذى هُوَ رابِعْ

فالمعنى هنا ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ .. (١١)﴾ [فصلت] أى : قصدها وتوجَّه إليها بإرادته تعالى ، واستوى على العرش يعنى : استقر له الأمر واستتبَّ ، لأن كل الوجود استجاب له وانقاد ، فلما قال للأرض وللسماء : ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت]

لذلك قلنا : إن الحق سبحانه لم يُقبل على قوله (كُنْ) إلا لعلمه تعالى أن شيئاً من مُلْكه لن يتخلف عن الاستجابة لأمره ؛ لذلك قال ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ[1] (٢)﴾ [الانشقاق] يعنى : فقط تسمع النداء فتستجيب فوراً ، لذلك شهد الله لذاته بذلك : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨)﴾ [آل عمران] وبشهادته سبحانه لنفسه أنه لا إله إلا هو قال لكل شىء : كُنْ فكان . وبعد ذلك شهدتْ الملائكة ، وشهد أولو العلم .

وقوله : ﴿وَهِيَ دُخَانٌ .. (١١)﴾ [فصلت] أى : على هيئة الدخان الذى يسميه العلماء السَّديم[2] ، والمراد أن الكون كان على هيئة غازية ، ومن هذه المادة الغازية تكوَّنت الأرض والصخور والجبال . وبعد أنْ تكوَّنتْ السماء والأرض أمرهما الخالق سبحانه ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا .. (١١)﴾ [فصلت] فكان الردّ ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت]

---

(١) حق الأمر : ثبت ووجب . وحقَّ له : ثبت له . (حقت) : أى كان حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله . [القاموس القويم ١/١٦٤] .

(٢) السديم : تجمعات مضيئة وكثيفة نسبياً ، وهناك سدم متشتتة تظهر على شكل سحابات غير منتظمة أو ضباب دقيق ، وسدم كوكبية منتظمة ، وسدم مجرِّية تكون فى الغالب غازاً وغباراً . [الموسوعة الفلكية - تأليف فايجرت ، تسمرمان - الهيئة العامة للكتاب - ص ٢١٠] .

وهذا الرد دَلَّ على سرعة الاستجابة للأمر ، وعلى انقياد الكون كُلِّه لخالقه تعالى ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت] وهل نملك المخالفة ، ولماذا نأتى كارهين ؟ هذا يعطيك دليلاً على انقياد الكون لله ، لأنه ليس له هَوىً فى نفسه يُغير الموقف ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

أما الإنسان فكلٌّ له هَوىً ، لذلك جاء فى الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعٌ لما جئتُ به »[1] وما دام سيكون هواك تبعاً لما جاء به النبى ، وأنا هواى تبعٌ لما جاء به النبى ، فالهوى إذن واحد ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت] هذا كلام السماء والأرض ، وكان القياس أنْ يقول : طائعيْن بالمثنى إنما قال ﴿طَائِعِينَ﴾ [فصلت] بصيغة الجمع . والسماء والأرض مؤنَّث ، فكان القياس أنْ يقول : طائعات . إذن : خالف فى أمرين ، لماذا ؟ قالوا : لأن الشيء يكون مفرداً لكنه تحته . فإذا نظرتَ إلى المفرد جئتَ بالمفرد ، وإذا نظرتَ إلى ما تحته جئتَ بالجمع .

قال تعالى : ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا .. (٩)﴾ [الحجرات] فلم يقل : اقتتلتا بالمثنى المؤنث ، إنما ﴿اقْتَتَلُوا .. (٩)﴾ [الحجرات] لأن أمر القتال راجعٌ إلى رؤساء كل طائفة ، هم الذين يقررون القتال أو عدم القتال ، وساعةَ القتال لا يمسك كل فريق بسيف واحد يقاتل به الفريق الآخر ، إنما يمسك كلُّ فرد بسيفه .

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب السنة (١/ ١٢) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » (ص ٤٦٠) وضعَّفه .

فالطائفة هنا مفرد تحته جمع ، فقال في القتال ﴿ اقْتَتَلُوا .. (٩) ﴾ [الحجرات] لكن عند الصلح قال : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا .. (٩) ﴾ [الحجرات] لأن أمر الصلح لا يكون مع أفراد الجيش ، إنما يكون مع القادة لكل طائفة الذين يُصرِّفون الأمر حرباً أو سلْماً .

﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (١٢) ﴾

قوله ﴿ فَقَضَاهُنَّ .. (١٢) ﴾ [فصلت] أي : جعل السماء وأبدعها وخلقها ﴿ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ .. (١٢) ﴾ [فصلت] في مدة (يومين) حين نجمع هذين اليومين إلى الستة أيام السابقة تعطينا ثمانية أيام ، إذن : خَلْق السماء والأرض كان في ثمانية أيام ، لا في ستة كما قالت الآية .

هذا جعل بعض المستشرقين يظنون هنا مأخذاً وتناقضاً في كلام الله ، ولكن حاشا لله أن يكون في كلامه تناقض ، لأن الإجمال ستة والتفصيل ثمانية ، وحين تجد إجمالاً وتفصيلاً ، فالتفصيل حجة على الإجمال لأنها أيام متداخلة ، كيف ؟

قالوا : لأن الله تعالى خلق الأرض في يومين ، ثم جعل فيها رواسيَ ، والرواسي من الأرض ، وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها ، هذا كله في الأرض ، فحين يقول ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. (١٠) ﴾ [فصلت] أي : في تتمة أربعة أيام .

فمُجمل خَلْق الأرض في أربعة أيام ، فاليومان الأولان داخلان في

الأربعة أيام . كما تقول مثلاً : سرْتُ إلى طنطا فى ساعتين ، وإلى الإسكندرية فى أربع ساعات ، فالساعتان الأُوليان داخلتان فى الأربع .

إذن : خلق الله تعالى الأرض بما فيها من الرواسى فى أربعة أيام ، فإذا أضفنا يومين فى خَلْق السماء كان المجموع ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف]

وقوله : ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا .. ﴿١٢﴾﴾ [فصلت] أى : جعل فيها ودبَّر فيها أمرها . يعنى : بيَّن مهمتها وما فيها من وجوه الخير ، ومَن الرسول الذى سيكون فيها .. الخ وبيَّن مهمتها التى تقوم عليها فى هداية حركة الحياة .

﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ .. ﴿١٢﴾﴾ [فصلت] وهى الكواكب والنجوم التى تضىء فى السماء كالمصابيح ومنها الشمس والقمر ، وتجد أن نور الشمس غير نور القمر ، نور الشمس يُسمَّى ضياءً . يعنى : نور مع حرارة أما القمر فلَه نور فقط ، لذلك يُسمُّونه النور الحليم ، لأنه خَال من الحرارة ، لذلك قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .. ﴿٥﴾﴾ [يونس]

وقال : ﴿سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان]

وقوله : ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا .. ﴿١٢﴾﴾ [فصلت]

السماء الدنيا هى السماء التى نباشرها نحن ونرى فيها النجوم ، والمصباح يُقاد من ضوء الشمس حين ينعكس ، فيعطى ضوءاً هادئاً نسميه (ضوء حليم) يعنى : لا حرارة فيه .

والحق سبحانه الذى خلق الخَلْق وهو أعلم بما يُصلحه علم أن له زمنين : زمناً للكدح والحركة ، وزمناً للراحة والسكون ، فالليل للسكون ، والنهار للحركة ، ولا يمكن أنْ تتحرك حركة قوية رشيدة

إلا إذا كنتَ قد استوفيتَ أولاً نوماً هادئاً ، وإلا من لم ينم ويسترح لا يقدر على العمل فى الصباح ، لكن بعض الحركات لا تكون إلا ليلاً .

لذلك جعل لنا الخالق سبحانه ضوءاً يهدينا فى ظلمة الليل مثل الونَّاسة كما نقول ، فلا يمكن أن يتركنا فى ظلمة نتخبط فيها ، فنحطم الأضعف منا ، أو يُحطمنا الأقوى .

لذلك قال سبحانه عن النجوم : ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾ [النحل] الحق سبحانه صنع ذلك لتصويب حركة الحياة ، لأن الله خلق الخليفة آدم ، وأمره أنْ يعمر الأرض ، يعمرها بما أعطاه الله من مادة وعقل يختار بين البدائل ، وبما أعطاه الله من جوارح تنفذ مرادات العقل ، فأراد سبحانه أن يضمن سلامة الكون مع نفسه ، هذا فى المادة .

وللنجوم مهمة أخرى فى القيم ، قبل بعثة رسول الله .

وقال تعالى : ﴿ وَحِفْظًا .. (١٢) ﴾ [فصلت] وفى موضع آخر قال : ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) ﴾ [الصافات] فقد كان الجنُّ يتسمَّع إلى الملأ الأعلى فى السماء ، فيأخذ شيئاً من أمور الخَلْق يسمعها من الملائكة وينزل بها إلى الكهنة ، فيخبرون الناس بها على أنهم يعلمون الغيب ، وفعلاً تصدُق هذه الأخبار فيظن الناس أنهم يعلمون الغيب ، ويأتى الكاهن بالشىء الصادق صدفة ، ومعه أشياء كثيرة كذب[1] .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : سأل رسولَ الله ﷺ ناسٌ عن الكهان . فقال : ليس بشىء فقالوا : يا رسول الله إنهم يحدثونا أحياناً بشىء فيكون حقاً ، فقال رسول الله ﷺ : « تلك الكلمة من الحق يخطفها من الجنى فيقرها فى أذن وليه فيخلطون معها مائة كذبة » أخرجه البخارى فى صحيحه (الكهانة) .

كان هذا قبل بعثته ﷺ ، لكن لما جاء سيدنا رسول الله حفظ الله السماء من استراق السمع ، لذلك قال : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾ [الجن]

لذلك رأينا أن العرب كانوا يحتكمون إلى الكهَّان ويُصدِّقونهم ، يُرْوَى أن هنداً[1] امرأة أبى سفيان كانت قد تزوجتْ قبله رجلاً اسمه الفاكه بن المغيرة[2] وكان سيداً من سادات قريش ، وبيته مفتوح للقوم يأتيه كل محتاج لشىء ، يقولون : اذهبوا إلى الفاكه ، لأن بيته كان قريباً من نادى القوم .

وفى يوم من الأيام نزلتْ هندٌ تباشر أمورَ بيتها ، فوجدتْ رجلاً نائماً فى ساحة البيت فرجعتْ ، وفى هذه اللحظة دخل الفاكه ورأى الرجل النائم فداخله الشَّكّ فى امرأته ، فقال لها : الزمى بيت أبيك فذهبت إلى أبيها عتبة ، وشاع عند العرب أن الفاكه اتهم امرأته بكذا وكذا .

جاء أبوها عتبة وقال للفاكه : يا فاكه لقد جُنَّتْ ابنتى ، يعنى : رُميتْ بشىء ، ولا أرى إلا أنْ نحتكم إلى الكاهن ليقضى لنا فى هذه المسألة ، فاجمع من رجالك ومن نسائك مَنْ شئتَ ، وتكون ابنتى فى وسطهم ، ونذهب إلى الكاهن ونسأله .

---

(١) هند بنت عتبة : صحابية قرشية من بنى عبد شمس أسلمت بعد فتح مكة ، زوجة أبى سفيان وأم معاوية ، أمضت أول حياتها كافرة تتآمر على قتل النبى ، وهى التى حرضت وحشياً على قتل حمزة عم رسول الله ، أسلمت فى العام الثامن من الهجرة ، توفيت عام ١٤ هجرية ، فى خلافة عمر بن الخطاب .

(٢) الفاكه بن المغيرة : أحد الفصحاء المقدَّمين من قريش فى الجاهلية ، كان نديماً لعوف بن عبد عوف الزهرى (أبى عبد الرحمن) وهو عم خالد بن الوليد ، عدَّه ابن حبيب فى « أشراف العميان » وقال : قُتِل بالغميصاء .

كانت هند امرأة عاقلة ، فقالت : يا أبى إنك تأتى إلى بشر يخطئ ويصيب ، وربما رمانى بشىء ليس فىَّ ، فتظل سُبَّة لى وسُبَّة لك ، فقال لها : اطمئنى فأبُوك ليس أحمقَ إلى هذا الحدِّ ، ولن أعرض أمرك عليه إلا إذا أخبرنى بالخبىء الذى خبَّأته له ، وقبل أن يصلَ إلى الكاهن ، وكان يركب مُهْراً فنزل فى خلاء وصفر للمهر فأدلى المهر متاع مائه ، ففتح عتبة فتحة متاع المهر ووضع فيها حبة قمح ، ثم ركبه إلى الكاهن .

ثم قال له : لن أعرض عليك أمرى حتى تخبرنى بخبء خبأته لك . قال له الكاهن : حبة بُرٍّ فى إحليل مُهْر . قال : أعد ، قال : بُرَّة فى كمرة ، فأخبره عتبة بأمر ابنته وهى فى وسط النساء فمرَّ الكاهن يمسك برؤوس النساء واحدة بعد الأخرى حتى وصل إلى هند وتوقَّف عندها ، ولم يكلم الأخريات ، وعند هند قال لها : قومى غير رسحاء[1] ولا زانية ، وستلدين ملكاً اسمه معاوية[2]

هذ أخبار صَحَّتْ ، وهى من استراق السمع لا تدلُّ أبداً على معرفة الكاهن للغيب . فلما برئتْ هندٌ وارتفعتْ رأسها بين القوم أراد الفاكه أنْ يتمحك فيها ، يعنى : عفا الله عما سلف ، وهيا بنا إلى البيت ، فقالت له : والله لقد غرَّك مُلْك معاوية ، ولأحرصنَّ أن يكون من غيرك .. اذهبْ عنى ، وبعدها تزوجتْ أبا سفيان وولدتْ له معاوية .

أنهى الله هذه المسألة لأن رسول الله ﷺ لا يمكن أنْ يسترقَ

---

(١) الرسحاء : القبيحة من النساء . [لسان العرب - مادة : رسح] .

(٢) أورد هذه القصة أبو الفرج الأصبهانى فى كتابه (الأغانى) فى باب ذكر مسافر بن أبى عمرو ونسبه ، خبر طلاق هند من الفاكه . وأورده كذلك ابن حمدون فى (التذكرة الحمدونية) الباب ٣٦ فى الكهانة . وفيه أن الكاهن قال لهند : انهضى غير خساء ولا زانية ولتلدن ملكاً اسمه معاوية .

شيطانٌ سمعاً بعد بعثته ﷺ ، يقول تعالى : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ .. (٩) ﴾ [الجن] يعنى : قبل البعثة ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) ﴾ [الجن] وبذلك حمى الله منهجَ السماء أنْ تُدنِّسه شهوات الشياطين .

﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾ [فصلت] العزيز الذى لا يُغلَب ، وما دام لا يُغلَب ، فلن يستطيع شيطانٌ أن يسترق السمع ، ويأخذ شيئاً من الأخبار ، وهو سبحانه عليم بمصالح الخلق .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) ﴾

أعرضوا ، يعنى بعد كل هذه الآيات ، وبعد أنْ أقرُّوا هم بأنه سبحانه خالقهم وخالق السموات والأرض ، خاصة وهذه مسألة لم يدَّعها أحدٌ لنفسه ، فما دام أن مسألة الخَلْق هذه لم يدَّعها أحد فقد سلَمتْ لله وحده ، لذلك قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران] شهد الله لنفسه وأعلنها ، فهل اعترض أحد عليها ؟ لم يعترض أحد .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا .. (١٣) ﴾ [فصلت] بعد هذه الآيات الواضحات ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) ﴾ [فصلت] الإنذار يكون بشىء مخيف مُروِّع قبل حدوثه ، لا بعد أن يكون حدوث المُنذَر به ليُجْدى الإنذار ونحتاط له ، فلو وقع الأمر المروّع لم يُجْدِ الإنذار به .

كذلك قلنا فى البشارة بالأمر السَّارّ قبل أوانه لنقبل عليه ، إذن : البشارة والنذارة لا بدَّ أنْ يكون كل منها قبل الحدث المبشَّر به أو المنذَر به .

فقل يا محمد للذين كذَّبوا بآياتنا : ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣)﴾ [فصلت] أنذرتكم أى الحق سبحانه هو المنذر ، وهو سبحانه عزيز لا يُغلب ، وما دام أنذر بشىء فلا بدّ أنْ يقع وأنْ يتحقق .

وقوله : ﴿صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣)﴾ [فصلت] يعنى : المسألة ليستْ كلاماً ، إنما واقع حدث بالفعل وسوابق ، كما حدث مع عاد وثمود وأنتم على علم بها وتشاهدون آثار هؤلاء .

هنا كان عتبة بن ربيعة ، وهو سيد من سادات قريش حينما أسلم سيدنا عمر وأسلم حمزة والعباس ، قال صناديد الكفر : إن أمر محمد فى اتساع ، فلا بدَّ أنْ نتدارك الأمر ونحدد موقفنا منه لنمنع هذا الاتساع ، فعلينا أن نختار واحداً منا على علم واسع باللغة والشعر ، وكاهناً يجيد أساليب الكهان ، وكذلك يكون ساحراً ، يعنى : يجيد كل ما نتهم محمداً به .

فقال عتبة : أنا أعلم الناس بكل ذلك فدَعُونى أذهب إلى محمد ، فلما ذهب إلى سيدنا رسول الله ﷺ قال له : يا محمد أنت خير أم جدُّك هاشم ؟ أنت خير أم جدّك قصى ؟ أنت خير أم جدّك عبد المطلب ؟ هؤلاء لم يُسفِّهونا فى عبادتنا ، فهل أنت خير منهم لتأتى بدين جديد غير دين آبائنا ؟

إنْ كنتَ يا محمد تريد مالاً جمعنا لك المال ، وإنْ كنتَ تريد مُلْكاً ملَّكناك علينا ونجعلك سيدنا ، وإنْ كنتَ تريد الزواج زوّجناك بأفضل نسائنا ، واسكت عن هذا الأمر الذى تدعو إليه ، وانْتَه ، عن سَبِّ آلهتنا .

فقال له رسول الله ﷺ : أتسمع ؟ قال : نعم أسمع فقرأ عليه من أول سورة فُصِّلت إلى أن وصل ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ

وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ [فصلت]

وعندها قام عتبة ووضع يده على فم رسول الله ، وقال : سألتُكَ بالرحم ألاَّ تكمل ما قرأتَ [(١)] ، لماذا ؟ لأنه علم أن محمداً لا يقول شيئاً إلا وقع ، وبعدها اعتزل عتبة قومه حتى قالوا : لقد صبأ عتبة ، لقد طمع فيما عند محمد من الخير ، يعنى : افتقر إلى ما عند محمد من المال ، وسمع عتبة هذا الكلام لكنه لم يُجبْ .

وبعد ذلك قال لهم : لا والله ما صبأت ولكنى خفْتُ على قومى إنذارَ محمد بصاعقة تحلّ بهم مثل صاعقة عاد وثمود ، لأننى أعلم أن كل شىء يقوله محمد لا بد أنْ يقع ، فأنا أنجيكم من هذا بأنْ أجعله لا يكمل هذه الآية .. وظل رسول الله يقرأ السورة إلى السجدة .

الحق سبحانه وتعالى حينما يعطى كلاماً نظرياً يُؤيده بواقع ، وقريش تعلم قصة عاد وثمود ، لكن ما هى الصاعقة ؟ الصاعقة هى الشىء الذى يصعق ما تحته ، قد يكون ريحاً مدمرة ، وقد يصطحب معه ناراً محرقة ، والقرآن قال : صاعقة ، وسمَّاها صيحة وقال : ريحاً صرصراً عاتية .

﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

---

(١) ساقه البغوى فى تفسيره بسنده عن محمد بن فضيل عن الأجلح وقد ضعِّف بعض الشىء عن الذيال بن حرملة عن جابر فذكر الحديث إلى قوله ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ [فصلت] فأمسك عتبة على فمه وناشده بالرحم أن يكف . وكذا ذكره القرطبى فى تفسير الآية ، والسمرقندى فى بحر العلوم باب ١٣ .

قوله : ﴿جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ.. (١٤)﴾ [فصلت] هكذا بالجمع مع أن الكلام عن عاد وثمود ولكل منهما رسول واحد ، فلماذا جمع وقال الرسل ؟ قالوا : لأن كل رسول يأتى يُؤمر من الله أنْ يأمر قومه بأنْ يؤمنوا بالرسل السابقين ، وأنْ يؤمنوا كذلك بمَنْ يأتى من الرسل بعده ، فكأن عاداً وثمود حينما يؤمنون برسولهم يؤمنون كذلك بكل الرسل ، أو أنهم كانوا متفرقين فى المواقع ، بحيث يكون لكل موقع رسول خاص ، فتعدد الرسل بتعدّد المواقع .

وقوله ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. (١٤)﴾ [فصلت] هذا ملخص دعوة كل الرسل وقضية كل رسول من عند الله ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (١٤)﴾ [فصلت] يعنى : أنتم بشر مثلنا ، وإنْ أراد الله هدايتنا لأرسل لنا رسولاً من الملائكة . وهذا دليل غبائهم ؛ لأن الرسول جاء مبلِّغَ منهج وأُسْوة سلوك ، فلو كان الرسول ملكاً ما تحققتْ فيه مسألة القدوة والأسوة ، وما استطاع أنْ يأمر قومه بما يقوم هو به ، ولَقَالَ له قومه : كيف نفعل وأنت ملَك ونحن بشر ؟

فالأسْوة هنا غير موجودة أصلاً . إذن : فلا بدّ أنْ يكون الرسول من جنس المرسَل إليهم ، حتى لو جئنا به ملَكاً كما تريدون لجاءكم فى صورة بشر ، لأنكم لا تروْنه على هيئته الملائكية ، ولا تستطيعون الاستقبال منه على هذه الهيئة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)﴾ [الأنعام] ولظلتْ الشبهة كما هى ، إذن : لا بدّ أنْ يكونَ الرسولُ رجلاً من جنس القوم .

وقولهم : ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (١٤)﴾ [فصلت] تأمل ، إنهم يعترفون برسالة الرسل ، ويُقرون بذلك ، ونحن لا نريد منكم أكثر

من هذا أنْ تعترفوا بأنهم مُرْسَلُون ، وعجيب بعد ذلك أنْ يكفروا .

قالوا : ويجوز أنْ يكون المعنى ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ .. ⦗١٤⦘ ﴾ [فصلت] أي : كما تقولون أنتم بأفواهكم ، أو أرسلتم على سبيل الاستهزاء بهم ، كما في قوله تعالى في المنافقين : ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. ⦗٧⦘ ﴾ [المنافقون] وقالها فرعون ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ⦗٢٧⦘ ﴾ [الشعراء]

مجنون ؟ والله أنت المجنون ، فما دام أنه أُرسِل فلم تعاند ؟ إذن : المسألة كلها كفر وعناد ، والكفر هو الجنون بعينه ، جنون على جنون .

ثم أراد الحق سبحانه أنْ يُفصِّل القول في أمر عاد وثمود ، فقال سبحانه :

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ⦗١٥⦘ ﴾

قوله عن عاد : ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ.. ⦗١٥⦘ ﴾ [فصلت] هل يعني أن هناك استكباراً بالحق ؟ قالوا : نعم تستكبر في قومك ليكونَ لهم كبير يردعهم إنْ مالوا ، لأن عادة الناس إنْ لم يكُنْ لهم كبير يُهَاب ويُرْجَع إليه اختلطتْ عندهم الأمور وماجوا في بعض وتعدّوْا .

وهذا استكبار بحق ، لأنه يُصوِّب حركة الأفراد ، ولا بدّ أنْ يكون من كبير كما يقولون عندنا في الريف (اللي ملوش كبير يشتري له

كبير) لماذا ؟ لتعتدلَ الأمور ، ولا تكون فوضى ، وصدق القائل[1] :

لاَ يَصلُحُ النّاسُ فوضى لا سَراة [2] لهُمْ

وَلاَ سَرَاةَ إذَا جُهَّالُهمْ سَادُوا[3]

هذا استكبار بالحق ، لأن له رصيداً يسمح له بالاستكبار ، أما الاستكبار بغير الحق فهو الاستكبار بلا رصيد وبلا داعٍ كالذى يستكبر بقوته أو سلطانه أو غير ذلك من العوارض التى تنزع من الإنسان .

﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً .. (١٥) ﴾ [فصلت] وكذبوا فى هذه أيضاً ، وظهر جهلهم لأن الله تعالى أشدّ منهم قوة ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً .. (١٥) ﴾ [فصلت] قولهم : ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ..(١٥) ﴾ [فصلت] استفهام إنكارى يعنى : لا أحدَ أشدّ منا يأمرنا فنطيعه لأننا الأقوى .

نعم ، لكم حق فى هذه ، لكن ما قولكم فى أن الله الذى خلقكم هو أشدّ منكم قوة ، أليس ذلك دليلاً على وجوب طاعتكم له ؟ إذن : المنطق كان يقتضى أنْ تتصاغروا لمن أرسله الله إليكم ، وأنْ تطيعوه طاعةً لله الذى أرسله .

نعم لا يصح للقوىِّ أنْ يرضخ لطاعة الضعيف ، لكن نسألكم :

---

(١) الشاعر هو : أبو الأسود الدؤلى ، ظالم بن عمرو ، تابعى ، واضع علم النحو ، كان من الفقهاء والأعيان والأمراء والشعراء والفرسان ، ولد عام ١ قبل الهجرة وتوفى ٦٩ هجرية ، فى صبح الأعشى أن أبا الأسود وضع الحركات والتنوين ، وهو فى أكثر الأقوال أول من نقط المصحف مات بالبصرة . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) سراة القوم : هم أعيانهم ورؤساؤهم وأشرافهم .

(٣) البيت من قصيدة لأبى الأسود الدؤلى من بحر البسيط ، عدد أبياتها ثلاثة أبيات .

أنتم أقوى أم الله ؟ لا بدَّ أنْ يقولوا الله لأنهم معترفون له بالخَلْق ، فلماذا عاندتموه وصادمتم رسله ؟ أنتم صحيح أقوى على بعض الخَلْق ، لكنكم ضعافٌ أمام مَنْ خلق الخَلْق .

وقوله : ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [فصلت] الجحود هو إنكار الشيء لجاجةً وعناداً كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل] ففى حين يستيقنون بالآيات ويؤمنون بها فى أنفسهم يجحدونها بظاهرهم ، فما الجزاء ؟

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ[1] لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

وُصِفَت ريح العذاب هنا بأنها (صرصر) هكذا من مقطعين صرصر ، وهناك صِرٌّ مقطع واحد . وهى الريح الشديد المزعج الذى يهدد ويكون فيه برودة شديدة ، والبرودة من شأنها شدة الرطوبة التى تُجفف إلى درجة الإحراق .

وهذه الظاهرة يعرفها الفلاحون فى فصل الشتاء عندما يشتد البرد لدرجة أنه يحرق الزرع .

وهكذا يجمع اللهُ فعلَ النار فى الماء لأن الحق سبحانه لم يخلق

---

(١) النحس : الشؤم ضد اليُمن وضد السعد قال تعالى : ﴿ فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾ [القمر] أى : يوم شؤم وعذاب دائم . [القاموس القويم ٢/٢٥٦] .

الكون بحركة ميكانيكيـة ثابتة ، إنما خلقه بصفة القيـومية التى تجمع بين الأضداد ، أرأيتم لموسى عليه السلام حينما ضرب بعصاه الماء ، فصار كل فِـرْقٍ كالطـوْد العظيم ، وجمع الله بين الشـىء ونقـيضه فى وقت واحد ، كذلك ضرب الجبل فانفجرتْ منه اثنتا عشرة عيناً ، وفى قصة سيـدنا إبراهيم عليه السلام ألقاه القوم فى النار ، فجـعلها عليه برداً وسلاماً ، وعطَّل فيها قانون الإحراق .

فالصّـر هى الريح الشديد المزعج ، لكن يهبُّ لمـرة واحدة ، فإنْ تكرر فهو صرصر ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ .. (١٦)﴾ [فصلت] النحس : هو الشؤم ، وحـينما يأتى اليوم بشـىء من الشـر يتشاءمون منه ، وكـما قال فى موضع آخر : ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا .. (٧)﴾ [الحاقة] يعنى : حاسمـة تستأصلهم ، وتنتهى منهم . أى : سبع ليـال وثمانية أيام حاسمة ، حسمتْ الجدل بين الرسل وبين المكابرين المعاندين .

وفى الشعر العربى قال الشاعر[1]:

أَوْقِـدْ فَـإِنَّ الـليلَ لـيْلٌ قَـرّ   والـريح يا غُـلامُ رِيحٌ صـرُّ
عَلَّ يَـرَى نَـارَكَ مَـنْ يمُـرُّ   إنْ جلَبْتَ ضَـيْـفـاً فَـأنتَ حُـرّ[2]

﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٦)﴾ [فصلت] هناك

---

(١) الشاعر هو : حاتم بـن عبد الله الطائى القحطانى ، أبو عدى ، شاعـر جاهلى فارس جواد . يُضرب المثل بجوده ، ، كـان من أهل نجد وزار الشام فتزوج ماوية بنت حجـر الغسانية ، مات فى عام ٤٦ قبل الهجرة فى عوارض (جبل فى بلاد طىء) [الموسوعة الشعرية] .

(٢) البيت من قصـيدة لحاتم الطائى من بحر الرجز عـدد أبياتها بيتان . ولفظه فى المـوسوعة الشعرية (يا مـوقد) بدل (يا غلام) ، و (عسى) بدل (عَلَّ) وعـزاه ابن حمدون فى (التذكرة الحمدونية) للأفوه الأودى . وكذلك الثعالبى فى (التمثيل والمحاضرة) .

عذاب يؤلم ، وعذاب يخزى ويهين المتكبر ، ليس الغرض منه الإيلام ، إنما الإهانة والخزى والذلة ، لأنه تكبَّر بلا رصيد ذاتى عنده ، ولو عذَّبناه عذاباً يؤلم ربما تحمّل الألم ، لذلك نعذبه عذاباً يخزيه ويُرغم أنفه ويهدم كبرياءه ، فالخزى فى تأديب النفس أقوى من الإيلام فى الحسِّ .

ومعلوم أن من الناس مَنْ يؤذيه الاستهزاء به والسخرية منه أكثر مما يؤلمه الضرب الحسى . وهذا الخزى وهذه الإهانة ﴿فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٦)﴾ [فصلت] أمَّا الآخرة فلها شأنٌ آخر فى الآخرة أخزى ، لأن الخزى فى الدنيا له وقت ينتهى فيه .

أمَّا فى الآخرة فخزىٌ دائم باق فهو مُعذَّب وخزيان ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ..(١٦)﴾ [فصلت] لأنهً دائم مستمرٌّ ﴿وَهُمْ لا يُنصَرُونَ (١٦)﴾ [فصلت] يعنى : لن يأخذ أحد بأيديهم ، ولن ينجيهم من العذاب شىء ، فلا أملَ لهم فى النصرة ، فهم لا ينصرون ولا يردُّون .

لذلك قلنا فى الحشر : إن الحق سبحانه يحشر الناسَ جميعاً مرة واحدة ، لا يكونون على هيئة طابور مثلاً ، كلٌّ ينتظر دوره ، إنما يُحشرون جميعاً بعضهم مع بعض ، الظالم والمظلوم ، والتابع والمتبوع ، وهو يقطع أملَ الكافرين فى النجاة ، فربما انتظروا قادتهم لينقذوهم ؛ لذلك قال تعالى فى شأن فرعون : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ .. (٩٨)﴾ [هود] أى : يتقدمهم ويسبقهم إلى النار .

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (١٧)﴾

هنا وقفة لعلماء الكلام ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ .. (١٧)﴾ [فصلت] الهُدَى هو الدلالة على طريق الخير الموصِّل إلى غاية خير ، نقول : دلَّه على الطريق ، وحين تدل الناس منهم مَنْ يستمع لك ويطيعك ، ومنهم مَنْ لا يستمع إليك ، فالأول تزيده هداية وإرشاداً حتى يصل إلى غايته ، والآخر تتخلى عنه .

لذلك قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد] أى : اهتدوا لطريق الدلالة . زادهم هدىً . أى : بالمعونة والتوفيق للعمل الصالح وكراهية عمل الشر ، إذن : هناك هداية للدلالة ، وهداية للتوفيق والمعونة . وهل تعين إلا مَنْ أطاعك وآمن بك ؟

وسبق أنْ ضربنا لذلك مثلاً برجل المرور الذى يقف على مفترق الطرق ، وتحتاج إلى أنْ تسأله عن الطريق الذى تقصده ، يقول لك : الطريق من هنا ، فإنْ شكرته على صنيعه وتوجهتَ إلى الطريق الذى دلَّك عليه زادك إرشاداً وبيَّن لك ما فى الطريق من عقبات أو مصاعب . وربما صحبك حتى تمرَّ من هذه الصعاب .

فأنت سألته فدلَّكَ فاتبعْتَ دلالته وشكرته فقال : أنت أهلٌ لمعونتى وإرشادى ، أما إنْ خالفتَ رأيه وسرْتَ فى طريق آخر غير طريق دلالته فلا بُدَّ أنْ يتخلى عنك ، وأنْ يدعَك وشأنك .

كذلك الحق سبحانه وتعالى يدل الجميع على طريق الخير ، كل الخلق دلَّهم الله ، فمَنْ أطاع فى هداية الدلالة كان أهلاً للزيادة ، وأهلاً لهداية المعونة والتوفيق ، ومَنْ عصى وخالف فى هداية الدلالة لم يكُنْ أهلاً لهداية المعونة .

كذلك كان شأن ثمود ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ .. (١٧)﴾ [فصلت] هداية دلالة ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. (١٧)﴾ [فصلت] أى : استحبُّوا العمى

عن فعل الخير ، لأنهم ارتاحوا للمخالفة وأرادوا الخروج من قيود التكاليف الشرعية ، وإلا لماذا عبدوا الأصنام وهم يعلمون ما هى ، وصنعوها بأيديهم ؟

عبدوها لأن فى عبادتها إرضاءً للنفس بأنْ يكون لها إله تعبده ، وما أجملَ أنْ يكون هذا الإله بلا تكاليف وبلا منهج بافعل ولا تفعل ، إذن : مشقة تكاليف الطاعة وحلاوة إتيان المعصية تأتى من التكليف ، فإن وُجدَ إله بلا تكاليف مالتْ إليه النفس وأحبته ، لأن ذلك يُرضى غريزة الفطرة الإيمانية فى الإنسان ، وهو أن كلَّ إنسان آمن بالعهد الأول فى مرحلة الذر ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢)﴾ [الأعراف]

إذن : فبضعة الإيمان فى كل إنسان موجودة فيه من عهد الذر ، ولكن يختلف الناسُ فى قبول التكاليف والمنهج ، فمن الناس مَنْ يرى فى المنهج قيْداً لشهواته ، فلا يرتاح إليه ويسعى إلى التديّن الخالى من التكليف كهؤلاء الذين استحبوا العمى على الهدى ، ومن الناس مَنْ يحب الهداية والطاعة ويرتاح إلى المنهج ويأنس به .

وتأمل قوله تعالى : ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ .. (١٧)﴾ [فصلت] استحبَّ غير أحب . استحبَّ يعنى : تكلّف حبه ، وهذا دليل أنه شىء لا يُحبّ أصلاً وطبيعة ، لكنه تكلف حبه ليحقق مراده من الشهوة ، ولك أنْ تنظر إلى أىِّ سيئة نهاك الله عنها وهَبْهَا أنها واقعة عليك ، هل تحبها ؟ لا تحبها ، إذن : هى لا تُحَبُّ .

وفى موضع آخر ، لما تكلَّم الحق سبحانه عن المؤمنين قال عنهم :

﴿أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. (٥)﴾ [البقرة] وعلى تدل على الاستعلاء ، فكأنهم مستوون على الهدى ، وكأنه دابة يركبونها

توصِّلهم إلى غايتهم ، فالهدى لم يأتِ ليشق عليكم ، إنما جاء ليحملكم ويُوصِّلكم إلى غاية الخير ، فالمؤمنون على الهدى فوقه يوصلهم ، ليس الهدى فوقهم يشق عليهم أو يكلفهم ما لا يطيقون ، فالهدى إذن خدمة لكم وفى مصلحتكم .

وحين تتتبع لفظة (على) فى القرآن الكريم تجدها لا بدَّ أنْ تعطى الحكم من باب القوة والفضل ، فمثلاً قوله تعالى : ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا** (٨) ﴾ [الإنسان] بعض المفسرين[1] قال : على حبه يعنى : مع حبه فجعل على بمعنى مع ، وهذا مخالف للصواب ؛ لأن الإنسان لا يحب الطعام إلا إذا كان جائعاً ، أما الشبعان فلا يلتفت للطعام .

فالمعنى : ويُطعمون الطعام رغم أنهم فى حاجة إليه ، فكأن الجوع يطلب أنْ تأكل لكن حبّ الخير والصدقة يعلو عندك على الجوع وحب الطعام ، لماذا ؟ لأنك قدَّرْتَ الجزاء الأوفى عليه ، وما دُمْتَ قدَّرت الجزاء الأوفى على إطعام الطعام ، فقد غلَبتَ حبك للطعام وعلوت عليه ، لذلك قال سبحانه : ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**[2] .. (٩) ﴾ [الحشر]

كذلك فى قوله تعالى : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ** .. (٣٩) ﴾ [إبراهيم] (على) هنا لا تعنى وهب لى مع أنِّى كبير

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٤٥٤) : « قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. (٨) ﴾ [الإنسان] قيل : على حب الله تعالى ، وجعلوا الضمير عائداً إلى الله لدلالة السياق عليه ، والأظهر أن الضمير عائد على الطعام . أى : ويطعمون الطعام فى محال محبتهم وشهوتهم له . قاله مجاهد ومقاتل واختاره ابن جرير كقوله : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. (١٧٧) ﴾ [البقرة] .

(٢) خصاصة : فقر واحتياج . والخصاصة : الفقر وسوء الحال والحاجة . [لسان العرب – مادة : خصص] .

لا أصلح للإنجاب ، إنما المعنى : وهب لى على الكبرَ ، فكأن الكبر ضعف يقتضى عدم الإنجاب ، ولكن هبة الله وفضله علا على الضعف وعلا على الكبر كما جعل زكريا ينجب يحى عليهما السلام !!

كذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. ⁦(٦)⁩ ﴾ [الرعد] فكأن الظلم كان يقتضى العقوبة ، لكن مغفرة الله عَلَتْ على الظلم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⁦(١٧)⁩ ﴾ [فصلت] الصاعقة قلنا : هى كلُّ ما يصعق ويدمر ، سواء كان بالريح أو النار ، أو الصيحة المدمرة ، والعذاب الهون أى : المصحوب بالإهانة والخزى ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⁦(١٧)⁩ ﴾ [فصلت] يعنى : وقع لهم هذا بسبب ما كسبوا ، وما اقترفته أيديهم . يعنى : جزاءً وفاقاً ، لا ظلماً وعدواناً .

﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ⁦(١٨)⁩ ﴾

كثيراً ما نجد أسلوب القرآن الكريم يجمع بين الشىء ونقيضه ليبرز المعنى وبضدها تتميز الأشياء ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ⁦(١٣)⁩ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ⁦(١٤)⁩ ﴾ [الانفطار] هذه مقابلة يوضح فيها كلّ معنى المعنى المقابل ، كذلك هنا بعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن بعض المكذِّبين المعاندين أردف ذلك بالكلام عن المؤمنين المتقين ، وما آلوا إليه من الفوز والنجاة ، فقال سبحانه : ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ⁦(١٨)⁩ ﴾ [فصلت]

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ[1] ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

الحشر : يعنى جمع المختلفين ، والمختلفون كان فيهم التابع والمتبوع ، ضالِّين ومضلين ، لا بدَّ أنْ يجمعهم الله جميعاً فى وقت واحد يتقدمهم الزعماء ورؤوس الكفر .

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ﴾ [مريم]

يعنى : نأتى بالفتوات ونقدمهم إلى النار قبل الضعفاء ، وكأن الله يقول لهم : هؤلاء قادتكم يسبقونكم إلى النار ، يعنى : لا أملَ لكم فى النجاة ، حتى الوحوش يجمعها الله ويجمع المختلفين منها .

﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ [التكوير] والوحوش هى الحيوانات غير المستأنسة كالأسد والنمر وغيره ، وكأن الحق سبحانه يريد أن يقول لنا : أنا الذى أذلل لك الخلق ، ولولا أننى ذللته لك ما استطعتَ أنت تذليله ، نعم ذلَّل لك الجمل رغم حجمه الكبير ، لكن لم يذلل لك الثعبان الصغير ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يس]

والله لولا أن الله ذلَّل لنا هذه المخلوقات ما انتفعنا منها بشىء ، لذلك نقول على غير المذلل : حيوان متوحش ، ألاَ ترى الطفل والولد

(١) يُوزعون : يُجمعون فى مكان واحد ويحبسون عليه ويمنعون من التفرق . [القاموس القويم ٢/٣٣٤] بتصرف . قال ابن منظور فى [لسان العرب - مادة : وزع] ، أى : يُحبس أولهم على آخرهم .

الصغير يقود الجمل الكبير ويحمله ويُنيخه ويُسيِّره حيث يريد ، وأنت يزعجك البرغوث الصغير فى الفراش ويمنعك النوم ، إنها رسالة من الخالق سبحانه بأن الأمر أمرُ تذليل من الله .

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [فصلت] فى الدنيا الوحوش تفر من الإنسان ، ونحن نفرٌّ من الوحوش ، أما فى القيامة فيجمع الله الجميع معاً فى موقف واحد ، كيف ؟ لأنه لم يَعُدْ لأحد منا قوة تصرُّف ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر] فلما صار الملك لله لم يَبْقَ فينا نحن المخلوقين تفاوت قوة تستضعف .

وقوله ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : يُساقون ويُقادون جميعاً إلى النار من أولهم إلى آخرهم ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [فصلت]

الله .. السمع وظيفة الأذن ، والإبصار وظيفة العين ، والأنف للشم ، والكف للمس ، فكل جارحة من جوارح الإنسان لها مهمة فى حياته ، لكن لم يذكر الحق منها هنا إلا ثلاثة فقط : السمع ، والأبصار والجلود . ولم يذكر اليد ولا الأنف .

قالوا : لأن التكليف فى أمر الأنف نادر وقليل ، كأنْ تشمّ رائحة الخمر مثلاً ، والعياذ بالله ، أو تشم رائحة امرأة متعطرة ، إذن : فالأنف دوره محدود ، أما السمع فهو أهم الحواس ، لأنك تستقبل به الدعوة إلى الله ، والبصر هو الذى تبصر به آيات الله فى كونه وعجائبه فى خَلْقه .

أما الجلود فعامة فى السمع والبصر وفى كل الحواس ، فكأن الجلد أعمّ شىء فى الحس ، ولذلك لما بحثوا فى وظائف الأعضاء

ليعرفوا مهمة كل عضو فى الإنسان وجدوا أهمها الجلد ، لأنه وسيلة الإحساس بالألم خاصة فى الطبقة الخارجية منه ، ألاَ ترى أنك مثلاً حين تأخذ حقنة تشعر بألم الإبرة حين تدخل جسمك وتخترق الجلد ، تؤلمك بقدر نفاذها فى الجلد كأنَّ الجلد هو محلُّ الإذاقة ، وما دام هو محل الإذاقة فهو إذن مستوعب لجميع الحواس .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ** .. (٥٦) ﴾ [النساء] إذن : فالجلد محلّ إذاقة العذاب والعياذ بالله ، وهو المستوعب لكلِّ الحواس .

﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾

هم يتعجبون كيف تشهد عليهم جلودهم وهى منهم ، والسؤال هنا كان ينبغى أنْ يكون عن الكيفية : كيف شهدتم علينا لا عن السبب ، فالسؤال بهذه الصيغة غير وارد ليدل هذا على التضارب فى الكلام .

وكان الجواب ﴿ **قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ** .. (٢١) ﴾ [فصلت] فالسؤال عن شىء والجواب عن شىء آخر ، فلو أجابوا عن السؤال : لم شهدتم علينا ؟ لقالوا : شهدنا عليكم لأننا أقوى حارس عليك فى جميع الأوقات ﴿ **قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ** .. (٢١) ﴾ [فصلت] يعنى : الأمر ليس بملكنا ، نحن لم نشهد من عندنا ، إنما أنطقنا الحقُّ بالحق ، ولا حيلةَ لنا فى هذا .

ومعنى ﴿ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٢١) ﴾ [فصلت] أن كل شيء في الوجود له لغة خاصة به ، لغة يتكلم بها ، لغة تدل وتُفهم ، كما رأينا في قصة سيدنا سليمان لما تكلمتْ نملة وحذَّرتْ قومها ، وقالت : ﴿ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل]

ودَلّ قول النملة على أن للنمل لغة يتفاهمون بها ، ودلَّ على يقظتها وعلى عدالتها في الحكم حين قالت : ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل]

كذلك حديث الهدهد في نفس القصة حين قال : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ (٢٢) ﴾ [النمل] ثم يتكلم بكلام في صُلْب العقيدة ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٢٤) ﴾ [النمل] فالهدهد ليس مجرد متكلم بلغة ، إنما فاهم لأهمّ قضايا الإيمان ومسائل التوحيد .

إذن : لكل شيء لغة ، لكن لا يعرفها إلا مَنْ علَّمه الله وأطلعه على هذه اللغة ، وهذا فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء ، لذلك قال سيدنا سليمان ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. (١٦) ﴾ [النمل] ولولا أن الله علّمه ما فهم عن الهدهد .

كذلك في الجماد له لغة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ (١٨) ﴾ [ص]

لذلك يقول تعالى في إجمال هذه المسألة : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

وورد أن الحصى سبَّح[1] في يد رسول الله ﷺ على أن هذه معجزة من معجزاته ﷺ ، وقلنا في تصويب هذه المسألة : أن الحصى مُسبِّح في يد رسول الله كما هو مُسبِّح في يد أبي جهل ، فالصواب والمعجز أنْ نقول : سمع رسول الله تسبيح الحصى في يده ، هكذا يكون الكلام .

بعض العلماء يقول عن هذا التسبيح أنه تسبيحُ دلالة على خالقها لا تسبيحٌ على الحقيقة ، وهذا كلام مخالف لنصٍّ القرآن الكريم لأنه لو كان تسبيحَ دلالة كما تقول فقد فهمته والله يقول : ﴿ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] إذن : فهو تسبيح على الحقيقة ، تسبيح بلغة لا يعلمها إلا خالقها ، أو مَنْ علَّمه الله واختصَّه بمزيد من فضله .

والعجيب في مسألة الهدهد أنه ذكر سبباً واحداً لوجوب الإيمان بالله وتوحيده تعالى ، فقال : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) ﴾ [النمل] فذكر الأمر الخاص به وهو إخراج خبأ الأرض ، ومعلوم أن للهدهد منقاراً طويلاً ، يُخرج به الدود من تحت سطح التربة ويتغذى عليه .

وقوله : ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾ [فصلت] يعني : لا تظنوا أن الله خلقكم وترككم هملاً ، إنما خلقكم لغاية ولا بدّ

---

(١) أورده الأصبهاني في دلائل النبوة (١/٤٧) فصل في تسبيح الحصى في يده . عن أبي ذر أن أبا بكر وعمر وعثمان اجتمعوا عند رسول الله في خلوة فتناول النبي سبع أو تسع حصيات فسبَّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ، ثم أخذهن فوضعهن في يد أبي بكر فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن في يد عمر فسبَّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن في يد عثمان فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن .

لكم من الرجوع إليه ، والمثول بين يديه يحاسبكم على النقير[١] والقطمير[٢] ، والقليل والكثير ، ويجازيكم بأعمالكم فلن تنفلتوا منه سبحانه ، ستقفون بين يديه للحساب يُعدِّد عليكم نعمه ، ويرى مَنْ شكرها ومَنْ كفرها .

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

يعني : لقد فاتكم شيء هام ما تنبهتم إليه ، وهو أنكم كنتم تستترون عن الخَلْق أنْ يراك أحد حال المعصية ، ونسيتم أن الله مُطَّلع عليكم يراكم ويرقب أفعالكم وما كنتم تستترون عن أنفسكم وجوارحكم ، وغاب عنكم أن الجوارح شاهدة عليكم يوم القيامة .

فاليد التي ضربتَ بها ، والرِّجْل التي سعيتَ بها ، واللسان والأذن والعين ، كل الجوارح ستأتي شاهدة عليك يوم القيامة ، هذه الجوارح التي أمرها الله أنْ تنفعل لمراداتك في الدنيا وتطيعك في كل ما تريد ستتحرر من هذا القيد يوم القيامة ، فلا يكون لك سلطان عليها ، ساعتها ستشهد عليك .

---

(١) النقير : نقطة غائرة في ظهر النواة منها تنبت النخلة . ويضرب مثلاً للتعليل . قال تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ [النساء] أي : لا يعطون أحداً جزءاً ضئيلاً من النواة وهذه كناية عن شدة البخل والحرص على المال . [القاموس القويم ٢/٢٨٢] .

(٢) القطمير : القشرة الرقيقة الملتفة على النواة ، ويُضرب بها المثل في القلة ، قال تعالى : ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فاطر] من شيء قليل لا قيمة له .

فإنْ أطاعتك فى المعاصى فى الدنيا ، لأن الله سخرها لك فقد أطاعتك وهى كارهة لفعلك بريئة منه ، أما وقد عاد الجميع إلى الله ، وصار الملْك كله لله ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر] فلا عجبَ إذن أنْ تشهد عليكم جوارحكم ، وأنْ تكون خصماً لكم أمام خالقها عز وجل .

وسبق أنْ مثَّلْنا لهذه المسألة بقائد الكتيبة فى الجيش يأمر جنوده فيأتمرون بأمره ينفذون الأوامر حتى لو كانت خاطئة ، حتى إذا ما جاءوا إلى القائد الأعلى شكوْا إليه تعسُّف القائد المباشر ، وقالوا : فعل بنا كذا وكذا .

كذلك جوارح الإنسان أمرها الله أنْ تطيعه حتى فى المعصية ، وأنْ تنفعل لمراداته ، فجوارحك تطيعك فى كل شىء تريده ، فى الخير وفى الشر

وقوله : ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢)﴾ [فصلت] الحق سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى : « يا عبادى إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فَلِمَ جعلتمونى أهون الناظرين إليكم »[(١)] إذا كنتَ لا تستطيع أنْ تفعل فى إنسان مثلك عملاً يسوؤه على مرأى ومسمع منه عينى عينك هكذا ، فكيف تفعلها مع الله عز وجل ؟

---

(١) بالبحث فى كتب الحديث تبين عدم ثبوت حديث بهذا اللفظ ، وإنما ثبتت جملة من هذا الحديث على لسان بعض العارفين حيث جاء فى كتاب (حلية الأولياء) (١٤٢/٨) قال رجل لوهيب بن الورد : عظنى . قال : اتق الله أن يكون الله أهون الناظرين إليك ، وجاء فى كتاب جامع العلوم والحكم (٣٦/١) قال بعض العارفين : اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك .

﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾

قوله : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ﴾ [فصلت] أى : أفعالكم التى فعلتموها ﴿ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ .. (٢٣) ﴾ [فصلت] يعنى : ظننتم أنه سبحانه لا يعلم ما تفعلون ﴿ أَرْدَاكُمْ .. (٢٣) ﴾ [فصلت] يعنى : أهلككم هذا الظن ﴿ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾ [فصلت]

﴿ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا(١) فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) ﴾

أى : فإنْ يصبروا على ما هم عليه ويصروا على الكفران والجدل مع الرسل ، ماذا يحدث ﴿ فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) ﴾ [فصلت] أمر من اثنين . الإنسان حين يخالف أوامر خالقه ويأتيه رسول يقول له ، لا تفعل فإنْ كفَّ فهو خير له ، وإنْ أصرَّ وتمادى فالنار مثوىً له .

ومعنى ﴿ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) ﴾ [فصلت] يستعتبوا يطلبون العتبى . يقال : عتب فلان على فلان . يعنى : لامه على أمر ما كان يصح أنْ يكون منه ، يقول : مثلاً أنا مرضتُ فلم تزرنى ، هذا عتاب ، فيقول : معذرة فقد كنت مشغولاً بكذا وكذا فساعة يُبيِّن له العذر فقد أعتبه يعنى أزال عتبه ، وهذا لا يكون لهم فى الآخرة

(١) استعتبته فأعتبنى أى : استرضيته فأرضانى . واستعتب فلان : إذا طلب أن يُعتب أى يُرضى . [لسان العرب مادة : عتب] .

فإن طلبوا العتاب لم يعتبوا .

لذلك جاء في حديث الرسول ﷺ وهو عائد من الطائف بعد أن آذاه قومها ، قال فيما قال ﷺ وهو يناجي ربه : « لك العُتْبى حتى ترضى »[1] يعني : إنْ كان بدر مني شيء يغضبك فأنا أزيله وأعترف أنني ضعيف أطلب قبول العتاب .

لذلك قال الشاعر[2] :

أمَّا العتَابُ فَبالأحِبَّةِ أَخْلَقُ   والحُبُّ يصلُح بالعتَابِ ويصْدُقُ[3]

إذن : أنت لا تعاتب إلا إذا كنتَ محباً لمن تعاتبه ، حريصاً على علاقتك به . نقول : عتبت عليه فأعتبني يعني : أزال عَتْبي ، أما هؤلاء في الآخرة فلن يقبل اللهُ منهم عتاباً ولن يزيل عتبهم . والهمزة في أعتب تسمَّى همزة الإزالة ، والإزالة تكون بالهمزة أو بالتضعيف تقول : مرَّضتُ فلاناً يعني : أزلتُ مرضه . وقشرتُ الفاكهة يعني : أزلتُ قشرتها .

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) ﴾

---

(١) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٢/٤١٩ ، ٤٢٠) ، والبيهقي في (دلائل النبوة) (٢/٤١٥) .

(٢) الشاعر هو : أحمد شوقي أمير الشعراء ، مولده ووفاته بالقاهرة عام ١٩٣٢ م ، نشأ في ظل البيت المالك بمصر ، أرسله الخديوي توفيق سنة ١٨٨٧ م إلى فرنسا ، نظم شعراً في المديح والغزل والرثاء والوصف . [الموسوعة الشعرية] .

(٣) البيت لأحمد شوقي من قصيدة من بحر الكامل ، عدد أبياتها ١٢ بيتاً .

معنى ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ .. (٢٥) ﴾ [فصلت] يعنى : أعددنا لهم وهيّأنا لهم ﴿ قُرَنَاءَ .. (٢٥) ﴾ [فصلت] أصحاباً يلازمونهم ، وأصل المقايضة فى البيع والشراء كأنْ تدفع الثمن وتأخذ السلعة ؛ لأن الله تعالى يريد للعبد أنْ يسير على طريق الخير الذى رسمه الله له ، وطريق الخير المرسوم لك من الله يريد منه أنْ يؤكد صدقك فى التوجه إليه ، فيأتى بقرناء يعترضون طريقك ويحاولون صَرْفك عنه .

فإنْ أطعتَ هؤلاء القرناء ملْتَ معهم وضللتَ طريقك الذى اختاره الله لك ، وإنْ عصيتهم فقد نجوْتَ وخابت معك حيل الشيطان الذى يُزِّين لك سواء من شياطين الإنس أو من شياطين الجن .

فكأن الشيطان ما جاء إلا ليختبر إيمان المؤمن فهو يُوسوس للجميع ، ويُزيِّن الشر للجميع ، لكن قويّ الإيمان يقف أمام هذه الوسوسة ويعرف مصدرها فلا يطيع ، أما ضعيف الإيمان فينقاد ويقع فى المخالفة ، ولولا وجود الشيطان لكان الإيمانُ رتابةً لا معارضَ لها ، لكن وُجِد المعارض ، ومع ذلك ثبت أهل الإيمان على إيمانهم .

قوله : ﴿ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ .. (٢٥) ﴾ [فصلت] ما بين أيديهم : الموجود الحالى من الشهوات . وما خلفهم : أى : ما ينتظرهم من أمر القيامة والحساب ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) ﴾ [فصلت]

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾

تميَّز العربُ قديماً بملَكة عربية تتذوَّق اللغة وتجيد أساليبها وفنونها ، بدليل أنهم جعلوا للكلمة مؤتمرات وأسواقاً ، ففى حين كانت البلاد الأخرى تقيم المعارض والأسواق لترويج بضاعتهم ، لم يكُنْ عند العرب بضاعة غير الكلام والفصاحة ، فجعلوا لها سوقاً ينشد فيها أجود أشعارهم ثم يختارون أفضله ، ويُعلقونه على أستار الكعبة ، وهو أشرف مكان على الأرض ، وهذا أمر لم يحدث فى أى أمة أخرى .

لذلك اختار الحق سبحانه أمة العرب لتتلقى منهجه ، وتبلغ دعوته سبحانه إلى خَلْقه ونزل عليها القرآن لأنها الأمة الوحيدة التى ستفهم لغته وتتذوقها .

إذن : جاء القرآن على أمة لها نبوغٌ فى اللغة والبيان لتكون مجالاً للتحدى ، وحين تعجز أمام تحدِّى القرآن فعَجْز غيرها من باب أَوْلَى ، وأيضاً فلم يجعل الله لهم تقدُّماً فى شىء غير تقدمهم اللغوى والبيانى ؛ لأن مفتاح الدين ومعجزة الرسالة ستكون هى القرآن .

ولو كانت هذه الأمة أمةَ تقدُّم وحضارة فى أىِّ مجال من المجالات غير اللغة لقالوا عن الإسلام ثورة حضارية ، لا ليست أمة حضارية بل أمة أمية ورسولها أيضاً أُمِّى .

ومن هنا كانت الأمية ميْزةً وشرفاً لرسول الله ، لكنها ليستْ شرفاً فينا نحن لأنَّ أمية رسول الله تعنى أنه لم تدخل عليه معلومة من البشر ، وإنما كلّ معلوماته من الله ، فمَنْ إذن ربَّاهُ ، ومَنْ أدَّبه ، ومَنْ علّمه ؟ الله .

فإذا كانت الأمة أُميّة ، ورسولها أمياً ، فهذا دليلٌ على أن كلَّ منافذ الخير فى هذه الأمة ليستْ من عند البشر .

وأيضاً تميزتْ هذه الأمة بأنها أمة ليس لها وطن ، فالعربى موطنه خيمته يضعها حيث وُجد الماء والعشب ويحملها على بعيره إلى أىِّ مكان آخر حين يجفّ الماء أو ينتهى الكلأ ، ليس له وطن ولا بناء يعزّ عليه أن يفارقه ، فبيته على ظهر جمله ، لذلك قال تعالى : ﴿مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ[1] وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ .. ﴿٨٠﴾﴾ [النحل]

شىء آخر ، وهو الأهمّ أن العرب كانوا دائماً فى محلٍّ قتال ، وتظل الحربُ دائرةً بين القبائل إلى أربعين سنة ، هذه الحروب جعلتهم كلهم أهل خبرة فى فنون الحروب والقتال ؛ لذلك ساعة احتاج رسولُ الله إلى جنود لنشر دعوته لم يُدرِّب أحداً على القتال ، إنما وجد جنوداً جاهزين على أُهْبة الاستعداد للقتال ، لذلك لم يكُنْ هناك مدارس حربية ولا معسكرات للتدريب .

فإذا أخذنا فى الاعتبار أن العربى لم يكُنْ له وطن يرتبط به ، وأنه ذو قدرة وكفاءة فى فنون القتال ، علماً أنه من السهل تكوين الجيش ، ومن اسهل إرسال جماعة هنا وجماعة هناك يحملون راية الإسلام ، وقد أرسلهم رسول الله بالفعل إلى فارس وإلى الروم وإلى الحبشة .. إلخ فسَهُلَ ذلك عليهم .

لذلك لم يكُنْ لرسول الله جيشٌ مُعَدٌّ وموقوف للقتال ، لأنه ليس فى حاجة إلى هذا الجيش ، فإنْ أراد القتال نادى فقط (حيَّ على الجهاد) فيجتمع عليه الصحابة خاصة الشباب منهم يتسابقون إلى الخروج مع رسول الله ، لدرجة أن رسول الله كان يختار منهم فيقول : هذا يخرج وهذا لا يخرج ، فكان الذى لا يقع عليه اختيار

---

(١) الظعن : الانتقال من مكان إلى مكان أى المسافرة . [القاموس القويم ١/٤١٥] .

رسول الله يغضب وربما بكى لأنه لم يخرج للجهاد مع رسول الله .

إذن : تميَّزَتْ هذه الأمة بعدة خصال أهَّلتْهَا لأنْ تكون محلاً لمنهج الله وتبليغ رسالته ، **أولاً** : كانت أمة بلاغة وفصاحة . **ثانياً** : كانت أمة ترحال لا توطن لهم . **الثالث** : أنهم كانوا على دراية بفنون الحرب والقتال ولم يحتاجوا إلى تدريب فى معسكرات ، بل كانوا على استعداد تام ، كلما سمعوا هَيْعة طاروا إليها ، وبذلك كانوا بطبيعتهم مُعدَّين لحَمْل هذه المهمة .

قوله تعالى حكاية عن كفار قريش : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ** .. (٢٦) ﴾ [فصلت] جاء نتيجة تمكُّن العربى من اللغة ، وتذوّقه لها ، وفَهْمه لمعانيها ، فلو تركوا القوم يستمعون لمحمد وهو يقرأ القرآن لا بدَّ أنْ يتأثروا به ، ولا بدَّ أنْ يميلوا وينجذبوا إليه ، فما الحل ؟

الحل عندهم ﴿ **لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ** .. (٢٦) ﴾ [فصلت] لأنهم علموا علمَ اليقين أنهم لو سمعوا لأخذهم القرآن بجمال أسلوبه ، وجلال معانيه ، وقوة أدائه ، ولو كانوا يعلمون خلافَ ذلك ما نَهَوْا قومهم عن سماعه .

ولم يقف الأمر عند النهى عن السماع ، بل وشوَّشوا عليه حين يقرأ ﴿ **وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** (٢٦) ﴾ [فصلت] إذن وسيلة الغلبة ألاَّ تسمعوا للقرآن ، وأنْ تُشوِّشوا عليه حين يقرأ حتى لا تُعْطوا فرصة لمَنْ يسمع أن يتدبر وقولهم ﴿ **لَعَلَّكُمْ** .. (٢٦) ﴾ [فصلت] يعنى : احتمال تكُون لكم الغلبة ، إنْ فعلتم ذلك فهو أمر غير مؤكد عندهم .

والدليل على ذلك أنهم آمنوا ببلاغة القرآن وإعجاز القرآن ، وآخر

المطاف لما ضاقتْ بهم الحيَل قالوا عن رسول الله ﷺ إنه مجنون وردَّ الله عليهم ، فقال لرسوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم] وهل للمجنون خلق ، وخلق عظيم ؟

قالوا ذلك وهم يعلمون صدق رسول الله وأمانته وحُسْن سيرته فيهم ، فقالوا : ساحر والرد على هذا سهل ، فلو أن محمداً سحر مَنْ آمن به ، فلماذا لم يَسْحركم كما سحرهم ، وتنتهى المسألة ؟ وقال : شاعر وكذبوا أيضاً ، لأنهم أمة كلام وبيانٍ ، ويعلمون جيداً ما الشعر ، وما جرَّبوا على محمد شيئاً من هذا .

وفى نهاية الأمر اعترفوا بصدق القرآن وبلاغته وإعجازه ، لكن اعترضوا على أنْ ينزل على محمد بالذات ، فقالوا : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف]

فالآفة ليستْ فى القرآن ، فالقرآن لا غبار عليه ، الآفة فى نزوله على محمد وهو فقير من عامة القوم ، ليس سيِّداً من ساداتهم من عتبة وشيبة وغيرهما ، وبذلك أقروا وشهدوا للقرآن بأنه كتاب كامل يستوعب كلَّ وجوه الخير وكمالات الخلْق اللازمة لصلاح الدنيا والآخرة ، فاعتراضهم إذن على شخص رسول الله لا على القرآن .

لكنهم لم ينتبهوا إلى أنَّ شهادتهم للقرآن وإقرارهم بإعجازه أَوْلى عند رسول الله من شهادتكم له هو ؛ لأن الذين آمنوا بالله وآمنوا بوحى الله كانوا أقربَ لرسول الله ممَّنْ أنكروه .

فالرومان لم يُصدِّقوا محمداً ، لكنهم يؤمنون بكتاب ويؤمنون بوحى وبرسل ، وفارس لم يكُنْ عندها هذا الإيمان الذى عند الرومان ، فكانت قلوبُ رسول الله والمؤمنين تميل إلى الرومان ،

لأنهم أهلُ كتاب ويؤمنون بالله ؛ لأن عصبية رسول الله لربه فوق عصبيته لنفسه ، ألاَ ترى أن المسلمين حزنوا لما غُلِبَتْ الروم وفرحوا لما انتصروا بعد ذلك ؟

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى لم يترك عذابَ الذنوب إلى الآخرة حتى لا يستشرى أهلُ الباطل فى باطلهم ، لكن يُعجِّل الله لأهل الباطل لوناً من العذاب فى الدنيا قبل عذاب الآخرة ، وعذاب الآخرة أشد ؛ لذلك قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

﴿ ذَلِكَ ﴾ يعنى ما سبق ذكره من العذاب ، والجحود هو الإنكار الشديد ، فالذين كفروا حينما وقفوا موقفهم من الإسلام ، وتبيَّن لهم كذب مَنْ دعوهم إلى الضلال وأضلوهم أصبح لهم ثأر ليس عند المؤمنين ، إنما عند الكافرين الذين أضلوهم وأبعدوهم عن الإيمان ؛ لذلك يوم القيامة يبحثون عنهم لينتقموا منهم ، وليجعلوهم تحت أقدامهم ، وتقوم معركة وجدال بين الفريقين التابعين والمتبوعين :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى فى أكثر من موضع من القرآن يُصوِّر لنا هذه المعركة الكلامية التى تدور بين الضالِّين والمضلِّين ، وكيف أن كلَّ واحد منهما يُلْقى باللائمة على الآخر ويتنصل هو من المسئولية .

لذلك إبليس سيغلب مَن اتبعه فى الضلال ، وستكون له الحجة الأقوى ، كما قال تعالى حكايةً عنه : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ[1] وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

يعنى : لا سلطانَ حجة تقنعكم ، ولا سلطانَ قوة تُرغمكم على الفعل ، وعجيبٌ أن يقول الكافرون هنا فى موقف القيامة ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [فصلت] الآن يقولون ربنا ، ويعترفون له سبحانه بالربوبية ، ومعنى ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : نعذبهم نحن أولاً قبل أنْ تعذبهم أنت يا رب . وقولهم ﴿ تَحْتَ أَقْدَامِنَا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : عذاب إهانة لا عذابَ إيلام .

---

(١) المصرخ : المغيث المنقذ مَنْ يستصرخه . والصريخ : الاستغاثة والمستغيث والمغيث . [القاموس القويم ١/٣٧٣] .

ثم يقول سبحانه[1] :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ ﴾

قالوا : ربنا الله ، هناك لَفْظَا رب وإله . ولكل لفظ منهما مجالٌ ومعنىً : فالربُّ هو الذى يُربِّى ويخلق ويتعهَّدنا بالنعم والأفضال ، ومنه قولنا : نربيه . يعنى : نعطيه ما يُؤهله لمهمته ، فالله ربٌّ خلق من عدم وأمدَّ من عُدم ، وظل يأخذنا بحنان يُوضع لبعضنا فى بعض ، إلى أنْ نقوى ويشتد ساعدنا ، ثم يكلفنا بعد ذلك تكليف الألوهية .

إذن : فعطاء الربوبية عطاء عام يعمُّ المؤمنَ والكافرَ ، والطائعَ والعاصى . فالله رَبُّ الجميع وَسِع فضله كلَّ خَلْقه ، خلقك وخلق لك مقومات حياتك قبل أنْ يخلقك ، وجعل لك عقلاً تُميِّز به وتختار بين البدائل ، فإنْ أحسنتَ التصرف بعقلك فيما أعطاك من مقومات تأخذ ثمرتها ، وإنْ لم تحسن فأنت الخاسر ، إذن : عطاء الربوبية للجميع ، والأسباب مُتاحة للجميع تعطى مَنْ يستحق العطاء حتى لو كان كافراً .

(١) سبب نزول الآية : عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وذلك أن المشركين قالوا ربنا الله والملائكة بناته وهؤلاء شفعاؤنا عند الله فلم يستقيموا . وقال أبو بكر : ربنا الله وحده لا شريك له ومحمد ﷺ عبده ورسوله . فاستقام . ذكره القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٢٣) .

ولذلك تجد فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما قال : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (١٢٦) ﴾ [البقرة] إذن : طلب الرزق فقط لمَنْ آمن ، فصحَّح اللهُ له هذه المعلومة ، وقال : ﴿ وَمَن كَفَرَ .. (١٢٦) ﴾ [البقرة] لأن رزقى لكل خَلْقى ، سواء آمن أو لم يؤمن لأنه خَلْقى وصنعتى ، وأنا الذى استدعيتُه للوجود ، فعلىَّ رزقه وعلىَّ مقومات حياته ، هذا عطاء الربوبية .

وسيدنا إبراهيم طرق بابه ليلاً طارقٌ يريد أنْ يبيتَ عنده ، فسأله أولاً عن دينه ، فعلم أنه غير مؤمن ، فأغلق الباب فى وجهه ، فانصرف الرجل ، وعاتب الله نبيه إبراهيم ، وقال له : يا إبراهيم وسعتُه فى مُلْكى ولم أقطع عنه رزقى مع كفره بى ، وأنت تريد أنْ تغير دينه فى ليلة تستضيفه فيها ؟

فأسرع سيدنا إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به وأخذه فى ضيافته فتعجب الرجل وقال : لقد جئتك فرددتنى . فقال له : لكن ربى عاتبنى فيك ، فقال الرجل : أعاتبكَ ربك فى شأنى ؟ قال : نعم ، قال : فنعْم الربُّ رَبٌّ يعاتب أنبياءه فى أعدائه ، ثم قال : أشهد ألاَّ إله إلا الله ، وأنك رسول الله .

لذلك كثيراً ما نتعجَّب من عطاء الله الواسع لغير المؤمنين ، وأن فى أيديهم كلَّ نعيم الدنيا وزخرفها فى حين يُحرم منها المؤمن ، ولا عجبَ فى ذلك لأن هذا عطاءُ الربوبية ، وهؤلاء أحسنوا استغلالَ الأسباب فأعطتْهم ، ولو أحسنتم أنتم كذلك لأعطتكُمُ الأسباب .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ

﴿ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [الزخرف]

وتأمل ، ما المعارج ؟ هى المصاعد التى لم نعرفها نحن إلاَّ فى القرن العشرين ، أخبرنا القرآن بها قبل أربعة عشر قرناً ، هذه من معجزات القرآن التى ينثرها علينا من حين لآخر .

فقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : اعترفوا له سبحانه بالربوبية ، وأقرُّوا أنه سبحانه هو الذى خلقنا وربَّانا وأعطانا وأنعم علينا ، ومن العجيب أنه لم يُكلِّفنا إلا بعد أنْ بلغنا أشدّنا ، يعنى : تركنى أربع فى الدنيا وأنعم بنعمه خمسة عشر عاماً دون أنْ يُكلّفنى بشىء ، لماذا ؟

لأنه لا يكلفك إلا بعد تمام تكوينك واكتمال قوتك ، لأنه لو كلفك قبل ذلك ثم طرأ عليك تغيير فى الخِلْقة وزيادة فى نمو بعض أعضائك لقلت له : يا رب لقد كَلَّفتنى ثم حدث لى تغيير فى كذا وكذا ، ولم أعُدْ صالحاً لهذا التكليف .

ومتى تبلغ أشدّك ؟ قالوا : حين تكون صالحاً لإنجاب مثلك ، عندها يكون اكتمال الخَلْق وتمام الرجولة ، ونحن نلاحظ هذا فى الثمار ، فالثمرة الناضجة تعطى بذرة ناضجة لو وُضعَتْ فى الأرض لأنبتتْ شجرة ، خُذْ مثلاً بطيخة قبل نضوجها تَجد لُبَّها أبيض وطعمها مائعاً ، لماذا ؟ لأنها لم تنضج بَعْد ولو زُرعت بذرتها لم تنبت .

فكأن الله يحرس الثمرة حتى تنضج البذرة ، وتصير صالحة لإنبات شجرة جديدة ، هذا نُسَميه استبقاء النوع ، وإلا لانقرضَ النوعُ ولو نضجتْ البطيخة وحَلاَ طعمها قبل بذرها لأكلناها وما سألنا فى مسألة البذرة والإنبات من جديد ، ولَمَا كان هناك بقاءٌ للنوع .

ولذلك إذا غفلتَ عن الثمـرة حتى استوتْ على عُـودها ولم تقطفها وقعتْ لك هى على الأرض ، وكـأنها تقول لك : خُذْنى لأنهـا ستؤدى مهـمة اللـذة فـى الطعم لك ، ومهـمة إنبات شـجرة جـديدة من نفس النوع .

والخَلْق على نوعين : خَلْق أول ، وخَلْق ثَان . **الأول** : خلق أصول الأشياء . **والثانى** : خلق فروعـاً من أصول الأشـياء ؛ لذلك السـيدة مريم لمَّا قال لها يوسف النجار بعد أنْ ظهرت عليها علامات الحمل : يا مريم ، أتوجـد شجرة بلا بذرة ؟ قـالت : نعم الشجـرة التى أنبتتْ أول بذرة . هذا هو الخَلْق الأول كـخلق آدم عليـه السـلام خُلِق أولاً ، ومنه تناسل الناس .

إذن : التكليف لا يكون إلا بعـد سِنِّ البلوغ واكـتـمال الرجـولة ، والذى يُكلِّـفنا هو الله ، فـالربُّ خلق ورزق وربَّى ، والله كلَّف وأمـر بالعبـادة ، فالله هو المعبـود يعنى : مُطاع فى أمره ونَهْيـه ، وقبل أنْ يكون مُطاعاً فى أمـره ونهْيه أعطاك عـطاءَ ربوبية ، فكأنه قدَّم الخـير لك أولاً قبل أنْ يأمرك بعبادته ، فلا أقلَّ من أنْ تقدم الخير بأنْ تطيع مَنْ رباك .

ولذلك جعل منزلة خاصة لـلأبوين ، وأوصى ببرِّهما ، وحذَّر من عقوقهما ، وجعل عقوق الوالدين من أكبر الكبائر ، لماذا ؟ قالوا : لأن الله أراد أنْ يروِّضك ويعلمك أنْ تحـترم مَنْ كـان سبـباً مـباشـراً فى وجودك ، ثم بعد ذلك ينقلك إلى احترام سبب وجودك غير المباشر ، وهو الله سبـحانه ؛ لذلـك قال : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٣٦)﴾ [النساء]

فالحق سبحانه حينما يأمرنا ببرِّ الوالدين إنما يدربنا على عرفان الحق لله تعالى ، فالله أوجد الخَلْق الأول ، والوالدان أوجدا الخلق الثانى ، وجعل احترام سبب الإيجاد الثانى وسيلةً لاحترام سبب الإيجاد الأول .

إذن : نقول الربوبية عطاء ، والألوهية تكليف ، لكنه تكليف يعطيك أولاً لأنك فى الدنيا ، وعمر الدنيا هو مقدار وجودك أنت فيها ، ولا دخْلَ لك فى عمر الدنيا من لدُن آدم حتى قيام الساعة ، لأن هذا الزمن كله لا يعنيك وهذه محكومة من الله طولاً ، هذا يعيش عشرة أعوام ، وهذا خمسين ، وهذا مائة ، فَطُول الأجل لا دخلَ لأحد فيه .

فبعد أن ذكر الحق سبحانه لنا طرفاً من الأمم المكذبة المعاندة للرسل وما آل إليه أمرهم من العذاب ، يذكر سبحانه المقابل وهم أهل الإيمان والاستقامة على الجادة ، فيقول تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [فصلت] قلنا : العمل قول وفعل . فالقول عمل اللسان ويقابله الفعل ، وهو عمل باقى الجوارح : فالرؤية للعين ، والسمع للأذن ، واللمس لليدين ، والسعى للقدمين .. الخ وكلٌّ من القول والفعل يُسمى عملاً .

فما عمل القلب ؟ القلب من الناحية المادية هو الوعاء المسئول عن ضخ الدم ، وهو سائل الحياة إلى باقى أجزاء الجسم ، وهو وعاء الإيمان والاعتقاد ، فإذا ما عمر باليقين والإيمان أشاع ذلك فى كل ذرة من ذرات الجسم ، لذلك نقول : عمل القلب الاعتقاد ، والعقيدة هى الشىء المعقود الذى لا يُحلُّ ، الشىء الذى استقر فى القلب فلا يخرج ليناقشه العقل من جديد .

قنا : إن الفكرة تُعرض أولاً على العقل ليبحثها ويناقشها ، فإن اطمأن إليها ألقاها إلى القلب لتستقرّ فيه عقيدة راسخة ، فالقلب إذن لا يستقبل إلا عقائدَ ثابتة ، وهذه العقائد هى التى ستكون مبدأ لك فى حركات حياتك .

ومن هنا نعلم أهمية دور اللسان وخطورته ، فله نصف العمل ، ولباقى الجوارح النصف الآخر ، ثم هو المعبِّر عنك المفصح عَمَّا بداخلك ، والجوارح كلها ينبغى أنْ تتفاعل مع الكون تفاعلاً إيجابياً ، فالأذن تسمع ، والعين ترى ، والأنف يشم ، واليد تلمس ، فالجوارح تعطينى مادة الفكر وبها يصل المؤمن إلى آيات الله فى الكون ، بها يُعرف النافع ويُعرف الضار فيأخذ منها النافع ويبتعد عن الضار ، فالأذن تسمع كل شىء ، وعليك أن توجهها لسماع الخير وتبتعد بها عن سماع الشر ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) ﴾ [الفرقان]

والعين تنظر بها إلى بديع صُنْع الله فى كونه ، وتغضُّها عن محارمه ، وها هو الكون أمامك كتاب مفتوح ، وما عليك إلا أن تقرأ ما فيه من آيات ومعجزات ، والسماء وما فيها من شمس وقمر ونجوم وأجرام ومجرَّات كلها تَسير بنظام دقيق محكم ، والأرض وما فيها من عناصر وما تنبته لنا من خيرات .

والحق سبحانه حينما يُحدِّثنا عن هذه الخيرات ويمتنُّ علينا بهذه النِّعم يُذكِّرنا بقدرته تعالى على زوالها ونقضها ، وكيف أنه لو شاء سبحانه لحرمنا ، بل ولحوَّل لنا هذه النعم إلى نقم والعياذ بالله ، لذلك لنا وقفة مع قوله سبحانه عن الزرع : ﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾ [الواقعة] نعم نحن نحرث ونروى ونباشر ، لكن الإنبات بيد مَنْ ؟ ثم يُذكِّرنا سبحانه بقدرته على نقض هذه النعمة ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) ﴾ [الواقعة]

ثم يُحدِّثنا عن نعمة المــاء ، وكيف ينقضها : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْـرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ[1] أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا[2] فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (٧٠) ﴾ [الواقعة]

لكن حين يُحـدِّثنا الحق سبـحانه عن نعمـة النار يتركـها دون أنْ يذكر ما ينقضـها : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ[3] (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) ﴾ [الواقعة]

هكذا دون أنْ يذكر ما ينقضـها كسابقها ، لماذا ؟ قالوا : لأن هذه هى النار النافعة الصحية التى لا ضررَ فيها نوقدها لننتفع بها ، وكل نار بعـدها لها ضـرر ، لذلك لم يقل الحق سبـحانه مـثلاً : لو نـشاء لجعلناها رماداً ، ذلك لتظل النار باقية تُذكِّرنا بنار الآخرة .

ثم لك أنْ تلحظ عظمة الأداء القرآنى ودقته فى التعبير ، فلما تكلم عن الزرع قال : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا (٦٥) ﴾ [الواقعة] هكذا بلام التوكيد ، لماذا ؟ ليؤكد قـدرته تعالى على الذهاب بالزرع مهما كان ، والزرع للإنسان دور فيه وتدخّل ، فهو يحرث ويروى ويباشر ، إنما حين تكلم عن خَلْق الإنسان وعن الماء لم يذكر فى ذلك توكيداً ؛ ذلك لأن مسـألة الخلق ومسـألة نزول الماء مـن السماء لا دخْلَ لـلإنسان فيها .

---

(١) المزن : جمع مُزْنة . وهى السحابة البيضاء . قاله الجوهرى فى الصحاح ، وقال ابن الأثير : المزن وهو الغيم والسحاب .

(٢) الأجاج : الشـديد الملوحة . وقيل : المرارة ، وقـيل : الشديد المرارة ، قاله ابن سـيده فى (المحكم والمحيط الأعظم) مادة : أجج .

(٣) تـورون : تقدحـون مـن الزناد وتستخرجونها من أصلهـا . قاله ابن كثير فى تفسير الآية (الواقعة ٧٢) قال السمرقندى فى (بحـر العلوم) : الزند خشبة يُحَكّ بعضه على بعض فيخرج منه النار .

والآيات فى كَوْنِ الله كثيرة صنَّفها العلماء إلى ثلاثة أقسام :

آيات كونية : تثبت قدرة الخالق سبحانه كالليل والنهار والشمس والقمر ، ثم آيات معجزات : صاحبتْ رسل الله لتثبتَ صدقه فى البلاغ عن الله ، وآخرها آيات الأحكام : وهى آيات القرآن الكريم التى تحمل منهج الله للناس . وهذه كلها تخدم قضية اليقين والإيمان بالله .

فإذا أُشْربَ الإنسان العقيدة الإيمانية أعلنها بلسانه فرحاً بها . وهنا يأتى دور اللسان المعبِّر عما فى القلب والقائد لباقى الجوارح ، لذلك ورد فى الحديث الشريف أن سيدنا رسول الله ﷺ قال : « ما من يوم إلا وتنادى الجوارحُ اللسانَ تقول : اتق الله فينا ، فإنما نحن بك ، فإذا استقمتَ استقمنا ، وإذا اعوججتَ اعوججنا »[1]

فقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت] دلَّ على قَوْل المؤمنين الذى رسخ الإيمانُ فى قلوبهم ، فعبَّرت عنه الألسنة ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت] مُوجدنا ومربِّينا الذى خلقنا من عدم ، وأمدنا من عُدْم ، وأعطانا الأمن والأمان ، لأنه القائل : ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة]

فالإنسان إنْ أراد حارساً استأجر له حارساً ، فكيف به إذا نام حارسه ، أما أنت أيها المؤمن ففى حراسة الله فنَمْ مطمئن القلب ، لأن حارسك لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم .

فالمؤمن حين يباشر كل هذا النعيم ، وحين يرى مقومات حياته فى متناول يده من طعام وشراب ، وأمن وسلام ، هواء يتنفسه

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٣/٩٦) ، والترمذى فى سننه (٢٤٠٧) من حديث أبى سعيد الخدرى ولفظه : « إذا أصبح ابن آدم فإن أعضاءه تُكفِّر اللسان تقول : اتق الله فينا ، فإنك إن استقمتَ استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا » .

وأرض تعطيـه كل ما يشتـهى ، يفـرح بعطاء الله له ولا يملك إلا أنْ يقول (رَبُّنَا اللهُ) لأنها أصبحت عقيدة ثابتة فى القلب .

وما دام ربك الله ، فـلا تحزن ولا تهـتم لأمر الدنيـا فالله ُمـتولِّى أمرك ، إنـك ترى الولد فى حيـاة أبيه لا يحـمل هَمَّ شىء ، ولا يفكر فى غلاء الأسعار ، ولا فى توفير القوت والسلع والملابس .. الخ لأن والده مـوجـود ، فـمـا بالك إنْ كـان الله هو الذى يتـولاك ؟ والله إن المؤمن الحق ليـستحى أنْ يحمـل همَّ الرزق أو العيش ، وهو يعلم أن ربه الله .

وما دام ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت] فـلا كـرْبَ وأنت رَبٌّ . ربك سيتولاك ، ويبعد عنك كل سوء ، ويكفيك كل ما أهمك .

تذكرون قصة سيدنا موسى عليـه السلام مع فرعون ، فلما اتبعه فرعون بجنوده ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشـعراء] هكذا يقول واقع الأحداث ، فـأمامهم البحر وخلفـهم جنود فرعون ولا مفرّ ، لكن ماذا قال مـوسـى ؟ قال : (كلا) يعنى : لن يدركونا ولن ينالوا منا . قالها من رصيده الإيمانى وثقته فى ربه وحمايته له ، فما كان الله ليرسل رسولاً ثم يُسلمه لعدوه .

﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء] لذلك جاءه الفرج من ربه فى التو : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء]

تأمل هنا حـراسـة الله لأوليـائه ، وتأمل هذه المـعـجـزة ، وهذه الربوبية ، فمـا أنْ قال موسى قولته بصـدق الإيمان إلا وجاءه الردُّ ، فسلب الله من الماء خاصية السيولة وتـجمد الماء فسار على الجانبين ، كل فِـرْق كالطود العـظيم ، وفى الوسط طريق جـاف يابس عبـر منه

موسى وجنوده .

حتى إذا ما وصل الشاطىء الآخر أراد أنْ يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى سيولته ويغلق الطريق فى وجه فرعون . فأرشده ربه وصحَّح له وجهة نظره فلله تدبير آخر ، والموقف لم ينته بعد ، فقال الله لموسى : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا [1] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) ﴾ [الدخان]

بعد أن نجَّى الله موسى وقومه وذهب بهم إلى الصحراء جعل لنفس العصا دوراً آخر : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا .. (٦٠) ﴾ [البقرة] فالعصا واحدة يضرب بها الماء فيصير جبلاً ، ويضرب بها الجبل فيتفجر بالماء ، فالأثر مختلف لأن الفاعل هو الله القادر .

فقوله تعالى : ﴿ رَبُّنَا اللَّهُ (٣٠) ﴾ [فصلت] تعطينا فكرة إجمالية عن عطاء الربوبية للمادة وللقيم ، فربُّك الذى أمدك بمقومات المادة ما كان ليتركك بدون مقومات الروح والقيم ، فكما أخذتَ نعَمه فى المطعم والمشرب والمسكن فخُذْ نعمه فى التكليف ، لأنه بالتكليف يربى فيك الروح والقيم .

وهنا ينبغى أن نتأمل مثلاً قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) ﴾ [الأعراف]

فالله تعالى أعطاك الضرورى من اللباس وهو ما يستر عورتك ، ثم زادك الرياش وهو ترف اللباس والزينة التى يتباهى بها الإنسان ،

---

(١) رهواً : سهلاً ساكناً . [الجوهرى فى الصحاح] قال ابن سيده فى كتاب المحكم : « كل ساكن لا يتحرك : راهٍ » . وقال الزجاج : رهواً هنا : يبساً .

لذلك نقول (فلان ده متريش) .

لكن لا تنسَ أن لباس التقوى ذلك خير ، يعنى : أفضل من اللباس الأول ، فلباس المادة يستر عورتك فى الدنيا ، أما لباس التقوى فيسترك فى الدنيا وينجيك فى الآخرة .

إذن : فهو عطاء ممتدّ باق خالد فى الآخرة . فهو إذن خير لباس لمن وعى وفهم . فربُّك بربوبيته لنا أعطانا ما يقيم مادتنا وما يسعد دنيانا ، وما كان سبحانه ليترك قلوبنا خالية من الأخلاق والقيم الروحية التى تُسعدنا فى الآخرة .

واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ[1] وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾[آل عمران]

فما عند الله فى الآخرة هو الباقى ، والمادة تفنى وتزول ، والدنيا كلها ما هى إلا مرحلة إعداد للآخرة الباقية ، حيث يعطيك ربك العطاء الحق ، العطاء الممتد . انظر إلى الولد الصغير نعلمه (ابتدائى وإعدادى وثانوى وجامعة) ، لماذا كل هذا التعب ؟ للثمرة المرجوة بعد ذلك ليكون عضواً بنَّاءً فى حركة الحياة ، كذلك نحن فى الدنيا نعمل لهدف أسْمى هو الآخرة ، حيث النعيم الباقى الذى لا يُنغصه شىء .

وتأمل هذا الإقرار من المؤمنين حين قالوا ﴿ رَبُّنَا اللَّهُ (٣٠) ﴾ [فصلت] إقرار يجمع بين عطاء الربوبية والاعتراف به وعطاء الألوهية ،

---

(١) قال الطبرى فى تفسير الآية [آل عمران ١٤] : اختلف أهل التأويل فى معنى المسوَّمة . فقال بعضهم : هى الراعية ، أى السائمة . وقال آخرون : الحسان ، وقال آخرون : المعلَّمة . وقال آخرون : المعدَّة للجهاد .

فالرب هو نفسه الإله المعطى هو نفسه سبحانه المكلف ، ومَنْ قَبلَ من ربه عطاء الربوبية وأخذ نعمه إيجاداً من عدم وإمداداً من عُدْم لا يليق به أنْ يترك تكاليفه ، خاصة وهى تكاليف تسعد الإنسان فى الدنيا والآخرة ، ما جاءت لتضيق عليه أو تشق عليه .

فعطاء الربوبية موجود أيضاً فى عطاء الألوهية ، ومعلوم أن التكاليف جاءتْ بافعل ولا تفعل ، وعليك أن تفعل فى الأمر ، وأنْ تنتهى عند النهى ، وما لم يردْ فيه نصّ فأنت فيه حُرٌّ و تفعل أو لا تفعل .

ثم يقول تعالى حكايةً عن المؤمنين بعد أنْ قالوا ربنا الله وأقروا لله تعالى بالربوبية والألوهية ، واستقرتْ عندهم هذه العقيدة راسخة ثابتة يقول : ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا (٣٠) ﴾ [فصلت] يعنى : بعد القول جاء العمل .

وتأمل هنا حرف العطف ثم ، فهو يفيد فى اللغة الترتيب والتراخى ، ولم يقلْ سبحانه فاستقاموا لحكمة ، وكأن الحق سبحانه أراد أنْ يعطيك فرصة لتتأمل فيها هذه العقيدة وتبحثها وتقتنع بها ، أعطاك فرصة لتراجع هذه العقيدة فى نفسك لتؤمن بها عن رضاً ، وتعمل بها عن اقتناع ، لتقبل عليها فى حب قد يصل بك إلى درجة العشق لهذه الاستقامة .

ومعنى الاستقامة : أخْذ الشىء على قوامه ، وهى تتطلب سَيْراً على خط مستقيم ، الذى سمّاه الله الصراط المستقيم ، فالله يريد منك أيها المؤمن أنْ تجعل الوسيلة إلى الغاية من عمل التكليف مثل الصراط لا تميل عنه قيد شعرة ، ولا تنحرف عن جادته .

فأنت حين تسير فى شارع متسع يمكن فى السير أن تذهب هنا مرة وهنا مرة ، نعم يجوز لك ذلك ، لكن لا تنْسَ أنه يطيل عليك المسافة ويزيد المشقة .

لذلك سمَّى الله طريقه الموصِّل إلى جنته ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) ﴾ [الفاتحة] وفى موضع آخر قال ﴿ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) ﴾ [البقرة] يعنى : فى وسطه دون انحراف .

فإذا كانت الغاية بعيدة احتاجت منك للوصول إليها إلى الإسراع فى الحركة لتدرك ما تريد ، فما بالك بمن كانت غايته الجنة ؟ لا شكّ أنه يسرع إليها ولا يدخر فى سبيل الوصول إليها وُسْعاً .

لذلك نقول : لا ينبغى للمؤمن أنْ يكره الموت لأنه سيُوصِّله إلى غايته ، إنما يكرهه إنْ كان عمله غير صالح ، نعم يكره أنْ يلقى الله وهو على غير الصلاح . فعند ظهور النتيجة مثلاً ترى الطالب المجتهد يُسرع إليها ، لماذا ؟ لأنه مطمئن إليها ، أما الكسول فتراه بطيئاً غير مهتم .

لذلك ربنا تبارك وتعالى يُعلِّمنا : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) ﴾ [آل عمران]

وقال فى وصف المؤمنين : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ (٩٠) ﴾ [الأنبياء] والمعنى : إياك أنْ تشغلك دنياك ، أو تقيد حركتك إلى الآخرة ، بل سارع اجْرِ فى اتجاهها ، لأنك لا تعرف كم تقطع من الطريق قبل أنْ يدركك الموت .

ومن عدالته سبحانه مع عبده أنْ أخذ لنفسه عمر العبد طولاً ، لكن ترك له بُعدين آخرين هما العرض والعمق ، كيف ؟ قالوا : عمرك من حيث الزمن طولاً لا يعلمه إلا الله ، ولا يملك نهايته إلا الله وحده ، لكن ترك لك أنْ تمد فى العرض كما شئتَ ، فيمكنك أنْ تستثمر اللحظة التى تعيشها وتُوسِّع دائرة الخير فيها ، وبذلك يكون العرضُ أكبر من الطول فليستْ العبرةُ بطول العمر ، ولكن بقدر العمل الصالح فيه .

فمـن الناس مَنْ يعمل فى العـمر القـصيـر أعمـالاً جليلة لا يعملـها صاحب العمر الطويل ، لذلك لما وصف الله لنا الجنة قال :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا(١) السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) ﴾ [آل عمران]

فذكر العرض ، وإذا كان عرضـها السموات والأرض ، فما بالك بطولها ؟

ثم أعطاك بُعداً آخر هو العمق ، والعـمق فى العمر يكون للإنسان بعـد موته وانقطاع عـمله فى الدنيا ، وذلك بأن يبـقى أثر خيـره من بعده ممتداً فى عمق الزمان .

والحق سبـحانه حـين يأمرنا بالسـير على الصراط المـسـتـقيم ، وحين يأمرنا بالمـسارعة فى الخيرات إنمـا يريد لنا أيسرَ السُّبل التى تُوصِّلنا إلى أشرف الغايات بأقلِّ مجهود ، ومعلوم عند علماء الهندسة أن الخطَّ المستقيم هو أقربُ طريق وأقصـر مسافة بين نقطتين .

فـالله لا يريد منا حركـات طويلة بلا جـدوى ، وفى نفس الوقت

---

(١) أخرج البزار عن أبى هريرة رفـعه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فـقال : أرأيت قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (١٣٣) ﴾ [آل عمران] فأين النار ؟ قال : أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شىء فـأين النهار ؟ قال : حيث شاء الله . قـال : وكذلك النار تكون حيث شاء الله ..

قال ابن كثير فى تفسيره (١/٤٠٤) : « وهذا يحتمل معنيين :

أحدهما : أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون فى مكان وإن كنا لا نعلمه ، وكذلك النار تكون حيث شاء الله وهذا أظهر .

الثانى : أن النهـار إذا تغشَّى وجه العـالم من هذا الجانب فإن الليل يكون من الجـانب الآخر فكذلك الجنة فى أعلى العليين فوق السماوات تحت العرش وعرضها كما قال الله ، والنار فى أسفل سافلين فلا تنافى بين كونها كعرض السماوات والأرض وبين وجود النار .

يأمرنا أن نسارع ليظل لدينا النشاط اللازم للوصول . لذلك قال تعالى فى أول سورة الكهف : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ① قَيِّمًا .. ② ﴾ [الكهف]

والاستقامة التى يريدها الله لنا لها أركان بيَّنها النبى ﷺ فى قوله : « بُنِى الإسلام على خمس : شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً »[1]

وإياك أن تظن أن الدين فى هذه الأركان الخمسة فحسب ، لا ، هذه هى القواعد والأُسُس التى يقوم عليها بناء الدين ، أما الدين تفصيلاً فيتغلغل فى كل حركة من حركات الحياة .

وهذه المسألة واضحة فى الحديث الشريف : « الإيمان بضع وستون شعبة أو بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قَوْل لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان »[2]

فالأركان ليست هى كلّ الإسلام بل هى أسسه وقواعده ، فالشهادتان إقرار لله تعالى بالألوهية ، وإذعانٌ له سبحانه بالطاعة ، وتصديق برسوله ﷺ ، وفى الصلاة التى هى كل يوم خمس مرات إعلانٌ للولاء الدائم لله تعالى .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ومسلم فى صحيحه (١٦) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج وصوم رمضان » .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى في صحيحه (٩) ومسلم في صحيحه (٣٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وفى الزكـاة تهذيبٌ للنـفس وتعويدٌ لهـا على العطاء والمـشاركـة والنظر إلى الفقير ، فـقير الإعاقة عن الحركة لا فقـير الاحتراف ، فى الزكـاة تكافلٌ فأنت اليـوم قوىٌّ قـادر على العطاء ، فـمَنْ يدريك لعلَّك تصيـر إلى الضعف وعدم القـدرة فتجـد فى المجتـمع مَنْ يمد لك يد العون .

ثم إنَّ الزكاةَ تنـزع من المجتـمع فتـيل الحقد والحـسد والغـيرة ، وكـيف يحسـد الفقـيرُ الـغنى أو يحقـد عليه وهـو يعطيه ثمـرة عرقـه ويشركه فى ماله ؟ إذن : فى الزكاة تأمينٌ للفرد المؤمن أعظمَ تأمين .

لذلك قلنا فى المجتمع الإيمانى : إنك لا تعمل بقدر حاجتك ، إنما تعمل بقدر طاقتك ، فـما احتجتَ إليه فخُـذْه ، وما لم تحتجْ إليه وزاد عنك فتـصدَّق به على غيـر القادر ، أنت تتصـدَّق وأنت تذهب بنفسك إلى باب الفقـير لتعطيه لتـحفظ لأخيك ماءَ وجـهه ، وتُعفيـه من مذلّة السؤال ولتنال أنت هذه الدرجة .

ثم يأتى الحج ليضيـفَ إلى هذه المعانى معنىً إيمانيـاً آخر ، فربُّكَ الذى خلقك وأعطاك وأمدَّك ومنحك القدرة والاسـتطاعة ألاَ يستحق منك أنْ تذهبَ إليه فى بيته الذى اختاره لنفسه ، ولو مرة واحدة فى العمر ؟

إنها زيارة ليست بإرادة الضيف وإنما بدعوة من المضيف ، لذلك حيـن تذهب إلى بيت ربك فى هذه الفريضـة فسـوف تُعرِّض نفـسك لعطاء آخر ما له حدود ، ثم فى الحـج منافع أخرى دينية ودنيوية لا تَخْفى على المتأمل .

أما الصـوم فيـعطيك بُعداً آخـر للطاعة ، فـأنت قبل الفـجر تأكل وتشرب ، وبعـد الفجر يحـرمُ عليك أنْ تأكل وتشرب ، فبـين الحلال والحرام هنا لـحظة . وأنت حين تصوم تصـوم عن شىء أحلّه الله لك

قبل الصيام ، فأنت حين تصوم تصوم عن شيء حلال أصلاً ؛ لأن الإسلام حرَّم عليك أشياء تحريماً مطلقاً كالخمر مثلاً .

فنحن والحمد لله لا نشربها ولا نفكر أبداً فى شربها ، حتى صار ذلك طبعاً وعادة ، فأراد سبحانه أنْ يُخْرجنا من إلْف هذه العادة ، وأنْ يديم على عبده حلاوة التكليف من الله فى شيء حلال الآن ، وبعد لحظة واحدة يكون حراماً ، فأخرجنا الحق سبحانه من إلف العادة إلى شرف العبادة .

أما الركن الدائم الذى لا يسقط عن المؤمن إلا فى حالة فقدان العقل فهو الصلاة ، فهى خمسُ صلوات فى اليوم والليلة يُراد بها دوام الحضور فى معية الله ، فهى تختلف فى دوامها عن باقى الفروض ، فالزكاة مرتبطة بالمحصول أو بدورة المال السنوية ، والصوم مرتبط بشهر واحد فى السنة هو رمضان ، والحج مرة واحدة فى العمر .

وكَوْن الصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة رحمةٌ من الله بعباده ، فأنت صنعةُ الله ويستدعيك إلى حضرته تعالى خمس مرات ليُصلح ما فسد فيك ، وما بالك بصنعة تُعرَضُ على صانعها خمس مرات كل يوم وليلة ؟

وإذا كان المهندس مثلاً يصلح الآلة بقطعة سلك أو قطعة غيار ، فكذلك ربك يصلحك ، ولكن المهندس مادة يصلح بالمادة ، والله غيب يُصلحك بالغيب ، فلا تتعب نفسك فى بحث هذه المسألة ودَعْها لله ، فقط عليك أنْ تعرض نفسك عليه سبحانه فى الخمس صلوات فى أوقاتها ، وأنْ تُتمَّ لها ركوعها وسجودها وشروطها .

ولا شكَّ أنك ستلحظ هذا الإصلاح فى نفسك ، وفى روحك ، وفى مادتك ، وفى مالك ، وفى أهلك ، ستحس أن للصلاة أثراً فى حياتك

وراحة فى بدنك ، لذلك كان سيدنا رسول الله يقول لبلال : « أرحنا بها يا بلال »[١] نعم أرحنا بها ، لا أرحنا منها .

ولأهمية الصلاة فى حياة المسلم جعلها رسول الله ﷺ أُمَّ الاستقامة وعنواناً لها ، واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت]

وفى الحديث الشريف : « أول ما يُحاسب العبدُ عليه يوم القيامة الصلاة ، فإنْ صلُحت صلُح سائر عمله ، وإنْ فسدتْ فسد سائر عمله »[٢]

لذلك كان للصلاة هذه المنزلة الخاصة ، فأنت ترى الفقير لا زكاةَ عليه ولا حج ، وترى المريض لا يصوم ، على خلاف الصلاة التى تلازم المسلم فى صحته ومرضه ، فى غناه وفى فقره ، فى سفره وفى إقامته ، فقط الجنون هو الذى يرفع عن صاحبه الصلاة .

إذن : فهى الركن الملازم لك ، ومن هنا كان للصلاة خصوصية فى فرضيتها ، فكل العبادات فُرضَتْ بالوحى إلا الصلاة فقد فُرضتْ على سيدنا رسول الله بالمباشرة فى رحلة الإسراء والمعراج ، وهذا يدل على

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده (٥/ ٣٦٤) وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة.

(٢) هذا الحديث ورد بروايات كثيرة وبألفاظ كثيرة منها :

– عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته ، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر » الترمذى فى سننه (٣٧٨) وقال : حديث حسن غريب . والنسائى فى سننه (٤٦١) .

– وعن أبى هريرة أيضاً : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته ، فإن وجدت تامة كتبت تامة ، وإن كان انتقص منها شىء قال : انظروا هل تجدون له من تطوع يكمل ما ضيع من فريضة من تطوعه . ثم سائر الأعمال تجرى على حسب ذلك » . أخرجه النسائى حديث (٤٦٢ ، ٤٦٣) ، وابن ماجه فى سننه (١٤١٥) ، وأحمد فى مسنده (٩١٣٠) .

– أما اللفظ الذى أورده الشيخ فقد أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط حديث (١٩٢٩) عن أنس بن مالك . فى سنده القاسم بن عثمان الراوى عن أنس . قال البخارى : له أحاديث لا يتابع عليها . وفيه إسماعيل بن عيسى ضعفه الأزدى . وهى طريق ضعيفة كما قال الألبانى ، ولكنه قال بعد أن سرد جميع طرق الحديث : الحديث صحيح بمجموع طرقه .

أهميتها بين باقى العبادات .

وسبق أنْ أوضحنا أن الرئيس فى العمل قد يرسل لك ورقة أو يُحدِّثك فى التليفون فى أمر من الأمور ، لكن إنْ كان الأمر ذا أهمية وخصوصية استدعاك إلى مكتبه ليكلمك مباشرة ، وهكذا كانت الصلاة فقد أخذتْ قيمتها من هذه المباشرة حين فرضيتها .

ثم إن الصلاةَ ركنٌ يجمع باقى الأركان ففيها الشهادتان ، والشهادة التى هى قمة الإيمان والعقيدة يكفى أنْ يقولها المسلم ولو مرة واحدة ، أما فى الصلاة فيقولها عدة مرات ، وفيها صيام أبلغ من صيام رمضان فأنت فى رمضان تصوم عن الطعام والشراب والمفطرات ، أما فى الصلاة فأنت تصوم عن أكثر من ذلك ، تصوم عن الحركة وتصوم عن الكلام .

وفيها حج لأنك لا تصلى إلا إذا اتجهتَ بوجهك ناحية بيت الله الحرام وتمثَّلته أمامك ، كأنك تنظر إليه . وفى الصلاة زكاة لأنك تُضحِّى فى سبيلها بما هو أغلى من المال وهو الوقت .

لذلك بيَّن سيدنا رسول الله ﷺ أن الفرق بين المؤمن والكافر الصلاة ، فقال : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمَنْ تركها فقد كفر »[(١)] فإذا دعاك ربك إلى الصلاة فلم تُجبْ فأنت عَاصٍ ، أرأيتَ رئيسك فى العمل إذا دعاك إلى مكتبه فلم تُلَبِّ ، ماذا يحدث ؟

ومن عظمة هذه الفريضة أنها لقاءٌ مع الله ، لك أنت أيها العبد الحرية التامة فيه وتملك كل عناصره ، فأنت تُحدد اللقاء مكانه وزمانه ، وماذا تقول فيه ، ومتى تُنهى هذا اللقاء ، فقط تسمع النداء فتذهب وتتوضأ ، ترفع يديك إلى السماء : الله أكبر . أنت إذن فى حضرة ربك ، وفى رحاب خالقك ، أنت معه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣٤٦/٥) ، وابن ماجه فى سننه (١٠٧٩) كتاب إقامة الصلاة ، والترمذى فى سننه (٢٦٢١) من حديث أبى موسى الأشعرى . وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

على (خط مباشر) ، ليس بينك وبينه حاجب ولا دونه حُرّاس ولا واسطة .

لذلك يقول بعض الصالحين :

حَسْبُ نَفْسِى عِزّاً بأنِّى عَبْدُ ... يَحْتَفِى بِى بلاَ مَوَاعِيدَ رَبٌّ

هُوَ فِى قُدْسِهِ الأَعَزِّ ولكِنْ ... أنا أَلْقَى متَى وأيْنَ أُحِبُّ

فربُّك لا ينتظرك أنْ تأتيه ، إنما يدعوك لزيارته ، يُقبل عليك قبل أنْ تُقبل عليه ، ألم يقُلْ فى الحديث القدسى الشريف : « مَنْ ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومَنْ ذكرنى فى ملأ ذكرتُه فى ملأ خير منهم ، ومَنْ أتانى يمشى أتيتُه هرولةً ، ومَنْ تقرَّب منى ذراعاً تقربت منه باعاً »(1) .

إذن : فالزمام فى يدك أنت ، ونعْم الربُّ رَبٌّ يعامل عباده هذه المعاملة ، ويُحسن إليهم كلَّ هذا الإحسان .

ومن كرمه سبحانه أنْ يُثيبَ العبد على كل حركة خير فى دنياه ، لأن هذه الحركةَ مطلوبةٌ للإيمان ؛ لذلك يقول تعالى فى سورة (الجمعة) : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۝٩ ﴾ [الجمعة]

وبعد الصلاة قال : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ۝١٠ ﴾ [الجمعة] فأخذك من عمل وأعادك إلى عمل ، لأن العمل فى ذاته طاعة ، والمؤمن لا بدَّ أنْ يسهم فى حركة الحياة مساهمةً إيجابية بنَّاءة .

الإسلام إذن لا يقتصر على هذه الأركان الخمس ، بل يمتد إلى

---

(1) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥ ، ٧٥٠٥ ، ٧٥٣٧) وأحمد فى مسنده (٢ / ٢٥١ ، ٣٥٤ ، ٤٠٥) والترمذى فى سننه (٣٦٠٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

كل حركة من حركات الحياة ، فأنت تؤسس بيتاً مثلاً وتقيمه على أعمدة ، لكن بعد ذلك تُقسمه إلى : حجرة نوم ، وحجرة للسفرة ، وحجرة للصالون ، وحجرة للمطبخ وهكذا .

والإسلام يهدف إلى سلامة حركة الحياة وخُلوها من الصراع ، ومن التصادم ، يريد أن تتساند حركة الجماعة لا تتعاند ، لا يريد واحداً يبنى والآخر يهدم ، بل كلنا يبنى ولا أحدَ يهدم ، فالحق سبحانه أعطانا هذا الكون الذى نعيش فيه وهو على حالة الصلاح وعلى هيئة الجمال والتناسق ، وأوصانا أنْ نحافظ عليه ، وأن نزيد فى صلاحه ، وعلى الأقل نتركه على صلاحه ولا نفسده .

وعلَّمنا حين نصلح أنْ نصلح بحركة محسوبة العواقب ، وألاَّ ندخل فى شىء لا نعرف الخروج منه ، وألاَّ تغرَّنا ظواهر الأشياء ، هذه صفات العقلاء الذين يتصرفون فى الأمور بحكمة ، ويزنون الخير والشر فيقبلون على أسباب الخير وينصرفون عن أسباب الشر .

ونضرب مثلاً فى عصرنا الحالى بدودة القطن التى كانت تعبث بغالب ثروة مصر من هذا المحصول الهام ، إلى أن اخترع العلماءُ مبيداً حشرياً لها سموه الـ (D.D.T) فتسابق الناسُ إلى استخدامه ، وظنوا أنه سيقضى على الدودة بلا رجعة ، وأن المشكلة قد انتهت ، وبعد عدة سنوات أخذت الدودة حصانةً من هذا السُّم ، وأصبحت كما نقول (كيفة) (D.D.T) وبقيتْ الدودة كما هى ، وبقيتْ معها آثار جانبية أصابت الماء والزرع والتربة ولوَّثتْ كل شىء فى حياتنا ، وها نحن الآن نعانى أشدَّ المعاناة بسبب المبيدات الحشرية .

لذلك الحق سبحانه وتعالى يحذرنا من رعونة الابتكار ، ومن الاغترار بالخير الظاهرى دون حساب للعواقب ، فإياك أنْ تدخل فى

أمر يُعيـيك الخروج منه ، تأمل قول الله تعالى وهو يمـتنُّ على عباده ببعض نعمه عليهم : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨) ﴾ [النحل]

نعم ، كنا لا نعرف من وسائل النقل والركوب إلا الخيل والبغال والحمير ، ثم اخترع الإنسـانُ بعد ذلك ما لم يكُنْ يعلمه من السيارات والطائرات والصواريخ ، وهذه الوسائل المستخدمة لا شكَّ أنها خدمتْ الإنسان ويسَّرَتْ عليه- ، لكن مع ذلك كان لها أضرار ومعاطب لم تكُنْ فى حُسْبان مَن اخترعها .

عندمـا ظهـرت السيـارات كنا نذهب بـها إلى دمـياط ، ولم تكُنْ الطرق مرصوفـة كما هى الآن ، فكان السائق ينطلق بهـا بسرعة على الطريق الترابى فتـثير الغبار خلفها بشـدة ، غبار يؤذى الناس ويؤذى المزروعات ، فـضلاً عن عادم الوقود ومـا يُسبِّبه من أضـرار للجهاز التنفسى .

ثم كـانت تُحـدث كـثيـراً من التـصـادمـات ، وينتج عنهـا قـتلى ومصـابون تترك فى المجـتمع مآسىَ ، وإذا انتـهى (البنزين) منها تقف مكانها لا تتحرك ؟

فإذا مـا قارنتَ هذه الوسيلة بالـوسائل الطبيـعية التى خلقـها الله وجدنا خَلْق الله أفـضل وأسلْم ، فالجمل أو الحـمار يوصلك وينقل لك متاعك دون أنْ يُسبب لك هذه المعاطب ، ففضلاته سماد للتربة ، وإذا جاع لا يتوقف إنمـا يكمل بك المـشوار ، ثم هل رأيتم مـثلاً جـملين اصطدم أحدهما بالآخر .

إذن : علينا قبل أنْ نخترع شيئاً أن نحسب عواقبه ، وغلبة الخير فيه على الشر ، والنفع على الضرر .

ثم يُبيِّن الحق سبحـانه جزاء هؤلاء المؤمنين الذين قالوا ربنا الله ثم استقامـوا ، ما جـزاؤهم ؟ ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا ﴿٣٠﴾ ﴾ [فصلت] نعم مـلائكة الله فى السمـاء هذه المخلوقـات النورانية التى لا عملَ لهـا إلا تسبيح الله ، فلا يعصـون الله ما أمرهم ويفعلون مـا يُؤمرون ، فحين تنـزل بالمؤمن شدةٌ أو يصيـبه مكروه تتنزَّل عليه هذه المـلائكة تُثبِّته فـيعود إلى ما يجب أنْ يعـودَ إليه من الصبر . فـيقول : لا كربَ وأنت رب ، أنا لى رَبٌّ قوىٌّ قادر سـيُفرِّج هَمِّى ويُزيل كَرْبى .

وهذا حال المـؤمن حين يحزبه أمـر وتضيق به أسبـابه يلجأ إلى المسبِّب سبحانه ، فيأتيـه الإلهام من الله أنِ اصبر واحتسب ، وربما كـانت المصـيبـة امـتحـاناً من الله ، أو كانت تـكفيـراً لذنب بدر منى فعاقبنى الله به فى الدنيا وعـافانى منه فى الآخرة ، وهذه علامة حب الله للعبد أنْ يُعجِّل له العقوبة فى الدنيا ، ويغفرها له فى الآخرة .

لذلك كان الكفار يفرحون حين تصيب المؤمنين مصيبة ، فعلَّم اللهُ نبيه ﷺ أنْ يقول : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴿٥١﴾ ﴾ [التوبة] فأنتم تفرحون إنْ نزلتْ بنا مصيـبة ، ونحن كذلك نفرح بها لأنها من الله ، والمصـيبـة للمؤمن إمـا يُكفِّر اللهُ بهـا من خطاياه ، وإما يرفـعه بقدرها درجات .

وعجيبٌ أن نرى البعض إذا أصابتْه مصيبة أو نزل به ما يكره لا يعالج أسبابها ، ولا يفكر فى تفاديها بعد ذلك ، إنما يلجأ إلى نسيانها ويذهب إلى شُرْب المسكر الذى يساعده على النسيان .

وهذا خطأ فادح ، فالنسـيان لا يحلُّ مشكلة ، إنما يحلُّهـا التفكير فى أسبـابها ومعـالجة هذه الأسبـاب ، فالمخـدِّرات والمسْكرات تذهب

بعقلك وتُفسده فى وقت أنت فى أشدِّ الحاجة إليه ، حين يمرُّ الإنسانُ منا بمشكلة يحتاج إلى مزيد فكر ، فكيف تذهب بعقلك فى وقت أنت فى أمسِّ الحاجة إليه ؟ ألاَ ترى أنك تستعينُ بغيرك وتستشيره فى حَلِّ مشاكلك حينما تضيقُ بك الأسبابُ ؟

إذن : انظر إلى المصيبة ، ما سببها إنْ كان لك دَخْلٌ فيه ، وهى نتيجة تصرُّف خاطئ منك فأنت الملُوم ، وعليك أنْ تُعدِّل من تصرفاتك وتعمل حساباً للعواقب ، وهذه أول خطوة فى طريق الإصلاح ، كالطالب يذهب لمعرفة النتيجة آخر العام فيقولون له : أنت راسب فتعيده الصدمةُ إلى صوابه ، ويصيح بأعلى صوته هذه الصيحة العقلية الواعية : أنا السبب ، أنا المهمل ، أنا أستحق .

أما إنْ كانت المصيبة لا دخْلَ لك فيها كالطالب الذى ذاكر دروسه واجتهد ، لكن جاءه وقت الامتحان دَوار أو أصابه نسيان فلم يُوفّق ، فهذا قدر الله لا بدَّ أنَّ له حكمة ، فهو شَرٌّ فى طياته خير ، هو ابتلاء من الله ينبغى أنْ نرضى به ، وأنْ نتلمس له حكمة .

فنحن دائماً نحوم حولها ، وصلنا أو لم نصلْ ، قُلْ ربما كنت مغروراً فأراد الله أنْ يكسرَ فىَّ عُنْفوانَ الغرور ، ربما لو وفقت كنتُ سأحسد ، أو ربما لم آت بالمجموع المطلوب الذى كنتُ أرجوه ، وهذه كلها نماذج يُؤيِّدها واقع الحياة .

والفعل لا يُؤخذ لذاته إنما بمصاحبة الفاعل ، مَنْ هو ؟ قلنا : لو دخل عليك ولدُك يسيل دمه لا يشغلك الدمُ بقدر ما يشغلك مَن الفاعل ؟ لذلك تسأله أولاً : مَنْ فعل بك هذا ؟ فإنْ قال لك عَمِّى مثلاً ، تهدأ ثورتُك ، وتقول له : لا بدَّ أنك فعلتَ شيئاً يستحق العقاب فعاقبك . أما إنْ قال لك :

فلان ، تغضب وتقيم الدنيا ولا تقعدها .

إذن : نقول خُذ الفعلَ بمصاحبة فاعله ، فإنْ كان من الله فارْضَ وابحث عن حكمته ، ولا بدَّ أنك ستتوصل إليها وستحمد الله . كُنْ أمام الشدائد كالضرس ثابتاً فى مكانه يمضغ لا يعنيه حُلواً ولا مُراً ، فإنْ كان البلاء فى نفسه يتأدب ، وإنْ كان فى غيره يتعلم ، فلا بدَّ أن لله حكمة .

سمعتم قصة الرجل الصينى الذى كان يتأمل الأحداث ويرى الحكمة فيها ، قالوا : كان هذا الرجل مُحباً لتربية الخيول فكانت عنده مزرعة خيول ، وفى يوم شرد منها حصان من أجود الأنواع ، كانوا يسمونه (الطلوقة) وضَل فى المزارع ، فجاءه الناس يُواسونه . فقال لهم : وما أدراكم لعل فى هذا الخير ، ويكفى أننى لستُ سبباً فى فَقْد هذا الحصان ؟

وبعد أيام جاء الحصان يصطحب سرْباً من الخيول حتى دخل المزرعة ، فجاءه بعض الجيران يُهنئونه ، فقال لهم : وما أدراكم أن فى هذا نعمة ؟ ولم يَمْضِ وقت طويل حتى ذهب ابنه يركب هذا الحصان ، وكان مُغرماً به فأوقعه الحصان فكسر رجْله ، فجاءه الناس يُواسونه فقال لهم : لعل فى ذلك خيراً ، وفعلاً جاء المسئول عن التجنيد فوجد الشاب قد كُسرتْ رجله فتركه .

إذن : علينا أنْ نفهم أن لله فى أقداره حكَماً ، عرفها مَنْ عرفها ، وجهلها مَنْ جهلها . لذلك نقول : إياك أنْ تأخذ شيئاً بالإكراه لأنك لا تدرى أن الخير لك ، وتذكَّر دائماً : ﴿ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة] ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة] لذلك يُعلمنا النبى ﷺ

هذا الدرس فيقول : « اطلبوا الأمور بعزة الأنفس ، فإنها تجرى بمقادير »[(١)] .

ويقول أحد العارفين فى مناجاته لله : أحمدك على كُلِّ قضائك وجميل قدرك حمدَ الرضا بحكمك ، لليقين بحكمتك .

وهكذا يريح الإنسان نفسه ويريح الدنيا من حوله ، وهذه كلها من تنزُّلات الملائكة فى قوله سبحانه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا (٣٠) ﴾ [فصلت]

كذلك من تنزُّلات الملائكة أنها تنزل على المؤمن ساعةَ يحلُّ الموتُ بساحته فيخاف ويحزن ، لأنه سيترك نعيم الدنيا ، فتتنزل عليه الملائكة تُطمئنه وتُبشِّره بنعيم آخر دائم وباقٍ فى الآخرة ، لا يزول كما يزول نعيم الدنيا .

﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا (٣٠) ﴾ [فصلت] يعنى : مما أنتم مُقبلون عليه من أمور الآخرة ، حتى إنْ قصُرَتْ بكم أعمالكم فأنتم مُقبلون على ربٍّ غفور رحيم ، فلا تخافوا ولا تحزنوا ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) ﴾ [فصلت]

قلنا : البشارةُ الإخبارُ بخير وبما يسرُّ قبل أوانه ، ومَن الذى يُبشِّرك بالجنة ؟ والله لو إنسانٌ مثلك لكنتَ تشُكّ فى قدرته على الوفاء ، لكن إنْ كان الذى يُبشِّرك هو الله فثقْ بما بُشِّرت به ، فالذى

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٣٩٩) بلفظ : « اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجرى بمقادير » وقال : رواه تمام وابن عساكر بسند ضعيف عن عبد الله بن بسر ، لكن يقويه ما رواه الطبرانى وأبو نعيم من حديث أبى أمامة أن روح القدس نفث فى روعى « لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » ورواه البزار عن حذيفة ، وفى الباب عن جابر كذا فى تخريج أحاديث مسند الفردوس للحافظ ابن حجر العسقلانى .

بشَّرك بالجنة هو وحده القادر على الوفاء ، حيث لا قوةَ تحولُ بينه وبين الوفاء بالبُشْرى .

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

يعنى : أنصاركم المقربين منكم والمؤيدين لكم فى الدنيا وفى الآخرة ، قالوا : لأن الملائكة جُبلَتْ على الطاعة ؛ لذلك عند خَلْق آدم قالوا : ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة] ردَّ الله عليهم ﴿ **قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة]

يعنى : خلقتُ الملائكة مجبولين على الطاعة ﴿ **لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم] والذى أريده طائعاً لا يملك أنْ يعصى ، لكني أريد خَلْقاً آخر لا يأتُون إلىَّ بالإكراه ، إنما يأتوننى طواعيةً ويُقبلون علىَّ محبة وهم يملكون أنْ يعصوا ، يأتون إلىَّ بالاختيار لا بالقهر والإجبار .

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً قلنا : هَبْ أنَّ لك عبدين تربط أحدهما وتشدُّه إليك بسلسلة ، والآخر حر طليق ، وتنادى عليهما فيسرعان إليك . أيهما يكون أطوَع لك من الآخر ؟

فقوله : ﴿ **نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ** ﴿٣١﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : نأتيكم فى الشدة فننصركم ، وفى البلاء فنُصبِّركم .

لذلك ورد في الحديث الشريف أن واحداً[1] من صحابة رسول الله ﷺ جلس يقرأ القرآن وبجواره خَيْلٌ فسمع لها صياحاً وهمهمة ، ورأى منها حركة غريبة ، ورأى فوق رأسه نوراً ، فذهب إلى سيدنا رسول الله وحكى له ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « هؤلاء هم الملائكة ، جاءوا لسماع الذكر ، والله لو صبرْتَ لصافحوك »[2] .

هذا من ولاية الملائكة لنا في الدنيا ، أما في الآخرة فهم أولياء لأنهم سيكونون مندوبين عن الله في البعث وفي الحساب ، وفي استقبال أهل الجنة بالسلام كما حكى الحق سبحانه : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) ﴾ [الزمر]

وقال : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾ [الرعد]

هذا سلام الملائكة ، ثم يُسلِّم الله عليهم كذلك ، كما في سورة (يس) : ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ [يس]

---

(١) هو أسيد بن حضير . وهو أحد نقباء الأنصار ، قال عنه رسول الله ﷺ : نعم الرجل أسيد ابن حضير ، وعن أنس أن أسيداً وعباد بن بشر كانا عند النبي في ليلة مظلمة فخرجا من عنده فأضاءت عصا أحدهما فكان يمشيان بضوئهما فلما افترقا أضاءت عصا هذا وعصا هذا . (سير أعلام النبلاء للذهبي ١/٢٩٩) .

(٢) قال ابن حضير : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكتت فقرأ فجالت الفرس فسكت وسكتت الفرس ، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف .. فلما أصبح حدَّث النبي فقال : اقرأ يا بن حضير .. فرفعتُ رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها . قال رسول الله : وما تدرى ما ذاك ؟ قال : لا . قال : تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحتْ ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم . [أخرجه البخاري في صحيحه (باب نزول السكينة والملائكة) ومسلم في صحيحه (١٣٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري] .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [فصلت]

قالوا : ما تطلبه النفس من النعيم تجده أمامك بمجرد أن يخطر على بالك ، فأيُّ رفاهية هذه ؟ لقد ذهبنا إلى دول كثيرة ودخلنا أكبر الفنادق هناك ، فكان قصارى ما وصلوا إليه أنك تضغط على زر معين يعطيك قهوة مثلاً ، وعلى زر آخر يعطيك شاياً ، فهل هناك أعظم مما أعدَّه الله لك في الجنة ؟ مجرد أنْ يخطر ببالك الشيء تجده بين يديك ، ثم إن فيها من النعيم « ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »(1) .

لذلك لما أراد سبحانه أن يُصوِّر لنا الجنة لم يصفها صراحة ، إنما قال سبحانه : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد] مثلها ، ليستْ هيَ ، لماذا ؟ قالوا : لأن ألفاظ اللغة توضع لمَعانٍ ومُسمَّيات ، ولا بُدَّ أنْ يُوجد المعنى أولاً ثم نضع له اللفظ الدالَّ عليه ، فالمعدوم ليس له لفظ يدل عليه ، (فالتليفزيون) مثلاً قبل أنْ يخترعوه ماذا كان اسمه ؟ لم يكُنْ له اسم ، كان معدوماً .

كذلك نعيم الجنة لا توجد في اللغة ألفاظ تدل عليه الآن ، لأننا لا نعرفه ولا نعرف أسماء هذه الأشياء ، فهي أشياء لم تَرَهَا عينٌ ، ولم تسمعها أذن ، ولم تخطر على قلب بشر ، فمن أين الألفاظ الدَّالة عليها ؟

وقوله : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا ﴿٣١﴾ ﴾ [فصلت] أي : في الجنة ﴿ مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [فصلت] المراد النفوس الإيمانية التي استقامت على طريق الله ، فليس في الجنة محرَّم ، وليس في الجنة مَنْ يشتهي

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٢٤) ، وأحمد في مسنده (٢/٤٦٦) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢/٢٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

المحرَّمات ، فالنفس تشتهى الحلال ، حتى محرَّمات الدنيا إنْ وُجدت فى الآخرة فهى شىء آخر نُزِع منه سببُ التحريم .

فالخمر فى الدنيا معروف أنها تُذهب العقلَ ، وأنه لا لذةَ فى شربها ، أمَّا خمر الآخرة فقال الله عنها : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (١٥) ﴾ [محمد]

وأنت تشاهد فى (الأفلام) مثلاً مَنْ يشرب الخمر كيف يشربها ؟ يصبُّها فى فمه هكذا مرة واحدة ، لماذا ؟ لأن طعمها كريه يريد أنْ يُمرره من منطقة الذوق بسرعة ، أما الذى يشرب كوباً من عصير المانجو مثلاً تراه يرشفه رشفةً رشفةً نقول (يمزمز)[١] فيها ، لأن طعمها لذة ورائحتها لذة .

كذلك فى كل نعيم الجنة الذى له مثيل فى الدنيا تجد الحق سبحانه يُنقِّيه من الشوائب ويُخلِّصه من الأضرار التى نعرفها فى الدنيا ، تأمل قوله تعالى عن ماء الآخرة : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ (١٥) ﴾ [محمد] يعنى : لا يتغير ولا يصيبه عطَن كماء الدنيا ، وفى اللبن قال : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ (١٥) ﴾ [محمد] وقال عن العسل : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى (١٥) ﴾ [محمد]

إذن : لا تقُلْ : خمر كخمر الدنيا ، ولا ماء كماء الدنيا ، ولا لبنَ كاللبن الذى تشربه ، لا إنما هى نعيم من نوع آخر نقّاه الخالق سبحانه ، وصفّاه من شوائبه .

---

(١) أصلها اللغوى : التمزُّز أىْ شرب الشراب قليلاً قليلاً . ومزَّه : مصَّه . والمزمزة : التحريك الشديد . وقد مزمزه إذا حرَّكه وأقبل به وأدبر . [لسان العرب - مادة : مزز] .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : لكم فى الجنة كل ما تتمنونه ، وكل ما تطلبونه .

﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

النُّزُل هو المكان الذى أُعدَّ للضيف ينزل فيه ، ولا بدَّ أنْ يعد هذا المكان بحيث يجد فيه الضيف كل ما يريد ، فهو موطن الكرم ، لذلك نسمى الفندق نُزُل ، نعم نُزُل أعدَّه البشر للبشر ، لكن الجنةَ نُزُل أعدَّه ربُّ البشر وخالقهم ، أعدَّه لهم الغفور الرحيم بهم .

لذلك قلنا : إننا لما ذهبنا إلى (سان فرانسيسكو) وجدنا هناك فنادق على درجة عالية من الرقى وجودة الخدمة ، ورأيت الإعجاب بها فى أعين زملائى فأردتُ أنْ ألفتهم لفتةً إيمانية ، فقلت لهم : تعجبون مما ترونه ، انظروا إليه نظرةَ تأمل ، فهذا ما أعدَّه البشر للبشر ، فكيف بما أعدَّه الله ربُّ البشر للبشر ؟

وبهذه النظرة يُخرج المرء نفسه من دائرة الحقد أو الحسد أو الاعتراض ، فكلُّ نعيم تراه ، وكل جمال تقع عليه عينك ينبغى أنْ يُذكِّرك بنعيم الآخرة .

كثيراً عندما نرى مثلاً عمارة عالية أو ڤيلا جميلة نقول : من أين كل هذه الأموال ؟ ويساورنا شىء من الحقد على صاحبها ، أو نحسده على فضل الله الذى اختصَّه به ، لكن لو نظرنا إلى الموضوع من ناحية أخرى لوجدنا أن الله تعالى سخَّر هذا الرجل وسخَّر ماله لخدمة المجتمع كله ، فقد أتعب نفسه فى جمع هذه الأموال ثم أخرجها ليوزعها على العمال والصُّناع وأصحاب الحرف من طوائف

المجتمع المختلفة .

فهو - إذن - يُسهم فى بناء المجتمع ، ويُسهم فى حركته ؛ لذلك علَّمنا ربنا تبارك وتعالى حين نرى شيئاً يعجبنا أن نقول : ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الكهف]

يعنى : هذا عطاء الله وفضله ، يعطيه مَنْ يشاء من عباده ، وحين تُسَرُّ بالنعمة عند غيرك ، وتحبها له تحبك النعمة ، لأن النعمة أعشقُ للمنعَم عليه من عِشْقه لها ، أما إنْ كرهتَ النعمة عند الناس كرهتْكَ النعمة ، وقالت له : والله لا تحضرك نعمة كرهتَها عند غيرك .

ثم إن النعمة قدر ، وعلى المؤمن أنْ يرضى بقدر الله ، ولا يعترض عليه ، وعليه أنْ يعلم أن لكل قدر حكمة إيمانية .

وقوله : ﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت] دل على أن هذا النُّزل وهذا النعيم لا يناله العبد بعمله ، إنما يناله بمغفرة الله ورحمته ، وهذا يُفسِّر لنا الحديث النبوى الشريف : « لا يدخل أحد الجنة بعمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى[١] الله برحمته »[٢] .

وقد تُستعمل كلمة النُّزل على سبيل الاستهزاء ، فالنزُل قد يكون فى أحد الفنادق ، وقد يكون فى السجن ، يقول تعالى فى سورة

---

(١) تغمده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها . قال أبو عبيد : قوله « يتغمدنى » : يُلبسنى ويتغشّانى ويسترنى . [لسان العرب - مادة : غمد] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

الكهف : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الكهف]

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

بعد أنْ تكلم الحق سبحانه عن الكمال الذاتى للمؤمن الذى استكمل الإيمان وأعلنها : ربى الله ، ثم استقام على طريقة ، يقول بعد أن استقبل المؤمنُ الإيمانَ وباشرتْ حلاوتُه قلبه يفيض هذا الإيمان منه إلى غيره ، وهذه مهمة من مهمات المؤمن أنْ ينقلَ الإيمان ، وأنْ ينقلَ الخير إلى الغير .

المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه[1] ، ويحرص على إصلاح المجتمع من حوله ، المؤمن لا يقف عند ذاته ، ولا يكون أبداً أنانياً .

والحق سبحانه يمدح منزلة الدعوة إلى الله ، ويجعلها أحسن ما يقوله الإنسان : ﴿ وَمَنْ[2] أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت]

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك رضى الله عنه بلفظ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال : لأخيه - ما يحب لنفسه » .

(٢) أورد القرطبى فى تفسير هذه الآية عدة أقوال فى المقصود بالآية :

١ - هو رسول الله : قاله ابن سيرين والسدى وابن زيد والحسن البصرى ، وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول : هذا رسول الله ، هذا حبيب الله ، هذا ولىُّ الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله فى دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب إليه .

٢ - نزلت فى المؤذنين : قالته عائشة وعكرمة وقيس بن أبى حازم ومجاهد . قال ابن العربى : الأول أصح لأن الآية مكية والأذان مدنى ، وإنما يدخل فيها بالمعنى ، لا بأنه كان المقصود وقت القول .

٣ - هذه الآية عامة : فى كل من دعا إلى الله . قاله الحسن وقيس بن أبى حازم . قال القرطبى : هذا القول هو أحسنها . [تفسير القرطبى ٩/٦٠٢٦] .

فأشرف الأعمال للذى تشبَّع قلبه بالإيمان أنْ يعدى هذا الإيمان إلى غيره ، وأن ينقل له الصورة الإيمانية ، فالمؤمن يصنع الخير لنفسه وللناس ؛ ذلك لأن خير الناس عائد إليه أيضاً ، كما أن شرَّهم لا بدَّ أنْ يناله وأنْ يصيبه من نصيب .

إذن : منْ مصلحتك أيها المؤمن أنْ يؤمن الناسُ ، ومن مصلحتك أيها المستقيم على الجادة أنْ يستقيم الناسُ ، لذلك حمَّلَ اللهُ أمانة الدعوة إليه لكل مؤمن ، لأنه سبحانه يريد أنْ يُعدَّى الإيمان ممَّنْ ذاقه إلى مَنْ لم يَذُقْه لتتسعَ رقعة الإيمان ، ويعمّ الخير الجميع .

وأول عناصر الدعوة إلى الله أنْ ندعوَ إلى العقيدة أولاً وإلى الإيمان بالله ، أن نقول : ربنا الله ، نُقرُّ بِها ونعلنها خالصةً بلا تردد ، ثم نلفتهم إلى آيات الله فى الكون ، إلى الآيات الكونية إنْ كانوا لا يتأملونها ، وإلى آيات المعجزات المصاحبة للرسل إنْ كانوا لا يعلمونها، ثم إلى آيات الذكر الحكيم التى تحمل منهج الله بافعل ولا تفعل .

وتأمل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً (٣٣) ﴾ [فصلت] الحق سبحانه أراد أنْ يُبيِّن لنا منزلة الدعوة إلى الله وفضل الداعية ، لكن لم يأت بذلك فى أسلوب خبرى يُقرر هذه المنزلة إنما جاء بهذا السؤال ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً (٣٣) ﴾ [فصلت] استفهام غرضه النفى ، يعنى : لا أحدَ أحسنُ من هذا الذى يدعو إلى الله ، ولا قوْلَ أحسن من قوله .

قالها الحق سبحانه فى صورة سؤال لأنه سبحانه يعلم أنه لا جوابَ لها إلا أنْ نقول : لا أحدَ أحسنُ قوْلاً ممَّنْ دعا إلى الله ، فجعلنا نحن نعلن هذه الحقيقة ونُقِرُّ بها ، والإقرار كما يقولون سيد الأدلة .

وأول داعية إلى الله هو سيدنا رسول الله ﷺ ، وكل داعية من

بعده يأخذ من معينه ﷺ ويسير على خُطاه ، ولما كان ﷺ هو آخر الأنبياء فقد ترك لأمته هذه الرسالة ، رسالة الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فخيْر رسول الله لم ينقطع ، بل ممتد فى أمته من بعده ، وكلُّ داعية بعده إنما يأخذ مقاماً من مقامه ﷺ .

ومن رحمة الله بهذه الأمة أنْ جعل لها رادعاً من نفسها ، جعل فيها فئةً باقية على الحق تُقوِّم المعْوج ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وسوف تظل هذه الفئة إلى يوم القيامة ، لذلك جاء فى حديث سيدنا رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم مَنْ خالفهم ، حتى يأتى أمر الله وهم كذلك »[(١)]

لذلك قال سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ (١١٠) ﴾ [آل عمران]

وهذه خاصية اختصَّ الله بها أمة محمد لأنه خاتمُ الرسل ؛ لذلك لن يعم الشرَّ هذه الأمة ، ولن يطمّ فيها الفساد ، ففيها حصانة من ذاتها . لقد كانت الأمم السابقة يستشرى فيها الفساد حتى يعمَّها ، فلا يكون فيها آمر بمعروف ولا نَاه عن منكر ، وعندها كان لا بدَّ من إرسال رسولٍ جديد ، يعيد الناس إلى الطّريق المستقيم .

أما أمة محمد فلن يأتى فيها رسول جديد ، لذلك جعل الله فيها هذه الحصانة ، وجعلها خليفة لرسول الله فى الدعوة إلى الله ، وجعلها أمينة على هذه الدعوة ، لذلك يقول النبى ﷺ : « الخيرُ فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[(٢)] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٢٠) كتاب الإمارة من حديث ثوبان رضى الله عنه . وأخرجه البخارى فى صحيحه (٧٣١١) ، وكذلك مسلم فى صحيحه (١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة .

(٢) قال ابن حجر العسقلانى : لا أعرفه . ولكن معناه صحيح . ذكره القارى فى « الأسرار المرفوعة » (٤٥٧) وكذا السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (٢٢٠) والعجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) .

وقد بيَّن الله تعالى أن الرسول سيشهد أنه بلَّغ أمته هذه الدعوة ، وهذه الأمة ستشهد أنها بلَّغتْ دعوة رسولها إلى كلِّ الأمم ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

فشهادتنا على الأمم دليلٌ على أن الخير بَاقٍ فينا ولن ينقطع أبداً .

وقد حثَّنا رسولنا ﷺ على حمل هذه الأمانة ورغَّبنا فيها حين قال ﷺ : « نضَّر(١) الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، وأدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فربَّ مُبلَّغ أوْعَى من سامع »(٢) .

والدعوة إلى الله مجال واسع يكون بالقول وبالفعل وبالقدوة الحسنة ، يكون ببيان العقائد والعبادات والأحكام للناس بأسلوب شيق ممتع جذاب ، لا يُنفِّر الناس ، ولا يذهب بهم إلى يأس أو قنوط من رحمة الله .

الدعوة إلى الله فَنٌّ ، اقرأ قوله تعالى يخاطب نبيه ﷺ : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩) ﴾ [آل عمران]

أين دعاتنا من قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل]

لا بدَّ أنْ نعلم أنَّ الدعوة إلى الله ليستْ مهمة علماء الدين

---

(١) النضرة : النعمة والعيش والغنى ، ونضَّر الله وجهه : وهو حُسْن الوجه والبريق . وقال الحسن المؤدب : ليس هذا من الحُسْن فى الوجه إنما معناه حسَّن الله وجهه فى خُلقه أى جاهه وقدره . [لسان العرب - مادة : نضر] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٣٧) ، والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) ، وابن ماجه فى سننه (٢٣٢) والحميدى فى مسنده (١/٤٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

المختصين فحسب ، إنما مهمة كل مسلم فى كل زمان وفى كل مكان ، كُلٌّ فى مجال عمله يستطيع أنْ يكون داعيةً ، نعم داعية بفعله والتزامه وتفانيه وإخلاصه .

لقد أجمع علماء الأمة على أن الإسلام ما انتشر بحدِّ السيف ، وما انتشر بالقوة بقدر ما انتشر بسيرة المسلمين الطيبة ، وما تحلَّوْا به من تسامح وحُبٍّ للآخرين ، ولنا فيهم قدوة .

الدعوة إلى الله مهمة كل مسلم ذاق حلاوة الإيمان ولذة التكاليف وأحبَّ للناس ما يحب لنفسه من الخير فينقله إليهم . والحق سبحانه ساعة يُكلِّفنا بالخير لا يترك أحداً ولا يحرم أحداً أنْ يكونَ له نصيبٌ من هذا الخير ، ومن ذلك الآن نجد مثلاً المشكلة الاقتصادية والحرب على الاقتصاد وعلى الرغيف وعلى المياه ، كيف تُحلُّ هذه المشكلات فى المنظور الإسلامى ؟

الحق سبحانه وتعالى دائماً يُحنِّن الواجد على المعدم ، وبعد أنْ فرض الزكاة فى مال الأغنياء للفقراء ترك الباب مفتوحاً لأريحية الغنى وحبه للعطاء ، فجعل الصدقة نفلاً وزيادة لمن ذاقَ حلاوة التكليف .

لذلك قال تعالى مرة : ﴿ وَالَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) ﴾ [المعارج] والمراد بالحق المعلوم الزكاة المفروضة ، وقال فى الذاريات : ﴿ وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات] هكذا بإطلاق الكلمة ، والمراد الزيادة على الزكاة المفروضة ، وهذه نوافل مَنْ فعلها أخذ ثوابها ، ومَنْ تركها فلا شىء عليه .

قال تعالى فى سورة الذاريات وهو يُبيِّن لنا سبحانه منزلة

الإحسان : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ [الذاريات] ولم يقل مؤمنين ، فما هى درجة الإحسان ؟ قالوا : المحسن هو الذى يلزم نفسه بأمر لم يُفرض عليه لكن من جنس ما فرض الله عليه ، إذن : فدرجة الإحسان أعلى من درجة الإيمان ، فالفرض فى الصلاة خمس صلوات ، المحسن يُؤديها ويزيد عليها ، وإن كان مقدار الزكاة الواجبة فى المال ٢,٥٪ يخرجها ٥٪ وهكذا فى كل أبواب الخير .

وفى آيات سورة الذاريات تفصيلٌ لهذه الزيادة التى يتطوع بها أهل الإحسان .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] (١٧) ﴾ [الذاريات] وهل فرض الله عليك قيام الليل حتى أنك لا تهجع منه إلا قليلاً ؟ لا بل لك أنْ تصلى العشاء وتنام حتى الفجر .

أما المحسن فله مع الليل شأنٌ آخر ، إنه ذاقَ حلاوة السهر لله والقيام لله ، وشعر بالفيوضات تتنزَّل عليه ، ورحمة الله تغشاه ، فعشق العبادةَ ووجد فيها لذته وراحته ، كذلك ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ[2] هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات] ولم يقل هنا حق معلوم ، لأن الحق المعلوم هو الزكاة ، أما الحق المطلق هنا فيراد به الصدقة وهى متروكة لاختلاف حب الناس ودرجاتهم وأريحيتهم فى العطاء .

(١) الهجوع : النوم ليلاً . وقد يكون الهجوع بغير نوم . والتهجاع : النومة الخفيفة . [لسان العرب - مادة : هجع] وأتيت فلاناً بعد هجعة . أى : بعد نومة خفيفة من أول الليل .

(٢) الأسحار : جمع سَحَر : أى قبيل الصبح آخر الليل . قال الزمخشرى : إنما سُمِّى السَّحَر استعارة لأنه وقت إدبار الليل وإقبال النهار فهو متنفس الصبح . ومن المجاز : « السَّحَر البياض يعلو السواد » . [تاج العروس للزبيدى - باب : سحر] .

وإذا أحبَّ المؤمنُ الطاعة آثرها على أى شىء آخر ، لذلك لو أجريتَ إحصاء للحجاج لوجدتَ أن العوَّادين ثلاثة أضعاف البادئين ، وما ذلك إلا لعشق الناس لهذه الفريضة .

لذلك جعل الله فى العباد استطراقاً إحسانياً ، كلٌّ حسب مرتبته فيه ، والقرآن الكريم يعطينا صورة للمؤمن المحبِّ للبذل مع أنه لا يجد شيئاً ، قال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ[(١)] إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢)﴾

[التوبة]

تبين هذه الآيات أن الله تعالى أشاع الخير بين كل الناس ، فالواجد عليه أنْ يعطى ، وغير الواجد يكفيه أنْ ينصح الواجد وأنْ يحثه على العطاء ، فإذا لم يستطع لا هذا ولا ذاك يكفيه أنْ يكون محباً فى نفسه للعطاء يشتاق إليه ، بل ويبكى أنْ فاتته الفرصة . وهؤلاء صدقتهم هذا الشوق وهذا البكاء . وهكذا لم يحرم الخالق سبحانه أحداً من خيره ، ولم يغلق الباب فى وجه أحد .

هناك قضية تتعلق بالدعوة إلى الله ، هى أن الإنسان منَّا قد يكون عاصياً لربه فى ناحية ما ، فهل يمنعه هذا العصيان أنْ يكون داعية إلى الله ؟ قالوا : ينبغى ألاَّ تمنعك المعصية عن الدعوة ، فلعلَّ الذى

---

(١) قال القرطبى : « روى أن الآية نزلت فى عرباض بن سارية . وقيل : نزلت فى عائذ بن عمرو . وقيل : نزلت فى بنى مقرِّن - وعلى هذا جمهور المفسرين - وكانوا سبعة إخوة ، كلهم صحبوا النبى ﷺ » وهناك أقوال أخرى كثيرة ذكرها القرطبى فى تفسيره (٣١٥٣/٤) .

تدعوه يـفعل ما لم تـفعله أنت ، ولعل هذه عـملية جَـبْر لما فـيك من نقص .

يُحكَى أن رجلاً كان يطوف بالبيت ، فسمع آخرَ يقول : اللهم إنك تعلم أنّى عـاصيك ولكنِّى أحب مَنْ يـطيعك ، فـاجعل اللهم حُـبِّى لمن أطاعك شافعاً فى معصيتى .

قالوا : حتى الذى يتكاسل عن الصـلاة لا يمنعه ذلك من أن يدعو غيره إلى الصلاة ، لأنها خير يشيعه فى الناس لن يُحرَم أجره ، فكل مَنْ أشاع خيراً له (عمولة) عند الله ، وهكذا لا يخلو مخلوق من أنْ يصيبه فضل الله الواسع ، ولا يخلو مـخلوق من خصلةِ خيرٍ لذاته أو لغيره ، وهذه الإشاعة للخير فى ذاتها دعوة إلى الله .

وقوله : ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا .. (٣٣) ﴾ [فصلت] يعنى : دعا إلى الله بالقول ثم بالفعل ، ودائماً ما يقرن القرآن بين القول والعمل ، وعرفنا أن قـدوةَ الفـعل أعظمُ أثراً فى النفـوس من قـدوة الكلام ، وليس من الصواب أنْ تدعو الناس إلى شىء وأنت عنه بنجـوى ، يقول تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٤٤) ﴾ [البقرة]

ويقول سبحانه فى سورة العصر : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

والتـواصى تفـاعل بين الناس ، بحـيث يوصى كلٌّ منهم الآخـر ، فالطائع يوصى العاصى ، وكلٌّ واحد منا مُوصٍ فى موقف ، ومُوصَىً فى موقف آخـر ، لأن الانفعال النفسـى بطاعة أو بمعصـية لا يدوم ،

فساعة تنفعل نفسُك للطاعة أَوْصِ مَنْ يعصى ، وساعة تنفعل نفسك للمعصية ستجد مَنْ يوصيك وهكذا ، لأن النفس ليس لها سيال دائم ، وكلٌّ منا يَجْبر ما عند صاحبه ، هذا معنى (وتواصوا) أى : فيما بينكم ﴿ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

الحق سبحانه يقسم (والعصر) يعنى : والزمن المعدود ، يقسم على ماذا ؟ ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) ﴾ [العصر] يعنى : جنس الإنسان كُلُّه فى خُسْر وضياع وضلال لا يستثنى من ذلك ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

كأن الحق سبحانه يقول لنا : استقرئوا الزمن وتأملوا التاريخ ، انظروا إلى الحضارات الغابرة من قديم الزمان ، أين هى ؟ ماذا بقى منها ؟ حضارة الفراعنة فى مصر وما وصلتْ إليه من تقدم فى علوم لم نتوصَّل إلى أسرارها حتى الآن مع أننا فى عصر التقدم العلمى ، حتى الأمريكان عجزوا أن يصلوا إلى أسرارها .

ومع ذلك بادتْ وذهبتْ كلُّ هذه العلوم ، لأن أصحابها لم يجعلوا لها صيانة تحميها وتضمن لها البقاء ، وكان طغيانُ القوم سببَ هلاكهم ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ[1] (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾ [الفجر]

بل هناك حضارات أعظم من حضارة الفراعنة ، لكنها مطمورة تحت التراب لا نعرف عنها شيئاً ، حتى القرآن لما أخبر عنها أعطانا

---

(١) الأوتاد : جمع وتد . وهو ما ثُبِّت فى الحائط أو الأرض من الخشب ، وأوتاد فرعون أنه كانت له حبال وأوتاد يُلعب له بها . [لسان العرب - مادة : وتد] .

صورة مجملة عبرتْ عن هذه العظمة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ⦗٦⦘ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ[1] ⦗٧⦘ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ⦗٨⦘﴾ [الفجر]

نعم هذه حضارات كانت فى يوم من الأيام ملءَ السمع والبصر ، لكنها لم تملك أسباب البقاء مع هذا التقدم الذى عاشت فيه ، ويكفى أن الله قالَ عنها ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ⦗٨⦘﴾ [الفجر] ، فكيف كانت إذن ؟

وصدق شوقى حين قال :

وَالعِلْمُ إنْ لَمْ تكْتنفْهُ شَمَائِلُ   تُعليهِ كَانَ مَطيَّةَ الإخْفَاقِ[2]

إذن : العمل حين تأخذه من الباقى يبقى ، وحين تأخذه من الفانى يفنى .

والذى يبقى هو القيَم ، فكما أخذنا عطاء الله فى المادة ينبغى أن نأخذ عطاءه فى القيم ، فهى الصيانة التى ستُبقِى الأعمال وتجعلها خالدة وتجعل لها معنى وقيمة .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ⦗٣٣⦘﴾ [فصلت] هذا إعلانٌ يعلنه المسلم ويفخر به ، وسام على صدره ، أنا مسلم ، وإسلامى هو المنطلق الذى من خلاله تكون حركتى فى الحياة ، وهذه

---

(١) قال جمهور المفسرين : إرم مدينة لعاد عظيمة كانت على وجه الدهر باليمن . وقال محمد ابن كعب : هى الإسكندرية . وقال ابن المسيب : هى دمشق . [الروض المعطار فى خبر الأقطار - لابن عبد المنعم الحميرى] .

(٢) البيت لحافظ إبراهيم وليس لأحمد شوقى ، من قصيدة من بحر الكامل عدد أبياتها ٤٦ بيتاً ، وهو الـ (١٣) فيها . وحافظ ولد عام ١٨٧١ بديروط ، نشأ بالقاهرة يتيماً ، نظم الشعر فى أثناء الدراسة ، تخرج من المدرسة الحربية ، أحيل للاستيداع ، اشتغل محرراً بالأهرام ولقب بشاعر النيل ، توفى ١٩٣٢ م (الموسوعة الشعرية) .

فى حَدِّ ذاتها دعوةٌ إلى الله ونشرٌ لدين الله وإعلاءٌ لكلمة الله حين لا تنشغل بنفسك إنما تنشغل بدينك .

فإنْ أنجزتَ عملاً تنسبه إلى دين الله ، تقول : لأن الله أمرنى ، فترفع دينَ الله عند الناس ولا تهتم بذاتك الفاعلة ، وحين ترفع دين الله ثِقْ أنه رافعك معه .

إذن : فمن صفات المؤمن أنْ ينسبَ خيره وصلاحه لدينه وإسلامه .

لذلك نقف كثيراً عند قول قارون لما أعطاه الله المال والجاه والسلطان ، فقال : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. (٧٨)﴾ [القصص] فردَّ الله عليه : ما دمتَ أوُتيته على علم عندك فاحفظه بعلمك ، وكانت النتيجة ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١)﴾ [القصص] فحين تصل إلى ابتكار أو اختراع أو صلاح فى الكون فاجعله من منطلق الدين والمنهج ، انسبه إلى دينك .

وتذكَّر الحديث الشريف : « ومَنْ كانت الآخرة همَّه جمع اللهُ عليه شمله ، وجعل غِنَاه فى قلبه ، وأتتْه الدنيا وهى راغمة »[1] .

لذلك أتعجَّب حينما أسمع أسماء رنَّانة لنَواد وجمعيات خيرية يقوم عليها الأعيان ووجهاء القوم وسيدات المجتمع ، صحيح نراهم يُقدمون المساعدات ويفعلون الكثير من الخير ووجوه البر ، لكن حين تسألهم عن المنطلق الذى يعملون من خلاله تسمع مصطلحات أخرى مثل (الماسونية) .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٦٥) من حديث أنس بن مالك بلفظ « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرَّق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له » .

ولما عـرفوا أن أصلها يهودى قـالوا (الروتارى) ، أنا أفعل هذا لأنى روتارى ، سـبحان الله قل : لأننـى مسلم ، لأن إسلامـى أمرنى بذلك ، لماذا لا ترفـع نفسك بِرفعـة دينك ، ولماذا تُفـوِّت على نفسك ثواب هذا الخير فى الآخرة .

قلنا : إن العمل إما أن يكون لله ، وإمـا أن يكون للناس ، العمل لله شـرطه الإخـلاص وجـزاؤك على الله فى الآخـرة ، أمـا الـعـمل للناس فيعطيك منزلة عندهم ووجاهة ورفعة ، هذا جزاؤك وقد أخذته فى الدنيا فلا حظَّ لك فى ثواب الآخرة ، فالإنسان يطلب أجره ممَّنْ عمل له .

لذلك ما سُئلْنَا عن علماء خدموا البـشرية باختراعاتهم وإنجازاتهم وابتكاراتهم : هل لهم نصيب فى الآخرة ؟ نقول : لا ليس لهم نصيب لأنهم فعلوا للناس وللبشرية ولتقدم المجـتمع ، وأخذوا أجورهم صيتاً وسُمْعة وشهرة وتخليداً لذكراهم .. إلخ .

أما الله فلم يكن أبداً على بالهم حين فـعلوا هذه الأشياء ، واقرأوا قوله تعـالى فى شأن هؤلاء : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً[1] مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان]

وفى موضع آخر قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور]

هكذا أعمال الكافرين فى الآخرة كالسراب تحـسبه شيئاً ، فإذا ما ذهبتَ إليه لم تجده ، وليْتَ أمـرهم ينتهى عند هذا الحد إنما تفـاجئهم

---

(١) الهـباء : هو الذرات التى تراها فـى المخـروط الضوئى حـين ينفـذ إلى حجـرتك ولا تراها بالعين المجردة لدقتها .

الحقيقة التى طالما أنكروها فى الدنيا ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور] نعم الله الذى أنكره أو كفر به يُوقفه ويحاسبه : أنت فعلتَ : ليقال وقد قيل فلا أجرَ لك عندى ، ويبقى لك جزاء كفرك وعنادك .

إذن : نقول : ساعة تعلن أنك تعمل وتبتكر من منطلق إسلامك . ساعة تقول عملت لأننى مسلم ، تُعلى شأن الإسلام وتلفت غير المسلمين إلى جمال هذا الدين ، وأنت فى ذلك داعية إلى الله ، أنت على نهج نبيك محمد ﷺ ، فإنْ قابلتْكَ بعضُ الصعاب فاصبر ، لأن رسولك أُوذى فى سبيل دعوته فصبر .

فالذى يحمل أمانة الدعوة ويعلنها : أنا مسلم ، وإسلامى هو الضابط لكل حركاتى فى الحياة ويصيبه سوءٌ يعلم أنه أخذ طرفاً من ميراث النبوة ، فما من نبى إلا أوذى وكان له أعداء ، فلا بدَّ لحمَلَة هذه المسئولية أنْ يكون لهم أعداء ، وأنْ يُشتموا وأن تُكال لهم التهم ، هذا أمر طبيعى فى مسيرة الدعوة إلى الله .

يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا .. (١١٢) ﴾ [الأنعام]

هذا يعنى أن الداعية الذى يَسْلم من هذا الإيذاء ينقص حظُّه من ميراث النبوة ، وحظه من تركة النبى ﷺ ، إذن : اصبر ، وهل تابعُ محمدٍ خيرٌ من محمد حتى يَسْلم من الأذى ؟

فإذا لم يكُنْ لك أعداء فى طريق الدعوة فاعلم أنك لستَ على الطريق الذى رسمه لك صاحبُ الدعوة ، وعليك أنْ تراجع نفسك .

الكلام هنا عن الدعوة إلى الله بحقٍّ وتجرُّد وإخلاص ، وعن الكلمة تُقال فى سبيل الله لا فى سبيل جاه أو سلطان أو منصب من متاع الدنيا الزائل ، الدعوة إلى الله لا تكون أبداً قنطرة .

لذلك نقول : ما الذى يحمى الدعاة إلى الله الآن ، وها نحن نقول بأعلى صوت ونكتب فى كل وسائل الإعلام ، والله هو الحامى ، والحمد لله لم نُؤخذ ولم نُسْجن ، ولم يتعرض لنا أحد ، كثير من علماء الدين يعلنون كلمة الحق مجردة من الهوى والمصلحة ، وساعة يعطى لهم الحاكم أذنه يُسمعونه من الكلام ما يرعشه ، ومع ذلك نسمع عن اضطهاد رجال الدين .

ونقول : إذا اضطهد رجل الدين فلا بُدَّ أنه استعمل وسائل محرمةً فى الدعوة إلى الله ، كهؤلاء الذين يميلون إلى حَلِّ المشاكل بالقتل والدماء ، أنت على خلاف مثلاً مع وزير من الوزراء تضربه بالنار ؟ هل هذا هو الحل ؟ وما ذنب الحراس الذين تُهدر دماؤهم وتُيتَّم أطفالهم ؟

أنت صاحب كلمة ، قُلْ ما شئتَ وأصلح بالكلمة الطيبة ، أسمعهم ما يكرهون ، وسبق أنْ قلنا لهم ما لم يستطع أحدٌ أنْ يقوله عندهم ، لأن الشجاعة الإيمانية فى الدعوة إلى الله ليستْ كلمة حَقٍّ تُقَال على سلطان ، إنما كلمة حق تقال عند سلطان جائر ، نعم عنده فى حضوره .

وهذا تطبيق عملى لقول رسول الله ﷺ : « أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »[1] .

نحن لا نتاجر بالكلمة ، إنما نواجه بها كل حاكم ظالم ، نقول له : نحن لا نكرهك ولا نطمع فيما فى يدك من الحكم ، بل نحن

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٩ ، ٦١) ، والترمذى فى سننه (٢١٧٤) وحسَّنه . وأبو داود فى سننه (٤٣٤٤) من حديث أبى سعيد الخدرى . ولفظ الترمذى : « إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .

نحبك ونريد أنْ نعينك على مهمتك ، فقط نريد منك أنْ تحكمنا بالإسلام ، أريد أنْ أُحكَم بالإسلام ، لا أن أَحْكُمَ بالإسلام .

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾

بعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن مهمة الدعوة إلى الله ، وأنها ميراث الأنبياء وتركة رسول الله لنا من بعده ، يُعلِّمنا هنا فناً من فنون الدعوة ودرساً من دروسها ، ألاَ وهو مقابلة السيئة بالحسنة ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ.. (٣٤) ﴾ [فصلت]

نعم لا أحدَ يُسوِّى بين الحسنة والسيئة والعقل يؤيد ذلك ، تعالَ إلى اللص الذى يسرق أموال الناس ، ويسرق ثمرة عرقهم وقُلْ له : أتحب أنْ يسرق الناسُ منك ؟ يقول : لا ، نقول : إذن لا تحب لهم ما لا تحبه لنفسك ، يقول لك : أنت تقيد حريتى وأنا حُرٌّ .

نقول له : لا تنسَ أن الله قيَّد حريتك فى سرقة الآخرين وأنت فرد واحد ، وقيَّد حركة الدنيا كلها فى أنْ تسرق منك ، فمَن المستفيد ؟ كذلك فى كل أمور الشرع التى حرَّم الله فيها أنْ تعتدى على الآخرين حرَّم عليهم جميعاً الاعتداء عليك ، قال لك : لا تنظر إلى ما حرَّم الله عليك بشهوة . وأمر الناس جميعاً أن لا ينظروا إلى محارمك .

والنبى ﷺ يعطينا نموذجاً فى حكمة الدعوة ، حين جاءه شاب صادقُ الإيمان ، لكن عنده أمر ومسألة لا يستطيع الإقلاع عنها ، وهى شهوة النظر وشهوة الميل إلى النساء ، فجاء وقال لرسول الله

ﷺ : يا رسول الله ، إئذن لى بالزنا .

وتأمل هنا حكمته ﷺ ، قال للشاب دون أنْ يَنهره أو يقسو عليه ، إنما تبسَّم فى وجهه وطمأنه أنه أمام داء له دواء ، طالما أنه صادق الإيمان يواجه النبىَّ بدائه ، لم يغُشّ رسول الله ولم يغُشّ نفسه .

لذلك وصف له رسول الله ﷺ الدواء الذى اجتثَّ هذا الداء من جذوره ، وقام الشاب من عند رسول الله وأشدَّ ما يكرهه الزنا .

قال له رسول الله : « يا هذا أتحب ذلك لأمك ؟ قال : لا يا رسول الله ، قال : أتحبُّ ذلك لأختك ؟ قال : لا يا رسول الله ، قال : أتحبُّ ذلك لزوجتك ؟ قال : لا يا رسول الله ، قال : أتحبُّ ذلك لابنتك ؟ قال : لا يا رسول الله ...

وما زال الرسول يذكر له النساء من أهله حتى ذكر العمة والخالة ، وحتى قال الشاب : لا يا رسول الله جُعلْتُ فداكَ ، فقال رسول الله : كذلك الناسُ يا أخا العرب لا يحبونه لأمهاتهم ولا لأخواتهم .... »[1] .

عندها قال الشاب : والله ما هممتُ بشىء أنظر إليه إلا تذكرتُ أمى وأختى وزوجتى وبنتى .

إذن : الدين يحتاج فى الدعوة إليه إلى لين وحكمة وموعظة حسنة حتى يُقبل منك ما تقول ، لأن الذى تنصَحه بأمر من أمور الدين وهو على غير دينك ، أو على دينك لكنه ألفَ المعصية وثقُلَتْ

---

(١) عن أبى أمامة أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لى فى الزنا ، فهمَّ من كان قُرْب النبى ﷺ أن يتناولوه فقال النبى : دعوه . ثم قال له : أتحب أن يُفعل هذا بأختك ؟ قال : لا . قال : فابنتك ؟ قال : لا ، فلم يزل يقول فبكذا فبكذا ، كل ذلك يقول : لا . فقال النبى : فاكره ما كره الله وأحب لأخيك ما تحب لنفسك . أورده المتقى الهندى فى منتخب الكنز (٢/٣٩٧) وعزاه لابن جرير الطبرى .

عليه الطاعة ، ينبغى عليك أنْ تُخرجه مما ألفَ بأسلوب لا يكرهه ، حتى لا تجمع عليه المعاناة حين تخلعه مما يحب ، وقسوة الأسلوب وفظاظته ، يكفى أن تُخرجه مما أحب بما لا يكره ، وبذلك تمنع عنه شراسة الجدل وثورة العناد والمكابرة .

وكذلك فى المعاملة ، عليك أنْ تواجه السيئة بالحسنة ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٣٤) ﴾ [فصلت] يعني : رُدّ باللين وبالحسنى ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت] العداوة المدمرة هى التى تكون بين اثنين عدوين ، كل منهما عدو للآخر ، وفى هذه الحالة يستشرى العداء ويستحكم ، ولا نصل فيه إلى حَلّ ، فمتى تنكسر حِدَّة العداوة ؟

تنكسر حِدَّتها حينما تكون من جانب واحد ، جانب عدو وجانب متسامح لا يرد السيئة بالسيئة ، إنما يعفو ويصفح ، وفى هذه الحالة تهدأ نفسُ العدو ، ولا يجد مجالاً لعداوته ، وهذه أولى خطوات الإصلاح أنْ تأخذ عدوك فى جانبك ، لذلك يقولون : لا تكافئ مَنْ عصى الله فيك بأكثر من أنْ تطيع الله فيه .

وبهذه الطريقة ينقلب العدو إلى ﴿ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت] يعنى : صديق قريب مُحب مخلص كيف ؟ لا تقل كيف ، بقدرة الله خالق هذه النفوس وهذه القلوب ومُقلِّبها .

جاء رجل يشكو قسوةَ أحد الأقارب ، فقلنا له : يا شيخ اصبر عليه وقابله بالتى هى أحسن ، وتودَّدْ إليه عَلَّ الله يصلح ما بينكما ، بعدها جاء وقال : دفعتُ بالتى هى أحسن فلم يزدد إلا قسوةً وصار أشدَّ مما كان ، قلت له : إذن راجع نفسك لأن كلام الله قضية مُسلّمة ، وابحث عن السبب عندك ، فلعلك ظننتَ أنك دفعتَ بالتى هى أحسن ،

والحقيقة أنك لم تدفع بالتى هى أحسن ، أو أنك أردتَ أنْ تُجرِّب مع الله ، والله تعالى لا يُجرَّب ، التجربة مع الله شكٌّ ، فلو صدقتَ مع الله لصدَقَ الله معك .

وما أجمل قول الشاعر[1] فى هذا المعنى :

يا مَنْ تُضايقه الفِعَالُ منَ التى ومنَ الذى
ادْفَعْ فَدَيتُكَ بالتى حتَّى تَرَى فَإذَا الذِى

﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥ ﴾

أى : هذه الخصلة وهذه المنزلة منزلة الدفع بالتى هى أحسن ، هذه الخصلة لا ينالها ولا يتحلَّى بها إلا الذين صبروا على الأذى ، ولا يصل إليها إلا ذو حظ عظيم . يعنى : نصيب وافر من العطاء ، لماذا ؟ لأنه كبتَ نفسه وأمسكها عن الردِّ بالمثل ، فلما كبتَ نفسه من أجل الله جعل اللهُ عاقبته خيراً ، وأجزل له العطاء .

ونلحظ هنا على الأداء القرآنى تكرار عبارة ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا .. ۝٣٥ ﴾ [فصلت] فلم يقُلْ الحق سبحانه : وما يُلقاها إلا الذين صبروا وذو حظ عظيم .. قالوا : تكررت العبارة لأن التلقى مختلف ، هذا تلقى صبر ، وهذا تلقى جزاء . وكثيراً ما يقف المستشرقون وأهل البصر بالقرآن أمام مواطن التكرار فى كتاب الله باحثين عن الحكمة منه ، لأن كتاب الله محكم ، ليس فيه حرف زيادة أو عبث .

ومن هذه المواطن وقفوا عند التكرار فى قصة سيدنا يوسف لَمَّا قال لأبيه سيدنا يعقوب عليهما السلام : ﴿ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا

(١) من قول الشيخ يرحمه الله .

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف] قالوا : ما فائدة تكرار الفعل (رأى) هنا ؟ نقول : يعنى ساعة رأى الشمس والقمر رآهم ساجدين ، وهذا لا يتأتَّى إلا إذا رآهم أولاً غير ساجدين ثم رآهم يسجدون أمامه .

إذن : فالرؤيا الأولى رأى أحد عشر كوكباً ورأى الشمس والقمر فى غير هيئة السجود ، ثم رأى الشمس والقمر له ساجدين ، وهذا المعنى لا يكون إلا بتكرار الفعل .

كذلك هنا ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت] صبروا على الإيذاء ، وصبروا على ضبط النفس ، وصبروا على مغالبة الشيطان الذى يُوسوس لهم بالانتقام ويُزيِّن لهم الردَّ بالمثل . وكانت عاقبة الصبر الجزاء والحظ الوافر .

وينبغى ألاَّ نغفل دور الشيطان فى هذه القضية ، فمهمته أن يلهب نار العداوة بين الناس ، وأن يشعل الفتن ليلهيهم بها عن مطلوبات الله فسوف يوسوس لك : لماذا تتسامح وقد أُسِيء إليك ، لماذا تقبل الذل ؟ أهو أفضل منك ؟

لأن إبليس منذ أُمر بالسجود لآدم فأبَى ، وكانت النتيجة أنْ صار ملعوناً مطروداً من رحمة الله منذ هذا الموقف ، والعداء مُستحكم بينه وبين ذرية آدم ، ولن يتركهم حتى يُوردهم نفس مورده .

لذلك أقسم : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص] يعنى : يا رب أنا لستُ متمرداً عليك إنما على ذرية آدم ، فالذى تريده طائعاً لا يمكن لى أنْ أغويه ، فليس لى سلطانٌ على المخلصين منهم .

ومن خيبة إبليس أنه أفشى سره ، وأعلن عن وسائله فى غواية

بنى آدم ، ومعلوم أن الذى يصنع مكيدة أو مؤامرة يحتفظ لنفسه بالتفاصيل ، أمَّا إبليس فأعلن عنها ، فأعطانا الله الاحتياط .

قال تعالى حكايةً عن إبليس : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] أقعد لهم على الصراط . يعنى : على طريق الاستقامة وفعل الخير لأشغلهم عنه وأفسده عليهم . ولذلك قلنا : إن الشيطان لا يذهب إلى الخمارة مثلاً ، إنما يذهب إلى المسجد .

وفى موضع آخر قال : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧) ﴾ [الأعراف]

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ (١) فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾

ومن رحمة الله بنا أنه سبحانه لم يتركنا نهباً لهذا العدو الذى يتربص بنا ، إنما أعطانا الحصانة التى نتحصَّن بها منه ، فقال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٣٦) ﴾ [فصلت] ذكّره بالله القوى ، فإنْ كنتَ أنتَ ضعيفاً أمامه فاستعنْ عليه بالإله القوى ، وساعةَ يراك فى جنب الله لا يجرؤ أبداً عليك ، لأنك داخل فى هؤلاء الذين استثناهم ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

وانتبه أنه لن يأتيك إلا على الصراط المستقيم ليفسده عليك ، يأتيك فى صلاتك ويُذكِّرك بما لم يكُنْ لك على بال ، وبأهم الأمور

---

(١) النزغ : أن تنزغ بين قوم فتحمل بعضهم على بعض بفساد بينهم . وهو الكلام الذى يغرى بين الناس . ونَزْغ الشيطان : وساوسه ونَخْسه فى القلب بما يُسوِّل للإنسان من المعاصى . [اللسان - مادة : نزغ] .

عندك فى الدنيا ، المهم عنده أنْ يفسد عليك الآخرة بأى ثمن .

فإذا وجدتَ فى نفسك شيئاً من نَزْغه ووسوسته فقل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، قُلْها فى كل حال يأتيك فيه إبليس وأنت تصلى ، وأنت تقرأ القرآن ، وأنت فى أىّ عبادة من العبادات .

لك أنْ تقول هذه الكلمة وهى لا تُخرجك من عبادتك على أىٍّ حال ، وعندما تداوم على هذه الكلمة سييأس منك ويبتعد عنك ، ويعرف أنك صلْبٌ قوىٌّ تستمد قوتك من الله ، عندها سينصرف عنك ، ولم لا وأنت تعرف ألاعيبه وتكشف حيله ؟

لكن الخيبة أن كثيرين منا ينساقون وراء الشيطان ، ويُسْلمون له قيادهم ، وما يفعله الشيطان مع هؤلاء أنه يعطيهم أول الخيط ويتركهم هم (يكرُّون) الباقى دون جهد منه ودون عناء ، وهؤلاء هم الذين استزلّهم الشيطان وأخضع رقابهم ، فهم يسيرون فى ركْبه دون تفكير أو تأمُّل .

هَبْ أن لصاً جاء يحوم حول بيتك . فقلت : إحم . تريد أن تُسمعه ويعرف أنك يقظ ، لا بدَّ أنه ينصرف ، وقد يعتبر أنها مصادفة فيعاود مرة أخرى فتقول : إحم ، إذن : ليست مصادفة بل أنت له بالمرصاد فأنت متيقظ ، لذلك ينصرف عنك بلا رجعة ، كذلك الشيطان .

قلنا : من غباء إبليس وغفلته أنْ يعلن لنا عن خططه فى غواية بنى آدم ويعلن عن أساليبه ، والغباء يكون أعظم لمن عرف هذه الخطط وهذه الأساليب ، وانساقَ وراءها ولم يأخذ الحيْطة .

وحين نتأمل قول إبليس : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧) ﴾ [الأعراف] تلحظ أنه ترك جهتين لم يذكر أنه يأتى منهما : جهة أعلى وجهة أسفل ، لماذا ؟ قالوا : لأن العُلو جهة التوجه إلى الله ، جهة عِزِّ الربوبية ، وجهة الأسفل تمثل ذُلَّ العبودية ساعة تسجد لله ذلاً وخضوعاً له سبحانه ، فهاتان الجهتان لا يأتى منهما الشيطان .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾ [فصلت] الذى لا يغيب عن سَمْعه شىء ، فإنْ وسوس لك الشيطان بكلام سمعه وعلمه .

بعد أن بيَّن لنا القرآن هذا البيان ، يعود ليلفتنا ثانياً إلى بعض آيات الله فى الكون ، فبهذه الآيات نستدل على وجود الخالق سبحانه وعلى قدرته تعالى ، حيث لو جاءت هذه الآياتُ على أيدى علماء كافرين بالله إلا أننا ننتفع بها ، والله مساكين هؤلاء العلماء ينفعون البشرية كلها ولا ينفعون أنفسهم ، لأنهم - كما قلنا - لا ينطلقون فى اختراعاتهم وابتكاراتهم من منطلق الإيمان بالإله تبارك وتعالى ، فهم كالمطايا ينتفع الناس بخيرهم ، ولا ينالهم من ذلك شىء ، اللهم إلا متاع الدنيا الزائل .

وأقرب آيات الله للإنسان نفسه لو تأملها ، مثلاً درجة الحرارة الطبيعية للجسم ٣٧° تجدها ثابتة فيمَنْ يعيش عند خط الاستواء ، وفيمن يعيش عند القطب الشمالى ، وأنتم تعرفون نظرية الاستطراق الحرارى ، لكن قدرة الله تحتفظ للجسم بهذه الدرجة بصرف النظر عن الجو المحيط به .

ثم فى داخل الجسم ذاته تجد حرارة الأعضاء مختلفة ، فالعين لا

تزيد درجة حرارتها عن ٩° ، والكبد لا يؤدى مهمته إلا عند ٤٠° ، وهما فى جسم واحد وغلاف واحد ، ومع ذلك لا يحدث استطراق للحرارة ، وهذه آية ومعجزة لا يقدر عليها إلا الخالق سبحانه .

تأمل الدم سائل الحياة الذى يجرى بداخلك لا بدَّ له من درجة سيولة معينة داخل الجسم ، فإنْ قلَّتْ هذه السيولة تجلط وحدث شلل للجزء الذى تحدث به الجلطة والعياذ بالله ، وإنْ زادتْ سيولته أدَّى إلى نزيف ، فمَنْ يحفظ له هذه الدرجة من السيولة ؟ الله !!

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت] (من) هنا تفيد التبعيض يعنى : هذه بعضُ آياته تعالى فى الكون ، وإلا فآيات الله فى كونه كثيرة لا تتناهى ، والآية هى الشىء العجيب فى تكوينه وخَلْقه الدالّ على قدرة الله وحكمته وبديع صُنْعه .

﴿ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت] آيتان من آيات الله الكونية ، والليل والنهار يكونان معاً اليوم الذى نعرفه ، وهو من الوقت إلى مثله ، قال تعالى : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا .. ﴿٧﴾ ﴾ [الحاقة]

هذه الآيات الكونية المذكورة هنا ﴿ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت] أخذتْ حظّاً واسعاً فى موكب الرسالات وفى العقائد ،

ففى قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وهو يبحث عن الحق والحقيقة لما نظر فى الكون من حوله ، فرأى كوكباً قال : ﴿ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ[1] قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا[2] قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأنعام]

إذن : فالشمس والقمر مرتبطان بالليل والنهار لهما مدخل فى العقيدة ، هذا المدخل فى العقيدة ينتقل من قسم العقيدة وهى الإيمان بالإله الواحد إلى شىء آخر ، هذا الشىء جُعل دليلاً إيمانياً على أمر شكَّ العربُ فيه لما نزل القرآن على رسول الله ﷺ ، إذن : كانت هذه الآيات الكونية مدخلاً أولاً للعقيدة والإيمان بالله ، ثم كانت دليلاً على عدم انقطاع الوحى عن سيدنا رسول الله ﷺ .

تعلمون قصة نزول الوحى على سيدنا رسول الله لأول مرة فى غار حراء ، وأنه ﷺ كان يعانى ويتعب من لقاء الملَك لاختلاف الطبيعة الملائكية عن الطبيعة البشرية ، وأنه ﷺ كان يذهب إلى أهله يقول مرة : زملِّونى زملِّونى ، ومرة : دثِّرونى دثِّرونى لما كان يحدث فى طبيعته ﷺ من تغيير ، لذلك كان الوحى فى بدايته ثقيلاً على رسول الله ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴿٥﴾ ﴾ [المزمل]

---

(١) أفل الكوكب وأفلت الشمس : غابت . وأفل الشىء : ذهب . [المحيط فى اللغة للصاحب ابن عباد . مادة : أفل] .

(٢) بزغ القمر والشمس : طلعتْ . والبزوغ : ابتداء الطلوع . فبزوغ القمر : طلوعه منتشر الضوء . [تاج العروس للزبيدى - مادة : بزغ] .

وروى الصحابة أنه ﷺ كان يتفصَّد[1] جبينه عرقاً لما ينزل عليه الملَك ، والصحابى الذى كان يجلس بجوار رسول الله ﷺ يسند فَخذَه عليه ، كان يجد ثِقَلاً لا يطيقه حينما ينزل الوحى على رسول الله[2] .

لذلك أراد الحق سبحانه أن يخفف عن رسوله ﷺ هذه المعاناة ، فانقطع الوحى لمدة ستة أشهر ، ليستريح رسول الله وتذهب عنه متاعب التلقِّى الأولى ، وليشتاق إلى لقاء الملَك من جديد ، وإلى كلام الله الذى انقطع عنه ، ولا شكَّ أن هذا الشوق سيعطيه طاقةً لتحمُّل أمر الوحى والدعوة بعد ذلك .

رأى كفار مكة فى انقطاع الوحى عن رسول الله مأخذاً ، فقالوا : إن ربَّ محمد قلاه[3] يعنى : تركه وهجره ، وهم لا يعلمون أن فتور الوحى ليس هَجْراً ، إنما هو وداع الحبيب لحبيبه إلى لقاء آخر أعظم وأطول ، ولذلك أنزل الله تعالى : ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ[4] ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى]

هذا هو موضع الشاهد ، أن الحق سبحانه أقسم لهم بالضحى

---

(١) يتفصد عرقاً : يسيل عرقه . قالت عائشة رضى الله عنها : لقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) كتاب بدء الوحى ، وأحمد فى مسنده (٦/٢٥٧) .

(٢) ذكر البخارى فى صحيحه - كتاب الصلاة ، باب ما يُذكر فى الفخذ (١٢) قول زيد بن ثابت كاتب الوحى موقوفاً عليه : أنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذى ، فثقلت علىَّ حتى خفت أن تُرضَّ فخذى (فتح البارى ١/٤٧٨) .

(٣) عن جندب بن عبد الله البجلى أنه قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ ، فقال المشركون : ودع محمداً ربه . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) .

(٤) سجا : سكن ودام . وقال الفراء : إذا أظلم وركد فى طوله . وليلة ساجية : إذا كانت ساكنة البرد والريح والسحاب غير مظلمة . [لسان العرب - مادة : سجا] .

وهو النهـــار ، وبالليل إذا حَلَّ بظلامـــه ، وجـعل من هاتيـن الآيتـين الكونيـتين دليلاً على أن الـوحى ما انقطع ، إنمـا أراد الله لرسوله أن يرتاح من تعبه ، وأنْ يعاود نشاطه لتلقِّى الوحى من جديد ، كما أنكم تتعبون فى النهار وترتاحون فى الليل .

﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى] ومعروف أن الضـحى للشمس والليل للقمر ، إذن : فـفترة فتور الوحى عن رسول الله يُراد بها التخفـيف عنه ، كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) ﴾ [الشرح]

والمراد : نشرح صدرك لنزول القرآن عليك فتشتاق إليه ، ويكون عندك طاقـة لاسـتـقـبـاله ، فكأن القـرآن أخـذهم من الآيات الكونيـة المحسوسة إلى المعـنويات ، وجعل ما يرونه دليلاً على ما ينكرونه ، يعنى : إذا كنتم فى حركة حياتكم اليومية تحتاجون لليل تسكنون فيه وترتاحون من عناء النهـار ، فكذلك رسول الله يحتاج إلى هذه الـفترة ليرتاح فيها من عناء وثِقَل الوحى فى بدايتـه ، ليجدد نشاطه ويشتاق إلى لقاء الملَك من جديد .

لذلك قال تـعـالى بعــدها ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) ﴾ [الضحى] فمعاودة الوحى سـتكون أعظمَ من الأولى وخير منها ، لأن المعاودة ستكون أطولَ وأقوى .

وكمـا دخلتْ هذه الآيات الكونيـة التى هى الليل والنهار والـشمس والقمـر فى العقيدة فـى قصة سيـدنا إبراهيم وفى الوحى المنزَّل على سيـدنا رسول الله ، كـذلك دخلتْ فى حَلِّ بعض الإشكالات فى قـضايا اجتماعية اهتم الإسلام بها ، وهى قضية المساواة بين الرجل والمرأة .

وهذه قضية كَثُر الجدل فيها ، وأخذها المغرضون ذريعة للهجوم على الإسلام ، مع أن الإسلام أعظم دين أنصف المرأة وأعطاها حقوقها ، وألزم المجتمع باحترامها ، الإسلام ينظر إلى الرجل والمرأة على أنهما نوعان من جنس واحد يعنى : هما فى الأصل شىء واحد .

إذن : لا بدَّ أنْ يكون بينهما قدر مشترك ولما انقسما إلى قسمين ذكر وأنثى ، صار بينهما قدر غير مشترك ، وصار لكل منهما مهمته فى حركة الحياة ، ولكى يوضح لنا السياق القرآنى هذه المسألة قال تبارك وتعالى :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل] فكما أن الليل والنهار متكاملان متعاونان غير متعاندين ، وكما أن لكل منهما مهمته فى الحياة ، هذا للعمل وهذا للراحة ، فكذلك حال الرجل والمرأة ، عنصران لشىء واحد ، وهما يتكاملان ويتعاونان لا يتعاندان كالليل والنهار ، فحين تنظرون إلى الرجل والمرأة لا تنظروا إليهما على أنهما نوعان مختلفان فى الجنس قد يكون بينهما تعاند ، لأنهما من جنس واحد ، والجنس الواحد لا يُصادم بعضه بعضاً ، الجنس الواحد رسالتُه واحدة ، الكلّ يتعاون فى حملها كُلٌّ بما يناسبه وبما خلقه الله له ، وبما أعطاه من قدرات وإمكانيات .

وهذه قضية اختلفوا فيها ، خاصة الملاحدة الذين نظروا إلى الجنس ، ولم ينظروا إلى ما تحته من الذكر والأنثى ، فرغم الاختلاف بين النوعين إلا أنهم أرادوا أن يكون لهما مهمة واحدة لا اختلاف بين الذكر والأنثى .

لذلك الحق سبحانه يعطينا هذا المثل التوضيحى : الليل والنهار ،

وهل مهمة الليل كمهمة النهار ؟ لكلٍّ مهمته وطبيعته ، ومَنْ يعاند هذه الطبيعة يتعب فى حركة حياته . كذلك جُعل الرجلُ للعمل وللقوة والسعى ، وجُعلَتْ المرأة للعاطفة واستقبال الأبناء وتربيتهم ، خاصة وطفولة الإنسان هى أطول طفولة فى الكائنات ، والإشراف عليها مهمة المرأة ولا يجيدها الرجل .

فالحق سبحانه حينما يعطينا هذا المثل يعلِّمنا أن نرد ما اختلفنا فيه إلى ما اتفقنا عليه ، فكما أننا لا نختلف فى مهمة الليل ومهمة النهار ، كذلك ينبغى ألاَّ نختلف فى مهمة الرجل والمرأة ، وألاَّ نُردد كلمة المساواة هكذا دون فَهْم لطبيعة كُلٍّ من الرجل والمرأة ودور كلٍّ منهما الذى خلقه الله له .

وفى موضع آخر يعلمنا الحق سبحانه هذه الحكمة من خلق الليل والنهار ، فيقول سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص]

وبعد ذلك ، جعل سبحانه وتعالى للزمن مدخلاً آخر غير الليل والنهار ، وهو فترات الزمن : الساعات والدقائق والثوانى ، وبها يتم ضبط الزمن ، والساعة التى تضبط لك الوقت لا تؤدى هذه المهمة إلا إذا كانت هى نفسها منضبطة تماماً ، لذلك جعل الله تعالى للشمس وللقمر مهمة أخرى هى مهمة ضبط الوقت ، لذلك جعلهما منضبطتين فى حركتهما بإحكام .

يقول تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن] يعنى : بحساب دقيق محكم لا يختلف أبداً ولا يدخله فساد ، ومن حركة

الشمس والقمر نحسب الوقت خاصة الأمور الدينية التى لا نستطيع أنْ نضبطها إلا بهذه الحركة .

قال تعالى : ﴿ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. ۝٥ ﴾ [يونس] فمن حركة الشمس أعرف الليل والنهار ، ومن حركة القمر أعرف بدايات الشهور ونهاياتها .

إذن : من حركة الشمس والقمر والليل والنهار أستطيع أن أضبط حركة التكليف فى الصلاة بأوقاتها المختلفة ، هذه الأوقات التى تضمن دوام إعلان الولاء لله تعالى فى كل وقت وفى كل مكان نتيجةً لاختلاف المشارق والمغارب على مدار اليوم الكامل .

لذلك قال تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.. ۝٢٨ ﴾ [الشعراء]
وفى موضع آخر قال : ﴿ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ .. ۝٤٠ ﴾ [المعارج]
وقال : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ ﴾ [الرحمن]

نعم ، هى مشارق متعددة ومغارب متعددة ، لأن كلَّ مكان له مشرق وله مغرب ، وكل مشرق فى مكان مغرب فى مكان آخر وهكذا ، ألاَ ترونَ فى الصيام مثلاً أننا نفطر فى القاهرة قبل الإسكندرية بخمس دقائق ، لماذا ؟ لأن مشرق القاهرة غير مشرق الإسكندرية ، ومغرب القاهرة غير مغرب الإسكندرية ، لذلك نسمع المذيع يقول : مع مراعاة فروق التوقيت ، أى : الفروق الزمنية بين مكان ومكان .

إذن : المتأمل فى حركة الشمس يجدها فى لحظة لها شروق ولها غروب ، وعليه فذكْر الله فى الصلاة وفى الأذان يسيح فى الزمن كله بلا انقطاع ، لذلك يقول أهل التصوف : يا زمن وفيك كُلُّ الزمن ، فأنت حين تصلى الفجر ، هناك غيرك يصلى الظهر ، وغيره يصلى العصر ، وغيره يصلى المغرب ، وغيره يصلى العشاء فى الوقت

نفسه وفى اللحظة نفسها ، فتجد الحق سبحانه معبوداً فى كل وقت بكل أنواع العبادة .

وإنْ أردتَ الدقة أكثر فاجعل هذه المسألة مرتبطةً بعقرب الثوانى فى ساعتك لا عقرب الدقائق ولا الساعات ، ففى كل ثانية لله مؤذن يُؤذِّن : الله أكبر . وغيره يقول : أشهد ألاَّ إله إلا الله ، وغيره فى نفس اللحظة يقول : أشهد أن محمداً رسول الله وهكذا . فكأن شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله دائمة بدوام الزمن لا تنقطع من الوجود أبداً .

ثم يعطينا الحق سبحانه ملحظاً آخر للشمس والقمر ؛ لأنهما من أعظم المخلوقات ، وعُرف عنهما الثبات والدقة والعظمة فى الخَلْق ، حتى أن بعض الناس عبد الشمس أو القمر ، فأراد الحق سبحانه أن يلفت الخلق إلى عظمة الخالق الذى هو أَوْلَى بالعبادة من مخلوقاته .

فجعل الشمس والقمر يعتريهما تغيير هو الكسوف والخسوف ، فمهما كانتْ الشمس ، ومهما كان القمر هما مخلوقان متغيران ، والمتغير لا يكون معبوداً أبداً ؛ لذلك قال سبحانه فى الآية التى معنا :

﴿ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) ﴾ [فصلت]

الحق سبحانه فى أول الآية قال : **﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. (٣٧) ﴾** [فصلت] والآية هى الشيء العجيب فى الخَلْق البديع فى نظامه وإحكامه ، وهذا الخَلْق العظيم ينبغى أنْ يُعظِّم بتعظيم الله له ، لكنْ لا يجوز أنْ يتعدَّى هذا التعظيم إلى حَدِّ العبادة ، وإلى حَدِّ السجود للمخلوق مهما كان عظيماً ، لأنه مخلوق مُتغيِّر ، والإله لا يتغير من أجل العباد ، لكن العبادَ يتغيرون من أجل الله .

وهذه المسألة تُفسِّر لنا قضية سجود الملائكة لآدم عليه السلام ، فلم يكن سجودَ عبادة ، إنما كان امتثالاً لأمر الله لهم بالسجود لآدم ، لكن لماذا أسجد اللهُ الملائكة لآدم ؟

قالوا : لأن آدم سينزل إلى الأرض ، وستكون له حركة إعمار فيها ، وستكون الملائكة فى عوْنه تساعده على أداء مهمته فى الأرض ، الملائكة الموكلون بأمور الناس وهم المدبِّرات أمراً ، وكما قال تعالى فى وصفهم : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [الرعد]

فالملائكة الذين أُمروا بالسجود ليس هم كلّ الملائكة ، إنما الذين لهم علاقة بالإنسان ، فكأن الحق سبحانه يُعرِّفهم على هذا المخلوق الجديد ، الذى سيكونون فى خدمته ، فاسجدوا له سجودَ خضوع وامتثال ، ليعلموا أنهم فى خدمته يُدبِّرون له الأمور .

لذلك ورد فى الحديث الشريف[١] « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم : كيف تركتم عبادى فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون » يعنى : على هيئة ورديات دائمة لا تنقطع .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٣٢) والبخارى فى صحيحه (٥٥٥) من حديث أبى هريرة . قال النووى فى شرحه على صحيح مسلم (٣/١٣٩م) طبعة دار القلم بيروت : « أما اجتماعهم فى الفجر والعصر فهو من لطف الله تعالى بعباده المؤمنين وتكرمة لهم أن جعل اجتماع الملائكة عندهم ومفارقتهم لهم فى أوقات عباداتهم واجتماعهم على طاعة ربهم ، فتكون شهادتهم لهم بما شاهدوه من الخير » .

ومن الملائكة نوعٌ آخر لا دَخْلَ له بالإنسـان ، ولا علاقةَ له به ، بل لا يدرون عن عالمنا هذا شـيئاً ، وهم العَالُون الذين قـال الله فيهم في الحديث عن إبليس : ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص]

إذن : إذا كان السابقون عظموا الشمس والقمر حتى سجدوا لهما ، فاعلموا أن خالقهما أَوْلَى بالسجود : ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت] يعني : إن كنتم تأتمرون بأمره .

ملحظ آخر نأخذه من الشـمس يُوقفنا على شيء غـريب لم نكُنْ نعـرفه من قـبل ، ففي سـورة الكهف يحكي لنا القـرآن سيـاحة ذي القرنين ، فيقول سبحانه : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ .. ﴿٨٦﴾﴾ [الكهف]

أي : مغرب الشمسَ في مـرأى العين ، لأنك لو وصلتَ إلى العين الحمئة فسوف تجد الشمس ما زالتْ بعيدة ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾ [الكهف] ذلك لأنه رجل مُمكَّن في الأرض ، له منزلة وسلطان .

والمُمكَّن في الأرض مهمته أنْ يقيم فـيها موازين العدالة ومعايير الصواب والعقاب ، لأن حركـة الناس في الدنيا لا تستقيم إلا إذا أُثيب المحسن وعُوقب المسيء .

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾

وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الكهف]

ثم تكلم عن مطلع الشمس ، فقال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ ﴾ [الكهف] يعنى : ليس بينهم وبينها حجاب يسترها ، ولم يذكر لنا شيئاً بعد مطلع الشمس كما ذكر الدرس السابق عند مغرب الشمس ، حيث كان له عمل ودور مع مَنْ أحسن ومن أساء ، أما فى مطلع الشمس فقال : ﴿ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ ﴾ [الكهف] وسكت ، فكأن الهدف أنْ نعرف أن ذا القرنين وصل إلى مكان ، نهاره طويل لا شىء يحجب الشمس فيه .

وبعد أن اكتشف العلماءُ خطوطَ الطول وخطوط العرض عرفنا أن بعض الأماكن عند القطبين يطول النهار حتى يصل إلى ثلاثة أشهر أو ستة أشهر ، وهذه لقطة من إعجاز القرآن العلمى .

فإنْ قلتَ : فكيف يفعل مَنْ يعيش فى هذه الأماكن ؟ كيف يصلى وكيف يصوم ؟ نقول : يُقدِّر لليوم العادى مقداره ، ولليل مقداره فيقسم الوقت إلى ليل ونهار كالمعتاد ، وكذلك مَنْ كان ليله ثلاثة أشهر أو ستة أشهر .

ملحظ أخير يتعلق بصياغة الآية وما فيها من دقة بيانية ، فالحق سبحانه بدأ بآية الليل ثم النهار ، وبدأ بالشمس ثم القمر ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت] وكانت المناسبة تقتضى أنْ يقول : والقمر ليناسب الليل ، والشمس لتناسب النهار .

لكن لصياغة القرآن حكمة ودقة بيانية ، فالحق سبحانه يبدأ بالأهم فى حركة الحياة ، فالليل جُعل للراحة والنهار للعمل ، لأن الخالق سبحانه خلق الإنسانَ لإعمار الأرض ، وللسعى فى مناكبها ، ولا إعمارَ إلا بحركة ، والحركة تحتاج إلى زمنين : زمن للراحة ، وزمن للعمل .

فقدَّم الليل وقت الراحة لأنك لا تنتج ولا تكدّ إلا إذا أخذتَ حظك من الراحة أولاً ، فكأن الراحة أولاً هى أصلٌ يأتى بعدها العمل ، وإلا فالمتعَب المكدود لا ينتج ولا ينجز ، كذلك قدَّم الشمس على القمر ، لأنها الأعظم والأهم ، ومنها تستمد كل النجوم والكواكب نورها .

وما دُمْنا بصدد الحديث عن الليل والنهار ، فلا بدَّ أن يواجهنا هذا السؤال : أيهما أوَّلٌ فى الخَلْق ؟ البعض يقول : الليل أولاً . بدليل أننا نثبت مثلاً دخولَ رمضان بليله لا بنهاره ، فحين نرى الهلال نقول : غداً رمضان ، والذين يعتقدون أن الليل وُجد أولاً لابدَّ أن لديهم قضية أخرى هى أن النهار غير سابق لليل .

الحق سبحانه يُنهى هذه المسألة ، فيقول سبحانه : ﴿ **لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ**[1] **يَسْبَحُونَ** ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس]

وننتهى بذلك إلى حقيقة كونية أثبتها الحق سبحانه هى : لا النهار يسبق الليل ، ولا الليل يسبق النهار ، لأنهما كما بينَّا وُجدا فى بداية الخَلْق معاً ، فى وقت واحد ، ثم دار كل منهما مع الآخر .

---

(١) الفَلَك : مدار النجوم . والجمع أفلاك . وأهل النجوم يقولون : الفلك سبعة أطواق دون السماء قد رُكِّبت فيها النجوم السبعة ، فى كل طوق منها نجم وبعضها أرفع من بعض يدور فيها بإذن الله [اللسان – مادة : فلك] .

﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ[1] يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ (٣٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا .. (٣٨) ﴾ [فصلت] أى : عن طاعة الله فى أمره ونَهْيه فى الآية قبلها ﴿ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ .. (٣٧) ﴾ [فصلت] ، والاستكبار هنا يدلُّ على عدم الإيمان بالله الآمر الناهى ، لأنهم سجدوا للشمس وسجدوا للقمر سجودَ عبادة ، والعبادة تعنى طاعة العابد لأمر المعبود ، والشمس والقمر ليس لهما أوامر ولا نَوَاه ، فعبادتهما باطلة ، وتدل على غباء مَنْ عبدها وعلى كذبه فى هذه العبادة ، لأنها مخلوقات لا أمرَ لها ولا نهى ولا تكاليفَ ، لا تثيب مَنْ أطاعها ، ولا تعاقب مَنْ عصاها .

لذلك قلنا : إن كلمة العبادة هنا كذب وباطلة (فنطزية) يعنى ؛ المهم يكون لهم معبودٌ يُرضى عنده رغبته فى التدين ، وما أسهلَ أنْ يتخذَ الإنسانُ معبوداً لا تكاليفَ له .

لذلك لما قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر] قلنا : كلمة نعبدهم هنا كذب ، بدليل أنكم إذا نزل بكم الضر لا تلجئون إلى الشمس ولا إلى القمر ، إنما تلجئون إلى الله : ﴿ وَإِذَا

---

(١) قال الرازى فى تفسير هذه الآية (فصلت ٣٨) : تمسك المشبهة بقول ﴿ فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ (٣٨) ﴾ [فصلت] فى إثبات المكان والجهة لله تعالى ، والجواب : أنه يقال عند الملك من الجند كذا وكذا . ولا يراد به قرب المكان . فكذا ههنا . ويدل عليه قوله « أنا عند ظن عبدى بى » « وأنا عند المنكسرة قلوبهم لأجلى فى مقعد صدق » .

مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء]

وقال : ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ .. (٣٣) ﴾ [الروم]

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (٣٨) ﴾ [فصلت]

المعنى : أن الحق سبحانه مُستغْنٍ عن طاعة هؤلاء المستكبرين وعن عبادهم ، فله سبحانه ملائكة مُكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون ، يُسبِّحون الليل والنهار لا يفترون ، ولا عملَ لهم سوَى التسبيح ، وهم لا يسأمون ولا يملّون ولا يتعبون .

قالوا في العندية هنا ﴿ فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ .. (٣٨) ﴾ [فصلت] أنها عندية مكانة ، لا عندية مكان ، عندية تكريم وشرف ، كما قال سبحانه عن الشهداء : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾ [آل عمران]

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥) ﴾ [القمر]

فهؤلاء الملائكة ليسوا عند الله في مكان واحد ، ولا هم قاعدون معه سبحانه ، إنما هي مثلنا تماماً لا يروْنَ الله سبحانه ، ويؤمنون به مثلنا بالغيب ، والله بالنسبة لهم غَيْبٌ ، وبعض التفسيرات وأنا أشجعها تميل إلى أن الله تعالى ليس له مكان لأنه في كل مكان ، فكل مكان عند الله .

ولذلك اقرأ قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لاَّ تُبْصِرُونَ

(٨٥)﴾ [الواقعة] البعض يقول : العندية هنا عندية علم ، ولو كانت كذلك لم يقُلْ ﴿ولَـكِن لاَّ تُبْصِرُونَ (٨٥)﴾ [الواقعة] فما دام قال ﴿ولَـكِن لاَّ تُبْصِرُونَ (٨٥)﴾ [الواقعة] فهى عِنْدية حقيقية شائعة فى كل مكان .

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)﴾

ما يزال السياق القرآنى يأخذنا إلى الآيات الكونية التى تثبت قدرة الخالق سبحانه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ .. (٣٩)﴾ [فصلت] من هنا قلنا للتبعيض . يعنى : هذه بعض آيات الله (آياته) أى : الكونية الدالة على قدرته تعالى ، وهى الشىء العجيب الدالّ على بديع الصنعة ﴿أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً .. (٣٩)﴾ [فصلت] أى : ساكنة مستقرة لا شىء عليها من زرع مثلاً ، لأن الأرض خُلقت لتكون تربة للنبات ، وكأنَّ الأرض التى لا زرعَ عليها أرضٌ حزينةَ خاشعة ساكتة ساكنة لأنها لم تنبت ، وربما شابهت فى ذلك المرأة التى لا تنجب .

﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ .. (٣٩)﴾ [فصلت] اهتزَّتْ : تحركت (وَرَبَتْ) زادت وانتفشتْ ، ترونَ حبة الفول النابت مثلاً تكون جافة جامدة ، فإذا بللتها بالماء زادتْ فى الحجم وانتفشَتْ ، والمراد : اهتزتْ وتحركت بما يخرج منها من نبات .

﴿إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا .. (٣٩)﴾ [فصلت] أى : أحيا هذه الأرض الساكنة بالنبات وحوَّلها إلى هذا البساط الأخضر النضر ﴿لَمُحْيِى الْمَوْتَىٰ .. (٣٩)﴾ [فصلت] إذن : خُذْ من هذه الآية الحسّية المشاهدة

لك دليلاً علَى صدْق ما غاب عنك وأخبرك الله به من أمر إحياء الموتى ، فيا مَنْ تكذِّب بالَبعث وإحياء الموتى ، أما لك عبرةٌ فى إحياء الأرض القَفْر الجدباء بالنبات .

﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : قدرة الله فيها طلاقة ، لأنه سبحانه لا يعجزه شىء ، والذى خلق الخلْق الأول من عدم أقدرُ على إعادته ؛ لأن بعث الميت يبعث شيئاً موجوداً وهذا أهون لو قلنا تجاوزاً فى حَقِّ الله تعالى هيِّن وأهون ، لكى نفهم نحن ، يقول تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [ق]

الحق سبحانه وتعالى أخبرنا عن كيفية خَلْق الإنسان والذى يعرف كيفية البناء يعرف منها كيفية الهدم ، وقلنا : إنها عكس البناء ، فما بُنِى أولاً يُهدم آخراً ، وآخر شىء فى البناء أول شىء فى الهدم وهنا الروح .

ولا بدَّ أن نذكر هنا أن الحق سبحانه حذَّرنا من المضلين الذين يضلون الناس فى مسألة الخَلْق . فقال : لا تُصدِّقوا مَنْ يخبركم بشىء فى هذا الموضوع لأنه لم يشهد عملية الخَلْق : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا[1] ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف]

إذن : فكأن الذين قالوا إن الإنسان أصله قرد جنودٌ لهذه الآية

---

(١) عضداً . أى : أعواناً مساعدين . ومنه قول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص] أى : سنقويك به على سبيل المجاز المرسل فتقوية العضد تقوية للإنسان كله . [القاموس القويم ٢/ ٢٤] .

ودليل على صدقها ، فالحق سبحانه يعلم ذلك ويتنبأ لنا به ، وها هو يحدث فلا تُصدِّقوهم ، إنهم كاذبون بدليل أن الإنسان عاش على هذه الأرض آلاف السنين لم يَرَ إنساناً تحوَّل إلى قرد ، ولا قرداً تحوَّل إلى إنسان .

ولقد توصَّل العلم الحديث إلى صدق القرآن فى مسألة خَلْق الإنسان من طين الأرض ، حيث وجدوا أن عناصر تكوين الإنسان هى نفس عناصر تكوين الأرض ، وهى ستة عشر عنصراً ، وحين يموت الإنسان تتحلَّل هذه العناصر وتذوب فى الأرض ، فأجزاؤه موجودة يعلمها الله ويُحصيها وهو وحده القادر على إعادتها .

واقرأ : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ق] فالمسألة صعبة بالنسبة لك ، لكنها سهلة هيِّنة على الخالق سبحانه ، فهو عز وجل يعلم كم نقص منك من عناصر ومقدار هذه العناصر ونحن بنو البشر نختلف فى أشكالنا وألواننا ، لكن المادة واحدة هى الستة عشر عنصراً فى الكل ، لكن الأجزاء تختلف ، ونسبة هذه العناصر تختلف من إنسان لآخر ، ولذلك تختلف شخصياتنا .

فقوله : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ .. ﴿٤﴾ ﴾ [ق] يعنى : كم أخذتْ منك من الأكسوجين ، وكم أخذت من الكربون ، وكم أخذت من الحديد .. وهكذا فهى إذن مقادير معلومة فى علم الله سبحانه وفى هذا الكتاب الحفيظ الذى يحفظ كل شىء بكل دقَّة ، وحفيظ فعيل يعنى : صيغة مبالغة من الحفظ . فلا تُكذِّب بالبعث ، وخُذْ مما ترى دليلاً على صِدْق ما أخبرك ربُّك به من الغيبيات .

قلنا : لو أن إنساناً يزنُ مائة كيلو مثلاً ثم مرض ، فنزل وزنه إلى ستين ، فكم فقد من وزنه ؟ فقد أربعين ، أين هى ؟ نزلتْ

فضلات إلى الأرض ، نعـم ، ثم ذهب إلى الطبيب فعالجـه وشفاه الله وبدأ يأكل حتى عاد إلى وزنه الأول .

هل أخذ نفس العناصر ذاتها التى فقدها ؟ لا بل أخذ مثلها ، مثل المريض مـثلاً بنقص الحديد فيـعطيه الطبيب دواء غنياً بالحـديد حتى تعتـدل عنده نسبـة الحديد فى الدم ، إذن : أخذ نفس الـعناصر التى فقدها من عنصر الحديد ، لكن ليستْ هى هى التى فقدها من قبل .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ يُلْحِدُونَ .. (٤٠) ﴾ [فصلت] : أى : يميلون بآيات الله عن الحق والاستقامة إلى باطل يرونَهُ هم حقاً ، أو يُحرِّفون الآيات تبعاً لأهوائهم ؛ لأن آيات الله لهـا معان ، فهم يُلحدون فـيها . يعنى : يُخفونها ويُظهرون لها معانىَ أخرى باطلة ، كما نلحد نحن الميت فى باطن الأرض ، بعد أنْ كـان يسيرُ عليهـا ، فالمعنى يُخْـفُون حقائقـها ليُرضُوا كفرهم وهواهم .

ومن الإلحـاد فى آيات الله ما وقع فـيه البـعض من التشـبيـه أو التمـثيل فى أسمـاء الله وصفاته ، فـحين يقـفون عند صفـة لله تعالى يُوجد مثلها فى البشـر يُشبـِّهـون ، فالله له سمع ليس كسمْعنا ، وله يد ليـست كأيدينا ، وله بصـر ليس كبـصرنا ، إذن : لا بدَّ أنْ نـأخذ هذه الصـفـات فى إطار عـام للآيات الكليـة ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

ومنه قولهم عن المعجزة سِحْر فى قصة سيدنا موسى - عليه السلام - مع فرعون وفَرْق بينَ السحر والمعجزة ، المعجزة حقيقة والسحر تخييل بعيد عن الحقيقة ، صحيح أن معجزة موسى عليه السلام كانت من جنس السحر لأنه المجال الذى نبغ فيه قومه لكنها لم تكُنْ سحراً .

فالحبال التى رماها سحرة فرعون رآها موسى ثعابينَ تسعى ، أما السَّحَرة أنفسهم فيروْنَها حبالاً ، فالسحر يُخيل لك الشىء أنه غيره مع أنه ليس كذلك فى الحقيقة إنه مجرد خيال ، لذلك قال تعالى : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه] تخييل لا حقيقة .

لكن لما ألقى موسى عصاه ، ماذا حدث ؟ تحولتْ إلى حية حقيقية ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ[1] فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) ﴾ [طه] ولا يمكن أنْ يخاف موسى من عصاه وهى عصاً لا بدّ أنها انقلبتْ إلى حية بالفعل وهو يراها كذلك ، وبدليل أيضاً أن سحرة فرعون وكانوا كثرةً ، ولهم تمرُّس بأساليب السحر ويستطيعون التمييز بين السحر والحقيقة ، رأيناهم يرفعون راية التسليم لموسى ويؤمنون معه ، لماذا ؟

لأنهم رأوا معجزة هم أخْبَرُ الناس بها ، وأنها ليست سحْراً من جنس سحرهم ، ولا تخييل كما يفعلون هم ، ولو كان فعْل موسى تخييلاً ما قال الله له : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) ﴾ [طه]

---

(١) أوجس فى نفسه : أضمر الخوف فى نفسه حين رأى أعمال السحرة ، وقال فى قصة إبراهيم مع الملائكة : ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. (٢٨) ﴾ [الذاريات] أى : أحسَّ الفزع والخوف . [القاموس القويم ٢/٣٢١] .

وكما قالوا فى موسى - عليه السلام - أنه ساحر قالوها فى سيدنا محمد ﷺ ، والردّ عليها كما أوضحنا بسيط ، نقول لهم : لو كان محمد ساحراً سحر مَنْ آمن به ، فلماذا لم يسحركم أنتم وتنتهى المسألة ؟

ومن إلحادهم فى آيات الله قولهم عن رسول الله ﷺ أنه مجنون مع أنهم ما جرَّبوا عليه شيئاً من ذلك ، وعُرف بينهم بالصادق الأمين ، واتصف فيهم بكريم الأخلاق ، وصاحب الخلق لا يكون أبداً مجنوناً ، وقد ردّ الله عليهم ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢)﴾ [القلم]

ومن إلحادهم فى القرآن أنهم قالوا عنه إنه شعر ، وعجيبٌ منهم ذلك لأنهم أعرفُ الناس بأساليب الشعراء وتعبيرات الشعراء ، هم يعرفون أن القرآن مُعْجز ، وأنه من عند الله ، وأن أسلوبه لا يُضاهَى ، وأنه فريدٌ من نوعه ومع ذلك يكذبون ، وهذا هو الإلحاد .

ومعلوم أنَّ من عظمة القرآن الكريم أنه ليس له أسلوبٌ يُحتَذى ، وأن له مذاقاً خاصاً ، وتقرأ الحديث النبوى تجد له مذاقاً آخر ، وتقرأ الحديث القدسى تجد له مذاقاً آخر ، فمَنْ يجمع كلّ هذه الأساليب بهذا التميز ، وكل منها يفيض عليك بفيض غير الآخر ، وقد ردّ الله عليهم هذا الإلحاد فقال : ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١)﴾ [الحاقة]

ومن إلحادهم أنْ يُغيروا فى الأشياء المطلوبة منهم ، وأنْ يُحرِّفوا الكلمات ، يقول تعالى : ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا[1] يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ .. (٤٦)﴾ [النساء]

---

(١) الهَوْد : التوبة والرجوع إلى الحق . هُدْنَا : معناه تبنا إليك ورجعنا وقربنا من المغفرة . هذا هو الأصل اللغوى للكلمة . والتهويد أن يصير الإنسان يهودياً . [لسان العرب - مادة : هود] .

فكانوا يقولون (راعنا) يلوون بها ألسنتهم يعنى : من الرعونة ، لذلك نهى الله المؤمنين أن يقولوها ، فقال سبحانه فى سورة البقرة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) ﴾ [البقرة]

ومن ذلك إلحادهم فى السلام على رسول الله ﷺ ، فبدلَ أنْ يقولوا : السلام عليكم قالوا : السام عليكم .

إذن : فوُجُوه إلحادهم فى آيات الله كثيرة ، وقد أخبر اللهُ عنهم أنهم نَسُوا حظاً مما ذُكِّروا به ، والذى لم ينسوه حرَّفوه ، والذى لم يُحرِّفوه كتموه ، وليْتهم وقفوا عند هذا الحد ، بل وصلتْ جُرأتهم على الله أن يكتبوا الكتاب بأيديهم ويقولون : هذا من عند الله ، وما هو من عند الله ، وهذا كله ألوان مختلفة لإلحادهم .

لذلك الحق سبحانه يخبر هنا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا .. (٤٠) ﴾ [فصلت] نعم لا يخفَوْنَ عن علم الله ، فعدم الخفاء شىء لازم ، لكن المراد أنْ نخبرهم بجريمتهم حتى نعاقبهم عليها ، لأن الجريمة شىء والعقوبة عليها شىء آخر ، فالحق يُعرِّفهم بجريمتهم حتى يكون للعقوبة موضعٌ ، كما يقول أهل القانون : لا تجريمَ إلا بنصٍّ . فكأن الحق سبحانه لا يأخذهم على غِرَّةٍ ، ولا يتركهم فى عَمَىً ، إنما يُوضح لهم قبل أنْ يُؤاخذهم .

﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِى آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (٤٠) ﴾ [فصلت] هذا سؤال معلوم الإجابة عنه ، والحق يسألنا وهو يعلم أن الجواب سيكون كما يريد سبحانه ، فكأن الحق سبحانه يقول لنا من خلال هذا السؤال : احرصوا على أوامر الله نفِّذوها ، وإياكم والنواهى فاجتنبوها ، فهذا هو سبيل الأمن والنجاة من النار ، وهل يستوى مَنْ

يُلْقى فى النار ومَنْ يأتى آمناً سالماً ؟

وما دام أن هذا السؤال جاء بعد الكلام عن الإلحاد فى آيات الله فيكون المعنى : الذين يلحدون فى آيات الله لهم النار يُلْقَوْنَ فيها يوم القيامة ، والذين لا يُلحدون فى آيات الله يأتون آمنين .

ومن الغباء أن الإنسان يُلحد فى آيات الله لينالَ بذلك سلطةً زمنية أو مكانة مؤقتة ، مآلُها إلى زوال مُحقق ، ثم يلاقى بعد ذلك مصيراً مؤلماً فى نار خالدة لا نهايةَ لها .

تعالَ إلى أعظم الناس نعيماً فى الحياة ، أخذ منها الغنَى والقوة والسلطان والمهابة والعز كله ، واسأله هل يُنغِّص شىء هذه النعمة ؟ سيقول لك : أخاف ألاَّ تدوم ، نعم يُنغصها على أصحابها عدم دوامها ، فإما أنْ تتركهم النعمة وهم أحياء يُرزقون ، وإما أنْ يتركوها هم بالموت .

لذلك يخبرنا سيدنا رسول الله ﷺ عن حال هؤلاء المنعَّمين فى الدنيا من أهل الكفر كيف هم فى الآخرة ؟ يقول الرسول : « أن الواحد منهم يُغمس غمسةً واحدة فى النار - والعياذ بالله - ثم تسأله الملائكة : هل رأيتَ فى الدنيا نعيماً قط ، يقول : لا والله ما رأيتُ فيها نعيماً قط ! »[1] .

---

(١) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « يؤتى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من الكفار فيُقال : اغمسوه فى النار غمسة فيُغمس فيها ثم يقال له : أى فلان هل أصابك نعيم قط ؟ فيقول : لا ما أصابنى نعيم قط . ويؤتى بأشد المؤمنين ضراً وبلاء فيقال : اغمسوه غمسة فى الجنة فيغمس فيها غمسة فيقال له : أى فلان هل أصابك ضر قط أو بلاء فيقول : ما أصابنى قط ضر ولا بلاء » . أخرجه ابن ماجه فى سننه (حديث ٤٣١٢) .

فمَنْ إذن يترك نعمةً باقية خالدة لنعمة مُنغصة زائلة فانية ، ثم أنت تتنعَّم فى الدنيا على قدر إمكاناتك وقدراتك ، وفى الآخرة تتنعم على قَدْر قدرة الله وكرمه وعطائه فى جنة فيها ما لا عَيْنٌ رأيت ، ولا أُذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر .

وما دُمْنا أمام أمرين لا يستويان ، ووجه الصواب فيهما واضح ، وما دُمْنا قد بيَّنا لكم هذا البيان فأنتم أحرارٌ اختاروا لأنفسكم ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [فصلت] والأمر هنا للتهديد وللتحذير ، يعنى : اعملوا ما شئتم فالله يراكم ، والله مُطلع على أعمالكم ، وقادر على أنْ يُجازيكم عليها جزاءً وفاقاً .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ[1] لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾

الكفر هنا بمعنى الستر أى : ستر الإيمان بواجب الوجود ، لأن الستر يقتضى مستوراً ، فما هو المستور فى عملية الكفر ؟ الكفر يستر مقابله ، يستر الإيمان ، فكأن الإيمان أمرٌ فطْرى وهو الأصل والكفر طارىء عليه ليستره ، وكأن الكفرَ بهذا المعنى جُنْد من جنود الإيمان ودليلٌ عليه .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٣٢) : « الذكر هاهنا القرآن فى قول الجميع ، لأن فيه ذكر ما يحتاج إليه من الأحكام » .

وكلمة ﴿ بِالذِّكْرِ .. (٤١) ﴾ [فصلت] هنا بمعنى القرآن الذى نزل على قلب رسول الله ﷺ ، قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر] ويُطلق الذكر أيضاً على الكتب السابقة على القرآن : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) ﴾ [الأنبياء] ويُطلق الذكر ويُراد به الصِّيت والمنزلة . ﴿ وَإِنَّهُ (٤٤) ﴾ [الزخرف] أى : القرآن ﴿ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. (٤٤) ﴾ [الزخرف] وقال سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. (١٠) ﴾ [الأنبياء]

ويُطلق الذكر على تسبيح الله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ .. (٩١) ﴾ [المائدة]

ويُطلق الذكر على ذكر الله بالطاعة ، وذكر الله للعبد بالفيوضات والمغفرة : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. (١٥٢) ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) ﴾ [فصلت] كلمة عزيز لها معانٍ منها العزيز أى : النادر الثمين . والعزيز : الغالب الذى لا يُغلب . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤) ﴾ [آل عمران] فالقرآن غالبٌ يعلو ولا يُعْلَى عليه ، يأخذ بالقلوب ويستولى عليها ، بدليل قولهم[1] : ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت]

---

(١) أى : كفار مكة . قال ابن عباس : قال أبو جهل : إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه حتى لا يدرى ما يقول . [تفسير القرطبى ٩/٦٠٢١] .

ذلك لأن الذى يسمع كلام القرآن ، لا بُـدَّ أن ينبهر به شريطة أنْ يستقبله بقلب صافٍ ووجدان غير جامد ، فإنْ صادف حُسْنَ الاستقبال كان له هذا الأثر الذى رأيناه فى قصة إسلام سيدنا عمر رضى الله عنه ، وكان من ألدِّ خصوم الإسلام إلى اللحظة التى علم فيها بإسلام أخته وزوجها[1] ، فجاء إليها ولطمها حتى سَالَ الدَّمُ من وجهها ، فكان هذا الدمُ سبباً فى رِقَّة قلبه رِقَّةً غلبتْ جهله ، فلما سمع القرآنَ منها سمعه هذه المرة بقلب ومواجيد وعاطفة صافية فتأثر به وأسلم .

إذن : فالقرآن عزيز غالب ، لذلك ورد فى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فإن المُنبتَّ[2] لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى »[3] .

وقال : « ولن يُشَادَّ الدِّين أحدٌ إلا غَلَبه »[4] .

فإذا أردتَ أنْ تختار بين أمرين أو توازن بينهما ينبغى أن تكون

---

(١) هو : خبَّاب بن الأرت بن جندلة بن سعد ، من تميم ، أبو يحى التميمى من نجباء السابقين ، شهد بدراً والمشاهد . قيل : مات فى خلافة عمر وصلى عليه عمر . بل مات بالكوفة عام ٣٧ هجرية وصلى عليه على ، وقيل : عاش ثلاثاً وسبعين سنة . [الأعلام للزركلى ٢/٣٢٣] .

(٢) المنبت : الذى انقطع فى سفره أى أصاب دابته الإعياء والتعب وبلغ بها مبلغاً كبيراً ، فلا هو أراح دابته لتصل به إلى حيث يشاء ، ولا هو وصل إلى المكان الذى يريده .

(٣) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (٣/١٨) من حديث جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قال : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولا تُبغِّض إلى نفسك عبادة الله ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » وأخرجه البيهقى أيضاً فى شعب الإيمان (٣٧٢٨) من حديث عائشة ، (٣٧٢٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٤) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٨) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الدين يُسْر ولن يُشادَّ الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا » ، وكذا النسائى فى سننه (حديث ٤٩٤٨) .

خالىَ الذِّهْن تماماً وتُخرج ما فى قلبك من هَوىً لأيِّهما ، ثم تُوازن بينهما ، فما ارتحتَ له فَامْض فيه ، لذلك قال تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. ④ ﴾ [الأحزاب]

إذن : هو قلب واحد ، إنْ عُمر بالشر كيف يستقبل الخير ؟ لابد أنْ تُخرج الشر أولاً لأن الشر سيطرد الخير .

يقول تعالى عن تلقِّى المنافقين والكافرين للقرآن : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. ⑯ ﴾ [محمد] يعنى : كأنهم لم يتأثروا به ولم يفهموه ، أى : كبْراً وعناداً ، فردَّ الله عليهم ﴿ قُلْ هُوَ .. ㊹ ﴾ [فصلت] أى : القرآن ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ[1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. ㊹ ﴾ [فصلت]

فالقرآن واحد ، لكن أثره مختلف باختلاف المتلقى ، فهو هدى وشفاء لأهل الإيمان ، وعَمىً لأهل الكفر والنفاق .

إذن : الحق سبحانه يريد منَّا عدالة الاختيار وعدالة البحث والموازنة بين الأمرين ، فإنْ توفَّرتْ هذه العدالة فالقرآن غالبٌ لا محالةَ ، القرآن لا يزاحمه ولا ينافسه شىء إذا استُقبل الاستقبالَ السليم ، حتى فى الأمور التى يقف فيها العقل تجد الوجدان يصدقها .

لذلك قلنا : إن واردَ الرحمن لا يطارده واردُ الشيطان ، وهل عارضت أم موسى وارد الرحمن لما قال لها : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي .. ⑦ ﴾ [القصص] العقل لا

---

(١) وقرت أذنه : ثقل سمعها أو صُمَّت وقراً . فالوقر : ثقل فى السمع أو صمم . [القاموس القويم ٢/ ٣٥٠] .

يقبل هذا ، لكن يقبله الوجدان الصافى ، والذين سمعوا القرآن فلم يتأثروا به ولم يثمر فى أنفسهم ثمرته ، إنما استمعوه وهم مشغولون بضده .

فنحن إذن فى حاجة إلى عدالة الاختيار ثم حماية الاختيار ، لذلك نقول فى الرد على مَنْ يدَّعى أن الإسلام نُشِر بحدِّ السيف ، هذا غير صحيح ، فالسيف فى تاريخ الإسلام ما جاء ليفرض عقيدة ، إنما جاء لحماية الاختيار ، وحماية حرية الدين فى الإعلان عن نفسه ، وحرية العقيدة أمر كفله الإسلامُ بدليل أنه ترك فى بلاد الإسلام ناساً على كفرهم وعلى ديانتهم ، وقال : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف]

ولأن الإسلام انطلق من حرية الاعتقاد وجعل الدين اختياراً حكَمَ على المرتد بالقتل[1] ، والعجيب أن أعداء الإسلام يأخذون هذه المسألة مطعناً فى دين الله ، ويقولون : إن الإسلام يحارب حرية الاعتقاد ويُجبر الناس على اعتناقه .

وهذا اتهام باطل ، فالمتأمل يجد أنَّ الإسلام يعلن هذا الحكم لمن لم يؤمن بَعْد ، يقول له : انتبه قبل أنْ تدخلَ الإسلام ، ولاحظ أنك

---

(١) قال رسول الله ﷺ : « من بدل دينه فاقتلوه » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٩٤ ، ٦٤١١) وأبو داود فى سننه (٣٧٨٧) والترمذى فى سننه (١٣٧٨) وقال : صحيح حسن والعمل على هذا عند أهل العلم فى المرتد . وكذا النسائى فى سننه (٣٩٩١ ، ٣٩٩٢ ، ٣٩٩٣ ، ٣٩٩٤ ، ٣٩٩٥) وكذا ابن ماجة فى سننه (٢٥٢٦) ، وكذا أحمد فى مسنده (١٧٧٥ ، ٢٤٢٠ ، ٢٤٢١ ، ٢٨١٣ ، ٢١٠٠٧) ، فهذا الحديث حديث صحيح .
وقول الجمهور على أن المرتد يُستتاب ثلاثة أيام لعله يتوب فإن لم يتب يقتل ، وذهب على إلى أنه يستتاب شهراً . أى : أن لكل مرتد حالته التى يتم فيها تقدير وضعه .

تُقتل لو ارتددتَ عنه ، وهذه عقبة فى طريق الإسلام تُمحِّص أهله بحيث لا يُقبل عليه إلا مَنْ اقتنع به واستقرَّ الإسلام فى قلبه بلا منازع ، فالحكم بقتل المرتد يحمى إقبالك على الاختيار ويُنبهك ، فإما أنْ تنصرف ، وإما أنْ تعرف أنه الحق فتؤمن به .

وقوله تعالى : ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ .. (٤٢)﴾ [فصلت] يعنى : لا يأتيه الباطل من أىِّ جهة ؛ لذلك حاول المستشرقون أنْ يتلمسوا فى القرآن مأخذاً .. وهيهات لهم ذلك .. فوقفوا مثلاً عند قوله تعالى : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ[1] نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١)﴾[الإسراء]

ورأوا أن فى الموضعين تكراراً فقالوا : إذا كان القرآن بليغاً فأىُّ الآيتين أبلغ ؟ وإنْ كانت إحداهما بليغة فالأخرى غير بليغة ، وهؤلاء يفتقدون الملكة التى تساعدهم على فَهْم كلام الله واستقبال هَدْيه ، ولو نظروا إلى السياق لوجدوا أنَّ الآيتين مختلفتان موضوعاً ، فليس فيهما تكرار وكُلٌّ منهما بليغة فى التعبير عن موضوعها .

فقوله تعالى : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] فكأن الفقر موجودٌ عنده ، فهو مشغول أولاً برزق نفسه قبل أنْ يُشغَل برزق أولاده ، لذلك ذُيلَتْ الآية بقوله سبحانه : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] أما فى الأخرى فقال ﴿خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. (٣١)﴾ [الإسراء] يعنى : الفقر غير موجود لكن يخشاه حين يأتيه الولد ، فطمأنه الله أن الولد سيأتى ومعه رزقه ،

---

(١) الإملاق : الفقر . وأملق : افتقر بعد غِنىً كأنه أملق ماله وأذهبه . [القاموس القويم ٢/٢٣٤] .

فقال : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١) ﴾ [الإسراء] إذن : فكلٌّ آية بليغة فى موضعها .

كذلك وقفوا عند قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨) ﴾ [البقرة] وفى الآية الأخرى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣) ﴾ [البقرة]

النظرة المتعجلة لا ترى فرْقاً بين الآيتين ، لكن المتأمل وصاحب الملَكة اللغوية يلحظ الفَرْق ، فالآيتان تتحدثان عن نفسيْن : نفس جازية ، ونفس مجزى عنها . النفس المجزىّ عنها تعترف بذنبها وتقول : خذوا العدل واتركونى ، فنقول لها : لا ، فتذهب إلى مَنْ هو أكبر منها ليشفع لها . إذن : عُرِضَ العدل أولاً ، فلما لم ينفعها عُرِضَتْ الشفاعة .

أما النفس الجازية وهى الشفيع ، أول ما يقف بين يدى الله تعالى يقول : يا رب أنا أشفع فى فلان ، فإذا لم تقبل شفاعتى فيه فخُذ العدل منى ، إذن : فكُلٌّ آية بليغة فى موضعها ، لكن ماذا نفعل مع هؤلاء الذين لا يفهمون عن الله ولا يحسنون التلقى ، ومع ذلك يتهمون كلام الله ؟! يقولون : ربكم قال كذا وكذا ، نعم هو ربنا والحمد لله ، وكنا نحب أنْ يكون ربكم أيضاً .

ومن الآيات التى وقفوا عندها أيضاً قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾ [الصف] يقولون : أين ظهور الإسلام على الدين كله وبعد أربعة عشر قرناً من الزمان ما يزال فى العالم يهود وملاحدة ومسيحيون وغير ذلك من

الديانات . وهذا القول أيضاً يدل على عدم فهمهم لآداء القرآن الكريم ومعانيه .

ومعنى ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الصف] لا تعنى أن يصبح النـاسُ جميعاً مسلمين ، لأن معنى الظهور هنا ظهور حجة يعنى : يعلن حجته القوية ، وبعد ذلك لهم الحرية يؤمن مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، هذا موضوع آخر .

ولو كنتَ تقرأ القرآن ببصيرة لعرفتَ أن ظهور الإسلام على الأديان الأخرى سيكون مع بقاء الشرك والكفر بدليل لفظ الآية ، فمرة قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الصف] ومرة ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف] .

إذن : فهما موجودان مع الإسلام ، ويكفى فى ظهور الإسلام على الأديان الأخرى أنهم يُضطرون للأخْذ بقضاياه وأحكامه وهم غير مسلمين ، وتُلجئهم ظروفهم الحياتية فلا يجدون حلاً لها إلا فى الإسلام ، وهذه هى العظمة فى الظهور .

تعلمون أن الفاتيكان كانت تعارض مسألة الطلاق التى جاء بها الإسلام ، لكن مع مرور الوقت وكثرة المشاكل عندهم اضطروا إلى العمل به كحلٍّ لقضاياهم ، أخذوا حكم الإسلام وهم غير مسلمين .

إذن : صدق الله : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء] هذه الآيات وغيرها تدلنا على سلامة كلام الله وخُلُوِّه من الباطل ومن الاختلاف ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت] لأن الباطل لا يأتى إلا إذا كان المتكلم غير مُحقٍّ ، والذى يتكلم بالقرآن مَنْ ؟ الله .

لذلك قال بعدها ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾ [فصلت] وحكيم وحميد فعيل من صيغ المبالغة من الحكمة والحمد ، الحكمة تقتضى وضع الشىء فى موضعه المناسب ، والحمد يعنى أنه تعالى يُحمد على : كل أفعاله ، وكُلِّ قضائه ، وكل قدره ، فالحمد لله موصول أوله بآخره .

لذلك قلنا فى قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾[الفاتحة] أن من رحمته تعالى بنا أنْ علَّمنا صيغة حمده على نعمائه ، فجاء بها بصيغة المبتدأ والخبر (الحمد لله) لأنه سبحانه لو لم يضع لعباده صيغة الثناء عليه سبحانه لاختلف فيها العباد ، وتفاوت فيها الناس ، ولكان للأديب البليغ ثناءٌ لا يقدر عليه الأُمِّى وراعى الغنم .

لو كان الأمر فى هذه المسألة متروكاً لقدرات الناس لم يكُنْ هناك تكافؤ فرص فى حمد الله ، إذن : من رحمته سبحانه بنا أنْ قال لنا ارفعوا أيديكم عن الصيغة وأنا أضعها لكم ليستوى فى حمدى والثناء علىَّ جميع خَلْقى ، فالكل يقول كلمة واحدة (الحمد لله) فقط ، ولا أريد منكم أكثر من ذلك .

لذلك علّمنا سيدنا رسول الله ﷺ أن نقول فى الثناء على الله : « سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك »[1] فالذى تعلَّم هذه الصيغة (الحمد لله) وهُدى لأن يقولها ينبغى أنْ يَحمد الله عليها ذاتها ، يحمد الله أنْ علّمه كيفَ يحمده ، وهكذا يظل الحمد من العبد لله تعالى موصولاً ، ويظل العبد حامداً لربه حمداً لا نهاية له .

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٥٨/٦ ، ١٢٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : فقدتُ رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك » .

وكلمة ﴿ تَنزِيلٌ (٤٢) ﴾ [فصلت] ساعة تسمعها تشعر أنه مُنزَّل من أعلى ، حتى وإنْ كان المنزَّل من مادة الأرض ، كما فى قوله سبحانه فى سورة الحديد : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ (٢٥) ﴾ [الحديد] فالحديد وإنْ كان فى الأرض لكنه مُنزل من عُلو القدرة الخالقة لخدمة العباد فى الأرض .

ثم يُعزِّى الحق سبحانه رسوله ﷺ ويُخفِّف عنه ما يلاقى من عَنَتِ وعناد المشركين ، فيقول تعالى :

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) ﴾

كأن الحق سبحانه يقول لنبيه محمد ﷺ : يا محمد أنت سيد الرسل ، والرسل أُوذُوا ، فلو كان الإيذاء على قَدْر المنزلة لكان إيذاء قومك لك أضعاف إيذاء الرسل السابقين ، وما يُقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، فلستَ بدعاً فى الرسل .

والذى قيل للرُّسُل من قبلك : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات] وأنت يا محمد واحد منهم ، فأبشر بنصر الله لك ولجندك ولمن تابعك .

ويصح أيضاً أنْ يكون المعنى ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ (٤٣) ﴾ [فصلت] أى : من أعدائك والمعاندين لك ﴿ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ (٤٣) ﴾ [فصلت] أى : من أعدائهم والمعاندين لهم . يعنى : لا تحزن فهذه سنة الله فى أهل الدعوات وحَملَة الرسالات ، وأنت واحد منهم فلا تُتعبْ نفسك ، ولا تُحمِّل نفسك فى سبيل دعوتك ما لا تطيق .

﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر]

ذلك لأن سيدنا رسول الله ﷺ لما ذاق حلاوة الإيمان بالله أحبه الناس جميعاً ، وكانت عنده غيرة على ربه ، يريد أن يسلم الناسُ جميعاً لا يفلت منهم أحد ، ولا يشذ منهم عن الإيمان بالله أحد ، لذلك كان يجهد نفسه وكثيراً ما عاتبه ربه على ذلك عتاب المحبِّ لحبيبه ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

وبيَّن له ﷺ ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ ﴿١٨﴾ ﴾ [العنكبوت]

وكثيراً ما نرى القرآن الكريم يقصُّ على سيدنا رسول الله قصص الأنبياء السابقين تسليةً لرسول الله وتخفيفاً عنه ، فسيدنا نوح - عليه السلام - عمّر فى قومه يدعوهم إلى الله ألفَ سنة إلا خمسين عاماً ، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل .

وحكى القرآن عنه قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِى إِلاَّ فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا[2] ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾ [نوح]

قوله : ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ ﴿٧﴾ ﴾ [نوح] مبالغة فى الإعراض وسدِّ الآذان عن السماع ، فالذى يُوضع فى الأذن الأنملة لا الأصبع ، وأكثر من ذلك ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [نوح] يعنى :

---

(١) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ١/٥٦] . قال الفراء : باخع نفسك أى مُخْرِج نفسك وقاتلها . [لسان العرب - مادة : بخع] .

(٢) استغشوا ثيابهم : تغطوا بها واستتروا كناية عن شدة نفورهم وإعراضهم عن رسولهم . [القاموس القويم ٢/٥٤] .

غطُّوا بها وجوههم ، وبذلك سَدُّوا كل منافذ الإدراك والتلقى كأنهم لا يريدون سماعه ولا حتى رؤيته . إذن : اصبر يا محمد فلستَ جديداً فى الإيذاء ولا فى الإعراض والعناد .

وقوله سبحانه :﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) ﴾ [فصلت] تأمل هذا الكلام الذى نُسمِّيه (كلام سياسى) ويسميه العلماء (ترغيب وترهيب) ، فالحق سبحانه وتعالى يراعى أحوال هؤلاء المعاندين لرسوله ﷺ ، ويخاطبهم بما يناسب كلَّ الاحتمالات ، فمَنْ عاد منهم إلى الحق وإلى الصراط المستقيم فبابُ التوبة مفتوح والله غفور رحيم ، ومَنْ أصرَّ وتمادى فى عناده فالله ذو عقاب أليم .

وتلحظ هنا أن المغفرة سبقت العقاب ، بل إن الحق سبحانه يَعد مَنْ يؤمن ويَحسُنُ إيمانه أنْ يُكفِّر عنه ذنوبه ، وأن يزيده بأنْ يُبدِّل سيئاته حسنات تفضّلاً منه وكرماً ، وكأن الحق سبحانه يُؤنس عباده ويُحنِّنهم إليه ، وهو الغنى عنهم .

وتاريخ الإسلام حافلٌ بهؤلاء الذين صادموا الإسلام ودعوته وعاندوا رسول الله والمؤمنين معه ، وكانوا ألدَّ الأعداء ، ثم صاروا بعد ذلك حملة لوائه ، وقدَّموا نفوسهم رخيصة فى سبيله ولو أغلق الباب فى وجوههم ما دخلوا فى دين الله ، وأنتم تعرفون قصة إسلام عمر وحمزة وعكرمة بن أبى جهل وخالد وعمرو وغيرهم ممَّنْ كانوا صناديد فى الكفر .

حتى أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين أخذوا دين الله على أنه دينٌ لا سلطة زمنية أنصفهم القرآن ، فقال فيهم : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ

إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [آل عمران]

وبعد ذلك يأتى القرآن ويحكم على أُنَاس أنهم لن يؤمنوا ولن يهتدوا ، وهم فى سَعَة الدنيا وفى وقت الاختيار ، مَنْ شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ومع ذلك ظلُّوا على كفرهم ولم يؤمنوا حتى نفاقاً ، ولو رغبةً منهم فى تكذيب القرآن لم يحدث .

ومن هؤلاء أبو لهب عم النبى ﷺ ، وكان يمشى وراء رسول الله ويقول للناس : إنه كذاب ، فحكم الله عليه بأنه سيموت على كفره ، وأن مصيره النار والعياذ بالله ، وفيه نزلتْ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾ [المسد]

وقد سمع أبو لهب هذه السورة ، وكان بوُسْعه أن يقف أمام نادى القوم وتجمُّعهم ، ويقول بأعلى صوته : أشهد ألاَّ إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ولو كذباً ، لكنه لم يفعل لأن الله تعالى حكم عليه أنه لن يقولها أبداً .

فالله تعالى ﴿ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [فصلت] لكل كافر ولكلُ مُكذِّب ولكل معاند ، رجع إلى الجادة وتاب وأناب ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [فصلت] لمن أصرَّ على كفره وتمادى فى عناده ومصادمته لدعوة الحق .

ولا يخفى أن الجمع بين المعنى وضده فى موضع واحد سمةٌ من سمات الأسلوب القرآنى ، لأن الضدَّ يُظهره الضد ، وبضدِّها تتميَّز الأشياء ، وربك يخبرك ويترك لك أنْ تختار لنفسك دواعى المغفرة أو دواعى العقاب .

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ ﴿٤٤﴾ ﴾ [فصلت] أى : القرآن وسُمِّى قرآناً لأنه يُقرأ (أَعْجَمِياً) أى : بلغة الأعاجم وهم غير العرب كالإنجليزية والفرنسية وغيرها من اللغات غير العربية .

﴿ لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴿٤٤﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : جاءتْ بالعربية ؛ ذلك لأن التوراة نزلتْ بالعبرية وهى لغة سيدنا موسى - عليه السلام - وأصله ، فقال بعضهم : لولا كان القرآن باللغة العبرية مثل التوراة ، لكن النبى محمداً عربىٌّ الأصل واللغة فنزل عليه القرآن بلغته ولغة قومه .

فالحق سبحانه يُبيِّن أن القرآن لو نزل أعجمياً لطلبوا وتمنوا أنْ يكون عربياً ، لكن بصرف النظر عن اللغة التى نزل بها هو فى ذاته هُدىً وشفاء ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [فصلت] أى : الذين لا يؤمنون به فى آذانهم صمم ، فهم لا يسمعون السماع النافع المثمر ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴿٤٤﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : ظلمة وشبهات يتخبَّطون فيها .

إذن : فالقرآن واحد لكن النتيجة مختلفة ، لأن استقبال القرآن يختلف باختلاف نية المستقبل ، فالذى يسمعه بأذن واعية وقلب صافٍ غير مشغول بنقيضه يجده هُدىً ، ويجده شفاءً ، والذى يسمعه باستكبار وقلب غير مُهيىءٍ للإيمان يجده عَمىً ، والأعمى يتخبط

لا يدرى أين يتجه .

فهذا يقرأ القرآن أو يسمعه فلا يفهمه ولا يتأثر به ، وهؤلاء قال الله فيهم : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا (١٦) ﴾ [محمد]

وسبق أنْ أوضحنا نظرية الفاعل والقابل ، فالفاعل يقوم بالفعل والقابل يتأثر به ، ففَرْق بين الفلاَّح الذى يضرب الأرض بفأسه وبين مَنْ يضرب بها صخرة مثلاً ، الأرض تنفعل للفأس وتتأثر بها وتثمر وتنتج ، أما الصخرة فلا تقبل ولا تتأثر .

إذن : لا تحكم على الشىء إلا إذا حدث هذا التفاعل بين الفاعل والقابل ، تذكرون أننا ضربنا مثلاً فى هذه المسألة بكوب الشاى الساخن ننفخ فيه ليبرد ، وتنفخ فى يديك لتُدفئها ، فالنفخة واحدة لكن الأثر مختلفٌ لاختلاف القابل .

وقوله تعالى : ﴿ أُولَـٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) ﴾ [فصلت] لأنهم سمعوا فلم يتأثروا به ، شبَّههم الله بمَنْ ينادَى من بعيد فلا يَسْمع .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) ﴾

القرآن هنا يقصّ على رسول الله ﷺ طرفاً من قصة سيدنا موسى - عليه السلام - ، وهذا من ضمن ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ (٤٣) ﴾[فصلت] وموسى من الرسل الذين تحملوا العنت والعناد وأتعبه قومه ، فقصَّته هنا تسلية لرسول الله ﴿ وَلَقَدْ

آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ (٤٥)﴾ [فصلت] أى : التوراة ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ (٤٥)﴾ [فصلت] أى : كانت مجالاً لاختلافهم ، فمنهم مَنْ حرَّفها ، ومنهم مَنْ نسى بعضها ، ومنهم مَنْ كتب الكتاب من عنده . وقال : هذا من عند الله .

﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ (٤٥)﴾ [فصلت] أى : سبقتْ كلمة الله وحكمه بنهاية عذاب الاستئصال الذى يأخذ المكذِّبين جملة ، كما رأينا فى عاد وثمود وقوم نوح وقوم لوط ، أما هذه الأمة فلن يأخذها الله بمثل هذا فى الدنيا ، بل يُؤخِّر لها الجزاء إلى يوم القيامة .

﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (٤٥)﴾ [فصلت] أى : فى الدنيا كما فعل بالأمم السابقة ممَّنْ كذَّب الرسل (وإنهم) أى : قومك يا محمد ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥)﴾ [فصلت] يعنى : تردد يأخذهم إلى القلق والريبة .

والشكُّ نسبة من النِّسب السِّت المعروفة التى تعترى الأحداث : **أولها** : العلم وهى أن يكون عندك قضية واقعة وأنت مقتنع بها وتستطيع أنْ تقدم عليها الدليل .

ثم **التقليد** : وهو أن يكون لديك قضية واقعة يعنى مطابقة للواقع وأنت مقتنع بها ، لكن لا تستطيع أنْ تُقدم الدليل عليها ، مثل الطفل الصغير نُلقِّنه مثلاً أن الله واحد فيؤمن بها لثقته فى والده الذى يلقنه ، لأنه يعلم أن والده يريد له الخير ولا يُعلِّمه إلا الصواب ، لكن الوالد لا يستطيع أن يقيم الدليل على أن الله واحد .

ثم **الجهل** : وهو أن يكون عندك قضية غير مطابقة للواقع وأنت مقتنع بها . لذلك قلنا فى هذه المسألة : إن الجاهل أشقُّ على مُعلِّمه من الأمىِّ ؛ لأن الجاهل عنده قضية باطلة كاذبة وهو مؤمن بها فيحتاج منك مجهوداً مرتين : مرة لتخرجه من جهله ، ومرة لتقنعه

بالصواب . أما الأمى فهو خالى الذهن ليس عنده قضية ما يدافع عنها ، لذلك تراه طيِّعاً يقبل ما يُلْقَى إليه دون أنْ يجادل .

ثم بعد ذلك **الشك** ، وهو أن يكون لديك قضية واقعة لكن يقينك بها مُساو لشكِّك فيها ، فأنت غير متأكد منها ، ثم إنْ كان الثبوت والتأكيد أوضحَ فهو الظن ، وإنْ كان الشكُّ أوضحَ من اليقين فهو الوهم .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : لم يصلوا إلى درجة العلم ، ولا درجة التقليد ، ولا درجة الجهل .

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

الحق سبحانه يقرر هنا حقيقة واقعية ، يريد سبحانه للعباد أن يؤمنوا بها ، حتى يرسخ فى أذهانهم أن كلاً منهم يعمل لصالح نفسه ، وأن إيمان المؤمنين لا يعود على الله تعالى بشىء ، ولا يزيده سبحانه صفة لم تكُنْ له .

كذلك لا تضره معصية العاصين ، ولا جحد الجاحدين ، ولا إنكار المنكرين ، لأنه سبحانه مُسْتوف كلَّ صفات الجلال والجمال والكمال قبل أنْ يخلق هذا الخلْق ، فالله تعالى ليس فى حاجة أبداً إلى طاعة الطائعين ولا إيمان المؤمنين ، بل العباد هم المستفيدون من أعمالهم الصالحة .

وما أمور التكاليف الشرعية إلا حرصاً من الله تعالى على خلْقه ، ورحمةً من الصانع بصَنْعته ، فكُلُّ صانع يريد لصنعته الصلاح ،

ويرْبأ بها عن الفساد وأسباب الهلكة .

وتذكرون الحديث القُدسىّ : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، وشاهدكم وغائبكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى مُلكى شيئاً ، ولو أنَّ أوَّلكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، وشاهدكم وغائبكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من مُلْكى إلا كما ينقص المخْيَط إذا أُدخلَ البحر ذلك أنى جواد ماجد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردتُه أنْ أقول له : كُنْ فيكون »[1] .

إذن : أنتم أحرار ، يؤمن مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، فكلٌّ مُجازَى بعمله ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت] هو المستفيد ، وليس لى من عمله شىء ﴿ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت] أى : على نفسه تحسب إساءته ، هذه قضية يقررها ربك عز وجل ، ولك أن تختار لنفسك ، وأنْ تُوردها المورد الذى يُسعدها لا الذى يُشقيها .

ومن العجيب أن الإنسان بعد أنْ عرف هذه الحقيقة يورد نفسه موارد الهلاك ، لذلك وصفه الحق سبحانه بأنه ظلوم وجهول[2] .

والحق سبحانه حين ينذرنا بالعقوبة ، وحين يشددها ليس من

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه وقال : حديث حسن . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٧٧ ، ١٥٤) وابن ماجه فى سننه (٤٢٥٧) .

(٢) قال تعالى فى سورة الأحزاب ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب] . قال ابن عباس : الأمانة الطاعة . وقال : الأمانة الفرائض . وقال زيد بن أسلم : الأمانة ثلاثة الصلاة والصوم والاغتسال من الجنابة . وقال قتادة : الأمانة الدين والفرائض والحدود . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٢٢) بعد سرد هذه الأقوال : « كل هذه الأقوال لا تنافى بينها بل هى متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهى بشرطها وهو أنه إن قام بذلك أثيب وإن تركها عوقب ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه لنفسه إلا من وفق الله ».

حظه أنْ يُوقع هذه العقوبة بالعباد ، إنما أراد سبحانه أنْ يصرفنا نحن عن أسبابها ويُخوِّفنا منها حتى لا نقع فيها ، الله تعالى مُنزَّه عن الظلم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت]

إنه يُخوِّفك حمايةً لك ، بالله حين يقول لنا : مَنْ قتل يُقتل ، أيريد أنْ يقتل الناس ، أم يريد أنْ يحقن الدماء ويحفظها ؟ ومَنْ يقدم على القتل وهو يعرف أن مَنْ قتل يُقتل ؟

لذلك تجد القرآن فى مسألة القوة العسكرية يقول : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ .. (٦٠)﴾ [الأنفال]

العجيب أن أعداء الإسلام يأخذون من هذه الآية دليلاً على أن الإسلام يؤيد الإرهاب لأنه ذكر كلمة (تُرْهِبُونَ) وهذا فَهْم خاطئ لأسلوب القرآن ، لأن معنى إعداد القوة التى ترهب أننى لا أريد المعركة ولا أريد المواجهة ، فحين يعرف عدوى أنِّى مستعد يخاف ولا يُقدِم على القتال .

نسمعهم فى المسائل العسكرية يقولون : توازن القوى ، هذا التوازن هو الذى يحفظ السلام فى المجتمع الدولى كله ، وأيام كان فى العالم قوتان متكافئتان هى روسيا وأمريكا كان هناك استقرارٌ عسكرىٌّ ، فكلٌّ منهما تخشى الأخرى حتى كانوا يقولون على الحروب بينهما (الحرب الباردة) لكن لما تفككتْ قوة روسيا أصبح لأمريكا الغَلَبة ، فهى القوة الوحيدة الآن ، ونراها تعمل ما تريد دون رادع من قوة أخرى .

إذن : نقول : الحق سبحانه وتعالى حين يأمرنا بإعداد القوة

العسكرية لا يعنى أنه سبحانه يدفعنا إلى ساحة القتال ، إنما يعنى حفظ السلام بيننا وبين غيرنا ، ومعلوم أنك لا تُقدم أبداً على مهاجمة مَنْ هو أقوى منك ، فالآية تريد السلام ، لا تريد الإرهاب كما يدَّعُون .

وقوله سبحانه : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت] كلمة (ظَلاَّم) على وزن فعَّال ، وهى صيغة مبالغة من ظالم مثل : قاتل وقتَّال ، والآية حينما تنفى صيغة المبالغة لا يقتضى ذلك نَفْيَ الأصل وهو ظالم ، فالوصف الأقلّ موجود ، لأنك لو قلت فى الإثبات فلان علاَّم دلَّ ذلك على أنه عالم من باب أوْلَى ، لكن فى النفى لو قلت : فلان ليس بعلاَّم ، فلا يمنع أنْ يكون عالماً .

إذن : فهل يعنى نَفْى المبالغة ظلاَّم إثبات ظالم - تعالى الله عن الظلم - قالوا : لا ، لأن لفظ الآية ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت] ولم يقل للعبد ، فصيغة المبالغة جاءت من تكرار الفعل . يعنى : ظلم عبداً واحداً يعنى ظالم ، فإنْ ظلم الكل فلا بدَّ أن عنده قوة كبيرة تُحوله إلى ظلاَّم .

فنَفْى ظلاَّم بهذا المعنى نَفْىٌ لظالم أيضاً ، ثم مَنْ يريد أن يظلم يظلم على قدر قوته ، فعلى فَرْض أن الحق سبحانه وتعالى يظلم فهو ظلاَّم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت]

الحق سبحانه وتعالى حين ينفى صفة الظلم عن نفسه تعالى بعد قوله ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت] كأنه يقول سبحانه : أنا حكَم عَدْلٌ بينكم وبين أنفسكم ، أجزى كل نفس بما عملت وبما سعَتْ دون ظلم ، فأنا أحكم لكم وعليكم ، فأنتم لستُمْ خصوماً لى .